

سيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس

٦٥٨ - ٦٧٦ هـ

١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

ميخائيل نجم خوري

Submitted in partial fulfillment of the requirements
of the Degree of Master of Arts,
in the History Department of the,
American University of Beirut,

Beirut,

LEBANON.

1961.

سيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس

٦٥٨ - ٦٧٦ هـ

١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

مخايل نجم خوري

ملاحظة: تتضمن الأطروحة في آخرها اي بعد الصفحة ٢٥٣

"تاريخ ابن الفرات

وهو تاريخ الدول والملوك"

المجلد السادس - الجزء الأول

لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات

صفحاتها ١ - ٢٠٦

سيرة الظاهر بيبرس

مخائيل خوري

في منتصف القرن الميلادي الثالث عشر / الهجري السابع استطاع المماليك ان يقضوا على السلطنة الايوبية وهستولوا على الحكم باسم المحافظة على السلطنة السابقة . ثم حدث في العراق حدث آخر هو سقوط بغداد بيد التتار وانتهاء الخلافة العباسية فيها . واذا اضفنا الى ذلك ان الصليبيين كانوا مسئولين على شاطئ بلاد الشام ، ولا يزالون يهددون بالتوسع ادركنا مدى الاضطراب الذي كان يسيطر على المنطقة في هذه الفترة . وفي هذه الفترة بالذات برز بين المماليك رجل هو الظاهر بيبرس استطاع خلال بضعة عشر عاما ان يدرك حقيقة الموقف ويستغله لصالحه ، بما له من حنكة ودراية ومقدرة ، واستطاع ، فوق ذلك ، خلال بضعة عشر عاما من سلطنته ان يقف بوجه الزحف المغولي الى بلاد الشام ومصر ، وان يكمل الضربات العنيفة القاضية للدويلات الصليبية ، وان يوطد ، بالتالي ، سلطنة المماليك .

تناولت هذا الرجل من النواحي المختلفة الشخصية والادارية ، والسياسية والعسكرية . ووجدته لا يبدع للناحية الشخصية وزنا الا بمقدار ما تخدم فيه النواحي الاخرى . وهو في هذه النواحي رجل / من الدرجة الاولى ^{دولة} . وقد تناولت هذه النواحي بصورة مفصلة بقدر ما استطعت ان اجد في المصادر من معلومات دقيقة حول هذه النواحي . ثم خلصت الى القول ان هذا الرجل كان سائرا في مخطط عام فرضته الظروف حين جعلته مدافعا عن الاسلام ضد عدوين تترى وصليبي لانشاء سلالة من ذريته تحكم هذه المنطقة ، لكن هذه المحاولة فشلت وبقي من المخطط عداة مستمر ادى في النهاية الى انفلاق وانحزال .

والرسالة في شخصية فصول . تناولت في الفصل الاول منها المصادر التي اعتمدتها مبينا منها ما كان اكثرها فائدة في هذه الدراسة . وقد اعتمدت طريقة التسلسل التاريخي في سردها .

ثم جعلت الفصل الثاني تمهيدا بينت فيه الحالة العامة في السنوات الاخيرة من عهد السلطنة الايوبية والسنوات الاولى من عهد المماليك - والاحداث الاخرى الخطيرة في هذه الفترة . وبعد ذلك انتقلت الى الحديث عن بيبرس . فحاولت جهد المستطاع ان ارسم له صورة في حياته قبل السلطنة منذ ان شرد عن اهل له حتى نال السلطنة اثر اغتيال قطز . ولا ريب انه كانت لهذه السنوات اهمية كبيرة في تكوين شخصية بيبرس . وانتقلت بعد ذلك الى العهد الثاني من حياة هذا الرجل - وهو عهد السلطنة . كان عليه في البداية ان يقمع ثورات قامت عليه فور تسلم السلطنة ، ويخلص من المناوئين .

وفي الفصل الخامس تناولت التنظيمات الداخلية التي اجراها بيبرس فظهرت اهدافه السلاية واجراءاته الادارية لتوطيد السلطنة . والواقع ان هذا الفصل متم للفصل السابق .

وفي الفصل السادس تناولت علاقاته الخارجية مع التتر والصليبيين والسلاجقة والروم والارمن والاحباش والدويلات الاوروبية . وقد تبين لي هنا ان السلطان الظاهر قائد عسكري كبير ورجل دبلوماسي قدير استطاع ان يقود سفينته خلال هذا البحر الهائج الى شاطئ السلامة . ثم تحدثت عن منشأته في الفصل السابع واتيت على بعض نواحي المجتمع المملوكي في الفصل الثامن . وبعد هذا كان لا بد من تقييم لهذا الرجل فجعلت الفصل التاسع موضوع هذا التقييم . وقد حشدت فيه اراء المؤرخين القدماء والحديثين ، قبل ان حاولت ابداء رأيي الخاص به .

جدول بالمصادر والمراجع العربية والاجنبية

الفصل الاول - الاصول والمراجع ٢٢ - ١

الفصل الثاني - تمهيد في الحالة السياسية للطفة قبل سلطنة الملك الظاهر ٤٦ - ٢٣

- ٢٣ ٠١ عوامل متصارعة في بلاد الشام ومصر
- ٢٥ ٠٢ صراع بين الابويين
- ٢٧ ٠٣ فرقة المماليك البحرية
- ٣١ ٠٤ المعظم تورانشاه
- ٣٣ ٠٥ شجر الدر
- ٣٥ ٠٦ عز الدين ايبك التركماني
- ٣٩ ٠٧ المنصور نور الدين علي
- ٤١ ٠٨ سيف الدين قطز

الفصل الثالث - بيبرس قبل السلطنة ٦٦ - ٤٧

- ٤٧ ٠١ البداية
- ٤٩ ٠٢ في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب
- ٥٢ ٠٣ في عهد عز الدين ايبك
- ٥٣ ٠٤ في بلاد الشام - الفارس الضال
- ٥٧ ٠٥ عودته الى مصر
- ٥٨ ٠٦ في معركة عين جالوت
- ٦٠ ٠٧ اغتيال قطز

الفصل الرابع - بيبرس يوطد سلطانه ٩٩ - ٦٧

- ٦٧ ٠١ الادارة الجديدة
- ٧٠ ٠٢ ثورات ومحاولات انفصالية
- ٧١ سنجر الحلبي
- ٧٤ شمع الدين البرلي
- ٧٧ المغيث صاحب الكرك
- ٨٢ سيف الدين الرشيدى

٨٤	٠٣ احياء الخلافة
٩٥	٠٤ معاملته للامراء
٩٧	٠٥ رجال الدين
٩٩ — ١٤٤	الفصل الخامس — بيمبرس في سياسته الداخلية وتنظيماته الادارية
٩٩	٠١ القضايا الداخلية
٩٩	الاعراب
١٠٢	الاسماعيلية
١٠٥	النوبة
١٠٨	سياسته الدينية
١١٢	٠٢ الجهاز الادارى
١١٢	السلالية
١١٦	القوات المسلحة
١١٧	اقسام الجيش
١١٧	عدده
١١٨	نققاته
١١٩	قيادته
١٢٠	معاملة الجند
١٢٠	لباس الجند
١٢٠	الاستعراضات العسكرية
١٢٢	التدريب العسكرى
١٢٣	القوات البحرية
١٢٤	٠٣ الادارة
١٢٦	مقابلتها مع الادارة الايوبية
١٢٦	موظفو الظاهر
١٢٩	لقب السلطان
١٣٠	الدار السلطانية
١٣٠	الموظفون
١٣٥	البريد
١٣٥	التجسس

١٣٧	الاقسام الادارية
١٣٧	خصائص الحكومة المملوكية
١٣٩	٠٤ القضاء
١٤٥ - ١٧١	الفصل السادس - بيمرس في علاقاته الخارجية - قسم اول
١٤٦	٠١ التتر - المرحلة الاولى
١٥١	المرحلة الثانية
١٥٢	المرحلة الثالثة
١٦١	٠٢ القباشاق
١٦٥	٠٣ الكرج
١٦٥	٠٤ السلاجقة
١٦٦	٠٥ ارمينيا
١٧٠	٠٦ الاشكرى
١٧٢ - ٢٠٧	الفصل السادس - بيمرس في علاقاته الخارجية - قسم ثان
١٧٢	٠٧ الصليبيون
١٧٥	المرحلة الاولى
١٨٠	المرحلة الثانية
١٨٨	المرحلة الثالثة
٢٠٢	قبرص
٢٠٤	٠٨ الدول الاوروبية
٢٠٥	اسباب نجاح الظاهر على التتر والفرنجة
٢٠٦	٠٩ اليمن
٢٠٧	٠١٠ الحبشة
٢٠٨ - ٢٢١	الفصل السابع - شخصية الظاهر ومنشاته
٢٠٨	حياته الخاصة
٢١١	هيبته
٢١١	صفاته
٢١٣	منشاته

٢٢٢ - ٢٢٣	الفصل الثامن - حول المجتمع المملوكي في عهد الظاهر
٢٢٢	ميزانه
٢٢٥	الحالة الاقتصادية العامة
٢٢٩	المجاعات
٢٣٠	معاملة النصارى
٢٣٢	العلم والادب
٢٣٤ - ٢٥٣	الفصل التاسع - وفاة الظاهر ومكانته - خاتمة
٢٣٤	وفاته
٢٣٩	اراء المؤرخين فيه
٢٤٧	مكانته وخاتمة

جدول بالمصادر والمراجع

- ٠١ يا قوت الرومي ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م
- ٠٢ ابو شامة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م
- ٠٣ ابن الساعي ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م
- ٠٤ ابن العبري ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م
- ٠٥ ابن عبد الظاهر ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م
- ٠٦ ابن الفوطي ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م
- ٠٧ اليونيني ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م
- ٠٨ ابو الفداء ٧٣٣هـ / ١٣٣١م
- معجم البلدان . خمسة اجزاء
بيروت . دار صادر ، ١٩٥٥ - ١٩٥٧
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف
بالذيل على الروضتين . صححه محمد زاهد بن
الحسن الكوثري وعني بنشره عزت المطار الحسيني
سلسلة " كتب نادرة " مصر ١٩٤٧م / ١٣٦٦هـ .
- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير .
الجزء التاسع . نشره الدكتور مصطفى جواد .
المطبعة الريانية الكاثوليكية . بغداد ١٩٣٤م /
١٣٥٣هـ .
- تاريخ مختصر الدول . وقف على طبعه الاب انطون
الصالحاني . المطبعة الكاثوليكية بيروت . ١٨٩٠م /
١٣٠٨هـ .
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر . قسم رابع .
نشر وتحقيق سيدة فاطمة صادق في مؤلفها .
Baybars I of Egypt. O.U.P. 1956.
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة
السابعة نشره الدكتور مصطفى جواد . المكتبة
العربية بغداد ١٣٥١هـ .
- الذيل على مرآة الزمان . جزآن . حيدرآباد
الهند . مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٩٥٤ -
١٩٥٥ .
- المختصر في اخبار البشر . ٤ أجزاء .
القسطنطينية ١٢٨٦هـ .

٠٩ الذهبي ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م

٠١٠ —

٠١١ ابن أبي الفضائل ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م

٠١٢ ابن أبيك الصفدي ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م

٠١٣ —

٠١٤ ابن شاکر الکتبی ٧٦٤هـ / ١٣٦٣

٠١٥ البانعی ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م

٠١٦ ابن کثیر ٧٧٤هـ / ١٣٧٢

٠١٧ ابن الفرات ٨٠٨هـ / ١٤٠٥

٠١٨ القلقشندي ٨٢١هـ / ١٤١٨

تاریخ الاسلام و طبقات المشاهیر والاعلام

خمسہ اجزاء • القاہرہ • مکتبۃ القدسی ١٣٦٧ھ

دول الاسلام • جزآن • حیدرآباد الرکن • مطبعۃ

المعارف النظامیة ١٣٣٧ھ

النہج السدید والدر الفہد فیما بعد تاریخ

ابن العمید نشرہ E.Bloche ہارمس ١٩١٩-٩٢٩

الوافی بالوفیات • نشرہ • ریتروس • ویدرنخ •

النشرات الاسلامیة لجمعية المستشرقین الالمانیة •

١٩٣١ - ١٩٥٢

امراء دمشق فی الاسلام • تحقیق صلاح الدین المنہ

مطبوعات المجمع العلمي العربی بدمشق ١٩٥٥ •

فوات الوفیات • جزآن • حققہ وضبطہ وعلق

حواشیہ محی الدین عبد الحمید • مکتبۃ النهضة

المصریة • القاہرہ ١٩٥١ •

مرآة الجنان وعبرة الیقظان • مطبعۃ دائرة المعارف

النظامیة • حیدرآباد الکن ١٣٣٩ھ

البدایة والنہایة فی التاریخ ١٤ • جزا • مطبعۃ

السعادة • القاہرہ ١٣٤٨ - ١٣٥٨ھ

تاریخ ابن الفرات • الجزء السادس مخطوطة والجزء

السابع حققہ وضبطہ الدكتور • زریق

سلسلة العلوم الشرقیة ، الحلقة ١٧ ، منشورات

كلية العلوم والآداب ، المطبعۃ الامیرلانیة ، بیروت

١٩٤٢ •

صبح الاعشی فی صناعة الانشاء ١٤ جزا •

دار الکتب المصریة ، القاہرہ ١٩١٣ - ١٩١٩ •

- ١٩ المقرئى ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م . السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الاول - ثلاثة اقسام والجزء الثاني - قسمان ، تحقيق محمد مصطفى زيادة • لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ .
- ٢٠ — الذهب المبيوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشر جمال الدين الشبال • مكتبه الخانجي • القاهرة ١٩٥٥ .
- ٢١ — اغاثة الامه بكشف الغمة • نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشبال • لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٠ .
- ٢٢ — الخطط المقرئية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار • اربعة اجزاء - القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ وفي ٣ اجزاء ، مكتبة احباء العلوم ، الشباح ، لبنان ، ١٩٥٩ .
- ٢٣ ابن حجر العسقلاني ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م . الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ٤ اجزاء مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية • حيدرآباد الكن ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ
- ٢٤ ابن تغرى برلى ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م . النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ١١ جزءا دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٠ .
- ٢٥ — مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة تحقيق ج • د • كارليل • كمبردج ١٧٩٢ .
- ٢٦ السخاوى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م . الضوء الاعم لاهل القرن التاسع • ستة اجزاء مكتبة القدس • القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ
- ٢٧ السيوطي ٩١١هـ / ١٥٠٥م . حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة • جزآن القاهرة • ١٣٢١ هـ
- ٢٨ — تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد المكتبة التجارية الكبرى • القاهرة ١٩٥٩ .

٠٩ . الذهبي ٥٧٤٨/١٣٤٨ م .

٠١٠ —

٠١١ . ابن أبي الفضائل ٥٧٥٩/١٣٥٨ م

٠١٢ . ابن أبيك الصفدي ٥٧٦٤/١٣٦٢ م

٠١٣ —

٠١٤ . ابن شاكرا الكندي ٥٧٦٤/١٣٦٣

٠١٥ . اليافعي ٥٧٦٨/١٣٦٧ م .

٠١٦ . ابن كثير ٥٧٧٤/١٣٧٢ .

٠١٧ . ابن الفرات ٥٨٠٨/١٤٠٥

٠١٨ . القلقشندي ٥٨٢١/١٤١٨ .

تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام .

خمس اجزاء . القاهرة . مكتبة القدسي ١٣٦٧ هـ .

دول الاسلام . جزآن . حيدرآباد الركن . مطبعة

المعارف النظامية ١٣٢٧ هـ .

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ

ابن العميد نشره E. Bloche باريس ١٩١٩-١٩٢٩

الوافي بالوفيات . نشره . ريتروس . ويدرنغ .

النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية .

١٩٣١ - ١٩٥٢ .

امراء دمشق في الاسلام . تحقيق صلاح الدين المن

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٥ .

فوات الوفيات . جزآن . حققه وضبطه وعلق

حواشيه محي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة

المصرية . القاهرة ١٩٥١ .

مرآة الجنان وعبرة المقظان . مطبعة دائرة المعارف

النظامية . حيدرآباد الكن ١٣٢٩ هـ .

الهداية والنهاية في التاريخ ١٤ . جزا . مطبعة

السعادة . القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ .

تاريخ ابن الفرات . الجزء السادس مخطوطة والجزء

السابع حققه وضبطه نصه الدكتور زرين

سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة ١٧ ، منشورات

كلية العلوم والآداب ، المطبعة الاميرانية ، بيروت

١٩٤٢ .

صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزا .

دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ .

- ١٩ المقرئى ٨٤٥هـ/١٤٤٢م السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الاول - ثلاثة اقسام والجزء الثاني - قسمان ، تحقيق محمد مصطفى زيادة • لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٤-١٩٤٢ •
- ٢٠ — الذهب المبيوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشر جمال الدين الشيال • مكتبه الخانجي • القاهرة ١٩٥٥ •
- ٢١ — اغانة الامه بكشف الغمة • نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال • لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٠ •
- ٢٢ — الخطط المقرئية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار • اربعة اجزاء - القاهرة ١٢٢٤ - ١٢٢٦ هـ وفي ٣ اجزاء • مكتبة احباء العلوم ، الشياح ، لبنان ، ١٩٥٩ • الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ٤ اجزاء مطبعة مجلد دائرة المعارف العثمانية • ريدراآباد الكن ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ
- ٢٣ ابن حجر العسقلاني ٨٥٣هـ/١٤٤٩م
- ٢٤ ابن تغرى برهوى ٨٧٤هـ/١٤٦٩م
- ٢٥ — مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة تحقيق ج • د • كارليل • كمبردج ١٧٩٢ •
- ٢٦ السخاوى ٩٠٢هـ/١٤٩٦
- ٢٧ السيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م
- ٢٨ — تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد المكتبة التجارية الكبرى • القاهرة ١٩٥٩ •

- ٢٩ ابن اياس ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م •
بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣ اجزاء بولاق
القاهرة ١٣١١ - ١٣١٢ هـ
- ٣٠ الاسحاقي ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م •
اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول •
المطبعة الميمنيه • القاهرة ١٣٠٤ هـ •
شذرات الذهب في اخبار من ذهب •
مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥٠ هـ •
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع •
جزآن، القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ •
اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ٧ اجزاء •
حلب - سنة ١٩٢٣ •
- ٣١ ابن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م •
٣٢ الشوكاني ١٢٥٠ هـ / ١٨٢٤ م •
٣٣ الطباخ - محمد راغب •
٣٤ كرد علي، محمد •
٣٥ حسن زكي محمد •
٣٦ - (ناشر) •
٣٧ سرور - محمد جمال الدين •
٣٨ - •
٣٩ حسن، علي ابراهيم •
٤٠ حمزه، عبد اللطيف •
٤١ - •
- خطط الشام، ٦ اجزاء، دمشق، ١٩٢٥ - ١٩٢٨ •
فنون الاسلام، القاهرة، ١٩٤٨ •
في مصر الاسلامية، مطبعة المقتطف، مصر ١٩٢٧ •
الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره • مطبعة دار
الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨ •
دولة الظاهر بيبرس في مصر • دار الفكر العربي
القاهرة ١٩٦٠ •
دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر
محمد بوجه خاص • مكتبة النهضة المصرية القاهرة
١٩٤٨ •
ادب الحروب الصليبية • لجنة الجامعيين للنشر دار
الفكر العربي • مطبعة الاعتماد مصر ١٩٤٩ •
الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي
الاول • لجنة الجامعيين للنشر • دار الفكر العربي
القاهرة، لا تاريخ •

٤٢ زيادة، محمد مصطفى

المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر • لجنة
التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٩ •

٤٣ سليم، محمود رزق •

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي
في النشر الفني • خمسة أجزاء - مكتبة الآداب
القاهرة ١٩٤٧ - ١٩٥٥ •

٤٤ يوسف، جوزف نسيم،

لويس التاسع في الشر الأوسط، القاهرة ١٩٥٦

٤٥ عاشور، سعيد عبد الفتاح

مصر في عصر دولة المماليك البحرية • سلسلة الألف
كتاب بإشراف إدارة الثقافة بمؤازرة التربية والتعليم
بمصر، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٩ •

١ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق *

مجلد ١ سنة ١٩٢١ ص ٣٦	محمد كرد علي : العادلة والظاهرية
— — — — —	الظاهرية : —
— — — — —	جباية الشام في الاسلام : —
— ٥ سنة ١٩٢٦ ص ١٤٤	ذيل الروضتين : —
مجلد ٢٢ سنة ١٩٤٧ ص ٣٧١	عباس عزاوي : سبط بن الجوزي — القطب اليوناني
مجلد ١٩ سنة ١٩٤٤ ص ٤٢٤	سليمان ظاهر : قلعة شقيف ارنون
مجلد ٢٣ سنة ١٩٤٨ ص ٥٧٤	محمد احمد دهان : المدرسة الظاهرية
مجلد ٢٣ سنة ١٩٤٨ ص ٦١٨	مصطفى جواد : نظرات في ذيل الروضتين لابي شامة
مجلد ٢٤ سنة ١٩٤٩ ص ١٥٣	

٢ - مجلة الرسالة *

قسم اول سنة ٤ عدد ١٣٩ اذار	محمد فريد ابو حديد : موكب سلاطين مصر *
	١٩٣٦ ص ٣٢٥
قسم ٢ سنة ٣ عدد ١٠٥ تموز	ظافر الدجاني : دولة المماليك في حكم التاريخ
	١٩٣٥ ص ١٠٩٤ *
قسم ١ سنة ٨ عدد ٣٤٨ آذار	عبد الوهاب عزام : موقعة عين جالوت
	١٩٤٠ ص ٣٦٩ *

٣ - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة *

محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصري في عصر الايوبيين والمماليك مجلد ١٥ جز ١	مايو ١٩٥٣ ص ٥٧ *
محمد كامل حسين : بين التشيع وادب الصوفية في عهد الايوبيين والمماليك * مجلد ١٦	جز ٢ سنة ١٩٤٥ ص ٤٥ *

- على ابراهيم حسن : اراء في تاريخ دولة المماليك البحرية مجلد ٧ سنة ١٩٤٤ ص ٦٩ .
محمد مصطفى زياده : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة
المماليك .
مجلد ٤ جزء اول سنة ١٩٣٦ ص ٧
٨٨ .

٤ - المجلة التاريخية المصرية .

- محمد عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البندقدارى مجلد ٣ عدد ١ مايو ١٩٥٠
ص ٩١ - ١٠٢ .

٥ - مجلة الابحاث .

- كمال الصليبي :
النظام القضائي في مصر والشام
عهد المماليك
عدد كانون الاول سنة ١٩٥٨ .

1. D'Ohsson, Barson : Histoire des Mongols depuis Techingviz Khan.
The Hague - Amsterdam, 1834-35.
2. Heyd W. : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Leipzig, 1885-86
3. Lane-Poole, S : The art of the Saracens in Egypt.
London. Chapman. 1886.
4. " " " : The Story of Cairo. J.M. Dent & Co. - London, 1902.
5. Muir, Sir W. : The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt. Smith, Elder & Co. London. 1896.
6. Stevenson, W.B. : The Crusaders in the East;
Cam. Uni. Press, 1907.
7. Arnold, Sir T. : The preaching of Islam
N.Y. Scribners, 1913.
8. Demombynes G. : La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs Arabes.
Bibliothèque archéologique et historique, Paris, 1923.
9. Grousset, R. : Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem.
3 vols. Paris, Plon 1934-36.
10. " " : L'Empire Mongol (1ere phase)
Paris, Boeckard, 1941.
11. Wiet, G. : L'Egypte Arabe. Histoire de la Nation Egyptienne. Tome IV. Paris Gabriel Hanotaux.
12. Poliak, A.N. : Ferdalism in Egypt. Syria. Palestine and the Lebanon. Royal Asiatic Society. London, 1939.
13. Cahen, C. : La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté d'Antioche.
Institut Français de Damas, Bibliothèque Orientale, Tome I. Paris, Geuthner, 1940.
14. Hitti, P.K. : History of Syria. including Lebanon and Palestine. London Macmillan, 1951.
15. " " : History of the Arabs. London Macmillan. 1956.
16. " " : Lebanon in History. London Macmillan, 1957.

17. Ayalon, D. : L'esclavage du Mamelouk
 Jerusalem Imp. Mercaze 1951
 The Israel Oriental Society-
 Oriental Notes and Studies no.I.

18. " " : Gunpowder and fire arms in the
 in the Mamluk Kingdom. A challenge
 to a Medieval Society. London
 Vallentine 1956.

19. Mayer, L.A. : Mamluke Costume, a Survey
 Geneve 1952.

20. Ziadeh. N. : Urban life in Syria under the
 early Mamluks. Beirut 1953.
 Publications of the Faculty of Arts
 and Sciences, A.U.B., No.24.

21. Runciman, S. : A History of the Crusades. 3.vols.
 Cam. Uni. Press. 1955.

22. Sadeque S.F. : Baybars I of Egypt. O.U.P.
 Pakistan, 1956.

ESSAYS:

1. Ayalon, D. "Al Bahriyya" E.I. Vol.I, new ed. p.944-945.
2. - "Le Regiment Bahriyya Dans l'Armée Mamelouk".
Revue des études islamiques, 1949, p.133-141.
3. Clermont Ganneu, M. "Le Pont de Lydda construit par Sultan Beibars".
Journal Asiatique, huitième serie, Tome X. Nov. & Dec. 1887, p.509-527
tome XII p.305-310.
4. Kramers, J.H. "Mamluks" E.I. Vol.3. p.216-221.
5. Michel, B. "L'organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamelouks d'après Qalqachandi".
Bulletin de l'Institut d'Egypte tome 7, 1924-1925 p. 127.
6. Perlmann, M. "Notes on Anti-Christian propaganda in the Mamluk Empire".
(BSOAS see No.7 below) pp.843.
7. Poliak A.N. "The Influence of Chingiz Khan's Yasa upon the general organization of the Mamluk State".
Bulletin of the School of Oriental and African Studies (BSOAS) University of London. Vol. 10, 1940-42 pp.862.
8. - "Les Revoltes en Egypte à l'époque des Mamelouks et leurs causes économiques".
Revue des études islamiques Vol.8. 1934, p.251-273.
9. Sobernheim, M. "Baibars I" E.I. new ed. pp.588.
10. "Seljuks". E.I. Vol.IV p.211-212.
11. Wiet, G. "Baibars I". E.I. Vol.I. new ed. p.1124-1126.
12. - "L'Historien Abul-Mahasin".
Bulletin de l'Institut d'Egypte tome XII session 1929-30 pp.89.
13. Watson, CM.Ltd.Col. "The stoppage of the River Jordan in AD 1267". Palestine exploration Fund July 1895, p.253-261.

الاصول والمراجع (١)

يبدو لي ان سيرة الملك الظاهر بيبرس المفصلة التي تتناول حياته قبل السلطنة وبعدها بصورة دقيقة وتعطينا تقييما متزنا له لم تظهر بعد . ولم اجد بين الكتابات العربية التاريخية الحديثة المنشورة غير كتابين صغيرين من هذا السلطان ، قدم احدهما رسالة ماجستير في جامعة القاهرة ، والثاني دراسة منهجية على الرسالة السابقة . وكلاهما لجمال الدين سرور . وهو حريص فيهما على اظهار "فترة بيبرس" و"مسيرته" ، متأثر بذلك بناحية البطولة الفردية التي تبرزها سيرة الرجل الشعبية . وهناك "دراسات في مصر المماليك عامة ، وفي مصر الناصر محمد خاصة" لعلي حسن ابراهيم ، تطرق فيها الى الظاهر بيبرس . اضاف الى هذا مقالات عربية نشرت خلال ربع القرن الاخير . ويغلب الطابع الصحفي على الكثير منها . او هي مقالات تناولت مصر المماليك بصورة عامة ، او تناولت ناحية خاصة منه ، وتطرت مع ذلك الى السلطان الظاهر من قريب او بعيد .

ولمحمود سليم رزق "مصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي في النشر الفني" في خمسة اجزاء او جز فيها الحياة السياسية لعصرى المماليك . واهمى المؤلف انه مجموعة فنية باسماء المؤلفات التاريخية والعلمية والادبية في هذا العهد . لكن الكتاب غير مفهرس فهرسة علمية دقيقة ، ثم ان المؤلف افل ذكر المصادر بصورة عامة . وحين ذكرها افل ذكر اسم المؤلف والصفحة مما لا يسهل المراجعة عند الحاجة .

(١) اتناول هنا ما استطعت الاطلاع عليه مما هو مطبوع باللغات العربية والانكليزية والفرنسية بصورة مباشرة او غير مباشرة ، ومخطوطة ابن الفرات . القسم السادس مجزئيه .

وللمستشرقين جهود في ميدان التاريخ لعصر المماليك ، نوه بها الدكتور نفولا
زيادة (١) لكن كتاباتهم عن الظاهر بيبرس قليلة . ومعظمها يتناول هذا السلطان فسي
مؤلف عام ، او يتناول ناحية منه . ولم يكن لدينا مؤلف بلغة اجنبية عن سيرة الظاهر
بيبرس ، مختصرة ، ولكن واضحة ، حتى نشرت فاطمة صادي جزءا من مخطوطه ابن عسدد
الظاهر قدمت له بدراسة من حياة هذا الرجل العسكرية ، مبنية على المخطوطة .
والاتجاه العام في السيرة التي كتبها فاطمة صادي تمجيد للظاهر ونجريح لكل
من انتدبه . ولن اتناول هذا هنا وانما تناولته حين ذكرت المصادر الاولى وموففها من
بعضها (٢) .

والسؤال الآن هو عما سبب مثل هذا الاهمال . وقد سجله الدكتور نفولا زيادة
واستغربه ثم تسأل ما اذا كان يمكن ان يعزى ذلك الى نفور من التصاق صفة المماليك
بهذا العهد ام الى اعتقاد بان هذه الفترة كانت فترة تاخر وانحطاط (٣) . واذا صح
ان هذا الاهمال يعود الى ان هذه الفترة ليست فترة ابداع وخلق ، فان الحقيقة هي
اننا لم ننتبه الى اهمية هذه الفترة من جهة والى ان مصادر دراسة المماليك ومنهم الملوك
الظاهر ، لم تنشر بعد كلها . ولعل المنشور منها اقل مما لم ينشر (٤) .

-
- (١) " ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الاخيرة من دراسة التاريخ " . في عصر
المماليك " هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية من مجلة الابحاث ج ٢ ج ٣ .
حزيران وايلول سنة ١٩٥٩ ، ص ١٢٢ .
- (٢) ص ١١ - ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ادناه .
- (٣) المصدر السابق ص ١٢٢ .
- (٤) ويخيل لي ان الاحداث التاريخية الحالية التي تمس بلادنا العربية هي التي تنبهنا
الى هذا او ذاك من رجال التاريخ الماضي ، او الى هذه او تلك من الفترات الماضية .
فنكبة فلسطين مثلاً اعادت الى الذهن ايام صلاح الدين الايوبي ، وهي ايضا اوحيت
لجوزيف نسيب يوسف دراسة " لويس التاسع في الشرق الاوسط " وكانت دراسة جمال
الدين سرور من الظاهر الذي طرد الصليبيين وصد المغول ، فكانه بطل وطنسي
اسلامي يصارع الاستعمار .

والاصول من الظاهر بيبرس مربية بالدرجة الاولى ، ولكن هذا لا يعني ان مصادر اخرى بلغات اخرى لم تتناوله . الواقع ان المصادر الفارسية والاروبية المعاصرة له قد تناولته ايضا . ولكنني اهتمت المصادر الفارسية لجهلي بهذه اللغة . واهملت الاصول الاروبية لان المؤلفات الحديثة عن الصليبيين افادت منها . واعتبرت عودتي الى هذه المراجع الاخيرة مغنية عن العودة الى الاصول - لاسيما وهي مكتوبة بلغات اولهجات اوروبية اجهلها ، ولاعتقادي بان المصادر العربية ، هي اوفاهها عنه (١) .

لنعد الآن الى المصادر العربية الاولى ، وهي تشمل ما كتب عن الظاهر بيبرس خلال قرنين ونصف قرن من الزمن :

ابوشامه : ٥٩٩ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ - ١٢٦٢ م . يهنا هنا من مؤلفاته " تراجم رجال القرنين السادس والسابع " وهو يعرف " بالذيل على الروهتين " وفيه سرد موجز لحياة الظاهر بيبرس في السنوات الاولى . وهو شاهد عيان للاحداث التي يصفها ولكنه لايفصلها ، بخلاف ما فعل في " كتاب الروهتين في تاريخ الدولتين الزنكية والصلاحية " .

وهو في مؤلفه هذا يعطينا صورة مامة لمست مشقة ، عن الحياة العامة في دمشق في ايامه . وقد نظم في ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

مجبيا من مدرسين قضاة	يتبارون في الملايم (٢) بطرا
والذي كاتب التثار ومن مار	اليهم قصدا فأنسى واطرا

(١) وهذا هو رأي F. Sadeque ص (١)
(٢) هي في الاصل " اللبامر " ولكن الوزن لا يستقيم معها .

كلما قلت دولة الحاكم النجاشي - برزالت قلمت علينا اخرى

ثم يدعوا الى الانصراف الى الفلاحة لانها من "احل كسب وانرى (١)

ابن شداد : ٦١٣ - ٦٨٤ هـ / ١٢١٦ - ١٢٨٥ م . ويهملنا من مؤلفاته في

هذه الدراسة / ^{سيرة}الظاهر بيبرس وقد اسماها "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (٢) . .
وقد ضاع اكثرها الا القسم المتعلق بالسنوات الخمس الاخيرة من حياة هذا السلطان .
وهذا لم ينشر بعد (٣) . ولو قدر لهذه المخطوطة ان تشر لنا كاتب هي والقسم المنشور
من السيرة التي وضعها ابن عبد الظاهر سيرة السلطان لا تعوزها الا السنوات المتوسطة
من حكمه .

ولهذه السيرة اهمية خاصة ان المؤلف عاصر الاحداث واشترك في بعضها .
وقد هرب من الغزو التتري الى القاهرة حيث حظي بعطف الظاهر وتشجيعه (٤) . فكان
اه من مكانته مايساعده على الاطلاع على خفايا الامور .

واذا كانت هذه السيرة ام تصلنا كاملة ، ولم يطبع بعد ماوصلنا منها ، فقد
اطلعت على موجز لها في ابن تغرى بردى . وكذلك لخصها ابن شاذي الكتبي
في "قوات السوفيات" وذلك باقترافيه (٥) .

-
- (١) تراجم ، ص ٢٢٦ - ٢٢٦ .
(٢) ابن ابي الفضائل ، ص ٢٢٦ و (C. Cahen) ص ٧٥ ونلاحظ منا ان لابن
عبد الظاهر مؤلفا بدات الاسم .
(٣) (F. Sadeque) ص ٢ وملحق مقابل ص ٦٤
(٤) (F. Sadeque) ص ٢
(٥) ج ١ ص ١٥٩ .

ابن عبد الظاهر : ٦٢٠ - ٦٩٢ هـ / ١٢٢٣ - ١٢٩٢ م . هو صاحب "الروض
الزاهر في سيرة الملك الظاهر" وهي جزء من مدونات سجلها المؤلف بصفته كاتب
انشاء منذ عهد بيبرس حتى عهد الاشرف خليل ، كانه كان يتوقع من كاتب الانشاء
ان يحتفظ بيومييات (١) .

ضاع القسم الاكبر من هذه السيرة ولم يبق منها الا ما يتعلق بالسنوات
الخمسة الاولى من سيرة السلطان (٢) . وقد نشرت فاطمة صاقي هذا القسم
الباقى باسم "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" . لكن اليوناني يذكر هذا
الكتاب باسم اخر هو "الفضل الباهر من اخبار الملك الظاهر" او "في الفضل الباهر
من سيرة السلطان الملك الظاهر (٣)" . ويذكر ابن الفرات انه صاحب "كتاب نظم
السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" لكنه يعود في امكنه اخرى فيشير الى ان الكتاب
من تأليف حميد ابن عبد الظاهر (٤) .

قلنا ان ابن عبد الظاهر كان كاتب الانشاء ولذلك شهد الاحداث التي
دونها واشترك فيها اشتراكا فعليا . والقسم المنشور من السيرة مليء بالاشارات الى
مثل هذه المشاهد العيانية والمشاركة الفعلية (٥) .

ولهذه السيرة اهمية كبيرة . فقد اعتمدها كل من كتب عن الظاهر فيما
بعد . لخصها شافع بن علي ، ونقل عنها ابن الفرات باسمه . وفي "الذيل على مرآة الزمان"

-
- (١) (C.Cahen) ص ٢٤
 - (٢) راجع ص ٤ .
 - (٣) اليوناني ج ١ ص ٥٤٠ و ٥٥٦ .
 - (٤) ابن الفرات ج ٦ قسم اول ورقة ٦٥
 - (٥) منها تهئية شجرة نسب الخليفة (ص ٦١) تدبيج رسالة السلطان لبركة خان
(ص ٨٢ - ٨٣) كتاب تلبيد السعيد ولاية العهد (ص ١٠٦) .

للميوني ، وفي " السلوك لمعرفة دول الملوك " للمقريزي ، وفي " النجوم الزاهرة " لابن تغري بردي ، اشارات كثيرة الى ان هؤلاء المؤرخين نقلوا عنه . يبدو انهم اعتمدوا سيرة ابن عبد الظاهر اكثر مما اعتمدوا السيرة التي كتبها ابن شداد . ولا فرو في ذلك فان منصب ابن عبد الظاهر يجعله اقرب من غيره الى معرفة دقائق سيرة الظاهر .

وانذا كان لمثل هذا قيمة ايجابية . فان له ايضا قيمة سلبية . فقد عمد ابن عبد الظاهر الى المبالغة في وصف السلطان ورسم صورته مشرقة عنه ونسبه جميع الصفات الحميدة اليه واعتباره منفذا للاسلام (١) .

ثم ان ابن عبد الظاهر لجأ الى الاسلوب الادبي المصنع المزخرف فاضر هذا الاسلوب بسيرة الرجل لاسيما قبل ان تسلم السلطنة . فهو يجعل عز الدين الافهم الذي انشق عن بيبرس بعد معركة نابلس مع الناصر صلاح الدين ، ودخل مصر ، داعية للناصر فيها ويجعل بيبرس يعود مع الناصر الى دمشق غير مبهر ذلك ، بخلاف ما تقولوه جميع المصادر الاخرى (٢) .

وابن عبد الظاهر فيما يبدو ، يعتمد الى ابراز عيوب الاخرين ليميز بعد ذلك محاسن بيبرس . يقابله بالناصر صلاح الدين يوسف . ويصف الناصر بالضعيف اللاهي بينما الظاهر يحرق الام على ما يجري بين سلاطين مصر وايوبي بلاد الشام (٣) .

ابن واصل : ٦٠٤ - ٦٩٢ هـ / ١٢٠٢ - ١٢٩٨ م . له " كتاب مفرج الكروب في اخبار بني ايوب " تناول فيه فترة المماليك الاولى . وقد نشر من الكتاب جزآن انتهيا بنهاية حياة صلاح الدين الايوبي ، لكني افدت من الاجزاء التي لم تنشر بعد بواسطة ما نقله كتاب استطاعوا الوصول الى مكان المخطوطة . كالتعليقات التي وضعها مصطفى زيادة ناشر " السلوك لمعرفة دول الملوك " وغيرها .

(١) ابن عبد الظاهر ص ١ ، ٢ ، ٤ ، ٢٠ ، ٢٣

(٢) المصدر نفسه ص ٨

(٣) المصدر نفسه ص ١٤

وابن واصل ، كابن شداد وابن عبد الظاهر ، كان اثيرا لدى السلطان . وقد

اختاره المصفاة له عند مانفريد (Manfred) ملك صقلية .

وطبيعي ان يميل هؤلاء المؤرخون الثلاثة ، ابن شداد ، وابن عبد الظاهر ،

وابن واصل ، الى تفخيم الظاهر وتعظيمه . فقد عايشوه وخدموا في بلاطه ونالوا من

احسانه . ثم انهم راوا فيه البطل الذي تغلب على التتر واطاع الصليبيين بصورة نهائية .

وقد شاركهم ابو شامة هذا الموقف بالنسبة لانتصاراته على الصليبيين والمغول ، بيد ان موقف

الظاهر من دمشق كان يحول دون تفخيم ابي شامة له . ولعل قصر المدة التي عاشها

ابو شامة في عهد الظاهر يبرر لم تتح له ان يرى اهميته كغيره . ولعل ميله الى ذم

السلطات والاستياء من الحالة العامة حالا دون نيله حظوة عند السلطان .

وهنا لا بد من التماثل : لعادالم يكتب ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨٠ -

هـ / ١٢١١ - ١٢٨٢ م) شيئا عن السلطان الظاهر وله كتاب " وفيات الاعيان وانباء

ابناء الزمان " مع انه توفي بعده ببضع سنوات .

واخيرا يجب ان نشير الى ابن العبري (٦٢٣ - ٦٨٥ هـ / ١٢٢٦ -

١٢٨٦ م) وله " تاريخ مختصر الدول " وقد اكتفى فيه باشارة خاطفة الى

المعالم العامة .

وهناك مؤرخو النصف الاول من القرن الهجري الثامن / الميلادي الرابع

عشر وهم ابن الفوطي ، وبيرس الدوادار ، ونطب الدين اليونيني ، وشافعي بن علي بن

عباس والنويري ، وابو الفدا ، والذهبي والمفضل بن ابي الفضائل .

ابن الفوطي : ٦٤٢ - ٧٢٢ هـ / ١٢٤٤ - ١٣٢٣ م ، مؤرخ عراقي ، كان خازن كتب المستنصرية في بغداد . وكان واسع الاطلاع ، منصفاً في احكامه ، معتدلاً في عواطفه لكنه لم ينس له ، لبعده عن مسرح الحوادث . ان يتثبت من كل ما يرويه (١) . وله كتاب "الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة" وفيه موجز لحياة الظاهر بيبرس .

بيبرس الدوادار (٢) : ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م . له "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" وهو لم ينشر بعد وقد اسهم في معارك عدة قام بها الظاهر ضد الفرنجة والروم (٣) كان حاكم الكرك في عهد قلاوون ثم صار نائب السلطنة في عهد الناصر ابنه ثم سجن ما بين ٧١١ - ٧١٧ هـ . وكتب تاريخه هذا حتى سنة ٧٢٤ هـ .

قطب الدين اليونيني : ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م . له "الدليل على مراة الزمان" نشر منه جزآن حتى الان . كتبه اليونيني كما يدل العنوان "ديلا على "مراة الزمان" لسهـط ابن الجوزي ٥٨٢ - ٦٥٦ هـ / ١١٨٦ - ١٢٥٨ م . ولهذا المؤلف قيمة كبيرة ان اليونيني يعطينا فيه معلومات لا توجد في غيره من المؤلفات (٤) . ثم ان له ميزة اخرى هي انه يسرد لنا الكثير من الشخصيات والقواد في الزمن الذي يورخ له . وهو دقيق في ذكر اخباره وامانيده لكنه كثيراً ما يختلف عن المصادر الاخرى ، بالتواريخ وقد اشترت الى بعض هذا في موضعه .

وقد اخذ اليونيني معلوماته عن ابن عبد الظاهر وابن شامه وابن واصل مما يجعله موثقاً به من ناحية ويجعله ذا قيمة نسبية لنا حتى تطبع هذه الاصول .

- (١) مصطفى جواد ، المقدمة ص ٢
- (٢) هو بيبرس المنصورى عند (C.Cahen) ص ٧٨ وهناك مؤرخ باسم ابي بكر بن عبد الله بن ابيك ابن الدوادار ، وله كتاب في تسع مجلدات تناول المماليك الاولى في الجزء الثامن وخص الناصر محمد بالجزء التاسع (C.Cahen) ص ٧٩ ولعلهما مؤرخ واحد .
- (٣) The Polioth. 3 "Bibliographie de l'histoire de l'Islam" E I new ed (١١٢٧ م) ٥٩٠ م
- (٤) C.Cahen ص ٧٩ - ٨٠ F. Sadeque ص ٦

ثم ان المؤرخين اللاحقين اخذوا منه او نقلوا رايه في بعض القضايا كقضية وفاة الظاهر مثلاً . وقد نسخ ابن تغرى بردى عنه الشيء الكثير . وكذلك فعل ابن ابي الفضائل ويشير هذا الاخير الى مصدره على انه "المؤرخ" من غير ان يسميه . وقد قال (E. Blochet) انه يقصد النويرى بذلك ولكنني اعتقد ان ما ينسخه ابن ابي الفضائل من اليونيني يوحى لنا باعتباره "المؤرخ" الذي يشير اليه ابن ابي الفضائل .

ولهذا المؤلف صفة بارزة جدا وهي فيه ابرز ما هي في اى مصدر آخر من هذه الفترة وهي صفة التكرار فكثيرا ما يتحدث من الحادث او الشخص في مكانين من الجزء الواحد او في الجزئين معا (١) .

شافع بن علي بن عباس : ٦٤٩ - ٧٣٠ هـ / ١٢٥١ - ١٣٣٠ م .
هو سبط ابن عبد الظاهر . اختصر السير التي كتبها جده للظاهر ولقلاوون وللخليل . وهو صاحب " المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " وصاحب تاريخ الناصر محمد بن تلاوون ، وصاحب " كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والطوك " وصاحب مجموعة من شعراء مصره (٢) لكن شيئا من هذا لم ينشر بعد .

ابو الفداء : ٦٧٢ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١ م . صاحب مختصر تاريخ البشر " في اربعة اجزاء " وقد تناول سيرة الملك الظاهر في الجزئين الثالث والرابع مختصرة عن ابن واصل وابن عبد الظاهر . ومن هنا كانت اهمية هذا المصدر وقد افدت منه كثيرا في الحديث من صراع الايوبيين فيما بينهم . ثم جاء ابن السوردي

(١) ج ١ ص ٤٥ و ٥٤ - ٦٥ من عز الدين ابيك و ٤٥ و ٦١ من شجر الدر .

(٢) (G. Cahen) ص ٧٨

(٦٨٩ - ٧٤٩ هـ / ١٢٩٠ - ١٣٤٩ م) فكتب له تنمة لكنه ليس

في هذه التنمة شيء خاص او جديد بالنسبة للسلطان الظاهر .

النويري : ٦٧٨ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٩ - ١٣٣٢ م . كان ناظر

الجيش في طرابلس ثم ناظر الديوان في الدميلية والمراحية في عهد الناصر
محمد بن قلاوون . كتب " نهاية الارب في فنون العرب " في ٣٢ مجلدا تناول
فيها الادب والتاريخ معا . ولم ينشر حتى الان الا الاجزاء التي
تناول الادب .

وقد سجل النويري في قسم التاريخ سيرة الظاهر بيبرس مفصلة منقولة
من ابي شامة وابن عبد الظاهر وابن شداد واليونيبي . وقيمة سيرته ، عندما
تنشره ، انها تحفظ لنا مقتطفات كبيرة من مصادر اخرى كثيرة ضائعة (١) .

الذهبي : ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م . له " تاريخ

الاسلام " مطولا . ثم اختصره في كتاب اخر هو المنشور الذي اطلعت عليه
وقد نقل الذهبي معلوماته من ابن عبد الظاهر وابن شداد وابي شامة واليونيبي . وفي
اختصاره توضيح للوقائع لكنه ليس فيه لذة التفصيل .

المفضل بن ابي الفضائل : ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م . نبطي . له " كتاب

النهج السديد والدر الغريد " دليل به كتاب ابن العميد . طبيعي ان يكون ابن ابي
الفضائل اهتمد المصادر السابقة وقد اشار اليها . لكن الغريب ان المؤرخين

اللاحقين لا يشيرون اليه البته . وقد يعود ذلك الى انه كان مختلفا عنهم دينا او الى انه واياهم رجع الى ذات المصادر الاساسية . وكتابه هذا مصدر هام يعطينا رأى الاقباط بالسلطان الظاهر من جهة ويفصل لنا احيانا ، على اختصاره ، اشياء لا تفصلها المصادر الاخرى (١) .

ابن كثير : ٧٠١ - ٧٧٤ / ١٣٠١ - ١٣٧٣ م . وله " البداية والنهاية في التاريخ " في اربعة عشر جزءا . وقد خص الظاهر بعصر كبير من الجزء الثالث عشر ، تناول فيه سيرة هذا السلطان ، مرتبه بحسب السنين . والسيرة مختصرة ، لكنها تعطينا صورة وافيه مشرفة من السلطان .

ولهؤلاء المؤرخين باستثناء هذا الاخير ، نظرة للسلطان الظاهر تختلف من نظرة المؤرخين الاربعة الاول . وترى (F. Sadeque) انهم اتخذوا موقفا عدائيا من السلطان واعدوا الى ابراز اسوأ ما فيه واختلقوا حوادث لا اثر لها من الصحة ، او اتوا بتعليلات لا تثبتها الوقائع (٢) . ولتايد هذه التهمة سرد المتهم عددا من الامثلة ، واولها حكاية استيلاء السلطان حين كان يحاصر الشقيف سنة ١٢٦٨ م على رسائل يحملها مسلمون من فكا الى نواب الشقيف تشجيعا لهم على الثبات امام هجمات الظاهر واعلاما لهم بشخص يمكن ان يتناولوا منه الاموال اذا احتاجوا ، ونصيحة بالافراج عن شخص اخر معتقل في الشقيف . لكن الظاهر اضاف الى هذه الرسالة نصيحة اخرى هو دأها الاستسلام عند استحالة الصمود مقابل الامان لانفسهم ولنصائهم ولا بنائهم .

ثم يقول ابن شداد ان الظاهر ، بعد هذا ، شدد الحصار حتى ان القسوات المدافعة اضطرت ، عند استلام الرسالة ، الى المفاوضة والتسليم مقابل الامان .

(١) (E.Bloch) ص ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣

(٢) (F.Sadeque) ص ٨ .

وهناك رواية ابن ابي الفضائل . فهي تتفق مع رواية ابن شداد حتى الاستسلام على الرسالة ، وعلى محتوياتها - لكنها تختلف من رواية المصدر السابق في انها تجعل الظاهر ياتي بمن يجيد معرفة الاشارات السرية بين الفرنجة ويكتب لقوات الشقيف رسالتين احدهما للنائب يحذره فيها من الوزير المقيم ومن جماعة اخرى معه ، وثانيهما للوزير يحذره فيها من القائد . ثم تعود الروايتان الى الاتفاق ، حتى كانت المفاوضات والامان والاستسلام (١) .

وقد ذكر النويري والذهبي الروايتين ولم يقطعا بصحة احدهما (٢) . ورواها ابن الفرات (٣) على ان حامل الرسالة قصد السلطان وسلمه الرسالة فقرأت بعد التحمل وارسلها الظاهر لمقدمي الفرنجة في القلعة بامانات لقاء الاستسلام ، وكتب ايضا رسائل معكوسة من الرسائل الحقيقية مما اثار الحذر بين الوزير والقائد . وليس يصح الجزم الان . والفرق بين الروايتين واضح . وتتهم فاطمة صادق ابن ابي الفضائل بمحاولة تصويد صفحة الظاهر . لكن ابن الفرات يجعل هذا العمل " من سعادة الظاهر وحسن رايه " (٤) .

ثم هناك قصة وفاة الظاهر بالتسم . يتفق ابن عبد الظاهر وابن شداد على القول بان الظاهر اكثر شرب القمز . فمرض واما المعالجون معالجته وقضى نحبه (٥) . ولست احسب ان اليوناني وبيرس الدوادار اللذين اثبتا حكاية التسم بقصدان تشويه سمعة الظاهر ، والا قرب للمعقول ان رواية التسم نشأت من معالجة الظاهر بالجواهر ظنا ان به تسمما .

(١) - ابن ابي الفضائل ، ص ١٦٤ - ١٦٥ (٢) (F.Sadeque) ص ١١ .
(٣) - ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٦ - ١٧ (٤) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٧
(٥) - (F.Sadeque) ص ١١ ، وقد عالجت هذه الحكاية في مكان اخر .
(٦) - (F.Sadeque) ص ١٢ - ١٣

وهناك قصة ارسال الظاهر فائدا اشبهه في الشكل لحلف الممين لاهل صفد ليتستسلموا . وتقول فاطمة صادق ان القصة محض اختلاق . ثم قصة اغتيال قطز . الفرق بين ما يقوله ابن عبد الظاهر والذهبي هو ان هذا الاخير روى ان الظاهر تقدم من قطز يرجوه منحه فتاة ثم اخذ بيده لتقبيلها حتى كانت الطعنة في ظهره السلطان . وراى فاطمة صادق ان الذهبي اضاف هذه القصة ليظهر طبع الظاهر الغدار .

ان اسباب هذا التغير يمكن ان تكون ثلاثة : - حسد الناظر من الظاهر وتأثيره على المؤرخين من جهة . واعتبار حياة الظاهر تهديدا لحياة الناصر من جهة ثانية ، وبعد الشقة بين المؤرخين وبين الظاهر بحيث صار يمكن النظر اليه بحسرة وتجرد من جهة ثالثة . وترى فاطمة صادق ان السبب الحقيقي للتغير هو الاول وحسب وتشكر ان يكون بعد الزمن هو الذي فعل فعله اد ان الناصر لم يكن جنديا فديرا فشمع بالحسد من الظاهر بيبصر وقد كادت سيرته تصبح اسطورة في حياته . وتستند في ذلك الى رواية عن امتياض الناصر من قناطر السباع التي بناها الظاهر (١) .

ولكنني ارى هذا التعليل خاطئا . اد هل يجوز ان نتهم هذه المجموعة من المؤرخين بانهم اجمعوا على التآمر على الظاهر بيبصر بعد وفاته بنحو نصف قرن ؟ وهل يجوز ان نتهمهم جميعا بالانصياع الى توجيهات من الناصر محمد لتشويه سمعة الظاهر ؟ اليسر يجوز لنا ، بناء على هذا ، ان نتهم المؤرخين السابقين بالتحييز للظاهر وبإخفاء كل عيب من عيوبه ، تحت تأثير توجيه من توجيهاته ؟ لمست اريد ان انكر ان السلطات قد توجه " احيانا وقد تجد من يصفي اليها ولكنني لمست اريد ان اجعل من هؤلاء المؤرخين صنائع .

ان تغير موقف المؤرخين من الظاهر واقع لا ريب فيه . ولكن ينبغي ان نجد لهذا التغير تعليقات اخرى .

اول ما ينبغي ان نتنبه اليه هنا هو ان الصورة التي رسمها ابن عبد الظاهر وابن شداد للظاهر لا يمكن ان تكون حقيقة . ان الانسان الذي يصفه ابن عبد الظاهر اسطوري اكثر منه حقيقيا . وانا اخذنا حكايته عن اغتيال قطز جاز لنا ان ننسأ ل ما اذا كان لم يختصرها ليحذف ما لا يليق تسجيله في مدونات ديوان الانشاء .

واما ابن ابي الفضائل فلا بد انه تآثر في موقفه بموقف الظاهر من النصارى عامة . ولعله توسعنا ان نجد لكل مؤرخ لم يمدح الظاهر كابن عبد الظاهر ، سببا خاصا او تعليلا لموقفه . ولكنني احسب ان هنالك سببا عاما يفسر موقف المؤرخين جميعا . ان المؤرخين الاول عايشوا الظاهر وخدموه وراؤوه بانفسهم يحارب المغول ويصد هم ويحارب الصليبيين ويحتل بعض مراكزهم . لقد كان هذا الخطر المزدوج جاثما على صدور جميع الناصر . كانت اهمية الظاهر في مآثيم العسكرية . اما الدين كتبوا عنه بعد نصف قرن فلم ينظروا اليه من هذه الناحية فقط . لقد وجدوا ان عليهم ان ينظروا اليه من نواحي مختلفة . من هنا نشأ هذا التباين في الموقفين . لست اريد ان انكر امكانية التوجيه والتاثير من السلطان الناصر على المؤرخين ولكنني لا ارى ان نجعل من هذا العامل الوحيد والا هم لهذا التغير في نظرتهم للسلطان الظاهر .

استاء الناصر من قناطر السباع ، وشعر بالحسد من سيرة الظاهر التي كادت تصبح اسطورة ، واحس بالالام لما لاقاه في بداية عهده بالسلطنة . ولكن هذا لا يفسر اجماعا من عدد كبير من المؤرخين على اظهار مآثيم العسكرية والعمرائية وتبيان سيئات كانت فيه . ان الذي فعله هؤلاء المؤرخون هو انهم انزلوه من مستوى الاسطورة الى مستوى الانسان العادي .

وفي النصف الثاني من القرن الهجري الثامن / النصف الثاني من القرن الميلادي الرابع عشر عدد من المؤرخين تناولوا سيرة الظاهر بيبرس .

ابن شاكر الكتبي : ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م . صاحب " فوات الوفيات " وقد وضعه ذيلًا على " وفيات الاعيان " . وفيه موجز لحياة الظاهر منقول من ابن شداد (١) ولهذا أهمية .

عفيف الدين الياقعي : ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م . له " مرآة الجنان وعبرة اليقظان " في أربعة أجزاء . وهو مختصر جدًا . (٢) .

ابن الفرات : ٧٢٤ - ٨٠٨ هـ / ١٣٢٤ - ١٤٠٥ م . له " تاريخ الدول والملوك " انتهى فيه حتى سنة ١٢٩٦ م / ٨٠٠ هـ في تسعة أجزاء . خص منها الجزء السادس وبعض الجزء السابع بسيرة الظاهر بيبرس . وهو ينقل من ابن عبد الظاهر ومن " كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك " لعفيد ابن عبد الظاهر ، ومن ابن شداد واليونييني ومن بعض أهل التاريخ . وقد نقل من المصدرين الأولين مقاطع طويلة حتى أننا لو خدعناها لبقي القليل مما لم ينسخ بلغته الأصلية . والملاحظ أنه لم ينقل عنه أحد من جاء بعده .

يبدو أن ابن الفرات أراد أن يعطينا صورة كاملة واضحة مفصلة عن حياة الظاهر بيبرس ، لذلك نقل بغزارة عن المصادر السابقة . ذكرا أسماء مصادره معطيا الروايات المختلفة من كل حادث حوله جدل . وقليلا ما يقطع بحكم ، تاركا ذلك للقارى . وموقفه من الظاهر معتدل بوجه عام . فهو يمدحه ويعتبره بطلا ، ولكن هذا لا يمنع من رؤية عيوبه ، أو من تسجيل المآخذ التي أخذها عليه الآخرون . لذلك كان موقفه الوحيد الذي يجمع بين آراء المؤرخين بالظاهر .

(١) ابن شاكر الكتبي ج ١ ص ١٥٩ - ٢ - وهنالك ابن حبيب الدمشقي (٧١٠-٧٧٢ هـ / ١٣١٠ / ١٣٧٧ م) . وله "درة الاسلاك في دولة الاتراك" .

وفائده في هذه الدراسة كبيرة لانه يورد مقطوعات طويلة من مخطوطات ليست في متناول يدى ، او انها ضائعة . وهو بهذا مفيد لانه يحفظ لنا كثيرا مما هو ضائع من سيرتي ابن عبد الظاهر وابن شداد ، وهو بذلك يسد الثغرة العائنة بضائع القسم الاخير من سيرة ابن عبد الظاهر ، والقسم الاول من سيرة ابن شداد . ومقابلة ما نقله من ابن عبد الظاهر بالقسم المنشور من هذه السيرة يثبت لنا انه كان دقيقا في نقله ، بحيث يصح عليه الاعتماد لمعرفة نص السيرة الاصلي .

ويتميز ابن الفرات بصفتين هامتين هما التفصيل والاستطراد . والتفصيل واضح من انه خصص ١٠٨ ورقات لكتابة تاريخ خمس سنوات من حياة الظاهر . اما الاستطراد فامثلته كثيرة . فعندما اراد الحديث عن الظاهر في العدم (١) مثلا عاد الى سرد تاريخ هذه المدينة منذ العدم . وعندما اراد الحديث عن القضاء (٢) في عهد الظاهر عاد الى ذكر اسماء الغضا منذ ان افتتح العرب مصر (٣) .

الفقهى الغشنى ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م . له " صبح

الامشى في صناعة الانشاء " في ١٤ مجلدا . وفيه معلومات تاريخية هامة ، لكن فائده الكبرى هي في تفصيل النواحي الادارية .

- (١) ابن الفرات ج ٦ قسم اول ورقة ٢٠ - ٢٤ .
- (٢) ابن الفرات ج ٦ قسم اول ورقة ٧٨ - ٩٠ .
- (٣) وهناك ايضا ابن دقماق (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) وله " نزهة الانام في تاريخ الاسلام " (فهرم المخطوطات العربية ج ٢ قسم ٣ ، التاريخ ص ٣١٥) و " الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين " المصدر نفسه ص ١٢٢ ويقال ان مصادر ابن دقماق افضل من مصادر المقرئى وان كان هذا لم يرجع اليه . . . Pdersen, J. Art. "Ibn Dukmak", E.-I. Vol. II, P. 374) وقد نقل عنه ابن الفرات وأشار اليه في امكنه مختلفة . وابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨ هـ / ١٣٢٢-١٤٠٦ م) صاحب " كتاب العبوديان المبتداء والخبر . . . " لكنني لم اجد فيه شيئا خاصا او هاما بالنسبة للمظاهر .

بني اماثان من المصادر الاولى عدد كبير وضعه مؤرخون في القرن الهجرى التاسع /
الميلادى الخامس عشر . وهم المقرئى ، الظاهرى ، ابن تغرى بردى ، السيوطى ، ابن
اياص (١) .

المقرئى : ٧٧٦ - ٨٤٥ هـ / ١٣٧٤ - ١٤٤٢ م . مؤلفاته كثيرة يهمنها منها
هنا " السلوك لمعرفة دول الملوك " و " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " المعروف
بالخطط المقرئية ، و " كتاب عاثة الامة بكشف الغمة " و " التبر المسبوك فيمن حج من
الملوك " .

ليعرفني الكتاب الاخير عن الظاهر مالم يذكره المقرئى في الكتب الاخرى . واما
" كتاب عاثة الامة " . . . ففائدته في انه يصور لنا الجرا الاقتصادي الاجتماعي في عهد
المماليك عامة . ويذكر لنا المجاعات التي حدثت في عهدهم - ومنها المجاعات في عهد
السلطان الظاهر . وهذا الكتاب فريد في نوعه . او هو الاول في هذا الباب .
و " الخطط المقرئية " وصف جغرافى للمقاهرة وبعض مدن مصر ، واشارات تاريخية
لتطورات طرأت على هذه الامكنة . ولذلك كان الكتاب مصدرا تاريخيا الى جانب
كونه مصدرا طبوغرافيا . وقد اتهم انه نقل هذا الكتاب عن مؤلف سابق للاحدى
واضاف عليه اضافات فبر دات جدوى (٢) . ولم يدفع المقرئى هذه التهمة ، بل اكتفى

(١) ويمكننا ان نزيد اليهم عددا من المؤرخين كالعيني صاحب كتاب " فدا الجمان في تاريخ
اهل الزمان " وابن شاهين صاحب " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك " و" بها "
الدين الخالدى صاحب " المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الانشاء " ، ونور الدين
الصيرفى صاحب " نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان " وابن خليل صاحب " نزهة
الاساطين فيمن ولي مصر من السلاطين " ، وحسن الطولونى صاحب " النزهة السنه في
ذكر الخلفاء والملوك المصرية " ، (محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن
الخامس عشر الميلادى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤) .

ولكنني لم استطع الافادة من هذه المصادر .
(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

لكنه لابد من القول ان ثبوتها لا ينفي صدق ما يقوله المقرئ ولا يجرح في صحة احكامه ،
وعو العائل بان الاصل هو معرفة ما يقال ، لا معرفة من قال .

بني "كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" وهو ما ينبغي ان توجه اليه اهتمامنا هنا .
اعتمد فيه المقرئ ابن عبد الظاهر وابن شداد واليربوعي والديمي ، وذكر ذلك في موضع
ولحظ الفرق في نظرتهم الى الملك الظاهر ببيبرس . ولا بد له امام هذا الواقع ، وهو
تمديد ابن خلدون ، من ان يترث ويحدر في النسل ، ولا بد له من ان يكون له وجهة نظر
خاصة بالسلطان .

لم يدح المقرئ السلطان الظاهر كما فعل ابن عبد الظاهر ، وانما انتدبه في
نواحي معينة . هي قضية التشريع وقضية القضاء وقضية تأييد الخليفة في زعفه على بعداد
وقضية الضرائب .

كان المقرئ ينكر على الحكام حق التشريع بصورة عامة . وكان يأخذ على الظاهر
ببيبرس انه ادخل شرائع معوية خروفا من المحول او ارشأه لصد يده وحليعه بركة - ان (١) ،
وتزيد نعمة المقرئ على الظاهر بسبب ادخال نظام العناية الاربعة مما اضعف نفوذ
الشافعية (٢) ويدل على نعمة المقرئ على الظاهر في هذا السبيل قول السلطان لمن رآه
بعد موته في حلم بقوله "ماريت شيئا اشد علي من ولاية نصافة اربعة ، وقيل لـ
فرفت الكلمة" (٣) .

(١) (F. Sadeque) ص ١٩

(٢) وقد كان العلماء الشافعية والحنفية على عدا مستحكم يؤيد كل فريق منهم اميرا شافعي
بالسلطنة . وقد امر القاضي شافعي بجلد المؤرخ ابن دماق على زعم كونه سديسا
للسلطان . (F. Sadeque) ص ١٩ .

(٣) المقرئ ، السلوك ص ٦٤ .

تم يعيد المقرزى عدم مساعدة الظاهر للخليفة في زحفه على بغداد انسى
 همسة في ادن السلطان بان الخليفة قد يعزبه ادا موى . كان الظاهر قد حصص
 مبلغا يكفي لتجهيز عشرة الاف جندي لغزو التتر في بغداد . ثم لم يحدث شي من
 هذا . اين ذهبت هذه الاموال ؟ وما هو السبب في عدم انفاقها ، ادا لم يكن
 ما ذكره المقرزى هو السبب ؟ وينبغي الا نخلط هذا بعدم تأييد ابني صاحب
 الموصل للخليفة . تقول المصادر انه لم يكن معهما مرسوم من الظاهر ، ولم
 تنتبه الى ان التتر هاجموا الموصل آنذاك ، فكان لابد لابني صاحبها ان يسادرا
 الى مدينة ابيهما للدفاع فيها (١) .

وهناك قضية الضرائب وكيفية جبايتها . كانت الضرائب باهظة (٢) . وهذا
 ما لا ينفيه ابن شداد بقوله انه عاد فالغاها . ووسعنا التأكد من ذلك من ابن الفرات
 (٣) حين ينقل شعر بمدح الظاهر منه :

ملك اذا ذكروا اسمه	فالعرب يقدف في القلوب
وتكاد تخرج من مخافتها	اليه من الجيوب

وارقام وجهاء دمشق وقضاتها على تجهيز جيش لمقاومة المعول سنة ٦٧٢ هـ ، دليل
 اخر على ثقل الضرائب التي كان يفرضها الظاهر . ويقول ابن شداد ان الظاهر
 الغاها عندما احتج احد المحدثين ولكن ابن الفرات يقول انه وعد الشيخ النورى
 بالغائها لكنه امر على جمعها بعد انتصاره (٤) . ويقول اليونيني ان الظاهر كان

(١) وهذا مثل على ما قاله E. Blochet من ان المؤرخين العرب لم يدركوا اثر
 ما كان يجرى في فارس وما وراء النهر على بلاد الشام ومصر . (النهج السيد
 ص ٣٢٠) .
 (٢) المقرزى السلوك ص ٦٤٠ . - ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٥
 (٤) ابن الفرات ج ٧ ص ٨٥ -

وهنا لابد من ان نسال فاطمة صادق ما اذا كان الحنري يعتبر بعد هذا مقتضى
على الظاهر . نست احسب ذلك . كان الحنري ينظر الى العالم من وجهة انتقاد وتحقير
ولا بأس في ان تدفعه الى ذلك مبادئه العقلية او محبته للحقيقة . ولكن هذا لم يمسح
الحنري من ان يقول عنه انه " اول من قام بدراسة الترك من يوم وفاة الحنري " (١) ومن انه كان
" بالجملة . . . من خير ملوك الاسلام " (٢) . وعندى ان الحنري احسن منعا بانتقاده الحنريين
اللاحقين لابن عبد الظاهر وابن ابي ريدان ، كما اعتمد عليهما ، بحيث يجوز الاعتماد . وبذلك كان
ما كتبه افضل سيرة السلطان الظاهر .

ابن تيمرى بردى : ٨١٣ - ٨٧٤ هـ / ١٤١١ - ١٤٦٦ م . صاحب " النجاشي " .
الزاهرة في ملوك مصر والظاهره " . صاحب الظاهر انه بقسم من الجزر الساج . اعتمد فيه ابن
ابن الجوزى وابا شامة وابن راسل وابا شامة وابن راسل وابا شامة (٣) واليوناني . نقل بوزارة ابن
البيونيني . ولكن فاطمة صادق ترى ان سيرته موزع لما كتبه الحنري (٤) ولا ريب انه اعتمد
الحنري ، وانما الغريب انه اعتمد ابن عبد الظاهر .

وله ايضا " مورد اللطافة " ولكنه مختصر جدا وفيه اشارة سريعة للظاهره .
اما ترجمته في التاليف فكانت سردا للوحدات الخاطئة بالملكان سنة مئة ثم يتسود
تذكر الاحداث الاخرى في هذه السنوات ، مما ادى الى التكرار . ولا ريب ان ذلك مرده الى اعتماد
البيونيني .

هذا ولا بد من الاشارة الى انه كان يتحرى الحقائق بدمه .

(١) الحنري الملوك ص ٦٣ (٢) المصدر نفسه ص ٦٤١ .
(٣) ٦٤٤ - ٧٢٥ هـ / ١٢٤٦ - ١٣٢٥ م . له دليل على ما في ابن الاثير . جامع الاثر في
منه في المؤلفات التالية ومنها النجوم الزاهرة لابن تيمرى بردى . (٤) (١٣٣٧) .
ص ٧٧ - ٧٨ .
(٤) (F. Sadeque) ص ٢٤ .

السخاوي : ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م . له " الضوء الالامع لاهل القرن

التاسع " وفائده ذكر سير بعض المؤرخين كالمقرئى .

السيوطى : ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م . له " حسن المحاضرة في اخبار مصر

والعاهرة " في جزئين " وتاريخ الخلفاء " ولكنه ليست فيهما معلومات جديدة عن
السلطان الظاهر .

ابن اياس : ٨٥٢ - ٩٢٨ هـ / ١٤٤٨ - ١٥٢١ م . له " بدائع

الزهور في وقائع الدهور " وليعرفه غير بضع صفحات اختصر فيها سيرة الظاهر بيبرس لكنه
تميز مع هذا الاختصار ، بنقده للحوادث لاسيما وهو القائل ان سيرة الظاهر كانت
مرسلة للتفريق والاختلاق فكان عليه ان يختار (١) .

ان الاصول العربية عن سيرة الظاهر عنه بالوقائع عن حياته العامة بعد ان
صار سلطانا . فهي هنا تسرد كل تغلاته وحركاته واعماله يوما بيوم ، لكنها فيرة بـسرد
ناحيتين هامتين من حياته وهما حياته قبل ان صار سلطانا ثم حياته الخاصة . وقد
ظهر هذا حين كنا نتحدث عن هاتين الناحيتين في مكان اخر .

ثم ان حياة هذا الرجل عمارت مجالا للتفريق والاختلاق حتى امسحت اخباره
تستغرق عدة مجلدات (٢) . وهذا بدوره ادى الى التناقض والمبالعات . ثم استتبع
هذا ان صارت له سيرة شعبية في اربعة اجزاء .

وهكذا نرى ان الدين ارخوا المظاهر انفسوا الى قسمين اساسيين كان اولهما
الدين عاصروه وعاشوه فلما كتبوا عنه مجدوه وراوا فيه الانسان الكامل الذى لا يخطئ ولا
يظلم ولا يفسد ، وجعلوا منه الانسان المثالي في عصر مضطرب ، وبذلك مهدوا السبيل

(١) ابن اياس ج ١ ص ١١٢ (٢) المصدر نفسه ص ١١٢ .

للمصيرة الشعبية . وكان القسم الآخر من الذين اخذوا ، بعد وفاته بنصف قرن تقريبا ، ينظرون الى اعماله وماتيه جملته وينتقدونها ، لكنهم كانوا يرونه على رغم ما فيه من سيئات خلقية ، وعلى رغم ما ارتكب من اخطاء او مزاليم سياسية ، جنديا قديرا واداريا حازما وسياسيا ناجحا وسلطانا شيطانا وكان ابن شداد ، على رغم امتداحه له ، اول من سجل عليه فرض الضرائب الباهظة ولو انه عاد فالفهاها ، ثم تبعه ابن عبد الظاهر فانتقده في عهد الاشرف خليل ، لانه لم يعن " بالمكاتبات السلطانية " (١) ولعله ، لو قدرت له فسحة من حياة وفرصة لاعادة النظر في سيرته ، لفعل .

(١) ابن عبد الظاهر ، اللطاف الخفية ، ص ٣٨ .

الفصل الثاني

تمهيد في الحالة السياسية العامة

نبيل سلطنة الظاهر

١ - عوامل متصارعة في بلاد الشام ومصر .

كانت بلاد الشام ومصر في هذه الفترة لا تزال خاضعة للخليفة من الناحية النظرية . اما من الناحية الواقعية فكانت تتنازعها السلطة الايوبية في بعض هذه الفترة والسلطة المملوكية في بقيتها ، من جهة والسلطة الصليبية التي كانت تعتمد على الشواطىء الشرقية للبحر الابيض المتوسط . زد الى هذا ان الصليبيين كانوا خطرا مستمرا مما جعل استغلال العلاقات بين المسيحيين والمسلمين امرا ممكنا . وان اخبار التتر كانت في القسم الثاني من هذه الفترة ، قد اخذت تتوغل على بلاد الشام ومصر فتروعهما ايما ترويج . وينبغي ان لا ننسى ايضا الجماعات العائشة فسادا في بلاد الشام كالخوارزميه (١) والاعراب والشهروزويه . (٢)

(١) انظر ملحوظة ٣ ص ٢٦

(٢) هربهولا* من شهروزور ، مقاطعة في تركستان ، امام التتر . وفي سنة ٦٥٦ دخلوا دمشق فاكرمهم الناصر صلاح الدين يوسف املا ان يناصروه لكنهم قادروه الى المعيت ، صاحب الكرك ، واطعموه باحتلال دمشق . المعري السوك ص ٤١١ -

٤١٢ .

(V.Minorsky. Art "Sharazor." E. I.) م ٤ ، ص ٣٤٤ (.)

وفي هذا الميدان اشتد التنافس بين الامراء الايوبيين بحيث لم يتسرع بعضهم عن الاتصال بالمليبيين للامتعانة بهم على البعض الاخر من الايوبيين (١) وازاء هذا التنافس والتناحر لم يعد للايوبيين شان عسكري يذكر .

وليجر ضروريا ان ندخل هنا في تفاصيل هذه المنازعات ، ينبغي ان نتناول بايجاز ، مظاهر هذا الصراع بين اعضاء الاسرة الايوبية ، خاصة الصالح نجم الدين ايوب واخيه العادل ، ابني (٢) الملك الكامل (٣) . ثم الصراع بين ثوران شهاب بن الصالح نجم الدين والمماليك البحرية ، حول السلطنة في مصر وبلاد الشام .

(١) صراع الكامل مع الناصر داود حول دمشق وعقده معاهدة مع المليبيين ، سنة ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م . تنازل فيها لهم عن الددم وبعض القرى المجاورة وصراع الصالح اسماعيل مع عمه الملك الصالح نجم الدين واعطاوه الفرنجيسة مسفلان وطبرية ، والشفيف وسقند لناصرته على عمه (ابو شامة ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ابو الفداء ج ٣ ص ١٤٨ و ١٨٠ ، المقرئى السلوك ص ٣٠٣ انظر ما يلي) .

(٢) وهما من امين مختلفتين . وام الملك الصالح نجم الدين جارية سوداء تدعى ورد المنى .

(٣) هو ابن العادل سيف الدين ابي بكر ، شقيق صلاح الدين ، تملطن على مصر ما بين ١٢١٨ و ١٢٢٨ ولم يتسلطن على بلاد الشام الا في السنة الاخيرة من حكمه - حاول احتلال دمشق سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .

٢ - صراع بين الأيوبيين •

توفي الملك الكامل بدمشق عام ٦٢٦ هـ / ١٢٣٨ م فاجتمع
الامراء وملكوا الجواد (١) بن العادل في دمشق ، دون الناصر داود • اما
السلطنة في مصر فنالها الملك العادل ابن الملك الكامل • وكان الملك الصالح
نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل في كيفا (٢) ، فلم ترق له هذه الترتيبات
فاتصل بامراء مصر يحرضهم على اخيه ، فاعتقل الامراء اخاه العادل (٣) واستدعوه
اليهم ليتولوا شؤون مصر • فجاءهم ، وفي يوم الاثنين ١٥ ذي القعدة
سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٣٩ م بوسع سلطانا على مصر وعمره
٣٤ سنة (٤) •

-
- (١) ثم غادر دمشق وتطاع منجاريه ثم خسرهما وسلمه الفرنجة المصالح اسماعيل
(ابو العلاء ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧)
 - (٢) كان في هذا الحصن نائبا فيه عن ابيه (ابو العلاء ج ٣ ص ١٦٠ ، الحفرى
السلوك ص ٢٤٤) •
 - (٣) لا تتفق الروايات حول ما جرى له • فقيل انه قتل في السجن سنة ٦٤٠ هـ وقيل
انه مات فيه سنة ٦٤٥ هـ •
 - (٤) ابو العلاء ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٢ ، الدحبي ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٩ ، الحفرى
السلوك ص ٢٦٧ و ٢٩٤ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٣ •

ولم ينته الصراع هنا . فان الصالح اسماعيل كان يناهسه السلطنة ، فامتنع
عن الحضور اليه من بعلبك واتفق مع صاحب حمص وهاجما دمشق ودخلاهــا
سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ . وكان الملك الناصر داود أيضا يريد دمشق ، وهو
متعاهد مع الملك العادل على مهاجمتها ، فوجد الملك الصالح جيشا لمحاربة
الناصر داود لكن امراة • دخلوه في نابلس فاعتقله الناصر داود بالكرك ورفض
تسليمه للعادل ولم يـطلق سراحه الا بعد تدخل الخليفة في بغداد بسفارة
ابن الحوزي ، وعند اتفاق بينهما على ان تكون بلاد الشام للناصر داود ومصر للملك
الصالح (١) .

لكن الملك الصالح يريد دمشق لنفسه . فما ان استقرت له السلطنة في
مصر سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ حتى قبض على الامراء الذين اعتقلوا اخاه العادل
وزجهم في السجن (٢) ثم اخذ يتهدى لمهاجمة دمشق . ويوم الجمعة
٢٤ ربيع الاول سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ خطب له بدمشق ثم قطعت الخطبة .
وبعد فشل المفاوضات بين الملك الصالح نجم الدين والطاك الناصر داود هيا الملك
الصالح نجم الدين جيشا من الخوارزميه (٣) في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ وقصد الى
بلاد الشام ليحاصر دمشق . لكن الناصر داود صاحب الكرك ، والناصر صاحب حمص
والصالح اسماعيل ، والفرنجية ، تحالفا عليه والتفوه بين غزة وعمقلان فكسروهم وتابع
سيره حتى ظاهر دمشق . ثم دخلها في سنة ٦٤٣ هـ ورأى فيها نائبا عنه ، مسن

(١) ابو الفداء ج ٣ ص ١٧١ - ١٧٣ ، ابن شاطر الكتبي ج ٢ ص ٨١ ، الحفرى والسلوك
ص ٢٦٧ و ٢٩٤ .

(٢) ابو الفداء ج ٣ ص ١٧٥ .

(٣) قبائل نزحت من تركستان الوسطى وخوارزم امام الزحفالتتري . استخدمهم الملك
الصالح نجم الدين في حصن كيفا ، وكان عددهم نحو عشرة الاف جندي ، وساعده
في هذا الصراع لكنهم عادوا فانقضوا عليه وانسلوا بركن الدين بيبرس ، غير هذا
الذي نوره له وايدوا الملك الصالح اسماعيل وهاجموا دمشق لكن الملك الصالح عاد
فتغلب عليهم اخيرا وشكت شملهم . (ابو شامة ، ص ١٧٥ ، ص ١٧٨ ، ابو الفداء ج ٣
ص ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، الد . بي ج ٢ ص ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، الحفرى
السلوك ص ٣٠٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤) .

غير ان يدخل الخوارزميه معه (١) . وليس هذا العداء بين الطك الصالح نجم الدين واقاربهم بالنسبة الجديد . ويرجع الى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٩ حين كان الطك الكامل في الرقة فكتبت اليه زوجته ام العادل تنهيه الطك الصالح نجم الدين بنية الانقلاب على ابيه وتحريض زوجها على تدارك الامر قبل استفحاله فتوبه دعواها بان الطك الصالح اشترى عددا كبيرا من المماليك الاتراك باموال يجمعها من التجار ومن بيت المال . فما كان من الطك الكامل الا ان عاد الى مصر وخلع ابنه الطك الصالح نجم الدين من ولاية العهد (٢) .

٣ - فرقة المماليك البحرية

هكذا وجد الطك الصالح نجم الدين نفسه منذ البداية امام منافسات اقاربهم فمادام يعييه لولجا الى انشاء جيش خاص به من المماليك وقد عرف التاريخ الاسلامي كثيرا من الشواهد على ذلك (٣) .

لقد اعتمد الخوارزميه وهو في حصن كيفا ، ولكنهم طامعون لا يرضون جانبهم . ثم ان ممالك ابيه تفرقوا عنه يوم هاجم الطك الناصر في نابلس ولم يبق معه الا جماعة من ممالك الخاتمة ، وها هم الخوارزميه يحاربونه بعد ان رفض السماح لهم بدخول دمشق ، فلا عجب بعد ذلك ان يذكر لممالكهم ولا هم ويجعل منهم

(١) ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٤ ، المقريزي ، السلوك ص ٣١٩

(٢) المقريزي ، السلوك ص ٢٣٨ و ٢٤٠

(٣) كان المعتصم بالله ، الخليفة العباسي في بغداد ، اول من استخدم المماليك

الترك وكان احمد بن طولون اول من جلب المماليك الترك الى مصر وجعلهم

عمدة جيشه ، ثم استخدمهم الفاطميون في جيوشهم .

جيشا يعتمد عليه عرف فيما بعد باسم العماليك البحرية (١) . ومما داف استجلاب العماليك من بلاد الففجاق (او العبشاق) باعداد كبيرة ، فاستغل الملك الصالح ذلك واستكثر منهم حتى انه لم يجتمع لغيره من الايوبيين مثل ما اجتمع لديه منهم ، حتى غابت بهم القاهرة وتدمر الناس منهم وغجوا لسوء تصرفاتهم حتى لقبوا "بشر مجلوب " يجعل الناس " في ضرر ايوب " (٢) .

هنا رأى الملك ، الصالح نجم الدين ايوب انه لا مندوحة له ، لحماية اهل القاهرة ودفن الاذى عنهم ، من ان ينشي " لعماليك ثكنات خاصة بهم فاختر لذلك جزيرة الروضة (٣)

- (١) المقرئى والسلوك ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ويمكن ان نضيف لانشاء هذه الفرقة سببين اخرين هما محاربة الفرنجة من جهة ، واستعداد لمحاربة المغول بعد ان اخذوا بيد دون الخليفة والسلاجقة ، من جهة ثانية . (F.Sadeque) ص ٣١ من المقدمة . وينقسم عهد العماليك الى قسمين - العماليك البحرية والعماليك البرجية نسبة للمكان الذى سكنته كل جماعة . وتدعو المصادر الفترة الاولى بدولة الترك تميزا لها عن دولسة الجراكسة في المرحلة الثانية . ولعله يصح ان ندعو الفترة الاولى بعهد الففجاق (او العبشاق) نظرا لسيطرة هذا العنصر في هذه الفترة D.Ayalon, Art. "Al Bahriyaa." E.I. (new ed.) م ١ ص ٩٤٤ - ٩٤٥ .
- (٢) ابوشامة ، ص ١٩٦ ، البيهقي ج ١ ص ١٨٧ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٨ ، المقرئى السلوك ص ٣٣٩ ، ابن ايام ج ١ ص ٨٣ .
- (٣) كان هذا الاسم يطلق على جزيرة بين مصر والجزيرة . وفيها / ابن طولون حصنا ثم دارا للصناعة حتى جاء كافور الاخشيدى فنقلها الى مكان اخر وجعل من الجزيرة بستانا سنة ٣٢٥ هـ . وفي عهد الفاطميين عمرت الجزيرة بالنامروبنى فيها منتزه سمي باسم الروضة ثم اطلق اسم المتنزه على الجزيرة كلها . ثم جاء الملك الصالح نجم الدين ايوب فبنى القلعة ليبقى له ذكرا من جهة وليجعلها مسكنا له ولامرائه وعماليكه . وقد شرع في حفر اساسها يوم الاربعاء ٥ شعبان سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ ثم بنيت فيها الدور السلطانية وانفتحت عليها الاموال الكثيرة حتى تم بناؤها بعد ثلاث سنوات على قول ، وبعد سنة ونصف سنة على قول اخر . ثم انتقل اليها السلطان ومالكيه وصارت ملجأ له من الخطر ، عدا انها كانت دار صناعة ومركزا لحيات مرار ارتفاع ماء النيل . (ابو الفداء ج ٣ ص ١٧٥ ، المقرئى السلوك ، ص ٣٠١ والخطط ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٩٧ وابن تعري هودى ، مورد اللطافة ، ص ٢٣ ،)
(A.Atiyeh, Art "Al Bawdah." E.I. Vol. III م ٠ ص ١١٢٢)

بالقرب من المقياس حيث بني لهم قلعة جعل حولها الشواني الحربية المشحونة
بالمسلاح استعدادا للقتال .

وبلغ عدد مماليكه هؤلاء نحو الف مملوك بذل لهم الرواتب والجوامع
واكرمهم ايما اكرام ، وامرهم وصيرهم بطانته ، لكنه منعهم من مخالطة الناصر . ولعلمهم
بسبب هذا ، اضطموا به بعد انشاء القلعة بقليل فهرب بعضهم الى التيه وظلموا
فيه خمسة ايام وصلوا بعدها الى بقايا مدينة وجدوا فيها اسوا وادورا وصهاريج
حلوة الماء وعثروا على دنانير ذهبية منقوشة عليها كتابة قديمة فاخذوها الى
الكرك حيث استبدلوها . ولعلمهم كانوا بقيادة ركن الدين بيبرس الذي اغتراه
الملك الصالح نجم الدين ايوب فيما بعد واستماله اليه وقتله (١) .

وفي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ هاجم لويس التاسع ، ملك فرنسا ، مصر
ونزل دمياط ودخلها بغير قتال واستولى على ما بها من ذخائر واسلحة كان الملك
الصالح نجم الدين ايوب قد حشد لها فيها فعظم ذلك عليه وقصد ان يجهزوا عليه
مريض ميثومر منه وانزل العذاب بالمسؤولين . واراد بعض الامراء ان يجهزوا عليه
ثم رجعوا عن ذلك خوفا من سطوته . ثم توفي في منتصف شعبان سنة ٦٤٧ هـ
وكنتم خبر وفاته عن الجيش (٢) .

(١) ابو الفداء ، ج ٣ ص ١٨٨ ، المقرئى ، السلوك ص ٢٤٠ ، ابن اياسرج ص ٨٣ .
(٢) بيدوان الملك الصالح اعتمد على بني كنانة في الدفاع عن دمياط فهرب هؤلاء
عند وصول الفرنجة ، ولما انتصر الفرنجة والصالح نائم من اثر تآذير ، ارجف
الناصر بوفاته لكنه لما افاق شنق المسؤولين عن الهزيمة (ابو شامة ، ص ١٨٣ ،
ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٨٧ ، ابن الخواطي ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، الدهبي ج ٢
ص ١١٤ ، لابن ١١٥ ، ابن ايامر ، ج ١ ، ص ٨٥) .

توفي الملك الصالح نجم الدين ايوب في وقت حرج ، من غير ان يوصي بالسلطنة الى احد من بعده (١) . لكن شجر الدر ، زوجة ابيه ، اعلمت ثلاثة من الامراء بوفاة الملك الصالح ثم خرجت الى الجيش ودعته الى قسم يمين الولاة . السلطان ولايته ، وللامير فخر الدين الشيخ بالاتباع . ففعل الجيش ذلك ، ثم سار فارمر الدين اقطاعي ، اكبر مماليك السلطان الميت ، الى حصن كيفا ليعود بتورانشاه الى مصر . فاسرع المعظم الى دمشق ودخلها يوم الثلاثاء ٢٩ رمضان سنة ٦٤٧ هـ بمواكب الامراء وبذل فيهم الاموال والخلع ثم قادها يوم الاثنين ٢٦ شوال ، قاصدا الى المنصورة ووصلها في دى القعدة ، وتسلم السلطنة وحلف له الامراء والجيش بيمين الطاعة (٢) .

وكان الفرنجة قد اجمعوا بوفاة الملك الصالح نجم الدين ايوب ، فهاجموا المنصورة بعنف وتراجع الجيش الايوبي . ولما وصل المعظم تورانشاه نظم شوون الدفاع واعلن النفير العام وجهز العساكر . فانضم العوام والفلاحون للجيش فانهمز الفرنجة في معركة في ١٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ وافاضوا على اخذ " القدر وبعض الساجل " مقابل تسليم دمياط فرفض المعظم ذلك . ثم احتدم القتال ثانية فاستسلم الفرنجة وامر لويصر التاسع نفسه . ثم رحل الملك المعظم الى فارسكور حيث لاقى حتفه (٣) .

(١) وقيل انه اوصى بتسليم البلاد بعده للخليفة العباسي في بغداد لانه لم يكن يرى ابنه

المعظم تورانشاه مناسبا للسلطنة (ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٨ ، المقريزي والسلوك ص ٣٤٣)

(٢) ابوشامه ، ص ١٨٣ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٨٨ ، ابن شاکر السکيتي ، ج ١ ص ١٨٥ ، المقريزي السلوك ، ص ٣٤٣ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، وادنا تساءلنا لبيع عن السبب الذي حدا بالمعظم في ان يتأخر في دمشق من ٢٩ رمضان الى ٢٦ شوال ، اجابنا ابن ايامر (ج ١ ص ٨٦) بانه ابطأ ربما لم يموت ابوه . وهو يجعل تاريخ المبايعة اول محرم سنة ٦٤٨ هـ .

(٣) ابوشامه ص ١٨٣ ، ابن الفوطي ص ٢٤٦ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، الذهبي ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ ، ابن ايامر ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ .

٤ - المعظم تورانشاه - مقلته وملطنه البحرية •

رعي المعظم تورانشاه العرش بمساعدة عماليك ايما البحرية ، راعين امره •
خاسته ، وبدلوا الجهد حتى اخذوا القمار وارمكور • راعيتوق بعد ذلك ان يعلم يمين
السلطان والعماليك تعاون يثبت اركان السلطنة ، ولكن الذي حدث كان غير متوقع •
زاد الخلاف بين العماليك البحرية راعين ان الباب كيرة مردك الحواريون

وهي •

اولا • ريث المصم عن ابيه لغات " الباب الدواخده من الباب المعير والحداثة تسمى
الرحم " حتى انه كان " لا يعمل شقة رايدس منيرة ولا يرى مالف دمة • • راعين الحاج الديني
لاتوثر " (١) وكان شديد المستورة ، متديرا لا يعمل الى ان من استطاعه راعين انه راعين
اولاده • وكل تسمى ما فعله ابوه يوم توى السلطنة • التسم يستقل الامراء الذين يشاروا
به الى العرش •

ثانيا - كان يارب الخ مرويات امامه عددا من المصوم ثم ياخذ السيف ويضربها به شاميرا
بدلاى الى انه سيبيد العماليك البحرية •

ثالثا • طالب اجر الدرمشوة والده وابرا بنه بانها اغتتهباي محاربة العزبة ثم يفسد مع
بالجواب ، وقتك بجده ام اهلك المالح نجم الدين " بابا " انزلت عليه امورا لاتسمى •

رابعا • شك المصم تورانشاه بوعدة معارض انماى باعطائه ضمن كيفا •

خامسا • اتهم بالتهاون بمصادرة الفرنجة حتى انه ركسب مركبا واحد يتفج على الحركة
واعتبرانه " لايتاقى منه خير ولا يجيى " منه ملك يعيم منار بيته •

سادسا - التنافس بين الامراء والدمر عند المعظم . وقد اعتقل السلطان احد كبار
امراء الفرق المتطاحنة . وينفرد المقرئى بذكر هذا السبب (١) .

وهكذا نجد ان السلطان المعظم قد اثار جميع العناصر ، ولم يكن له عنصر
يعتمد عليه في هذا الخضم . فكان ان اتفوا على قتله حين " ظن ان الوقت صاف له " .
بيد ان لي سؤالا هنا . ما هو الدافع الذي حدا بالامراء الى دعوته من
حصن كيفا وقد كان ابوه ابعده الى هناك خشية ان يعتقه الامراء (٢) . قد يكون العسول
بانهم انما اتوا به خصيما ليفتوه ليكون ذلك رقبة الجسر الى تأسيس سلطان المالكيان ،
قولا مبالغا فيه يفترض التصميم المسبق . وعندى ان الخلاف يعود الى اتساع نفوذ
المالكيان البحرية بالدرجة الاولى . وما الصورة التي يعطينا اياها ابن عبد الظاهر
لطريقة معاملة المعظم للبحرية بموالعمال التي قام بها ، ولا الادليل على معسرة
هذا النفوذ . ويصور لنا ابن عبد الظاهر بوضوح خوف المالكيان على انفسهم اذا ما
اطمان المعظم واستقر سلطانه (٣) . يبدو لي ان المالكيان ارادوا ان تكون السلطة
الفعلية لهم ولذلك رفضوا تسليم البلاد للخليفة ، بينما اراد المعظم ان تكون السلطة
الحقيقية بيده ولا يتاتي له ذلك الا بابعاد هذا العنصر المتنعد واستبداله بعنصر
جديد .

وفي محرم سنة ٦٤٨ هـ / ايار ١٢٥٠ م قتل المعظم تورانشاه بضرمة سيف

(١) ابن عبد الظاهر ص ٣ - ٤ ، اليونيني ، ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧ ، المقرئى ،
السلوك ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ابن تغرى بدلى ، مورد المطافة ، ص ٣٣ ، ابن ابي عامر
ج ١ ص ٨٨ .

(٢) ابن شاكر الكتبي ، ج ١ ص ٨٦ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٣ - ٤ .

من احد العماليك حين مد السباط اد تقدم اليه هذا المملوك وخبره بالسيوف
فتلقى السلطان الضربة بيده فانقطعت امامه ، وهرب الى برج خشبي
كان قد نصبه له هناك ، وحينئذى " من جرحني " ففيل له . " انهم الخشيشة "
فانكروا ذلك وقال : " انهم البحرية " . واتسم انه سيبيدهم . وصعد الى اعلى البرج
فاضم العماليك النار بالبرج ورموه بالنشاب حتى القى نفسه في النيل وهو يطلب
من العماليك ان يتركوه يعود الى حصن كيفا فرفضوا واجهزوا عليه خشية
ان يفتنهم (١) .

• - شجر الدر •

وبمقتل المعظم تورانشاه كادت الحالة تضطرب امام تصارع الامراء الطامعين
(٢) . حتى ان الاسرى الفرنج ثاروا وانطلقوا من السجون يخربون ويقتلون
حتى استطاع الجيش بعد جهد ان يحيط بهم ويحول دون متابعة التخریب (٣) .
وامام هذا الواقع اجمع راي الامراء على مطاردة شجر الدر (٤) . زوجة الطاك

-
- (١) ابوشامة ، ص ١٨٥ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ١٩٠ ، ابن شاکر الکتبی ، ج ١ ص ١٨٧ .
المقريزي ، السلوك ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ابن ايامر ، ج ١ ص ٨٨ .
(٢) وهم فخر الدين يوسف بن حموية ، وفارص الدين اعطاي ، وابو علي النهدي باني .
(٣) ابن الغوطي ص ٢٤٧ .
(٤) جارية الطاك الصالح ومحظيته . كان لا يفارهما في حل ولا ترحال . اما اصلهما
ففيل انه تركي وفيل انه ارمني . (اليونيني ج ١ ص ٦١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٠١ ،
المقريزي ، السلوك ص ٣٦١) .

الصالح نجم الدين ايوب، وتعيين عز الدين ايبك التركماني اتابكا لها . وفي
صفر سنة ٦٤٨ هـ نسبت السلطنة وارضت الامراء ومنحتهم الاموال والهدايا
تعزيزا لمركزها ، ولكنها لم تبق في دست السلطنة الا نحو اثنى
ثلاثة اشهر (١) .

وفي هذه الفترة ساست البلاد " احسن سياسة " وكانت النام عنها
راضية " (٢) وقع خلاف بين شجر الدر والامراء واستغل هؤلاء استياء
ال خليفة المستعصم بالله من بغداد ، والامراء الايوبيين في مصر
وبلاد الشام واتفقوا مع الغضاة على عزل شجر الدر وسلطنة عز
الدين التركماني ، وتزويجها منه (٣) .

وباعلان عز الدين هذا سلطانا انتهى فعلا عهد السلطنة الايوبية
في مصر . لم يكن اطلق الصالح نجم الدين ايوب يعلم يوم انشأ
الفرقة الابحريية انه بذلك انما يدخل عنصرا جديدا سيفضي على
سلالته ، ولكن هذا هو احدى جرى .

-
- (١) اليونيني ، ج ١ ص ٦١ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص ١٩٠ ، المقريزي ، السلسوك
ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٩ .
(٢) ابن اياس ، ج ١ ص ٨٩ .
(٣) اليونيني ، ج ١ ص ٥٩ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ابن
تغري بيري ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٣ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٩ و ٩٠ .

٦ - عز الدين ايبك التركماني (١) .

وعز الدين ايبك (٢) هذا تركي الاصل من ممالك الطك الصالح نجم الدين ايوب
لازمه في حصن كيفا حتى صار جاً شكيره (٣) . ثم نال درجة الامارة . ثم صار اتابكا المعسكر
في عهد شجر الدر ، وها هو يصبح زوجا لها وسلطانا على مصر في اوائل سنة ٦٤٨ هـ /
١٢٥٠ (٤) .

ووجد عز الدين ايبك نفسه امام معارضة من بعض امرائه ، والواقع انهم قبلوا به
سلطانا اعتقادا منهم انه ضعيف الشوكة " من اوسط الامراء " ، يمكن عزله ساعة يشاؤون (٥)
لكن الامر الذي شغل باله واسكت المعارضة الداخلية هو مقاومة الامراء الايوبيين في بلاد
الشام ، اى ما يمكن ان نسميه بالخطر الخارجي اليوم .

في ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م تسلم الناصر صلاح الدين يوسف
دمشق واتصل بملوك بني ايوب في بلاد الشام فانضمت اليه قوات من بعلبك وبصرى وحرخرد
وعجلون والسلط فسي حلف ضد المماليك . مغتصبى السلطة من الايوبيين . فخشى
المماليك ذلك واتوا بمظفر الدين موسى ابن الطك الناصر يوسف بن الكامل ،

-
- (١) ينبغي ان لا نخلطه مع امير اخر يحمل اسم عز الدين ايبك . وهو صاحب سرخد وقد
نبض عليه الطك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٥ هـ . (اليونيني ، ج ١ ص ١٦٦ الذهبي
ج ٢ ، ص ١١٤ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٠٩ و ٣٢٩ .
- (٢) الكلمة تركية من جزئين ، الجزء الاول ، اى مفخمة معناها القمر والجزء الثاني بك ،
ومعناها الامير (ابن تغرى برلى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٩٠) .
- (٣) معناها ذواق الطعام قبل السلطان مخشية التسمم .
- (٤) ابو شامة ، ص ١٩٦ ، اليونيني ، ج ١ ص ٥٤ و ٥٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٣٦٨ ، ابن
تغرى برلى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٤ ، ابن ايامر ج ١ ، ص ٩٠ . وتواريخ اسلام
عز الدين السلطنة مختلف فيها بين المصادر .
- (٥) اليونيني ، ج ١ ص ٥٥ ، ابو العدا ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ، ابن تغرى برلى ، النجوم الزاهرة
ج ٢ ص ٤ .

وعمره نحو عشر سنوات وأماموه سلطانا ولفيوه الملك الأشرف ، وعينوا عز الدين
أتابكا للجيش ، أو شريكاً له في الحكم . واستمرت القوات الأيوبية زاحفة نحو عـز
فاصطدموا بجيش العماليك عند العباسية ، حيث انهزم بعض الجيش المصري
وتبعه بعض جيش الأيوبيين إلى القاهرة وأعلنوا سلطنة الناصر يوسف فيها ، لكن
القسم الآخر من الجيش الأيوبي بقيادة الناصر نفسه ظل بعيداً مشرداً فظن الأيوبيون
المنتصرون في القاهرة أنه مات فعادوا نحو بلاد الشام . وعاد عز الدين إلى القاهرة
منتصراً (١) .

وظن عز الدين أن الفرصة مواتية للتخلص من الأشرف ، لكن كبار أمراءه
فارضوه فقرر اعتقال فارس الدين أنطاي فهرب هذا ومعه ما يقارب ألفي فارس مر
واتصلوا بالمغيث ، صاحب الكرك ، فاضطر عز الدين المتراجع من خطته . فاعلن
البلاد للخليعة المستعصم بالله ثم جدت الأيما للملك الأشرف بالسلطنة .
ولعز الدين بالأتايبكية ، وعاد إليه البحرية الفارون (٢) .

وعادت المناوشات بين الأتايك المملوكي والناصر صلاح الدين يوسف واستمرت
نحو سنتين (٣) حتى وجد الخليفة أنه لابد من التدخل المصلح بينهما . وفي سنة
٦٥١ هـ / ١٢٥٣ أرسل الخليفة البادراني (٤) للتوسط بينهما فانعقد المصلح .

-
- (١) أبو شامة ، ص ١٨٦ اليونيني ، ج ١ ص ٥٥ و ٥٧ ، أبو الفداء ، ص ٣ ص ١٩٢ الحفري
السلوك ص ٣٦٩ ، ابن تغري بوردى ، النجوم الزاهرة مج ٧ ص ٥٧ ، ٧٠ ، ٩ ، ٢٣ .
 - (٢) اليونيني مج ١ ص ٥٥ ، أبو الفداء ، مج ٤ ص ١٩٢ ، الحفري ، السلوك ص ٣٧٠ .
 - (٣) وفي هذه الفترة اتصل كل من الناصر صلاح الدين وعز الدين أيوب بطويسر التاسع
في عكا لكسب محالفته . فثار هذا بين الطرفين وتخلص من بعض شروط الاتفاقية
التي كان وقعها بالمنصورة لكنه بقي على الحياد (R. Grousset) ج ٣ ص ٥١ .
 - (٤) ولد سنة ٥٩٤ هـ . وسمع الكثير وتقدم وبرع وأفتى ودرس وسفر للخليفة عند ملوك
الشام وولي قضاء القضاة ببغداد . كان فاضلاً عالماً متواضعاً . توفي سنة ٦٥٥ هـ /
أبو شامة ، ص ١٩٨ ، ابن تغري بوردى ، النجوم الزاهرة مج ٧ ص ٥٧ .

على ان تكون مصر لعز الدين والبحرسة من جهة ، وبلاد الشام ، ابتداءً من
فزة ، المناصر صلاح الدين يوسف ، من جهة ثانية (٢) .
وبهذه الاتفاقية التي أبرست على يدى رسول الخليفة ، قويت شوكة عز الدين
وجمع حوله الامراء المخلصين له ريثما تمنح العزمة للاستقلال بالسلطنة .
وكان فارص الدين انطى زعيم حركة المقاومة بين الامراء البحرية لاستقلال
عز الدين بالسلطنة . وكان له نفوذ كبير بين المماليك البحرية . وطمع بالسلطنة
وايده الامراء والتفت البحرية حوله . وكان يستهين بعز الدين ايبك وياخذ
من بيت المال ما يشاء . ومارا مرحابه يستولون على اموال الناصر ونسائه واتصل
بالناصر صلاح الدين يوسف تحت اسم عز الدين وبصره . فلا بد من الفتك
به ليتسنى له الاستقلال بالسلطنة . فاتصل عز الدين بالناصر صلاح الدين
يوسف يستشير به بشأن الفتك بفارص الدين فلم يجبه . لكنه كان مصمما على التخلص
منه .

كان فارص الدين قد طلب من عز الدين اخلاء قلعة الجبل ليسكن فيها
مع زوجته بنت صاحب حماه . فلما علم السلطان بقرب وصول فارص الدين الى
مصر ، احمر بضرورة السرعة بالعمل ليتخلص منه قبل دخول القلعة . فاتفق السلطان
مع زوجته شجر الدر واتيسا بعدد من المماليك ، بينهم سيف الدين قطز الى كمين
في قلعة الجبل ، ثم امتد هيبا فارص الدين الى القلعة ظهر يوم الاربعاء

(١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ١٩٤ ، و ١٩٥ ، ابن
تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ و ٢٣ .

٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ فجاء افطاي غير مكترث . ولما دخل قاعة الاعمدة في قلعة الجبل اطلعت الابواب ليمنع ممالكه من الدخول ، وهجم عليه الحماليك من كمينهم " وهبروه بالسيوف حتى مات " (١) .

وكنم عز الدين مقتل فارموالدين حتى المغرب ثم سرت الشائعات فاجتمع امام الطلعة نحو سبعماية ملوك من البحيرة ، ولما تحفوا الامر ، مروا الحرب ، وخرجوا في الليل من القاهرة . وعمد عز الدين الى مصادرة املك الهاريين واموالهم وزج انصارهم في السجون (٢) .

وهنا سفا الجولعز الدين فخلع الملك الاشرف واستقل بالسلطنة . فعاد الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وحلب الى مهاجمته مرة اخرى . وجرت معركة عنيفة اتصل فيها بعض الحماليك العزيزية بالبحيرة الهاريين وكادوا يعتقلون عز الدين لولا ان علم بالموامرة وفر المتآمرون كي لا يقبض عليهم . ومرة اخرى تدخل الخليفة بسبب وجود الخطر التتري وارسل البادراني لعقد الصلح بين الناصر وعز الدين وتم ذلك سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م على ان تكون مصر لعز الدين ، وبلاد الشام للناصر (٣) .

(١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، ابن الغوطي ص ٢٧٢ .
المقريزي ، الملوك ، ص ٢٨٩ - ٢٩١ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة مج ٧ ص ١٢
٢٣ ، ٣٠ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ٩٠ . ويقول اليونيني والمصنفان الاخيران ان القتل كان الاثنين في ١١ شعبان .

(٢) ابن عبد الظاهر ص ٦ - ٧ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، ابن الغوطي ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
المقريزي ، الملوك ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢ ،
ابن اياس ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٣) اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٩ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة
ج ٧ ، ص ٢٤ و ٢٧ .

وفي سنة ٦٥٤ هـ : ١٢٥٦ م ارسل عز الدين ايبك الى الخليفة يلتزم منه
تشريفا بالسلطنة ، وكذلك فعل الناصر صلاح الدين يوسف ، لكن الخليفة منح التشریف
لسلطان المماليك (١) .

ثم اراد عز الدين ان ينشيء خلفا مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالتزويج
من ابنته ، ليطوق بذلك ، الناصر صلاح الدين صاحب دمشق وحلب ، لكن هذه
المحاولة اودت بحياته .

فلما ان الامراء اتفقوا على سلطنته حسما لنزاع بينهم واعتقادا منهم بانهم
اضعفهم . لكن عز الدين لم يكن ضعيفا ، ولم يكن يريد ان يكون ظلالا لغيره . فكان
طبيعيا ان ينعم الامراء عليه ويعطوا المتخلص منه ، فلما علموا بعيرة زوجته لانهم
اراد التزويج عليها اتصلوا بها ونفذت لهم ما ارادوا . وقتل عز الدين في ١٤ ربيع
اول سنة ٦٥٥ هـ / نيسان ١٢٥٧ . ثم اعلن انه مات فجأة فلم يصدق مماليكهم
الرواية وقبضوا على شجر الدر ومماليكها فاقروا بما جرى (٢) .

٧ - المنصور نور الدين علي

ومرة اخرى عاد الامراء الى الاختلاف حول السلطنة ، ثم اتفقوا على سلطنة
المنصور نور الدين علي ، بن عز الدين ، وتعيين سيف الدين قطز نائبا للسلطنة هو الامير
فارس الدين اقطاي المستعوب اتابكا للعساكر . ويوم الخميس في ٢ ربيع الاخر سنة ٦٥٥

-
- (١) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .
 - (٢) ابو شامة ، ص ١٩٦ ، اليونيني ج ١ ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٠٠ و ٢٠١ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤١ ، مورد اللطافة ص ٣٣ ، ابن ايامر ، ج ١ ص ٩٢ ، اما شجر الدر فقتلتها جوارى ام علي ، زوجة عز الدين بالبقايب ورميت في خندق اياما حتى دفنت في تربتها بطريق السيدة نفيسة .

هـ / ١٢٥٢ ركب نور الدين بشعار السلطنة ومعد إلى قلعة الجبل وحلف الأمراء والجيش له بالطاعة والولاء (١) .

وبمقتضى أمر الدين أخذ البحرية الفارون يعودون إلى مصر . وكان

أول من عاد منهم البحرية الدين لجأوا إلى السلاجقة (٢) .

وقد تميز عهد المنصور بثلاثة أمور هي اصطداماته مع نائب السلطنة . واصطدامه مع الأيوبيين ببلاد الشام ، ثم دخول التتر بعداد . فقد اصطدم بنائيه حول ملاحقة أنصار شجر الدر والأمراء الدين ثاروا عليه في رمضان ٦٥٥ هـ / ١٢٥٢ ثم سوى الأمر بينهما (٣) ثم جرت معركة مع جيوش المماليك عند المالكية وانتهزم جيش المغيث وانتصر الجيش المملوكي بقيادة سيف الدين قطز (٤) . ثم استولت جيوش التتر على بعداد وأخذت بالزحف نحو حلب . فكانت فرصة مناسبة لقطز ليخلعه ويستولي على السلطنة .

(١) اليونيني ، ج ١ ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، المقريزي ، الملوك ، ص ٤٠٥ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) المقريزي ، الملوك ، ص ٤٠٦ .

(٣) اليونيني ج ١ ص ٥٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) اليونيني ، ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ ، أبو العلاء ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ، المقريزي ، الملوك ، ص ٤٠٦ .

٨ - سيف الدين قطز (١).

كان قطز اشقر اللون ، وافر اللحية (٢) . وقيل انه ابن اخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، سبي عند غلبه التتار على خوارزمشاه وبيع في دمشق ثم اخذ الى القاهرة . ويقال ان اصل اسمه محمود بن مودود (٣) وقد كثرت الروايات حول قطز قبل سلطنته وكلها تشير الى انه واصل للسلطنة (٤) . ثم صار نائب السلطنة في عهد المنصور نور الدين علي . وفي اواخر سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٨ كثرت جماعته وصار صاحب الامر والنهي دون السلطان لصغر سنه . ولما اعار التتار على بلاد الشام دعا سيف الدين قطز ، بصفته نائبا للسلطنة ، الاعيان والامراء والعلماء والقضاة السيوف في دار السلطنة في قلعة الجبل للمنظر في امر التتار . وحضر الاجتماع ابن العديم الذي قدم الى مصر من قبل الناصر صلاح الدين يوسف لتأليب الجهاد على التتار . والشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥) ، والقاضي بدر الدين السنجاري ناغي الديار المصرية ، والسلطان الملك المنصور .

- (١) معنى اسمه باللغة التركية الشرفية " الكلب الناجح " E.Blochet * النهج السيد ص ٤١٤ ، ملحوظة ٤ .
- (٢) الذهبي ، ج ٢ ص ١٢٤ .
- (٣) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٣٥ .
- (٤) حكاية حسام الدين بركة عن رفته لقطز صغيرين حين كان الاول يسرج شعرا الثاني وحكاية المنجم الذي قال له انه سيصبح سلطانا ويكسر التتار . (اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ج ٢ ، ص ٣١٠ ، ٣٠ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .
- (٥) ولد سنة ٥٧٢ هـ / ١١٨١ م . لقب سلطان العلماء . له مواقف مشهورة في محاربة المماليك والملك الصالح اسماعيل حين ملهم سيف والشفيف . كان فيليبيا فسي جامع دمشق ، فعزل وسجن ثم اطلق سراحه فانتقل الى القاهرة سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م . كان محبا للرفق ، نافذ الكلمة ، مرهوب الجانب . (اليونيني ، ج ٢ ، ص ١٧٥ ، ص ١٠٥ أدناه) .

وطرحت في المؤتمرات — اولاهما ضرورة اقامة سلطان قد ير للموقوف بوجه التتر . وكانت حجة قطز ان المنصور ضعيف يلعب الحمام ويتفرج على مناقرة الديوك ومناطحة الكباش ويركب الحمير الفراء (١) فلا يستطيع تنظيم حملة لصد الاعداء الغزاة وثانيتهما جمع الاموال لتجهيز الحملة . وتحدث الحاضرون في القضيتين . ويبدو ان الامراء وافقوا على انه ليس لحدل هذه الحملة الا سيف الدين نفسه ، فكانه نال بذلك موافقة ضمنية على ما يبتغيه . اما القضية الثانية فقال ابن عبد السلام بصددها انه لا يجوز اخذ الاموال من الناس قبل ان ينعذ كل ما يبيت المال وكل ما مع الجند من اموال والات فاخرة (٢) .

وفي ذي القعدة (٣) من سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ استعل سيف الدين قطز فياب كبار الامراء في رمي البندق واعتقل المنصور واخاه ووالدتهما وسجنهم جميعا في قلعة الجبل واعلن نفسه " ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر قطز " ثم عاد الامراء فانكروا عليه ما فعل فقال ان فايته هي الاجماع على محاربة التتري ظل سلطان قاهر ووعد بالتخلي عن السلطنة بعد الانتصار حتى يكون الامر لهم يلحون من يشاؤون ، فقبل البعض بهذا الكلام ، واعتقل الدين ثم يرضوا به ، ثم حلف الجيش والامراء يمين الولاء له (٤) .

-
- (١) المقريزي ، السلوك ، ص ٤٠٦
 - (٢) ذهبي ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، المقريزي ، السلوك ص ٤١٧ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ابن ايامر ، ج ١ ، ص ٩٣ ، ٩٥ .
 - (٣) في ١٤ منه عند المقريزي ، السلوك ، ص ٤١٧ ، و ١٧ منه عند ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٥ و ٧٢ .
 - (٤) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٧ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، المقريزي ، السلوك ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٥ و ٧٣ ، ابن ايامر ، ج ١ ، ص ٩٣ .

ثم اخذ يعد العدة لمواجهة التتر • وجمع الاموال من الاهالي بان فرض ديناراً على كل راس - دكرا كان او انثى • واخذ شهراً واحداً من اجرة الاملاك والارواقي • واخذ زكاة معجلة عن اموال الاغنياء والتجار • واخذ من الترك الاحدية ثلث اموالهم • واخذ على المييطان والسواقي اجرة شير • واخذت غرائب اخرى بحيث بلغ مجموع ما حصل عليه من الاموال نحو ستماية الف دينار (١) •

ثم وصل رسل هولاء الى طنز برسالة دعوة الى طاعته • وتهديد ادا رفض الطاعة وجمع المظفر امراء المتداول في الامر ففر الراي على قتل الرسل والمسير الى ملاقاته المحول • ثم ارسل مع ابن العديم رسالة الى الناصر صلاح الدين يوسف يبعده فيها بالنجدة ويقول له انه لا ينافسه الملك وانما نائبه في مصر • ثم نودي في مصر بشعيرة الخروج للجهاد • واخذت الجيوش تزحف الى بلاد الشام • ويوم الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م تبعهم المظفر طنز واجتمعت الجيوش كلها في الصالحية (٢) •

وتابع جيشه الزحف الى عزة بعد تراجع التتر عنها • ثم اتى بالعرنجة المحروسة موقعتهم في هذا الصراع فارسلوا اليه الهدايا واعسروا عن استعدادهم لمحاربة التتر الى جانبه ثم تم الاتفاق اخيراً على الوقوف على الحياد (٣) •

(١) الحفرى، السلوك، ص ٤١٢ و ٤٢٧، وابن عمري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٥٥، ٧٢، ٧٣، ابن اياس، ج ١، ص ٩٢ - ٩٥ •

(٢) ابو شامة، ص ٢٠٧، اليونيني، ج ١، ص ٢٦٦، ابو الفداء، ج ٣، ص ٢١٤، الحفرى، السلوك، ص ٤١٨، ابن عمري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٣ • وكان الناصر يدارك الذهاب الى مصر • ووصل بالفعل الى عزة لكنه نقل راجعاً "شيء" بدسه عن الملك المظفر "هو سعي هذا لاستمالة جنده" وبقي في وادي موسى ثم على بركة زيزا حتى كبسه التتار ونقلوه الى هولاء • ثم قتل بعد ذلك في حصص سنة ٦٦٠ هـ • (ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٧، (E. Blochet) "النهج الجديد" ص ٣٧٩ • وفي هذا الاجتماع كان الظاهر مؤيداً لقتل الرسل (رشيد الدين جامع التواريخ، م ٢ ج ١ ص ٢١٣) •

(٣) ابن عبد الظاهر، ص ١٣، (C. Cahen) ص ٧١٠ •

وفسي فزه جمع سيف الدين قطز جيوشه في استدراف عام ونسرح
لهم ماجرى الاقاليم التي وقعت تحت سلطان التتر ، وحرشهم على محاربة جيوش هولاكو .
اما جيوش التتر فكان كتبغا نوين (١) مقدمها . وكانه خشي الجيوش المملوكية
وعدد ما اشعار عدد جيئه - فعدد موتمرا مع قواده المذرفي الامر . فاشار عليه بدس
العادة بعدم الاسطدام ان جيئه لا يتجاوز عشرة الاف جندي ، لكنه امر على اللقاء وكانت
معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ايلول سنة ١٢٦٠ م .
ومرت المعركة في ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى انهزمت مسيرة المسلمين
فارد بها الحظفر قطز بالعساكر فانتصر الجيش المملوكي وقتل كتبغا نوين في المرحلة الثانية .
عندما اجاء الجيش الموالي الى تل مجاور مهاجمه جيش الحظفر قطز وانزل بهزيمة ساحقة ،
في المرحلة الثالثة (٢) ثم تراجع التتر ، واحتلهم الجيوش المملوكية في مرحلة تصفيه .
ووصل خبر انهزام التتر الى دمشق في ٢٧ رمضان ففر منها التترومن والاهم ،
واحق بهم النامريشخونهم جراحا . ووقعت قتله بين الاهالي ان ثار عمة النامري على الدين
تعاونوا مع التتر وقتلوه ونهبوا اموالهم - من نصارى ومسلمين (٣) .

-
- (١) معناها عشرة الاف . لكن المقريزي يقول ان معناها الف (ملحوظة ٣ ، ص ٢٨ ، ج ٧ ،
النجوم الزاهرة لابن تغري بردى) . وقد كان فائدا عظيما يعتمد التتر (ابن تغري
بردى والنجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٠ - ٩١) .
- (٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦١ و ٣٨١ ، ابو العلاء ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، المقريزي ، السلك ص
٤٣٠ - ٤٣١ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٥ ، (J. Mousset)
ج ٣ ، ص ٦٠ و ٦٠٢ . اما اسباب الهزيمة فسوف تصرف التتر مع الاهالي ، وامتناع الفرنجة
من مساعدتهم واستياءهم من احتلال صيدا وعين بيدر عن مدد جيوشهم العامة من زه
قبل وصول كتبغا ، وكثرة عدد جيوش المماليك بالنسبة لجيوش التتر .
- (٣) كان التتر في دمشق يشجعون النصاري على المسلمين ، فلما تراجع التتر كان رد الفعل
عنيفا ، ابوشامة ، ص ٢٠٧ و ٢٠٨ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٢١١ ، ابو العلاء ، ج ٣ ،
ص ٢١٤ ، المقريزي ، السلك ، ص ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .

وتابع المظفر سيره نحو دمشق . مر في طبرية ووصل دمشق في شوال وبقي فيها مدة لتنظيم شؤون بلاد الشام بعد ان خضعت له . فابقي الناصر على ما كانوا عليه في اواخر ايام الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وحرص على تأمين الناصر على اموالهم واملاكهم واوقف العتقة بين الاهالي بان شق بعض الموالين المنتصر ، ثم قرر على النصاري مبلغا من المال . ثم عين الامير علم الدين سنجر الحلبي واليا على دمشق . . . ووزع الاراضي اقطاعا على امرائه واصحابه (١) .

وعين الامير شمس الدين اقوش الديلمي العزيزي نائبا على السواحل وفسرة ، فجعل مقره نابلس مرة ، وبيت جبرين مرة اخرى (٢) . وولى السعيد علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، على حلب ، لعله بذلك يضمن ميل اخيه اليه ، فيطلبه على اخبار التترو وتحركاتهم (٣) .

ثم توافد عليه صاحبا حمص وحماء فابفاهما على اقطاعتهما لكنه اخذ السليبي من صاحب حماء ومنحها لشرف الدين عيسى بن مانع امير العرب (٤) . وشرب عنق السعيد حسن ابن الملك العزيز عماد الدين لانه ناصر التترو وحارب جيوشه في عين جالوت ، واخذ

- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٥ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، المقرزي ، السلوك ، ص ٤٣٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم ج ٧ ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن اياص ، ج ١ ، ص ٩٧ .
- (٢) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، المقرزي ، السلوك ، ص ٤٣٣ .
- (٣) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، المقرزي ، السلوك ، ص ٤٣٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم ج ٧ ، ص ٨٢ .
- (٤) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، المقرزي ، السلوك ، ص ٤٣٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم ج ٧ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

منه الصبيحة وبانياس (١) .

وبعد هذه الترتيبات فادرسيف الدين دمشق عائدا الى مصر .
وفسي الطريق قتل في ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م .

(١) ابو شامة ، ص ٢٠٧ ، اليونيني ، ج ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ج ٢ ص ١٧ ، ايسو
الغداء ، ج ٣ ص ٢١٤ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٣١ ، و ٤٤١ ، ابن تغري
بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

بيبرس قبل السلطنة •

كان ضروريا ان ترسم صورة للسنوات التي سبقت وصول بيبرس الى السلطنة لان بيبرس شهدها واشترك في حوادثها وتأثيرها • ولعل هذا الاشتراك الفعلي فيها هو الذي حفزه الى الوصول الى السلطنة • وينبغي الان ان نتناول سيرته بالذات قبل ان صار سلطانا •

١ - البدايات :

كان بيبرس (١) تركيا (٢) برلي (٣) الجنسر • وقيل ايضا انه قعجاني (٤) ، (أوفشاني) الاحل •

ولد بيبرس في خيمة صغيرة لابوين فقيرين من جماعة العومان (٥) في ليلة ناسية من ليالي السهوب الفجائية الروسية • لكن منذ مولده ليست معروفة بالضبط • وتضعها المصادر بين سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ او سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ • وقد جعل المقرئ وابن تغرى بردى سنة الولادة عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ على وجه التخمين (٦) وجعلها اخر سنة ٦٢٢ هـ وجعلها ابن شاکر الكتبي سنة ٦٢٥ هـ • لكنه روى عن بدر الدين بيسرى رواية يستدل منها ان مولد بيبرس ام يسبق سنة ٦٣٠ هـ بكثير (٧) •

-
- (١) معناه الفهد • المقرئ والسلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٩٥ •
 - (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٢ ، المقرئ والسلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن ايامر ، ج ١ ص ٩٨ •
 - (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٢ • وقد جعله ابو الفداء (ج ٤ ص ١١) برجلي الجنسر •
 - (٤) ابو الفداء ج ٤ ص ١١ • وقد ايضا قعجاني كما في السلوك ، ص ٦٢٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩٤ •
 - (٥) وهم جماعة بدوية غزوا امارات روسيا الشمالية ثم غزاهم جنكيز خان عام ١٢٢٤ م وعام ١٢٤٢ (P.Sadeque) ص ٢٩ من المقدمة •
 - (٦) المقرئ والسلوك ، ص ٦٢٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٩٤ •
 - (٧) ابن شاکر الكتبي ج ١ ، ص ١٥٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ •

وفي هذه الاونسة كانت الغزوات المحلية تتوالى على روسيا . وفي سنة ٦٣٩ هـ
١٢٤٢ م . غزا التتر (١) القبجاق فاتصل بمولا* بانسر خان ملك اولاق (٢) يستجيرون
به فقبل ان يغدوا عليه . ونزلوا في سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م بين جبلين ، مطمئنين
من غزوات التتر ، لكن جنود انسر خان غدروا بهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وسبوا عددا اخر
منهم . وكان بدر الدين بيسرى وركن الدين بيبيرم بين الاسرى .
كان بيبيرم انداك دون العشرين سنة (٣) فبيع الى تاجر بسيواس ، ثم الى اخر
في حلب ثم الى تاجر ثالث . وهنا تخطف الروايات . ففي رواية بدر الدين بيسرى
ان بيبيرم حمل الى القاهرة حيث بيع الى الامير علاء الدين البندقدارى . وفي رواية
اخرى ان النخاس مار به الى حماء وعرضه على صاحبها الملك المنصور فرفض هذا شراؤه
لان والدته اشارت عليه بان لا يشتريه لان في عينيه ملامح شر . فحمله الى تاجر في دمشق
حيث باعه بثمانماية درهم لكنه عاد فرد له لبياض في عينيه . فعاد به النخاس الى حماء
واشتراه منه العمام الصائغ . وباعه هذا الى الامير علاء الدين ايدكين البندقدارى
المعتقل في حماء (٤) . وفي رواية ثالثة انه بيع لعلاء الدين البندقدارى في دمشق (٥) .

-
- (١) وفند ابن شاكركتبي (جا ، ص ١٦٠) ان العبارة هم الدين غزوا القبجاق
واسروا بيبيرم .
(٢) وهي (Bolgary) على نهر الفولنا الاطلى (F.Sadeque) ص ٢٩ من
المقدمة .
(٣) تقول (F. Sadeque) ص انه كان حوالي الرابعة عشرة من عمره .
(٤) ابو الغداء - ج ٤ ، ص ١١ ، ابن شاكركتبي ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، المفريزى ، السلوك
ص ٤٣٦ و ٥٢٤ ، ٦٣٢ ، ابن تغرى بوى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٥ ، ٩٦ .
(٥) محمد مصطفى زيانة ، حاشية ١ ، ص ٥٢٤ ، من " السلوك " للمفريزى .

وفي كل حال ، بقي بيبرس عند علاء الدين حتى انتقل الى الملك الصالح نجم

الدين ايوب في شوال سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م (١) .

وهكذا يكون بيبرس قد قضى نحو من سنتين عند علاء الدين . كيف قضاها ؟
المعقول ان يكون قضاها بالتدرب على ركوب الخيل والرمية . وكان الى جانب ذلك
يتلقى اصول الدين الاسلامي . ولا ريب انه كان في هذه الفترة يراقب احداث زمنه .
ويتعرف الى الصراع بين الامراء الايوبيين . ان طموحه لم يكن قد بلغ به بعد حد
التطلع الى الاستفادة من هذا الصراع والاضطراب ولكنه كان حاد الدهن ، نير البصيرة
لا يمكن لهذه الاحداث ان تمر دون ان تدع في ذهنه اثرا .

ان حياة بيبرس في هذه الفترة فاضحة فكاد لا يستطيع ان نتعرف الا على
خطوطها العريضة وحسب . لكننا نستطيع ان نحسب ان هذا الصبي الفتي نظرتيه
الاخيرة على ابويه وعلى الرادى التي كانت قبيلته تنزلها بشي من الحنان ، ويكتسب
من الخوف والتماؤل . ثم نسم بعض الوقت فنسي امله واخذ يحاول ان يدرك الواقع
الذى يعيش فيه ، فاذا به يجد نفسه معروضا في اسواق النخاسة في مدينة ارمينية
ثم يجد نفسه مرفوضا لعاهة في عينية . حقا ان الظروف قاسية .

٢ - في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب .

كيف انتقل الى خدمة الملك الصالح ايوب ؟ ومتى انتقل الى خدمته ؟

ان المصادر تختلف في الاجابة على السؤال الاول . فهي تستعمل كلمة
الشراء (٢) مرة ثم تستعمل كلمة المصادرة ، او الاخذ او القبض مرة اخرى (٣) . ويبدو

-
- (١) ابن تغرى بردى بالنجوم الزاهرة ج ٢ ، ص ٩٥ - ٩٦ .
 - (٢) المقرئى ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٩٥ .
 - (٣) المقرئى ، السلوك ص ٦٣٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ .

ان الملك الصالح نجم الدين ايوب اعجب ببيرس لشجاعته وقوة بنيته وفروسيته
ومقدرته على الرماية ، ولانه كان "نجيبا لا ينبغي ان يكون الا عند ملك" فالحق
بحاشيته حين فضب على علاء الدين البندقدارى مرة ثانية سنة ٦٤٤ هـ (١) ، ويحصل
على هذا الاعتقاد انه كانت قدمرت فترة على بيرس في خدمة علاء الدين ، بحيث
لغت صفاته هذه انظار الملك الصالح نجم الدين ايوب .

وهي كذلك مختلفة في اجابتها على السؤال الثاني . يقول G.Wiet انه
اول ما نسمع ببيرس مع الصالح نجم الدين سنة ١٢٣٩ م (٢) . وهذا مستبعد جدا ،
اولعله مستحيل . ويبدو لي انه خلطه مع بيرس اخر كان سجيناً مع الملك الصالح نجم
الدين ايوب في الكرك سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ (٣) . وفي هذه السنة يكون بيرس
في سن الثامنة عشرة ، على ابعد تقدير ، فهل كان قد مضى عليه وقت كاف ليلفت نظره
الملك الصالح نجم الدين اليه ؟ ثم ان الملك فضب على علاء الدين واعتقله في حماه
سنة ٦٤٤ / (٤) . اطلب الظن عندي ان وجود شخصين يحملان نفس الاسم في
فترة واحدة ، وكون بيرس الاخر من اخفاء الملك الصالح نجم الدين ايضا وانتقال
بيرس ، صاحب هذه السيرة الى خدمة الملك الصالح نجم الدين في شوال سنة
٦٤٤ هـ - كل ذلك قد ادى الى مثل هذا التشويش

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٦ .

(٢) (G.Wiet) ص ٤٢٧ .

(٣) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ، المفريزى ، السلوك ، ص

٣١٦ ، ٣١٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٦ .

والخلط . ليس لدى ما يثبت ان الانتقال تم قبل هذا التاريخ الذي يعينه ابن
تغرى بردى (١) .

وفي سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م . كان بيبرس قد لفت اليه انظار الطاع
الصالح نجم الدين ايوب فاعتنقه وجعله جمداره (٢) . وفي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م سار
السلطان الى دمشق لرد صاحب حلب الناصر صلاح الدين يوسف ، عن حصص (٣) .
وكان بيبرس في وفته . وتمر الجيش في الشويخ وترك بيبرس في المدينة اثرا يحمل
اسمه وتاريخ هذه السنة (٤) .

يبدو ان بيبرس اصبح لا يفارق السلطان من جهة ، وانه صار احد كبار
الامراء البحرية ، من جهة ثانية .

ثم كانت الحملة المملوكية السابعة حين فزا لويس التاسع دمياط واحتلها
وتوغل حتى المنصورة . هنا لعبت الفرقة البحرية بقيادة فارس الدين اقطاي
دورا اساسيا في رد الغزاة . ولعب الامير بيبرس دورا هاما في هذه المعركة
بما ابداه من غروب الشجاعة والفروسية . ثم لعب دورا هاما ايضا في قتل
المعظم تورانشاه . واليه ينسب التحريض على ضرورة قتل السلطان كسبي
لايبيد البحرية . وهو الذي كال له الضربة الاولى . وهو الذي اتهمه بانـه

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ص ٢٣٠ .

(٤) (E.Honigmann, Art."Shawbak".) م ٤ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

عاجز عن ابقاء السلطنة في عقب الملك الصالح نجم الدين ايوب . وانتهى بالعمل
للقضاء على امراء الدولة المالحية ومصادرة اموالهم وتوزيعها على فيرهم (١) .
لقد اصبح اسمه يذكر مع كبار زعماء البحرية ، امثال فارس الدين اقطاي وعز
الدين ايبك وبلبان الرشيدى وفيهم (٢) .

٣ - عهد عز الدين ايبك .

ثم كان عهد عز الدين ايبك التركمانى . وكان بيبرس وفارس الدين قد صارا
متنفذين ، اولعهما كانا اوسع نفوذا وقوة بين البحرية من السلطان نفسه . وقد
كانا "يمنعان من كل متعرض ويحميان من كل متعرض" (٣) . ثم بدأت الاحتكاكات
بين السلطان والفرقة البحرية ، وكان اول ما فعله السلطان ان عدم قلعة الروضة ونقل
الممالك البحرية الى قلعة القاهرة ثم انشاء فرقة خاصة به عرفت بالمعزية (٤) .
ومما يفسر هذه الاحتكاكات ، او يدعمها ، ان بدر الدين بكتوت وقطرز وبيبرس
التفواذات يوم بمنجم فطلب منه قطر ان يضرب له بالرمل ليرى مستقبله ، فقال له المنجم
انه سيملك مصر ويكسر القنار . وضرب المنجم بالرمل لبيبرس ايضا فكان طالعه يدل
على انه سيملك مصر وفيها (٥) .

وفي سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ قتل السلطان فارس الدين اقطاي فانتقلت قيادة
البحرية الى بيبرس بعد . كان البحرية نحو سبعماية مملوك فجاءوا الى القلعة فوجدوها

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ٤ ، المقرئى والسلوك ، ص ٣٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم
الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ملحوظة . . .
(٢) (P.Sadeque) ص ٣٥ من المقدمة .
(٣) ابن عبد الظاهر ط ٦ .
(٤) المقرئى والسلوك ص ٣٨٠ و ٣٨٦ .
(٥) اليونيني ، ج ١ ص ٣٨٣ ، ٣٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٨ ،
٨٩ .

مغلقة ثم رأوا فارس الدين أقطاي يرمى تحت اقدامهم من سور القلعة فتحققوا خبر
اقتيال فارس الدين وتداولوا في الامر فראوا انه لا بد من الهرب ، اذا شاؤوا السلامة .
وفي الليل خرجوا من القاهرة هاربين في ثلاثة انسام : اول قسم بقيادة الامير
علم الدين سنجر الباشقردى ، اعقل العماليك البحرية واعرفهم ، وثاني قسم بقيادة الامير
شمع الدين سنقر الجبيلي المشهور بالفروسية والشاطرة ، وثالث قسم بقيادة بيبرس
البنيدق دارى ومعه سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيبرى وبيرهما من الامراء .
وقصد الفريقان الاولان السلاجقة الروم وقصد الفريق الثالث غزة (١) .

٤ - بيبرس في بلاد الشام - الفارس الضال

ولما وصل بيبرس وجماعته غزه اتصلوا بالملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب
دمشق وحلب ورضوا عليه الدخول في طاعته . فاجابهم بالقبول . فساروا اليه مارسيين
بالمناطق الساحلية التي يحتلها الفرنجة . وكان طبيعيا ان يلاقوا صعوبات في تاميسين
القوت لكنهم لجأوا الى النهب والطلب .

وقاربوا دمشق في رمضان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م فخرج الملك الناصر صلاح
الدين لملاقاتهم والترحيب بهم فحلفوا له بالطاعة والولاء ، ثم خلع عليهم الناصر الخلع
والاموال ، واكرم بيبرس بصورة خاصة ادمنحه ٣٠ الف درهم وثلاثة قطريغال وثلاثة قطر جمال
وملابس ، ثم اقطعه انطاخا بحلب ، لكن بيبرس استبدل له باقطاع في جينين وزرعين فقبل
الملك الناصر بذلك . وهكذا استقر بيبرس واخذ بقية البحرية يتسللون اليه حتى جمع
شملهم (٢) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٧ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٢٩٢ .
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٧ .
(٢) انظر ملحوظة ٥ . ص ٥٢ اعلاه .

اما الجماعة الثانية فبقيت مع بيبوس . وذهبوا الى المعيث ودخلوا في طاعته ،

فاكرمهم صاحب الكرك ، وعلم بحرية منردون بذلك فانضموا الى بيبوس في الكرك .

وهنا احتلظ بيبوس بالشهزورية وتزوج من امرأة منهم (١) .

وكانت مصر لا تزال هدف بيبوس . لذلك لم ينع بما اصابه من هزيمات حتى الان .

فعاد الى افناح المعيث بمهاجمة مصر ، بحجة الشرعية ، واصعى المعيث اليه وانفق مبالغ

طائلة من الاموال لتجهيز حملة لاحتلال مصر .

وسارت الحملة باتجاه مصر على مرحلتين كانت اولاهما جيشا بقيادة بيبوس

وكانت ثانيتهما جيشا اخر بقيادة المعيث نفسه . وعلمت الجيوش المملوكية بذلك فزحفت

الى غزة بقيادة نائب السلطنة سيف الدين قطز . وجرت المعركة الاولى عند العباسية

في ردى القعدة سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ وفيها ابدى بيبوس فنونا حتى من الشجاعة

والاقدام ، فاتصل به بعض الامراء البحرية في مصر يشيرون عليه بالانضمام اليهم ، لكنسه

رفض وتابع القتال حتى انهزم وتراجعت قواته ، ولقيت صعوبات جمة في تامين القوت

والماء .

وكان حده على سيف الدين قطز ، وقد اشترك باعنيال فارس ادين اقطاي

لا يعرف حدا ، بذلك عاد الى المعيث وامنعه ان يعيد الهجوم على مصر . وفي ربيع

الآخر ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ جرت معركة الساحية وانهزم فيها جيش المعيث وهرب هـدا

لينجو بنفسه بعد ان نهب ما معه ، وفر بيبوس ايضا ، وانتقيا في الكرك . وطبيعي ان ينقم

المعيث على بيبوس توريطه في هذه المعارك الفاشلة لكنه خشي الخصومة العلنية

معه خيفة ان ينضم الى غيره (٢) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٣ ، ابن شاذان الكتيبي ج ١ ص ١٦١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٢٤٠

ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، اليونيني ج ١ ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٥ ، ابو الفداء ج ٣

ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، المقريزي ، السلوك ص ٤٠٦ ، ابن تغري بردى ،

النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٩٨ ، ٩٩ .

وعلم الناصر صلاح الدين يوسف بذلك فاراد ان يقضي على البحرية ، فارسل جيشه لمحاربتهم لكن قوات بيبيرص المبالغة نحو ستماية مملوك بحرى ، كسرت جيشه وطارده الى جوار دمشق . فخرج الناصر بنفسه لصد هم ، لكنه فشل ايضا ، حتى كان بيبيرص يقصد خيمة الناصر بالدات ويقطع اطنابها (١) . واصطدم الناصر بهم مرة اخرى في اوائل ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ ، لكنهم عبروا هذه المرة الى الكرك ، فتبعهم الى بركة زيزاء . واتصل بيبيرص يستميله اليه فرفض . لكنه لما علم بانعقاد الصلح بين الناصر والمغيث على ان يسلم هذا الاخير من عنده . من البحرية ، وجد نفسه مضطرا لمفاوضة الناصر للدخول في طاعته . وانه الظروف اد ان الممول كانوا دخلوا بغداد ، فخشي الناصر على نفسه ، وفاوض بيبيرص على اقطاعه نابلس وجنينين وزرعين فجاء . بيبيرص في رجب سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ ، فآكرمه الناصر واكرم جماعته ايما اكرام (٢) .

وهكذا عاد بيبيرص الى الناصر . ولكنها كانت العودة الاخيرة ، قبل الرجوع الى مصر . حوضه مرة اخرى على مهاجمة مصر . فلم يقبل الناصر نصيحته هذه المرة . ثم فاضه على تجنيد اربعة الاف فارس يتوجه بها نحو الفرات ليمنع التمر من العبور الى بلاد الشام فما رضي الناصر ذلك ايضا ، لان زين الدين الحافظي عارض في مثل الحملة ، ولم تنفع حدة بيبيرص في تأييد وجهة نظره ولا دعواه انه انما ينبغي نصرته الاسلام . فما كان منه الا ان انزوى في خيمته (٣) .

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠ ، اليونيني ج ١ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ابو الفداء ج ٣ ص ٢٠
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٧ .
(٢) ابن عبد الظاهر ص ١١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ ، ابن شاکر الكتبي ، ج ١ ص ١٦١ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٤١٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة مج ٢ ص ٥٧
(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٢ ، اليونيني ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ابو الفداء مج ٣ ص ٢٠٩ ، ابن شاکر الكتبي ، ج ١ ص ١٦١ ، المقرئى ، السلوك ص ٤١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج ٢ ص ٩٩ .

خمس سنوات مرت على بيبرمو وهو في بلاد الشام يتنقل بين الناصر صلاح الدين يوسف والمعيث ، او يعيش مشردا مع جماعته . ولم تسفر هذه السنوات الخمس عن نتيجة . فليس الناصر ولا المعيث بقادرين على احتلال مصر ولا على صد التتر . فلا بد بعد هذا من تغيير خطته . كانت السنوات الخمس كافية لاقتناعه بضرورة العودة الى مصر . ان رفاقه الذين هربوا معه يوم فر من عز الدين يتناصون باستمرار بالموت حينما او بالعودة الى مصر حينما اخر . ثم ان اخبار مصر تحمل اليه ان سيف الدين قطز يعد العدة لمجابهة التتر . لقدود لو يعود الى مصر محتلا بعد ان فادرها هاربا ولكن الظروف لم تسعفه . وهنا يبدو لي ان بيبرمو كان رسم لنفسه خطة واضحة اما سها العودة الى مصر حيث يستطيع ان يتأثر لغارم الدين اقطاي من جهة وحيث المجال مفتوح امامه المتقدم من جهة اخرى . ولا ننسى ابدا ان بيبرمو عدو للتتر . فهم كانوا السبب المباشر في تشريده عن ابيه ، ثم هاهم يتحركون لعبور الفرات نحو بلاد الشام ومصر . اذا لابد من العودة الى مصر .

٥ - عودة بيبرمو الى مصر .

ومن فزة كاتب الصلح سيف الدين قطز صاحب مصر في سنة ٦٥٨ هـ ١٢٥٩ / وارسل اليه الامير طيبرموس الوزير يستحلفه له فحلف له قطز ووعدده الوعود الجميلة فغادر بيبرمو عزة قاعدا الى مصر ومعه بعض اصحابه . ودخل القاهرة يوم السبت ٢٢ ربيع الاول سنة ٦٥٨ هـ : ١٢٥٩ فركب السلطان يداته للنقاشه وانزله في دار الوزارة واقطعه قضاة فليوب واعمالها ثم عينه اتاكسا لعسكره

وجعله نافذ الكلمة في تدبير امور مصر (١) . وهكذا عاد الى مصر وراى نفسه في
المرتبة الثانية بعد السلطان .

ولم يمض وقت طويل على عودة بيبرس الى مصر حتى دخل التتر دمشق بقيادة
كتبغا . ثم ارسل هولاكو كتابا الى سيف الدين قطز فيه تهديد ووعيد فجمع
السلطان الامراء لاختار بينهم في الموضوع . وطبيعي ان ينقسم الامراء امام هذا
الامر فمنهم من راي الاستسلام وخشي مغبة مقاومة التتر ، ومنهم من ارتأى مقاومة التتر .
وكان بيبرس من الجماعة الثانية الذين حثوا على ضرورة محاربة التتر (٢) .

٦ - بيبرس في معركة عين جالوت .

وجرت استعدادات سريعة لمواجهة التتر ، ولا ريب ان بيبرس لعب دورا
رئيسيا في هذه الاستعدادات اذ انه اشرف على قضية تسليح الجنود ، ودار عليهم
يبث فيهم روح المقاومة ويدعوهم الى الاستبسال في سبيل رد التتر وابعد
خطرهم عن مصر وبلاد الشام ، ويصور لهم ، بأشجع صورة ، ما يمكن ان يفاسوه
اذا قدر للتتر ان يدخلوا مصر . انني احسب ان بيبرس كان ، بعد المظفر
سيف الدين قطز ، نصب المقاومة للمغول (٣) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٣ ، اليونيني ج ١ ص ٣٦٥ ، ابر العدا ج ٣ ص ٢٠٩ ،
المقريزي ، السلوك ، ص ٤٢٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٢ ص ١٠١ .

(٢) اليونيني ج ١ ص ٣٦٥ ، ابن ايامر ج ١ ص ٩٦ و ملحوظة ٢ اذناه

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٣

وأكملت الاستعدادات في شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ • ونزل السلطان من قلعة الجبل في موكب عظيم ثم سار الى الريدانية حيث امر بتوسيط اعضاء الوفد التتري ثم انتقل الى الصالحية حيث اقام حتى تكاملت حشوده • وراى قطز ان يرسل قسما طليعيا استكشافيا من جيشه فاختر لذلك ركن الدين بيبير من البندقدارى ليقوم بهذه المهمة • فذهب بيبير • يستطلع اخبار التتر حتى اذا راهم ارسل الى قطز يعلمه بمكانهم • ثم اخذ يناوئهم — ويستدرجهم من مكان الى اخر حتى وصل المظفر قطز الى عين جالوت (١) • وهنا جرت معركة حامية انتصر فيها التتر على جيش قطز • فتراجع هذا بجيشه • ثم برزت قوات بيبير الكافضة ووضعت التتر بين فكي كماشه ابلو فيها بيبير من بلاه حسنا (٢) واظهر فيها من فنون القتال ما نفخ روح المقاومة في رفاقه والقى الذعر في خصومه • ومع ذلك فان التتر كادوا ينتصرون لولا كثرة الجنود المملوكية • ولولا ان قطز ارد ف الميسرة المملوكية في الوقت المناسب • ثم كانت المرحلة الثانية من المعركة عند بيسان • وهنا تكبد التتر خسائر جسيمة اعظم مما تكبدوه في المرحلة الاولى • لقد تلغوا الصدمة في المرحلة الاولى • وها هم الان ينكفئون في هذه المرحلة • وقد برز بيبير في هذه المعركة ايضا اد انه كان يتنقل بين جنوده بسانا روح المقاومة • مقدم اليهم العدو الضرورية على الصبر وتحمل المشقات • لكن دوره كان اعظم من هذا في المرحلة الثالثة — مرحلة التصفية • فقد سبق بيبير السلطان سيف الدين الى دمشق يطارد التتر • وظل يطارد هم ابل نهار حتى وصل الى حلب فحام • ثم اصطدم بهم محشدين عند اقاميه وانتصر عليهم هنا ايضا (٣) • فعاد التتر الى الفرات •

(١) اليونيني ج ١ ص ٣٦٥ و ٣٦٦ وابن تغرى بردى والنجوم ، ج ٢ ص ١٠١ ، وابن اياس ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ •

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٣ ، ١٤ ، المقرئى والسلوك ، ص ٤٣١ ، (F.Sadeque) ص

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٣ ، ١٤ ، اليونيني ، ج ١ ص ٣٦٦ ، الذهبي ، ج ٢ ص ١٢٣ ، المقرئى والسلوك ، ص ٤٣٢ ، ابن تغرى بردى والنجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠١ ، راجع ص ٤٤ اعلاه •

وهكذا استطاع بيبرس ان يهدد بلاد الشام السلطنة المملوكية ويطردها منها
التتر بمعاونة السكان النافسين الذين ثاروا على التترو على الدين تعاونوا معهم . ولئن
لم يكن هنا مكان تفصيل موقف السكان من التتر فانه لابد من ان نلاحظ ان الاهالي
لم يرضخوا عند الفتح ، وسرعان ما انتفضوا عليهم حين اخذوا بالتراجع .
اخذ بيبرس بالعودة الى دمشق ، حيث كان قطز موقفا ارسل اليه الرماثيل
يبلغه بما جرى له مع التتر ، ووافاه فيها وهو يجرى الترتيبات الادارية اللازمة (١) .
كان بيبرس يفتنى نيابة حلب ، وقد وعده بها قطز (٢) . اولعه طلبها منه .
ولعله ينبغي لنا هنا ان نذكر ان بيبرس كان قد رفض اعطافا في حلب سنة ٦٥٢ هـ
لكن قطز لم يمنحه هذه النيابة فحقد بيبرس عليه ، اولعل حقه زاد فاد انه كان
خافدا عليه من قبل . اما سبب ذلك فلعله عيرة قطز من الانتصارات التي نالها بيبرس
ولعل خوفه منه ان ينافسها اذا ولي نيابة كبيرة كنيابة حلب (٣) .

٧ - اغتيال قطز .

ثم اتفق بيبرس وبعض رفاقه ، ومنهم سيف الدين انص وعلم الدين منعلبي
وسيف الدين بلبان ، على اغتيال السلطان حين يعود الى مصر (٤) . وينبغي ان نعتبر
هذا التاريخ حدا فاصلا في توضيح مطامع بيبرس واهدافه . ينبغي ان لا يكون عندنا
ريب بعد الان بان بيبرس اصبح يستهدف السلطنة بالدات .

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٥ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ١ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ،
ابن تغري بدي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١ .
 - (٢) المصادر نفسها بصفحاتها في الملحوظة السابقة .
 - (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٦ ، ابو الغداء ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، ص ٤٥ اعلاه .
 - (٤) اليونيني ، ج ١ ، ص ١ .

وبعد الترتيبات التي اجراها فطر في بلاد الشام توجه الى مصر . فادرت جيوشه دمشق في ٢٦ شوال سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ . وفي ١٥ ذي القعدة (١) وصلت العساكر الى الفصير (٢) . قبل المالحية . رجع السلطان بميل الى الصيد وبضربة اراحة جيشه بعد ما لاقاه من مناعب وماكسه من نصره . فحضر دلهيزه عند الفصير وامر العساكر ان يواصلوا السير الى المالحية ويخربوا خيامهم هناك وينتظروه . وذهب الجيش الا الجماعة الذين كانوا اتفقوا على اقتياله ، فقد رآوا الفرصة مناسبة ، وبقوا معه . ومضى السلطان يبحث عن صيد . فلمح ارنبا فجرت امامه فتبعها ، وتبعه المتآمرون ، وبعدت به المسافة عن الدهليز ، وتقدم اليه ببيبرس وطلب منه امراة من سبي التتر ، فاجابه السلطان الى ذلك ، فاهوى ببيبرس على يد فطر يقبلها ثم قبض على يده كي لا يستطيع استعمالها لامتشاق السيف . وكان هذا التدبير علامة بين المتآمرين . عثا حمل سيف الدين انور على فطر ونزعه بالسيف ثم جثم البقية عليه واسقطوه عن فرسه وجردوه من حسامه ، ثم رشقوه بالنشاب حتى اردوه قتيلا (٣) .

-
- (١) يختلف المؤرخون حول هذا التاريخ . فهو ١٧ منه عند ابن عبد الظاهر (ص ١٦) وابي الفداء (ج ٣ ص ٢١٦) و ١٢ منه عند اليونيني (ج ١ ص ٣٧١) او ١٦ منه عنده ايضا (ج ٢ ص ٣١) . وهو ١٥ منه عند المقرئ (السلوك ، ص ٤٣٥) ، وابن تغري ، بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٨٧) وابن اياسر ، (ج ١ ص ٩٧) .
 - (٢) هي الغرابي عند الذهبي (ج ٢ ص ١٢٣) والمقرئ (السلوك ، ص ٤٣٥) ويجعلها اليونيني (ج ١ ص ٣٧٤ ، وج ٢ ص ١) بين الغرابي والمالحية . ويسميا ابن اياسر (ج ١ ص ٩٧) القرين .
 - (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ، ج ١ ص ٣٧٠ ، ج ٢ ص ١ - ٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٦ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٨٤ ، وفي ملحوظة ١ ص ٨٤ ، من النجوم الزاهرة ان بكنوت هو الذي بادر السلطان بالضربة الاولى . ويقول ابو الفداء ، ان ببيبرس هو الذي كمال له الضربة الاولى .

وبينما كان قطز يلفظ انفاسه الاخيرة ثلثت المماليك المتآمرون بعضهم الى بعض
كانهم لا يدرون ماذا يفعلون بعد تنفيذ القسم الاول من المؤامرة ، اولحل نجاحهم السريع
في تنفيذها انهم . ثم تمالك بيبرس جائه وتحدث الى رفاقه وذكرهم بان قطز ينال عقابه
على اسهامه في قتل فارص الدين انطاي وعلى امتناعه عن منحه نيابة حلب ، ثم بذر الاغتيال
بقوله ان السلطان قد يعتقلهم لو انه وصل مصر سالما . ثم دعاهم الى العودة الى الجيش
ليرى الامراء رأيهم في السلطان المقبل .

واسرع بيبرس ورفاقه الى الجيش وهم شاهرون سيوفهم التي لاتزال منموسة بالدم .
ووصلوا الدهليز السلطاني ووجدوا الاتابك فارص الدين المستعرب (١) في باب الدهليز .
واوحت سيوفهم المشرفة للatabك بما حدث ، ولكنه سألهم حين تقدموا اليه راجلين ، ليتأكد
من صحة حديثه . فقالوا له انهم اردوا السلطان قتيلا (٢) .

كانت العادة ان تول السلطنة الملوك القاتل ، ولكنه ، لا بد في كل حال ، ان
يؤخذ رأي الامراء ، فاستدعى الامراء للنظر في اختيار السلطان الجديد . وفي هذا المؤتمر
تكلم الاتابك فقال ان بيبرس هو الذي دبر المؤامرة واشترك في تنفيذها وانه هو القاتل .
وكان بيبرس حاضرا المؤتمر ، جالسا على طراحة ، بين بقية الامراء ، فثلثت
اليه الامراء ، وتذكروا انه حاند على سيف الدين قطز لانه لم ينل نيابة حلب وتذكروا حسن
بلائه في معركة عين جالوت . ثم عاد تبهم الدكريات الى تنرده ، والى حسن بلائه في معركة
المنصورة ، وحسن اهتمامه برفاقه الامراء والجنود .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٠٢
(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٢ ، اليونيني ج ٢ ، ص ١ - ٢ ، المقرئى والسلوك ص ٤٣٦ .

ثم عاد الاتابك الى الكلام فقال •

” اسمعوا يا اصحابنا • والله لو كان الملك المظفر حيا او له ولد له في عنقنا
يعين اول ما كنت اتاثلكم بسيفي • وانما الساعة تدفان فيه الثرى ولا شك ان السدى
قتله وفرر بنفسه وفعل هذا الامر العظيم ما فعله لغيره فمن قتله فهو احق بمكانه •
ثم توجه الاتابك الى بيبيرس وساله عن قتل المظفر فطر • فرد بيبيرس انــه
هو القاتل • واستشهد بالجماعة الذين كانوا معه فاثبتوا ما قاله • ثم عاد بيبيرس الى
القول انه انما يبتغي ان يقيم ” الدولة الصالحية على ما كانت عليه من سوامير ورسوم •
عندئذ ادار الاتابك نظره في الامراء كما انه يقول ان الامر مفروغ منه • بعد ان
وعد بيبيرس باقامة ” الدولة الصالحية • فمسكت الامراء • فقال الاتابك لبيبيرس •

” يا خوند اجلس على مرتبة السلطان • • (١)

فنهض بيبيرس عن الطراحة وجلس حيث امره الاتابك (٢) •

بقي ان يقسم الامراء يعين الولا والطاعة للمسلطان الجديد • ولكنهم لم يقسموا
له بذلك حين استدعاهم الاتابك • وانما نظر بعضهم الى بعض • هنالك شروط يريدون
ان يملوها قبل القسم • ورفقا الاتابك ما يريدون • فقال لبيبيرس ان الامراء يريدون منه ان
يمنحهم ما يستطيعه من الخلع والاموال لانهم بحاجة الى ذلك بعد ما نالهم من تعب

(١) النجوم ٧ ص ٨ و ١٠٢ اليونيني ج ٢ ص ٢ •
(٢) ابن عبد الظاهر ص ١٧ ، ١٨ اليونيني ، ج ١ ص ٣٧٠ ، وج ٢ ص ١ و ٢ ،
ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، المدرى ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغرى
بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ •

واجهاد ، وبعد ما بدلوه في المعركة الاخيرة مع التتر .

لقد كانوا يتوقعون من السلطان الراحل ان يجرى عليهم النفقات بعد ما يدوه ،

فينبغي لمن يحل محله ان يفعل ما كان متوقعا منه ان يفعله .

كان الاتابك جريثا ومريحا في كلامه . فايده الامراء ، لانه افصح عما في

صدرهم . فما كان من بيبرس الا ان حلف لهم بان يوزع عليهم ما تصل اليه يده .

عند ذلك تحرك الامراء نحوه ليقسموا له اليمين . وكان الاتابك اول المبايعين ،

ثم تبعه بقية الامراء ، طبقة طبقة ، حتى جاء دور العسكر ، فحلفوا له اليمين ايضا . وكان

ذلك في ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ (١) .

ووصل القاضي برهان الدين قادما من مصر . بجيش لملاقاة المخضر مطر فلما

علم بما جرى فاقسم يمين الولاء للسلطان الجديد (٢) .

وشعر بيبرس ان بين الامراء عددا لا يؤيد ما حدث . انهم لا يريدون السلطنة

له ، وهم يرون ان قطز قتل بغير ذنب وقد كانت له اليد البيضاء في محاربة التتر (٣) .

ولكنه لم يستطع الا ان يسكت .

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧١ ، وج ٢ ، ص ٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٤٠٨ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٢ ، اما المقرئ (ص ٤٣٦) وابن اياس (ج ١ ص ٩٨) فيقولان انه تسلم السلطنة في ١٥ منه . ولعل هذا الفرق - اليومين - يعود الى ما جرى من مشاورات . راجع ٦٩ ملحوظة ١ .
- (٢) اليونيني مج ٢ ص ٢ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٤٠٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٢ .
- (٣) ابن اياس ، ج ١ ، ص ٩٧ .

وفي هذا النهار داته ، ١٧ ذى القعدة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ، اخذ يعقود
الترتيبات التي ترافق مجيء السلطان الجديد عادة - فعين فاروق الدين اقطاعي
المستعرب اتابكا لعساكره واستخدم الامراء الذين كان الملك الصالح نجم الدين ايوب
قد اختارهم ، ثم تلقى بالملك القاهر (١) .

وكان بيبرس اراد ان يبني اياما اخرى هنا ريثما تجيء بنية العساكر
وتحلف له بيمين الطاعة ولكن الاتابك اشار عليه بضرورة الرحيل الى مصر لان السلطنة
لا تتم له اذ لم يدخل قلعة الجبل . وعزز رايه بان الناس قد يستغلون خبر موت
السلطان ويحاولون تعيين سلطان اخر . فرحل السلطان الى مصر ومعه الاتابك وبعض
خواصه من الامراء امثال بدر الدين بيسرى الششمي وسيف الدين قلاوون وبدر الدين
بيليك الخزندار (٢) .

وفي الطريق التقى عز الدين ايدمر الحلي قادما من مصر بجماعة من الجنود
لاستقبال قطز فاعلم عز الدين بما حصل ، فحلف بيمين الولا للسلطان الجديد
وقبل راجعا يتقدمه الى القلعة ليخبر الامراء بموت قطز ويحلفهم بيمين الولا لبيبرس
بعد ابلاغهم وعود السلطان لهم . وفي ليل ١٩ ذى القعدة
سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ دخل السلطان القلعة . وفي الصباح نادى المنادى في
القاهرة :

ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٨ ماليوني ، ج ١ ص ٢٧٢ موج ٢٠ ص ٢ مابو الفداء ، ج ٣ ص
٢١٧ ابن ابي الفضائل ، ص ٤١٢ مالحقريزى والسلوك ، ص ٤٣٧ ، ابن تغري بردي
النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٠٣ مابن ايامر ، ج ١ ص ٩٨ . راجع ايضا ملحوظات ص
٦٤ أعلاه .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ماليوني ، ج ١ ص ٢٧١ مابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٧ ،
المقريزى والسلوك ، ص ٤٣٦ ، ابن تغري برد كالنجوم ، ج ٢ ص ١٠٢ .

وهنا نصح الزيرزين الدين بن الزبير السلطان بتغيير هذا المعبد الى الظاهر

وفي اخر النهار صار النداء بالسلطنة للملك الظاهر (١) .

وكانت القاهرة مزينة لاستقبال المظفر قطز ، وبقيت الزينة ولكن الاستقبال مسمار

للسلطان الجديد . اما الناس فاحصوا ببعض الغم انهم خشوا عودة البحرية وافسوا

ان يرجعوا الى ما عرفوا به من افساد وتخريب ولكنهم راوا انه لا مندوحة من التهايل واطهار

الطاعة ، فاخذ زعماءهم يتوافدون على قلعة الجبل يحلفون لعيمين الولاة . وظلوا كذلك الى

ما بعد العصر (٢) .

وهكذا ربي بيبرس الى اعلى مركز يمكن ان يطمع اليه ملوك في ذلك الوقت . فقد

كان ملوكا اشتراه علاء الدين البنددارى ثم صار في خدمة الملك الصالح نجم الدين

ايوب - فبرز عنده ، ثم خدم ابنه المعظم نورانشاه ، ثم اشترك في اغتياله ، ثم هرب الى

بلاد الشام عند مقتل فارس الدين اقطاي ، وتغل فيها بين صاحبي دمشق والكرك ، الى ان

رجع الى مصر في خدمة قطز ، ثم خرج معه الى بلاد الشام لمحاربة التتر ، وفي طريق

العودة الى مصر بعد النصر على التتر ، اغتال المظفر قطز ، وصار سلطانا وبداك تحققت نبوءة

المنجم .

حقا ان سنة ٦٥٨ هـ كانت ذات أهمية . ففيها حلف التتر الى بلاد الشام

وخربوها - ثم انكسروا في عين جالوت وتراجعوا ، ثم قتل المظفر قطز ، واستلم السلطنة

بعده الملك السلطان الظاهر ركن الدين ابو الفتوح بيبرس بن عبد الله البنددارى

الصالح النجمي الايوبي التركي (٣) .

(١) اليونيني ج ١ ، ص ٣٧٢ موجد ٢ ص ٣ ، ابو الفداء مج ٣ ص ٢١٧ ما بن ابي الفضائل ص

٦٩ - ٧٠ ما المقريزي السلوك ، ص ٤٣٦ و ٤٣٧ . وان ابي الفضائل يخطف عن البيهقي

بجعل موعد الوصول الى القطعة في ١٦ ذى القعدة .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٧ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٢ موجد ٢ ص ٢ ، ابو الفداء ، مج ٣ ص

٢١٧ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٧ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٣٧ ، ابن تغري بردى ، النجوم

الزاهرة ، ج ٢ ص ١٠٢ ما بن ايامر ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٣) ابو شامة ، ص ٤١ ، ابن عبد الظاهر ، ص ٢ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، مج ٧ ص ٩٤ .

بيبرس يوطد سلطانه

إذا تذكرنا الظروف التي رافقت وصول بيبرس الى السلطنة عرفنا ان السلطان الظاهر لابد ملق صعوبات جمة قبل ان يتوطد سلطانه • كان هنالك عدد من الامراء المنافسين له على السلطنة ، وكان الناس يكرهون حكم البحرية لانهم مفسدون مخربون ، ولانهم قوم مسهم الرق (١) • زد الى هذا ما يواجهه في الخارج من اخطار من التتروا والعرجة وقد تركت الموضوعين الاخرين الى الفصل الذي يتناول السياسة الخارجية • وقد كان يمكن الحديث عن الموضوعات الاولى في معرض الحديث عن سياسته الداخلية ، ولكنني اشرت الحديث عنها في فصل خاص لانها وقعت في بداية عهده ، ولانها لم تكن لها صفة الاستمرار •

١ - الادارة الجديدة •

كان الظاهر قد بدأ بتعيين حكومته الجديدة وموفي العصور ، حيث نزل قطز • وقد عين فارص الدين اعطاي المستعرب (٢) • اتابكا لجيشه ومعين بعض امراء الملك الصالح نجم الدين ايوب ، معاونين له • ولما وصل قلعة الجبل في القاهرة ، تابع تعيين اعضاء ادارته الجديدة • فامر ما فعله في العصور ، واستبقى الماحبزين الدين يعقوب الزبير على الوزارة (٣) • ثم عين اقوش النجيبى استاد الدار ، وعز الدين الانصاري

- (١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣ •
- (٢) من ممالك الملك الصالح نجم الدين ايوب ، حار اتابكا لقطز ثم استمر اتابكا للظاهر حتى توفي في جمادى الاولى سنة ٦٧٢هـ / ابن كثير مج ١٣ ص ٢٦٦ ، المعري ، السلوك ، ص ٦١٣ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٤٢ • وينظر هذا الاخير بالقول ان الظاهر كان يتبهم به لكنه لم يسعه الا ان يفيه لحزمه وعزمه وحسن رايه • ولما راي فارص الدين ان الظاهر يغرب اليه بليك الخزندار تمارض نحو سنة حتى مات •
- (٣) ولم يطل الامر به حتى عزله في ٨ ربيع الاول سنة ٦٥٩هـ وعين مكانه الماحب بهاء الدين بن حنا • (اليونيني ، ج ١ ص ٣٧٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة مج ٧ ص ١٠٣ ، ابن اياس ، ج ١ ص ٩٩) راجع ص ١١٨ ادناه •

جانداز ، وحمام (١) الدين الدرفيل وسيف الدين بلبان الترومي ودادارين ، وبهاء الدين الشهرزوري امير اخور ، وبدر الدين بيسرى الشمسي موسىف الدين قالاوون وبدر الدين بكتوت ، وعز الدين بيدعان المعروف بعم الموت ، وبلبان الهاروني فسي رتبة مقدمي الف ، وركن الدين اباجي ، وسيف الدين بكجري ، حاجيين (٢) .

ثم اخذ يكتب للسلوك والامراء في بلاد الشام واليمن والمغرب يبلغهم بانـه اصبح السلطان الامر الناهي . كتب الى الملك الاشرف (٣) صاحب حمص ، والى الامير منصور صاحب حماه ، والى الامير مظفر الدين عثمان صاحب صهيون ، والى الاسماعيليه ، والى الملك السعيد المظفر علاء الدين علي بن لؤلؤ نائب حلب والى الامير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق (٤) . فاجابه الملك الاشرف والامير المنصور والامير مظفر الدين عثمان بالاعتراف بسلطانته وبالطاعة له . وفي ١٠ ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ جاءه صاحب حمص وحماه الى دمشق واعلنا خضوعهما له (٥) . اما صاحب الاسماعيليه وعلم الدين سنجر فلم يجيباه الى الطاعة وسنحدث عن كل منهما على حدة .

-
- (١) وهو "صيام" عند القرظي والسلوك ، ص ٤٣٨ .
 - (٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٢ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٧ ، القرظي والسلوك ص ٤٣٨ ، ابن اياس ج ١ ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
 - (٣) كان الاشرف وصل الى بعلبك في مستهل شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ و امره نائب هولاء في بلاد الشام نائبا على حمص والرحبة وتدمر و تل بامر و فلاحه ثم جعل بلاد الشام كلها تحت نظره (اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٥٦ و ٣٦٠ .
 - (٤) اليونيني ج ١ ، ص ٣٧٢ ، ج ٢ ، ص ٢ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٦٨ ، القرظي ، السلوك ، ص ٤٣٦ ، ٤٤٤ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ٩٩ و ١٠٠ .
 - (٥) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٥٤ ، القرظي ، السلوك ، ص ٤٦٢ ، اندر ملحوظة ٥ ، ص ٧ اعلاه وفي شعبان سنة ٦٥٩ هـ جاءه ، الى القاهرة صاحب الموصل اتهمته بالسلطنة فتلناه بالترحيب ثم جاءه صاحب الجزيرة و منجار (القرظي ، السلوك ، ص ٤٦٠ — ٤٦١) .

ثم أصدر تعليماته بضرورة الاتصال بالبحريرة الذين كانوا لا يزالون مشركين خارج مصر ليعودوا اليه (١) . ونفى الملك المنصور نور الدين على بن عز الدين ايبك وامه واخاه الى الاشكرى ، وقد كانوا معتقلين بالقلعة من ايام قطز (٢) .

ولكن هذه التدابير لم تكن كافية اذ ان الناصر كانوا لا يزالون يشعرون بالخوف من البحرية . فعمد الىعاء الضرائب التي كان قطز استحدثها بحجة جمع الاموال لتجهيز الحملة على التتر . ثم اطلق سراح المجاهدين من اصحاب الجرائم ، ومن الجنود وانعم على الامراء ووهبهم الخلع والعطايا . فكان لهذه التدابير اثرها في النفوس ، فانفجرت اسارير الناس واخذوا يقيمون الزينة ويدعون له (٣) .

وانتهت السنة . وكان لا يزال امام الظاهر تدبير آخر شكلي يبعث في القيام به وهو الركوب بشعار السلطنة (٤) .

(١) ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٣) ابن عبد الظاهر ص ١٩ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٢ ، ابن ابي الفضائل ص ٦٨ ، المقريزي ،

السلوك ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٤) وشعار السلطنة " فاشية سرج من اديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يديه عند الركوب في المواكب الحطة والاعيان ونحوها . يحملها احد الركاب دارية رافعا لهما على يديه يلفتها يمينا وشمالا وهي من خواص المملكة ومنها المظلة ويعبر عنها بالجتسر " . لكنه ينبغي ان نلاحظ انه كان لكل موكب او احتفال ترتيبه (القفشندي ج ٤ ، ص ٧ - ٨) .

وفي يوم الاثنين السابع من صفر سنة ٦٥٩ هـ / كانون الاول سنة ١٢٦٠ ركب

الظاهر بشعار السلطنة وخرج من قلعة الجبل في هيئة الملك ثم نزل من وراء
الفاخرة وعاد فدخلها من باب النصر وشقها حتى خرج منها ثمانية من باب زويلة
وكان الامراء والاعيان والجنود بين يديه • وقد زينت الفاخرة فبرزت في حلقة بهيئة
ونشرت الدنانير على السلطان في الشارع • ولما عاد الى القلعة منح امراءه ومقدميه
وخواصه اموالا طائلة (١) •

كان هذا اول خروج الظاهري موكب رسمي ، لكنه اتخذ من مثل هذه الموكب
خطة رسمية فيما بعد • فكان يخرج على هذا الشكل الى العبالعق مرة او مرتين (٢)
في الاسبوع - لان مثل هذه الموكب تؤثر في الناصر وترهبهم •
ثم اخذت تتوالى عليه الاحداث التي تحتاج الى نشاط عسكري واليها وجهه
الظاهر اهتمامه •

٢ - ثورات ومحاولات انفصالية :

لاني الظاهري المنتقمين الاوليين من عهده ثورات ومحاولات انفصالية
كثيرة ، كان بعضها خطيرا ، ولكنه استطاع القضاء عليها جميعا والمحافظة على
سلطانه بفضل تدابير السريعة العسكرية والسياسية معا • وقبل الحديث عن
الحركات الانفصالية الخطيرة لابد من الاشارة الى بعض حوادث صغيرة
حدثت في مصر •

وفي اواخر سنة ٦٥٨ هـ قام جماعة من السودان الركاب بدارية بثورة فسي
الفاخرة مطالبين بعودة ال علي الى السلطنة • وكان زعيمهم يعرف بالكراني لكن
الجيش قضى عليهم في ليلة واحدة وقلعهم على باب زويلة (٣) •

(١) البيهقي ، ج ١ ، ص ٤٣٧ ، وج ٢ ، ص ٩١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٤٤ •

(٢) راجع ملحوظة اعلاه •

(٣) المقريزي ، السلوك ، ص ٤٤٠ •

وفي ربيع الاول سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ جاء احد اجناد الامير عز الدين الصقلي (او الصقلي) الى السلطان الظاهر وابعد ان استاده يفرق الاموال على جنوده لتأييده في اغتيال السلطان . وكان الامراء علم الدين الختمي وبهادر المعزى وشجاع الدين بكتوت بين المشتركين في هذه المؤامرة ، فاعتقلهم الظاهر ونفى على المؤامرة . . . مهدها (١) .

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٦٠ هـ قاد ثاني المنير في مزارقائه ———
المهزوزية والاكراذ واستدعى نخبا من بني العباس ولتنصيبه خليفة راقامة دولة اخرى غير دولة المماليك ، فقبض الظاهر عليه ومنعه عشية الثلاثاء ١٨ جمادى الآخرة (٢) .
وفيما يلي عرض للمحاولات الخطيرة وللجراءات التي اتخذها السلطان .

اولا - منجسر الحلبي :

كان علم الدين منجسر الحلبي طامعا بالسلطنة منذ عهد عز الدين ايبك التركماني . وقد نوى لاستيلاء على السلطنة بعد مقتل عز الدين ، لكن الامراء لم يؤيدوه ، فانحطرت الى التخلي عن المطالبة بالسلطنة ، ثم قتل امره على الناصر فسجن في ربيع الآخر سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ في الاسكندرية الى ان افرج عنه السلطان المظفر سيف الدين قطز وعينه نائبا على دمشق بعد معركة عين جالوت (٣) .

ولما علم بمقتل السلطان قطز ظن الفرصة مؤاتية للعصيان والاستقلال . قاد اسم ينل السلطنة في القاهرة فلتكن له دمشق . وفي السادس من ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ، اى بعد سلطنة الظاهر بايام جمع علم الدين منجسر الامراء والاعيان في دمشق واللب منهم ان يقسموا له يمين الطاعة . لم يكن قد اعلن العصيان بعد ، وانما اللب ان يخطب

(١) اليونيني ، ج ١ ص ٤٣٩ ، وج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٩ ، المغريزي السلوك ص ٤٤٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٠٨ ، يوفى هذا الاخير (ص ١٦٦) ان الظاهر عاد فانرج عن علم الدين الختمي في ٢٦ شعبان سنة ٦٧١ هـ . .

(٢) ابو شامة ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٣١ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، الذهبي ، ج ٢ ص ١٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٢ ، ابن ايامر ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

لهما معا في دمشق وان تكون السكة باسميها معا وان يكتب على احد وجهيهما
" الملك الظاهر ركن الدنيا والدين " وان يكتب على الوجه الاخر " الملك المجاهد علم
الدنيا والدين " . ثم اتصل بماحب حمص وماحب حماه وماحب حلب طالبيا منهم
ان يؤيدوه في ذلك . ولم يؤيده امراء البلاد الشامية ، اما امراء دمشق فانقسموا
بين مؤيد ومعارض . واما اهل دمشق واعمالها فسرخوا بذلك سرورا عظيما (١) .

هذه ثورة يواجهها الظاهر بيبرس فور اعلانه سلطانا . فلا بد من القضاء

عليها بسرعة قبل ان يمتد شررها ، لاسيما والتتر لا يزالون على تخوم بلاد الشام
يتحينون الفرصة . ويزيد في تطورتها ان اهل دمشق ناصروا علم الدين . ولندكر
ايضا ان بعض الامراء لم يبايعوا الظاهر بالسلطنة عن رضى . لذلك كان استمراره
في السلطنة يعتمد ، الى حد بعيد على التضاء على هذه المحاولة ، وعلى الاحتفاظ
ببلاد الشام ، وهي الدرع الواقى للسلطنة المملوكية ازاء خصومها التتر والفرنجية
على السواء . ولندكر هنا ايضا ان الظاهر لم يخرج من القاهرة قبل ان يتأكد
من فوزه على خصومه في بلاد الشام .

ارسل الظاهر بيبرس الامير جمال الدين اقوش المسمى الى بلاد الشام
يحمل كتابين . ثم اتبعه بجيش يتوده علاء الدين البندقدارى وبهاء الدين بغدى
الاشرفي ، وارسل ايضا الى البرلي نائبه في الساحل المحاق بعلاء الدين الى دمشق
للمعاون معهما على منجر (٢) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣١ ، ابو شامة ص ٢١٠ ، اليونيني ، ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، موج ٢
ص ٣ ، ابوالفداء ، مج ٣ ص ٢١٧ و ٢١٩ ، ابن ابي الغضائى ص ٦٨ ، ٦٩ ، الحفريزى
السلوك ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، مج ٧ ص ١٠٢ ، ١٠٤ ، ابن

الاسم ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، موج ٢ ص ١١٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم
الزاهرة ، مج ٧ ، ص ١٠٧ .

وكان احدا الكتابين الى سنجر نفسه يلومه فيه على فعلته ويدعوه الى الطاعة، ثم يهدده ، اذا اصر على موقفه . ووصل الامير جمال الدين الى ظاهر دمشق في ٣ صفر سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م. واطلع سنجر على الكتاب وكان هذا الكتاب دفعه خدوة اخرى بعيدا عن الظاهر فجاهر بالاستقلال ، وقطع الخطبة باسم الظاهر ، وانفرد بها ، ثم ركب بشعار السلطنة ، وجمع العمال لعمارة قلعة دمشق (١) .

عند ذلك ابرز جمال الدين الرسالة الثانية وهي موجهة لامراء دمشق وفيها نواحيث يعود واماوال وخلع ببذلها الظاهر لهم . فخرج بعضهم عن طاعة الملك المجاهد وانضموا الى جمال الدين بظاهر دمشق . وكانت الجيوس الظاهرية قد وصلت ايضا . وفي ١٢ صفر خرج سنجر بجيشه لمقاومة جيوس الظاهر ، فغلب على امره وهرب الى القلعة ، حتى اذا هبط الليل ، غادرها الى قلعة بعلبك ، ودخلت الجيوس الظاهرية دمشق واقامت فيها الخبة للملك الظاهر (٢) . وبقي علاء الدين بدمشق يدير شؤونها باسم الملك الظاهر نحو من شهر حتى جاء علاء الدين طبرس الوزيري من قبل الظاهر نائبا على قلعتها ومسؤولا عن اموالها (٣) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣١ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٣ و ٣٧٤ و ج ٢ ، ص ٣ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ابن تغري بروجي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٣ ، ابو الفداء ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٧ — ٧٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٤٤ ، ابن تغري بروجي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، ١٠٧ ، وينفرد هذا الاخير بجعل المعركة يوم السبت ، ١١ صفر .

(٣) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، و ج ٢ ، ص ٩١ ، ١١٨ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢١٩ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٧٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٤٥ ، ابن تغري بروجي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٨ .

ثم راحت الجيوش الظاهرية تطارد منجر الى بعلبك حتى اذا اعتقله فيها ارسلته الى مصر مقيدا في ١٦ صفر ، فارسل الظاهر الامير بيسرى المقاتل ، وادخله من باب القلعة خفية ، ثم عاتبه عتابا خفيفا ، وعانقه ، وادناه اليه ، واكرمه ، واطلق سراحه ، فعاد محاولة الاستقلال في حلب مرة ثانية فوفشل ايضا (١) .

واعقب هذا النصر خضوع سائر المدن الشامية للظاهر (٢) .

ثانيا : شمس الدين اقوش البرلسي : (٣) .

كان نظير مدعيه واليا على نابلس وفزة والسواحل وكان معه الامير بهاء الدين بغدي الاشرفي (٤) . وقد ذهبوا الى دمشق بصحبة علاء الدين البندقداري لمحاربة منجر الحلبسي . ثم ورد الامر من الظاهر الى علاء الدين لاعتقالهما واعتقال جماعة من العزيزية ، ففر الجميع لكن بغدي عاد وسلم نفسه في ربيع الاخر سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ وحمل الى القاهرة وحبس في قلعتها حتى مات في السجن (٥) .

اما البرلسي وجماعة الاشرفية والعزيزية والناصرية فواصلوا العرار (٦) . فكتب علاء الدين للبرلسي يلومه على الهرب ويقول له ان المقصود هو بهاء الدين بغدي وحده ثم ارسل اليه "مثالا من مصر يرغبه" لكن البرلسي لم يثق به . واتصل بالاشرف صاحب حمص يحرضه على الثورة فلم يجبه . ثم اتصل بامراء حماه فاجابه بعضهم ووعدوه بانهم مستعدون لان يفتحوا له القلعة . وعرف المنصور صاحب حماه بالموامرة فغير الحزم المتأمرين من دون ان يشعرهم بانه عالم بالموامرة ، فشلت خطة البرلسي (٧) . فعاد السج

(١) ملحوظة ٣ ص ٧٢ . وص ٧٥ ادناه

(٢) ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٩

(٣) وهو برلسي برلو عند ابي شامة ص ٢١٥ ، والبرلسي عند ابن ابي الفضائل ص ٨٠ و ٨١ .

(٤) ابن عبد الظاهر ص ٣٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٢ .

(٥) البيهقي ج ١ ص ٤٣٩ ، ج ٢ ص ١٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٦) ابن عبد الظاهر ص ٣٢ .

(٧) البيهقي ج ٢ ص ١٠٤ - ١٠٥ - ١١٩ - ١٢٠ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

المنصور نفسه يحرضه على الثورة ويدعوه الى تزعم الحركة الايوبية لاستعادة السلطنة فرد عليه المنصور نافيا ان يكون له مطمع بالسلطنة ، معلنا افتناحه بحماه وطاعته لصاحب مصر ، منكرا على البرلي وامثاله ان يكونوا وفوا " لاحد من بيت " استاذهم حتى يفوا له . هنا هاجم البرلي حماه ثم ذهب الى شيزر .

وهنا لم يجد البرلي امامه الا اللجوء الى الحيلة . امر جنوده ان لا يلبسوا لباس الحرب وقصد بهم حلب واتصل بنائبها منذ ربيع الاخر سنة ٦٥٩ هـ فخر الدين الحمصي للتوسط له عند السلطان الظاهر . وخرج فخر الدين الى ظاهر البلد ليلقاء وجرت بينهما مفاوضة يهدو منها ان البرلي اعلن استعداد له للعودة الى طاعة الظاهر مشروطا لقاء ذلك ان يعين نائبا على حلب ، ومقدما على مساكرها ويعطي جماعته اقطاعا ، من غير ان يجتمع بالملك الظاهر لعا ذلك . واحص فخر الدين بما يخامر نفس البرلي من طمع وخشي على نفسه منه ، فوعده بالذهاب الى القاهرة للتوسط لدى السلطان .

وخرج فخر الدين الحمصي من حلب ، فدخلها البرلي ، وعزل انصار الظاهر ونائبه ، وامر اصحابه فيها ، واعطهم الاراضي ، ثم وزع الغلال المخزونة في المدينة على الاغراب الوافدين عليه بقيادة الامير ابن حديشة (١) .

وكتب فخر الدين الحمصي الى الظاهر يعلمه بما جرى ، فارسل السلطان جمال الدين اقوش المحمدي لمطاردة البرلي واعتقاله ، والتقى المحمدي بفخر الدين قادمًا من حلب فانضم هذا الى المحمدي بناء على رسوم من الظاهر ، لمحاربة البرلي ، ولتقوية الجيوش المطاردة للبرلي فعا الظاهر من سنجر الحديثي توني جمادي الاولى ولاء نيايسة السلطنة بحلب وضحه ما يلزم للقيام بشؤون النيابة . وجهز له جيشا يحارب به البرلي .

(١) اليونيني ، ج ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ابر الفداء ، ج ٣ ص ٢٢٠ ابن أبي الفضائل ، ص ٨١ .

ثم ضم اليه مزال الدين الدمياطي ايضا . وخرجت هذه الجيوش من مصر في شعبان ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ قاصدة حلب . ولما علم البرلي بقدومها هرب الى الرقة فتبعه جمال الدين افوش المحمدي وادركه فيها فعاد البرلي الى الحلاينة والمخاطة مرة اخرى واطن خضوعه للسلطان وطلب من الامير ان يتوسط له لدى بيبرس على ان يبقى له اماره حران لانه طرد التتر منها . ثم هدد باللجوء الى التتر ان لم يفعل ذلك فوعده المحمدي بالتوسط له لدى السلطان وتركه يذهب الى حران . (١) .

اما سنجر الحلبي فبقي نائبا في حلب . ثم عاد يحاول مرة اخرى ان يستقل فاتهصل بوالي البيرة يحمده بمبلغ من الذهب مقابل تسليمه المدينة . فاخذ الوالي المال ولم يسلمه المدينة - فاتهصل بالبرلي في حران واستدعاه اليه واجتمعا في تل باشر (٢) فانضم عدد من رجال سنجر الى البرلي ، فضعف شان سنجر ، فهرب امام البرلي فدخل هذا الى حلب في رمضان ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ وارسل جنوده لمطاردة سنجر ولم يدركوه (٣) .

ومرة اخرى وجد الظاهر حلب تخرج من يديه فارسل جيشا لاستعادتها ففر البرلي في اوائل سنة ٦٦٠ هـ الى حران ثم الى امد ، لكنه عاد الى حلب بعد مودة الجيش وتظاهر بالطاعة للظاهر فعفا عنه السلطان وثبته في النيابة عليها . ولما افار التتر على الموصل استنجد صاحب الموصل بالبرلي فاستاذن هذا الظاهر بالتوجه الى الموصل لمعاونة صاحبها ، فاذن له الظاهر شرط ان ينتظر جيشا اخريبعث به اليه ليوافيه فسي حران . فخشي البرلي ان يكون ذلك

(١) اليونيني ج ٢ ص ١٠٥ و ١٢٢ ، ابو الفدا ، ج ٣ ص ٢٢٠
(٢) قلعة على نهر ساجور عند فينياب شمالي سوريا ، لم يذكرها المؤرخون العرب قبل الحروب الصليبية . واكثره سكانها ارمن نصارى .
"Tel Bachir" EI ج ٤ ص ٧٢٢ - ٧٢٣ .
(٣) اليونيني ج ٣ ص ١٠٦ ، ابن تغري بردى للنجوم ج ٧ ص ١١٣ .

في حران • فخشي البرلسي ان يكون ذلك شركا لا اعتقاله، فنصد سنجار • ثم وحمل الامراء شمس الدين سنقر الترمي وعلاء الدين طيبرمر الوزير وعلاء الدين البندمداري، فوجدوا ان البرلسي فرقتسلما حطب وبقي علاء الدين البندمداري نائبا فيها • اما طيبرمر فعاد الى دمشق، وسنقر فعاد الى القاهرة (١) •

وعرض هولاكو على البرلسي ان ياتي اليه، فرفض البرلسي • وكانه تيقن ان حياة التشرد لن تجديهم نفعا فاعلن ولاه للظاهر، فعفا عنه السلطان، وجاء الى مصر فسيدي الحجة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ واكرمه الظاهر اى اكرام واكرم العزيزية والناصرية الدين معه اينما، ثم كتب له منشورا بستين فارسا واعطاه طبخا ناه، وصار يترجمه في رحلات الصيد، لكنه عاد فاعتقله في ٢٨ رجب سنة ٦٦١ هـ، وكان ذلك اخر العهد به (٢) •

ثالثا : المعيث صاحب الكرك (٣) •

المعيث ابن الملك العادل سيف الدين ابي بكر الدي صار ملكا على مصر بعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ ثم سجنه الملك الصالح نجم الدين ايوب واستولى على السلطنة بدلامنه • كان شيخ الشيوخ في ممراراد ان يمنح السلطنة للمعيث هدا بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين لكن حمام الدين بن علي نائب السلطنة اعتقله بقلعة الجبل حتى جاء المعظم تورانشاه

- (١) ابن عبد الظاهر، ص ٤٣، اليونيني، ج ٢، ص ١٥٣، ابن ابي الفضائل، ص ٩٥ - ٩٧، ابن العرات، ج ٦، ص ٢٨، والمفريزي، السلوك، ص ٤٧٥، ٤٧٦ • وبيل توزع الحطمة على هذا الشكل فصدت انطاكية وامعنت في اعمالها تخريبا ونهبيا وحرابا •
- (٢) ابن عبد الظاهر، ص ٤٣، ٥٢، ٥٦، اليونيني، ج ١، ص ٤٩٣، ٥٣٣، ج ٢، ص ١٩٤، ابو الغداء، ج ٣، ص ٢٢٣، ابن ابي الفضائل، ص ٩٧، المفريزي، السلوك، ص ٤٧٦ •

- (٣) لا ذكر لها مع الفتوح العربية الاولى • واول ما ذكرت في عهد المصليبيين • فلها هولا • البتراء • بنيت سنة ١١٤٢ م • ثم سارت خلفي السلاطين المالكي • وقد بنى المصليبيسون الشوك سنة ١١١٥ في عهد بعدوين الاول باسم *Cruc de Montreal* او *Mons Regalis* *E Honigsmann* *F Buhl Art "Karak"* م ٢٠، ص ٨٥٥ • *Art "Shawbak"* E I م ٤، ص ٢٤ - ٢٤١ وعلي ابراهيم حسن ص ٤٥ •

الشويك معتقلا . وبعد مقتل المعظم «فرج من المغيث ، وملك الكرك (١) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ تسلم الظاهر الشويك من نواب المغيث فيها «بناء على

اتفاق سرى بين الظاهر والنواب (٢) . فجهز المغيث الشهرزورية وأغار بهم على

الشويك واستعاد ، لكنه أطن الطاعة للظاهر حين أراد هذا استعادته . وسكنت

الظاهر لانهماكه بدمشق وحلب . لكن الظاهر والمغيث . كانا بعد هذا ، لا يأمن

الواحد منهما للآخر . فلما ذهب الشهرزورية الى مصر افراهم السلطان فانفصلوا

من المغيث ، وكتب المغيث الى بعض امراء مصر والى جماعة من الشهرزورية يستميلهم

اليه . ثم اتصل بهولاكو . ثم عادا فتصالحا سنة ٦٦٠ هـ وفقا للظاهر منه واقطع

ابنه الملك العزيز ذيبان (٣) . لقد كان الظاهر يترث الفرصة السانحة .

وسنحت الفرصة سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م . يوم السبت السابع من ربيع الاخر

سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ تصد الظاهر بلاد الشام ، مارا بمسجد التبن حيث بقي حتى

العاشر منه ، وبغزة التي دخلها في ٢٧ منه . وهنا جاءته والدته الملك المغيث تشفع

بابنها وترجو الظاهر ان يعفو عنه . فتظاهر السلطان بقبول شفاعتها . ثم انتقل الى

الطور في ١١ جمادى الاولى وطلب من المغيث ان يوافيه اليها .

ولما كان المغيث لا يثق بالظاهر فانه ارسل له رسالة شفعية اطلاله

فيها الكلام ، ثم راح يسوف غي الذهاب اليه . وتعززت مخاوفه حين جاءته رسائل من

بعض اصحابه تخوفه من تصد السلطان وتؤكد له النية باعتقاله . ومنها رسالة من ناظر

خزانة الظاهر ينصحه بعدم الذهاب الى ملاقاته السلطان . ولم ييأمر السلطان وانما

(١) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٩ و ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص ٢٢٣ ،

ابن ابي الغضائيل ، ص ٧٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ، المقرئى بالسلوك ص ٤٦٨

الشويك معتقلا . وبعد مقتل المعظم اخرج من المعيث ، وملك الكرك (١) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ تسلم الظاهر الشويك من نواب المعيث فيها ، بناءً على

اتفاق سري بين الظاهر والنواب (٢) . فجهز المعيث الشهرزورية واغار بهم على

الشويك واستعاده ، لكنه اطن الطاعة للظاهر حين اراد هذا استعادته . وسكنت

الظاهر لانهما كاه بدمشق وحلب . لكن الظاهر والمعيث . كانا بعد هذا ، لا يأمن

الواحد منهما للآخر . فلما ذهب الشهرزورية الى مصر افراهم السلطان فانفصلوا

من المعيث ، وكتب المعيث الى بعض امراء مصر والى جماعة من الشهرزورية يستميلهم

اليه . ثم اتصل بهولاكو . ثم عادا فتصالحا سنة ٦٦٠ هـ وفقا للظاهر منه واقطع

ابنه الملك العزيز ديبان (٣) . لقد كان الظاهر يترقب الفرصة السانحة .

وسنحت الفرصة سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م . يوم السبت السابع من ربيع الآخر

سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ هـ قصد الظاهر بلاد الشام ، مارا بمسجد التبن حيث بقي حتى

العاشر منه ، وبغزة التي دخلها في ٢٧ منه . وهنا جاءته والدته الملك المعيث تشفع

بابنها وترجو الظاهر ان يعفو عنه . فتظاهر السلطان بقبول شفاعتها . ثم انتقل الى

الطور في ١١ جمادى الاولى وطلب من المعيث ان يوافيه اليها .

ولما كان المعيث لا يثق بالظاهر فانه ارسل له رسالة شفوية اطللسه

فيها الكلام ، ثم راح يسوف غي الذهاب اليه . وتعززت مخاوفه حين جاءته رسائل من

بعض اصحابه تخوفه من قصد السلطان وتؤكد له النية باعتقاله . ومنها رسالة من ناظر

خزانة الظاهر ينصحه بعدم الذهاب الى ملاقاته السلطان . ولم ييأمر السلطان وانما

(١) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٩ و ج ٢ ص ١٩٣ ، ابو الفداء ج ٣ ، ص ٢٢٣ ،

ابن ابي الغضائيل ، ص ٧٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، اليونيني ، ج ٢ ص ١٠٧ ، المقريزي بالسلوك ص ٤٦٨

الذهاب الى ملاقاته السلطان • ولم ييأس السلطان وانما بعث له برسالة رفيعة لطيفة اتسمم
فيها اربعين مرة بالطلاق من ام الملك السعيد مشفوعة بهدايا واموال ، حتى اخذ المعيث
وارسل الرسائل التي وردته من اصحابه الى الظاهر ، فعمد هذا الى حيلة اخرى اد زعم
انه هو الذي امرهم بكتابة مثل هذه الرسائل يخبر امانته • فاطمأنت نفس المعيث بعض
الشيء ، وفرد الذهاب الى السلطان • فسار اليه في جمادى الاولى سنة ٦٦١ هـ حتى اذا وصل
بيسان خرج السلطان يستقبله • واراد المعيث الترجل بين يدي الظاهر فمنعه هذا وسارا
جنباً الى جنب الى باب دليمز السلطان فدخل الظاهر دليمزه ، اما المعيث فاخذ
الى خرقة اخرى حيث اعتقل • ثم سيق الى قلعة الجبل بالعامة بحراسة خمس الدين المنقصر
العارفاني ، فوصلها ليلة الاحد ١٥ جمادى الآخرة ، وسجن فيها ، وكان اخر العهد به ،
اذ انتهت حياته في شوال سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ (١) •

ولما ببض السلطان على المعيث تغييرت وجوه الامراء وانكروا ما جرى • فرأى
السلطان ان يوضح لهم جلية الامر • فاستدعاهم الى اجتماع حضره صاحب حصن موغاني
الغضاة بدمشق ، وعرض عليهم كتب المعيث الى التتر يدعونه فيها لمهاجمة البلاد ويعددهم
بالعون ، ثم تليت اجوبة التتر على ذلك ، وطلب منهم الحكم في القضية • ثم شفع الظاهر
حجته باستدعاء رسل من هؤلاء المعيث كان هذا اخفاهم وانكرهم ، فايدوا ما قاله السلطان
فاقتضى العهاء بفسخ اليمين اذا صحت التهمة ، ثم سجلت وقائع الاجتماع (٢) •

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٦ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٠ - ٥٣٢ ، وج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣ ،
ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ابن ابي الغضائيل ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ، ابن الفرات
ج ٦ ، ص ١ و ١٥ ق - ١٦ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥١٢ ، ابن تغري
بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، اما كيفية مقتله ، فيقال ان زوجة الظاهر
امرت جواربها فقتلته بالفياض •

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٦ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٢ - ٥٣٣ ، وج ٢ ص ١٠٧ و ١٩٤ ،
ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، ابن ابي الغضائيل ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن الفرات ، ج ٦
ص ١٦ و ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٨٢ •

ثم تسلّم الظاهر الكرك في ٢٣ جمادى الآخرة ودخل قلعتها الجمعة في ٢٥ منه وانعم على من بها وفقر لمن أساء اليه لما كان شريداً إذ إن أهلها لم "يخامروا" عليه . ثم نظم شوونها وأمر بحمل الخلال إلى المدينة والقلعة ووزع أراضيها أقطاعات على أمرائه . ومين عز الدين أيدمر نائباً عليها ، وحلف المقدمون والنصارى فيها بمين الولاء له ، ثم طاف بالطعة والمدينة وأمر بعمارة ما تجب ممارته . وفي ٢٨ جمادى الآخرة تلبعت القاهرة ما جرى له . وفي ١٦ رجب وصل السلطان إلى طعة الجبل ومعه أولاد الملك المغيث ونسأوه فانزل العزيز عثمان في دار القطيعة بهين الفصرين ومنحه الهبات وأعطاه طبلخانا . لكنه عاد فاعتقله سنة ٦٦٩ (١) .

أما أسباب اعتقال المغيث فإنها واضحة مما سردناه . وهي تعود إلى خوف الظاهر من منافسة المعيث له وأمكان تكتل الأيوبيين حوله للمطالبة بالعرش ثم تخوفه من اتصال المغيث بالتنتر . ويزيد أحد المؤرخين أن لذلك الخلاف سبباً آخر هو أن المعيث راود زوجة الظاهر من نفسها حين فرزوها من الكرك إلى فيزة (٢) . ولذلك أمرت بقتله بالقباقيب .

وقد شك اليونيني بالتهمة التي وجهها الظاهر للمغيث . واعتبرها محاولة لتنهير ما فعله . وقد كان السلطان دفع ألف دينار لشخص ليقتل "المغيث" ثم سكر هذا الشخص وأفسى السر (٣) . ويعلق المؤرخون على هذا التدبير الظاهري ويعتبرونه دليلاً على سوء طباع السلطان وميله إلى الغدر والمنسف (٤) . ولم يجر النظر إلى هذه القضية من زاوية خلفية شخصية فقط صحيحاً .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٧ و ٧٥ و ٨٠ و ٨١ اليونيني مج ١ ص ٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ و ٥٣٥ ، ١٩٣ ، أبو الفداء ، مج ٣ ص ٢٢٦ ، ابن أبي الفضائل ص ١٠٩ ، ابن الفرات ، مج ٦ ص ٢٥ ق ٢٧٧ والمقريزي بالسلوك ص ٤٨٣ ، ٤٩١ . وقد جعل تاريخ

استلام الكرك ٢٤ منه .

(٢) أبو الفداء ، مج ٣ ص ٢١٦ ، ٢٥٥ ، ٢٢٦ .

(٣) اليونيني ، مج ٢ ص ٣٠ .

(٤) Sir W. Muir ص ١٧ ، ١٨ .

ان الظاهر كان رجلا دولة ، كان ينظر الى المغيث على انه خصم سياسي فينبغي التخلص منه باى ثمن كان .

وباعتقال المغيث زال كل خطر جدى من الايوبيين على السلطان المملوكي . وان تكن حمص (١) وحماة (٢) وصهيون (٣) بقيت بايدى امراء ايوبيين ، فان هؤلاء الامراء كانوا مخلصين للظاهر .

(١) تسلمها الظاهر سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤ عند وفاة صاحبها الاشرف . ابن عبد الظاهر ص ٩٢ ، اليونيني ، ج ١ ص ٥٥٦ و ج ٢ ص ٢٣٠ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن ابي الفضائل ص ١٢٩ ، المقريزى ، السلوك ص ٥٠٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢١ وقد جعل الوفاة والتسلم سنة ٦٦١ هـ .

(٢) في سنة ٦٥٩ هـ تعاون صاحبها حمص وحماة على صد التتر ، ثم زارا السلطان بدمشق . وفي سنة ٦٦٠ هـ ارسل صاحب حماة يعتذر للظاهر من عدم تمكنه من الحضور اليه . وفي رجب من نفس السنة ارسل اليه تترًا اعتقلهم . وفي سنة ٦٦٤ هـ حارب صاحب طرابلس الصليبي وزار مصر فرحب بالظاهر . وفي ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ اذن لسه بزيارة الاسكندرية ، وفي سنة ٦٧٢ هـ زاره في القاهرة واكرمه . كانت علاقته بصاحب حماة جيدة عموما . الا مرة ، في سنة ٦٦٢ هـ ، فقد ارسل اليه ينبهه الى ضرورة الامتناع من اللهو . وقد بقيت حماة بيد الايوبيين حتى سنة ١٣٤١ م . (ابن عبد الظاهر ، ص ٤٥ ، ٥٢ ، ٩١ ، اليونيني ج ٢ ص ٣٦١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢٢٤ . ج ٤ ص ٢٢٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٢٤ ، ابن الغرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٢ ، المقريزى السلوك ، ص ٤٧١ ، ٥٠٣ ، ٥٥٦ ، ٦١٤)

(٣) كانت علاقة الظاهر بصاحب صهيون حسنة عموما . وفي سنة ٦٦٠ هـ ارسل صاحبها هدية للظاهر . واتصل به سنة ٦٦٤ هـ وفي سنة ٦٦٧ هـ سلمه مفاتيح القلعة . وفي سنة ٦٧٠ هـ توفي صاحبها وفي السنة التالية تسلمها الظاهر . (ابن عبد الظاهر ، ص ٥٢ ، اليونيني ، ج ٢ ص ٣٤٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ابو الفداء ، ج ٣ ص ٢٢٣ و ج ٤ ص ٥ ، ٧ ، ابن الغرات ، ج ٦ قسم ٢ ورقة ٤٥ ، ١٠٠ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٧ ، ٥٢٩ ، ٦٠٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ص ١٣٩ .

رابعاً : الامير سيف الدين الرشيدى :

كان هذا الامير قد ساعد السلطان للحصول على العرش فآكرمه اى اكرام وانقطع الاقطاعات الواسعة . نصاريحي حاشيته حتى ولو آدوا الناس واستبد بامرهم . وامضى الظاهر عنه لكن الطمع بلغ بالرشيدى ان اراد الاستقلال بالكرك فلم يعد الاغضاء عنه ممكنا . علم السلطان ان الرشيدى اتصل بالمغيث ونصحهم بعدم القدوم على السلطان ثم علم بعد اعتقال المغيث ، ان الرشيدى كتب لاهل الكرك ان لا يسلّموا القلعة للسلطان وعرض عليهم ان يتسلمها بنفسه . فمنع الظاهر الامير ان يسبقه الى الكرك ، ثم اشاع بان امراءه استلموا القلعة فصكت حركات الرشيدى . ثم ثار الامير لما علم ان السلطان خدعه ، واتصل بالبولي والديماطسي وجاؤوا بثلاثماية فارس الى حيث كان السلطان بعلبي ، وتنهب السلطان للموءامرة واوفر لفلادون بالاستعداد ، ثم جاء الامير من الدين اوفان الركبي وابعد الرشيدى من الظاهر . ويقال ان سبب مضية الظاهر على الرشيدى انه اجتج على اعتقال المغيث . وفي ٢٢ رجب سنة ٦٦١ هـ ، اعتقل الظاهر الرشيدى في القاهرة (١) .

ولئن كان الظاهر قد قضى على المحاولات الاستقلالية هذه فان هذا لا يعني انه لم يلق مشاكل اخرى من هذا النوع في السنوات التالية ، والواقع ان هنالك امراء حاولوا الثورة او التآمر عليه في مناسبات اخرى وفشلوا . وفيما يلي عرض لها .

في رجب سنة ٦٦١ هـ قبض السلطان الظاهر على عز الدين الديماطسي وكان هذا قد نال خطوة في عيني السلطان فنال حق الحصول على اى شيء يريد . في بلاد الشام من غزة الى الفرات . ثم تبين له ايضا انه ارسل جماعة مسلحين

(١) ابن عبد الظاهر ص ٧٧ ، ٨٠ ، مابو الغداة مج ٣ ص ٢٢٧ بالذهبي مج ٢ ص ١٢٦ ، ابن ابي الفضائل ص ١١٠ مابن الفرات مج ٦ ص ٨٨ ق ٢٨ ق ٢٩ والمقرئى ، السلوك ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٥ .

ملثمين واستولوا على ما كان السلطان وهبه لاولاد الطك المعنيث ظنا منه ان السر
 لن ينفض . وعرف السلطان بالامر وقبض عليه ، لكنه عاد فافرج عنه ، فيما بعد واكمه (١)
 وفي سنة ٦٦٩ هـ تكشفت للظاهر مؤامرة يبدو انه كان دلايويين ضلع فيها
 فاعتقل العزيز بن المعنيث بتهمة الاتفاق مع الشهرزورية لاعتقال السلطان واستلام
 العرش مكانه — ثم عاد فاعتقل مقدمي الشهرزورية ايضا (٢) .

وفي ردى الحجة من السنة نفسها امر بالقبض على عدد من الامراء ، بينهم طمس
 الدين سنجر الحلبي وجمال الدين افوش المحمدي وفز الدين ايغان سم الموت
 وسجنهم بقلعة الجبل بحجة ان هؤلاء كانوا قد اتفقوا على قتله حين كان يحاصر
 قلعة الشقيف وقد اسرها في نفسه يومذاك لكن مدة اعتقالهم لم تطل اذ شـرع
 بعد قليل من الوقت يطلق سراحهم ويقطعهم الاقطاعات الراسعة لان فيهم من ناصره
 في بداية عهد (٣) .

وفي سنة ٦٧٣ هـ عرف الظاهر ان ١٢ اميرا كانوا التزموا عرضونهم على
 فزو بلاد الشام . فاعتقلهم الظاهر ، ولما امرو بما فعلوا اعدمهم جميعا وكان اخر
 العهد بهم (٤) .

- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ٧٨ ، ٨٠ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ، وج ٤ ، ص ٧ ،
 الذهبي ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١١٠ ، ابن الغرات ج ٦ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ،
 ق المقريزي السلوك ، ص ٤٩٣ — ٤٩٤ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، ص ٧ ،
 ص ١٥٤ .
- (٢) اليونيني ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٨٥ ، ابن الغرات ج ٦ ، قسم
 ٢ ورقة ٨٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٩٥ .
- (٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٥٤٣ — ٥٤٤ ، ابن الغرات ،
 ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٩٥ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة
 ج ٧ ، ص ١٥٤ .
- (٤) ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٢٦٨ .

على انه ينبغي ان نلاحظ ان هذه المحاولات كانت ترتدى طابعا فرديا فيسر
خطير . ونلاحظ ايضا ان الظاهر اتبع ازاها جميعا خطة واحدة هي الاسراع في
الغضا عليها بالقوة العسكرية ، وبالاقدام ، وبالحيلة ، قبل ان تستفحل . وينبغي ان
نلاحظ ان مكانة الظاهر كانت بعد سنة ٦٦٢ هـ قد توطدت بحيث لا تستطيع مقاومة
داخلية فردية ان تفسيه من الحكم .

٣ - احياء الخلافة .

في محرم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ تغلب هولاء على جيوش المستعصم بالله في
بغداد ودخل عاصمة الخلافة العباسية فاتحا . وقضى على الخليفة والخلافة معا .
وبذلك شغل منصب الخلافة نحو من ثلاث سنوات حتى رجب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠
حين احياها السلطان الظاهر بيبرس .

في رجب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ ، بعد الانتصار على سنجر الحلبي في
دمشق ، وصل الى القاهرة خبر من الامير علاء الدين البندقدارى والامير علاء الدين
طبرس الوزيرى ان رجلا وسيم الطلعة ، شديد القوة ، ذا شجاعة واقدام ، يدعى
انه احمد بن الامام الظاهر ابن الامام الناصر وصل الى فوطه دمشق في نحو خمسين
فارسا من عرب خلفا عرفتهم الامير سيف الدين قليح البغدادى . فادما من بغداد ،
بعد ان اطلقه التتر من سجنه . فاصدر بيبرس تعليماته بضرورة الاهتمام بهذا القادم
وتسييره الى مصر بصحبة حجاب .

ويوم الخميس ٩ رجب وصل احمد الى المطرية بالقاهرة فلقاه السلطان
والوزير وقاضي القضاة والشهود والمؤذنون والقراء والائمة واميان الدولة واليهود
بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ، واهل المدينة ، مرحبين به . ودخل احمد القاهرة من
باب النصر وشفاها وهو لابس السواد ، شعار بني العباس ، حتى خرج من باب زويلة -

ثم صعد الى قلعة راكبا (١) .

ويوم الاثنين الثالث عشر من رجب ، وفد السلطان الظاهر اجتماعا في قلعة
العمد حضره الوزير والشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيره من الفقهاء ، والائمة والعلماء
والامراء والصوفية والتجار والكثير من الناس ، ثم وفد السلطان على الاجتماع وبصحبته
احمد بن الامام ثم جلس السلطان مجلسا عاديا امام احمد " ولم تفرش له طراحيصة
ولم يحط له كرسي ولا منبر " .

وكانت قضية التشيخ من نسب الامام اول ما نظرفيه . شهد العريان بحجة
نسبه امام قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الامز ، فقبل هذا الشهادة وثبتت
نسبه ثم قام على قدميه وبايعه والخلافة ، وتلقب باسم المستنصر ثم بايعه السلطان بها " .
على كتاب الموسنة رسول الله (صلعم) وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد
في سبيل الله واخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها " . ثم ركب الخليفة والسلطان
وشفا القاهرة في وجوه الدولة واميانها ، والناس محتشدون يتفرجون على هذا المركب .
ويوم الجمعة ١٢ رجب ، ركب الخليفة من برجه في قلعة القاهرة الى جامعها
وعليه الثياب السود وخطب خطبه ذكر فيها شرف بني العباس ثم قرأ الفاتحة وقرأ قسمها
من سورة الانعام ، ثم صلى على النبي وترضى على الصحابة ودعا للسلطان ، ثم صلى بالناس
صلاة الجمعة .

وفي ١٩ رجب ارسل الظاهر الى دمشق رسالة مطولة وصف فيها احتفال

التنصيب ودعا الناس لمبايعة الخليفة والخطبة له على المنابر .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٤ ، اليونيني مج ١ ، ص ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٤٢ ، وج ٢ ، ص ٩٤
٩٥ ، وقد جعل الامراء المرافقين لاحمد من بني مها رش ، وجعل وصوله في ٨ رجب
(ج ١ ، ص ٤١١) ما بين ابي الفضائل ، ص ٨١ ، ٨٢ ، المقريزي بالسلوك ص ٤٤٨ ، ٤٦٢ ،
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ١١١ ، ابن اياس مج ١ ص ١٠٠
وقد جعل الوصول الى دمشق في ١٩ رجب .

وفي نفس اليوم دعا السلطان الخليفة الى تزفة في الحرائق في النيل وطلعا الى

الجزيرة حيث اجرى استعراض بحرى حضره العامة ، ثم اقطع ممالك الخليفة انعامات

واسعة في نابلس ، ومنح مقدمهم طبلخاناه .

بقى بعد هذا ان يبايح الناصر الخليفة وان يقلد الخليفة ببيبرس السلطنة ،

بصورة رسمية في احتفال علني عام ، اى ان يعلن للناصر ان سلطنة الظاهر شرعية .

وفي مستهل شعبان سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م امر الخليفة بصنع خلع له سودا وطوق وقيد من

ذهب ، ويحملها الى خيمة منصوبة في بستان كبير في ظاهر الغرافة ، ثم امر كاتب السر

الشرى فخر الدين بن لقمان ، ان يكتب التقليد بالسلطنة .

وفي الرابع من شعبان ركب الخليفة والسلطان والوزير ووجوه الدولة الى تلك الخيمة

فالبحر الخليفة السلطان الظاهر ببيبرس الخلع وطوقه وقيد ، ثم صعد فخر الدين المنبر

وقرأ التقليد وقد بدأه بحمد الله الذى قيض للاسلام طوكا يعلن شانه ، ثم حض الناس

على طاعة السلطان الظاهر وامترف بصنيعه الذى لا يكتفى الكلام لشكره معها طال ، لعطفه

على امير المؤمنين ثم قلده السلطنة على " الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريسة

والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات فورا ونجدة " ثم اخذ يوجه النصائح

للسلطان حتى يكون حكمه ناجحا عادلا ، وجعل الجهاد فرضا .

ثم بايح الناصر الخليفة . وكتب السلطان الكتب الى الاقاليم المختلفة يدعو

اهاليها لمبايعة الخليفة وللخطبة باسمه على المنابر ولضرب السكة باسمه . ثم ركب السلطان

بالخلعة والطوق وبين يديه الامير جمال الدين النجيبى الاستادار والوزير يحملان التقليد

والامراء والمشاة مهشون القاهرة عرفت زينت اسواقها وضعت بالناصر اللابسين الثياب الفاخرة

الدامين للسلطان بالنصر وبطول مدة الحكم ثم دخل السلطان القلعة وجلس على مرشه ، ومد

السماط . وفي يوم اخراخذ السلطان يستخدم الموظفين للخليفة ويلحق به الامراء .
 وفيين له اتابكا بالف فارمر وشرايبا ومعه خمسمائة فارمر ، وخازندار بمئتي فارمر بواسناد
 دار بخمسمائة فارمر وودادارا بخمسمائة فارمر ، وقاضيا وكاتبا واماما وموذننا وكاتب
 انشاء واطباه ، ومماليك صغارا وكبارا ليتولوا خدمته ، وجعل نفقة ذلك على حسابه .
 وفي ١٩ رمضان خرج الخليفة والسلطان من القاهرة الى بركة الجب حيث لبس
 السلطان لباس الفتوة على يدى الخليفة . وفي يوم العيد ركبا معا وصليا العيد . وفي

٦ شوال واصلا (١) السهر نحو بلاد الشام فدخل دمشق في ٧ ذى القعدة (٢) ونزل
 الخليفة الترية السلطانية الناصرية بقاسيون . اما السلطان فنزل في قلعة دمشق .

وهنا كان لابد من القيام بمراسم رسمية فلتية تلفت نظر الناس وتوثق فيهم . وفي

الجمعة ١٠ ذى القعدة جاء الخليفة الى جامع دمشق من باب البريد ودخله السلطان من باب
 الزيادة ، ثم دخل الخليفة مقصورة الخطابة وتبعه السلطان وحضر الصلاة والخطبة ، ثم
 خرجا من الجامع والسلطان في خدمة الخليفة والناس يدعون لهما بالنصر على الاعداء (٣) .
 ثم تقرر بعد هذا ان يذهب الخليفة في حفلة الى بغداد . الم يقل في خطبته
 بضرورة "عودة مقر الخلافة الى ماكان عليه في الايام الاول" (٤) ورصد له السلطان مبلغ

مليون وستين الف دينار تكفي تجهيز عشرة الاف جندي لاستعادة بغداد واتخذ الظاهر
 التدابير الكفيلة بنصرة الخليفة فارسل معه ابني صاحب الموصل وسير قوات الى الرحبة لتمنع المغول

- (١) يقول ابن ايامر (ج ١ ص ١٠٢) ان السلطان ودعه هنا وماد الى القاهرة .
- (٢) يقول ابو شامة (ص ٢١٣) ان الوصول الى دمشق كان في ٦ ذى القعدة .
- (٣) ابو شامة ص ٢١٣ ، ٢١٤ مابن عبد الظاهر ص ٤١٠ ، ٤١٣ مابن يميني ج ١ ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ مابن عبد الظاهر ص ١٢٤ ، ١٠٤ ، ٩٥ مابن الفداء ج ٣ ص ٢٢٤ مابن ابسي الفضائل ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ مابن المقريزي ، السلوك ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ مابن تغرى بردى فالنجوم الزاهرة ج ٢ ص ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ مابن اياس ج ١ ص ١٠٩ ، ١٠٢ .
- (٤) ابن عبد الظاهر ص ٤٠ .

من اجتياز الفرات ، وبعث بسيف الدين الرشيدى وسيف الدين سنقر السروى الى حلب لينجدا الخليفة اذا استدعاهما . وفي ٢١ ذى القعدة (١) مار الخليفة نحو بغداد ومعه نحو ثلاثماية فارس حتى وصل الرحبة . وهنا رفض ابنا صاحب الموصل متابعة السير معه بحجة ان السلطان لم يعطهما مرسوما بذلك ، وانضم اليه ستون مملوكا من ممالك صاحب الموصل وبعض العرب من ال فضل ، وامر من حماء بنحو ثلاثين فارسا حتى بلغ جيسن الخليفة نحو الف جندى .

وبعد ثلاثة ايام فادر الخليفة الرحبة ومر على مشهد على وزاوية الشيخ بوى ، ثم قائم منفوا اجتماع هنا بابي العباس احمد ومعه نحو سبعمائة فارس . وجرت مفاوضات بينهما قبل ابو العباس بعدها بناصرة الخليفة المستنصر . ثم تابع الخليفة سيره الى الحديثة ففتحها له اهلها ورحبوا به ثم انتقل الى الناوروسة فالى هيت فدخلها منوة في ٢٩ ذى الحجة ومرفقرا بباغا مقدم مكر التترو بهادر على الخوارزمي شحنة بغداد بقدم الخليفة فخرجوا في مكر بلغ خمسة الاف جندى الى الانبار فالى هيت^{حيث} جرت المعركة في اواخر ذى الحجة سنة ٦٥٩ هـ واوائل محرم سنة ٦٦٠ هـ وهرب ابو العباس احمد وعدد من الامراء . اما الخليفة فلم يوقع له على اثر بعد ذلك . ولما ظم السلطان بما جرى حزن حزنا شديدا " وراح ما صنعه في البسارد " (٢) .

(١) ينبغي ان نلاحظ ان سير الخليفة من دمشق كان ٢٣ منه عند ابي شامة (ص ٢١٤) و ١٣ منه عند المقرئى (السلوك ص ٤٦٢) .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٦ ، ابو شامة ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، اليونيني ج ١ ، ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٨٣ ، ٥٠٠ ، ج ٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ ، الذهبي ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن ابي الفاضل ، ص ٨٨ ، ٩٠ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١١٥ ، ١١٧ ، السهوطى ، الخلفاء ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ابن اياس ج ١ ، ص ١٠٦ .

وهنا ينبغي ان نحال : لماذا عدل الظاهر من تجهيز عشرة الاف جندي ؟ وهل

اهتم الظاهر باستعادة بغداد ؟ ولماذا لم يستدع الخليفة الجند الذين كانوا في حطب

ينتظرون اشارته ؟ ان قول ابن اياس ان ما صنعه السلطان راح في البارد دليل على ان

السلطان كان يستهدف شيئاً من وراء هذا كله . ويثبت ذلك ان النفقات بلغت ارقاما ضخمة

ولكننا لانعلم ماذا كان هذا المبلغ رصيد للحطة بالذات ، ام انه هو كل ما انفق الظاهر

على الخليفة منذ ان تصده في هرحى كانت نهايته في هيت . واذا كان هذا المبلغ

قد رصد للحطة فقط ، فهل انفق ؟ او لماذا لم ينفق ؟

الثابت ان الجيش الذي رافق الخليفة لم يعد الف جندي . فلماذا ؟ فهل انه جاء

من همز في اذن الظاهر ان الخليفة تقوى شوكته بعد استعادة بغداد وقد يظلمه من

السلطنة . وقيل ان ابني صاحب الموصل لم يرافقاه لانه لم يكن لديهما امر من الظاهر . ولعلهما

عدلا من مرافقته لسبب هجوم التتر على الموصل في ذلك الحين . ولعلهما فعلا ذلك للسببين

معا . اولعل التتر قاموا بمهاجمة الموصل عندما علموا بالحطة على بغداد . وفي كل حال

يبقى السؤال الاول من المصعب في عدم تجهيز عشرة الاف جندي بغير جواب قاطع .

اما اهتمام الظاهر بفتح بغداد فيعود الى اشارة الخليفة من جهة والى ان مهاجمة

بغداد جزء من خطة محاربة التتر من جهة ثانية . اضاف الى هذا ما يمكن ان يكسبه السلطان

الظاهر من نفوذ معنوي بحال اخراج التتر من بغداد . ولكنني لا احسب الظاهر كان بالفعل

يهتم باستعادة بغداد ، او انه كان يعتقد ان استعادتها امر معقول عسكريا . ان حقاوته

بالخليفة كانت من قبل المظاهر العفوية التي تغيد مركزه . ولقد احتفى بالخليفة في القاهرة

ودمشق حيث ينبغي للناصر ان يروا بانفسهم الخليفة والسلطان معا . اما الحطة فمناوشة لا اكثر

ولا اقل . ولو انه اراد فتح بغداد فاولو انه امتد بصامكانية مثل هذا المشروع ، لقاد الحطة

بنفسه . ثم انه ليس في وضع اخلي يمكنه من الاستعداد لمثل هذه الحطة (١) كما ان التتر

(١) حاول مرة اخرى مهاجمة بغداد - ثم عدل (ابن ابي الفضائل ، ص ١٤٥) .

والصلاحية والفرجة لابد ان يختنموا مثل هذه الفرصة فيما لو اتاحها لهم .
اما الجيوش الظاهرية المرابطة في حلب بانتظار اشارة الخليفة فانها عادت الى
مصر بعد فارة على افعال انطاكية (١) . ولعل السبب في عدم استدعائها يعود الى ان
الخليفة كان محاطا بالاعداء فلم يتيسر له الاستنجاد .

ويفتتل المستنصر محمد الظاهر الى اقامة خليفة اخر . والخليفة الجديد هو ابو
العباس احمد (٢) الذي فر من معركة هيت ثم دخل دمشق مع جماعة من الاعراب في ٢٢ صفر
سنة ٦٦٠ هـ ، ثم سافر الى مصر في ٢٦ من ربيع الاول في الريدانية ودخل القاهرة
في ربيع الاول (٣) من السنة . فاحتفل به الظاهر وانزله بالبرج الكبير داخل القلعة ورتب
له ما تدعو اليه الحاجة .

ومرة اخرى عاد السلطان الظاهر الى الاجراءات الضرورية لتنصيب الخليفة . فعقد
(٤) مجلسا عظيما حضره الاعيان والقضاة والامراء والعلماء ورسل بركة خان ثم جاء ابو العباس
احمد راكبا . ثم جلس قريبا من السلطان ، ومطت له شجرة نسب وقرئت على الحاضرين ، حتى

(١) ابو شامة ص ٢١٤ ، ٢١٦ ، الحفرى بالسلوك ص ٤٦٤ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ،
ج ٢ ، ص ١١٤ . -

(٢) كان قد اختفى بعد دخول التتر بغداد ثم ظهر في اوائل سنة ٦٥٧ هـ عند امير خفاجه
فارسله هذا الى نور الدين زامل بن حذيفة امير الاعراب ، فالى ابن مهنا امير ال فضل
حتى طلبه الناصر صلاح الدين يوسف لتنصيبه خليفة لكنه انشغل بوصول التتر . ثم بايعه
قطز خليفة وارسله لاستعادة بغداد في سنة ٦٥٨ هـ ، ثم عاد الى دمشق فالى مصر حيث

وجد الامام احمد قد سبقه فعاد الى سلميه وبايعه البرلي ثم التقى بالمستنصر ، ابو شامة
ص ٢١٥ ، اليونيني ج ١ ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٦ .

(٣) او ربيع الاخر عند ابن ابي الفضائل ، ص ٩٤ . وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ،
ص ١١٨ ، وهو ٢٢ ربيع الاول عند ابن الفرات ج ٦ ، ص ٦٠ و ٦١ ، السيوطي ، الخلفاء ، ص
٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) في او اخر ذي الحجة سنة ٦٦٠ هـ عند ابن الفداء (ج ٣ ص ٢٢٤) او ٨ محرم سنة ٦٦١ هـ
عند الذهبي (ج ٢ ص ١٢٦) و ٢ منه عند ابن الفرات ج ٦ ص ٦٠ ، والسيوطي ، الخلفاء ، ،
٤٧٩ ، و ٩ منه عند ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١١) .

بقي ان نسال عن سبب عناية الظاهر بالخلافة . وهنا لابد من العودة الى الوراء .

ولو باختصار شديد ، ليتبين لنا موقف الظاهر من هذه القضية بوضوح . كان احد بسن طولون قد نوى ان يجعل الخلافة في مصر ، ثم استطاع الفاطميون ان يجعلوا القاهرة مركزا للخلافة كبغداد ، لكن صلاح الدين الايوبي اعاد السيادة الاسمية لبغداد ويقال ان الملك الصالح نجم الدين ايوب قد اوصى بتسليم السلطنة بعده للخليفة في بغداد . وكذلك فعل عز الدين ايبك التركماني حين ضايغه الامراء الايوبيون .

ولم يكن بيبيرمر اول من فكر باحياء الخلافة بعد زوالها فقد كان الناصر صلاح الدين يوسف فكر باحيائها واستدعى اميرا عباسيا ورد على دمشق لتنصيبه خليفة ، لكن وصول التتار بلاد الشام شغله عن ذلك . ثم ان قطز علم من عيسى بن مهنا ، لما جاء دمشق بموصول امير عباسي ، فقال له ان ينفذه الى مصر لينصبه خليفة . وقيل ان قطز بايعه بدمشق ، فمسيره واقتتحت قانة والحديثة وهيثوالانبار وانتصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طيبرس الوزيرى ان يفصد الظاهر بيبيرمر فامتنع حين علم بان اميرا عباسيا اخر يفصدها ، وفصد حلب حيث بايعه شمس الدين البرلسي (١) .

لم ينجح اولئك باحياء الخلافة ، ولكن الظاهر بيبيرمر وهو يسير على خطتهم فاصاب النجاح في محاولته . والدافع لعل ذلك هو رسوخ فكرة الخلافة في اذهان الناس بحيث عد زوالها كارثة ، وكون الخليفة لا يزال يمثل السلطة الشرعية العليا . كان الظاهر يسمي وراة مطف المسلمين قامة ووراة نيل لقب حامي الاسلام من جهة ، وكان يعمل على اكساب سلطانهم الصفة الشرعية امام منافسيه نزد الى هذا انه كان يتزعم حركة مقاومة التتار . فاعاد تنصيب

(١) ابن ابي الفضائل ص ٩٣ ، ٩٤ ، السيوطي بالخلفاء ص ٣١٧ . ونلاحظ هنا ان ما يروى من رحلة هذا الخليفة لاستعادة بغداد هو نفس ما روى عن الرحلة التي قام بها المستنصر في عهد الظاهر ، ولاقى حتفه فيها .

الخليفة رد على ما فعله هولوكو بالمنعصم في بغداد . وقد راينا صدى هذا في نص التليد الذي ناله من الخليفة . وفي قول الامير سيف الدين فليح البغدادي عند وصول ابيسي العباس الى القاهرة " بهولا " يحصل العصد من العراق " دليل على هذا (١) .

ولقد ملأ ر. هارتمان (R Hartman) أحياء الخلافة العباسية في القاهرة

عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م بمائلي : ان زوال الخلافة العباسية ببغداد اوجد فراغا سياسيا لم
يؤثر على الفقهاء مقدار ما اثر على الحكام الذين كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة الى سلطة
تكسبهم الشرعية . كان ابو قمي شريف مكة قد منح حاكم تونس الحفصي الاعتراف الرسمي بخلافته
ويلقب المستنصر سنة ٦٥٠ / ١٢٥٣م . ولم يكن هذا الاجراء متمشيا مع معنى الخلافة فسي
مفهومها السني . لكن هذا الاعتراف كسب قيمة جديدة حين قام الماليك بعد معركة عين . .
جالوت بارسال خبر النصر لابي عبد الله الحفصي وتسميته بامير المؤمنين ، اما بيبرس ، وهو اقوى
من سلفه ، فضل ان لا يمنح اعترافه الى جارفوى قد يكون خطرا عليه ، بل حل مشاكل الشرعية
والاستمرار بتنصيب لاجي عباسي خليفة في القاهرة وتلقيبه بالمستنصر ايضا (٢) .

ولا ريب ان عمل بغير من هذا كان ذا اثر في نفوس المسلمين حتى قيل له :

يا اسد النوايا ركنهم
كسرت الطغاة جبروت العنفا

ويا آخذ الثارب بعد المخافة
قطعت الفرات وصلت الخلافة (٣)

وهنا نتساءل: هل افاد الظاهر من فزوة العراق؟ ومن احياء الخلافة؟ افادته محاولة

من العراق ان جاء بعض شيوخ عبادة وخفاجة واطنوا ولا هم له • وكانوا ميونسا

(١) ابن عبد الظاهر ص ٢٤

(٢) نقلتها من (P Lewis " Abbasids" EI new ed) ص ٢١٠

(۳) ابن ابی اسرجا، ص ۱۰۲.

للمماليك على التتر (١) . وافاد من احياء الخلافة ، انه جعل السلطنة المملوكية ذات صفة شرفية ، وجعل القاهرة مركزا للخلافة . بيد ان النفقات كانت كثيرة . ولفسد استهدف توطيد سلطانه باحياء الخلافة ، ولكن سلطانه في الحقيقة لم يكسب قوة فعلية لان الخلافة كانت جثة هامدة لاحياء فيها . وقد يحمل هذا على القول ان محاولته بشقيها ، لم تكن ناجحة (٢) . زد الى هذا ان احياء الخلافة هذا قد فتح المجال امام المدعين ، وفي رمضان سنة ٦٦٥ هـ جاء دمشق رجل زعم انه ابن المستعصم (٣) .

(١) المفريزي ، السلوك ، ص ٤٧٦ .

(٢)) Lewis "Abbasids" EI new ed B ١٠٦ م ١٠٦ ص ٢١ .

(٣) ابو شامه ، ص ٢٤٠ .

٤ - معاملة الامراء :

كان الظاهر كبير الحظ اذ انه عمل في خدمته عدد من الامراء المخلصين القادرين عسكريا . وكان هو يحسن اختيار هؤلاء من جهة ، ويحسن معاملة امرائه من جهة ثانية ، حتى يكسب قلوب البقية . وقد كانت خطته نحو امرائه مبنية على العناية باحوالهم والاطلاع على سائر شؤونهم ، وعلى العطف عليهم (١) كما فعل عند استلامه السلطنة بالامراء المشردين وبابنائهم وكما فعل باتابك فارس الدين انطاي اذ ترك له اقطاعاته على كثرتها (٢) ثم كما فعل ببناات الامير حسام الدين الجوكندار سنة ٦٦٢ هـ اذ سامحهم بما يجيبون من لبيت المال عليهم من تركة ابيهم وكما فعل بابن الامير شهاب الدين الفيرى اذ ابقى عليه اقطاع ابيه وترك الارض لعائلة والى سمرين يستغلونها حين اسر الوالي (٣) .

ومما يوثق منه انه زوج الامير بدر الدين ييليك الخزندار بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة ٦٦٠ هـ واحتفل له بعرسه وتكفل له بجميع النفقات (٤) ونسي سنة ٦٦١ هـ انعم على الامير جمال الدين موسى بن يغمور ورفعه الى منصب الاستاذ دارية (٥) ، وفي محرم سنة ٦٦٤ هـ تولى الاتفاق على عرس الامير سيف الدين فلاون واهداه الهدايا الوفيرة (٦) .

وانقض مجنون على امير فقلته وجرح اميرا اخر في سنة ٦٦٤ هـ فقال الظاهر ان موت ولده السعيد اهن عليه من موت الجريح . فطابت بذلك قلوب الامراء (٧) وفي رمضان

(١) ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٩ ق ٠ (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٥ (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ - اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٨٢ ، ابن الفرات ، ج ٤ ، ص ١٠ و ١١ - اليونيني ، ج ٢ ، ص ١٩٥ (٤) المفريزي ، السلوك ، ص ٥٤٢ - ٥٤٣ - المفريزي ، السلوك ، ص ٥٥١ .

سنة ٦٦٦ هـ استطاع ان يفك شمع الدين سنقر الاشقر من الاسر ان اشترط على هيثوم اطلاق سراح شمع الدين مقابل اطلاق سراح ليفون ابن هيثوم (١) . وفي سنة ٦٦٧ هـ منح احد امراء اربعين فارسا وترك له موجودات ابيه على كثرتها (٢) .

هذا بالاضافة الى الخلع والهدايا التي كان يمنحها لامرائه سنويا .

وقد كان يرقي عددا من المحاليك ، بين سنة واخرى ، كما فعل في رجب سنة ٦٧٠ هـ

هـ (٣) .

فيرانه لم يكن يترك الحبل لامرائه على الغارب . ففي سنة ٦٦١ هـ غضب على احد خواصه لانه قتل احد مناديه سوق الخيل (٤) . وكثيرا ما كان يعتقلهم ، لكنه كان يعود الى الافراج منهم ، اذا لم تكن اخطاؤهم خطرة على سلطانه . وادراكا يعرف منهم القدرة على خدمته . لقد امتقل علم الدين سنجر الحلبي ثم افرج عنه ليستعيد له حلب . وامتقل عز الدين الدماطي ، ثم افرج عنه سنة ٦٧٠ هـ وشرب معه القمزر . ومازحه في جمع مسن

الامراء (٥) .

واخيرا فانه كان لا يانف من مخاطبتهم بتواضع . فقد يكتب اليهم ، اخوكم باو والدكم ، او بولدكم . واذا ذكرنا كيف عامل امراءه عند حصار صدد ما ز جلد بعضهم لنتهاونهم ثم ذهب اليهم يحدثهم بلطف ببلغ حد الاعتذار ، بعد النصر ، وكيف وزع الاراضي والاقطاعات بعد فتح نيسارية وكيف كان القدوة لهم فيشترك بنفسه في كل عمل مهما كان شاقا ، مرفنا ان

معاملته كانت سخية ، ودقيقة ، محسنة ، ولكنها تستتبع الطاعة وحمس الخدمة . وقد نالهما

منهم ، بوجه عام .

(١) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٨٥ ؛ المقريزي ، السلوك ، ص ٥٧٠ - المقريزي ، السلوك ص ٥٨٠ - ٣ - ابن عبد الظاهر ص ٧١ ؛ اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٩٧ - ج ٢ ص ٤٢٠ ، ص ٤٢٠ ، ص ٤٢٠ ، ص ٤٢٠ .
الغداة ، ج ٤ ص ٧ - ٤ - ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، ابن الفرات ، ج ٦ ص ٣٥ ،
و - ٥ - ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ١٠٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦٠٧ .

٥ - رجال الدين

كان الظاهر يقيم للمشايع وزنا كبيرا . وكان يخشى باسهم ان ادرك سلطانهم على العامة ونفوذهم في صفوفهم . وكان يدرك مقدار خطرهم على سلطانه من جراء هذا النفوذ لذلك كان يتعمد زيارة كبارهم تيمنا وتبركا (١) .

وهناك عدد من العلماء ينبغي ان نتناول علاقتهم بالظاهر لنبين سياسته نحوهم . واول هؤلاء هو عبد العزيز بن عبد السلام وقد رفض هذا مبايعة الظاهر بالسلطنة قبل التاكيد من ان الملك الصالح نجم الدين اعتقه ، واحترمه الظاهر واعتبر شهادته بالف شهادة واستشاره فعمله يولييه القضاة بمصر . ثم حضر جنازته سنة ٦٦٠ هـ . ويدل على مقدار خوف الظاهر منه ما ينسب اليه من انه قال ان سلطانه لم يتوطد قبل موت ابن عبد السلام (٢) .

وقاخره هو ابن بنت الاعز وقد كانت له منزلة كبيرة عند الظاهر ان ولاء منصب ناضي القضاة واوكل اليه النظر في الدواوين والوزارة . ولم يحفل بوشايات صاحب بدهاء الدين عليه (٣) .

ثم الشيخ الامام ابو محمد شمس الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن طه العنفي . وقد رفض مبايعة الظاهر عندما اراد مصادرة اموال اهل دمشق وبساتينهم مع ان فضاة آخرين من المذاهب الاربعاء اتسوا للظاهر بالكلام وقال انه لا يحل لمسلم ان يتعرض لاراضي ملوكه . فغضب الظاهر بحجة انه نفى عنه صفة الاسلام ، لكنه صاد

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٢ . - ٢ - كان ابن عبد السلام جريشا ، ذم الملك الصالح اسماعيل في جامع دمشق حين سلم الفرنجة صفد ، والشقيف يذهب الى مصر ، وهنا ايضا اسقط عدالة وزير لسماحه بوضع طبلخاناه على سطح مسجد . (اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٠٥ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٠٥ ، ابن شاكر الكنتي ، ج ١ ، ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ . ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٨٩ - ٨٨ ، ق ٣ - ولد سنة ٦١٤ هـ وتوفي سنة ٦٦٥ هـ (اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٩٠٩)

فرضى منه واستعظمه حين لم يكن ولم يتراجع (١) . وهناك محي الدين ابو زكريا النووي .
وقد بلغ منه انه " واقف الملك الظاهر مير مرة في دار العدل بسبب الحوطة على
بساتين دمشق ومير ذلك ، وكان الظاهر يقول انه يخشاه لمجرد رؤيته (٢) .

وكانت علاقة الظاهر بهؤلاء المشايخ رسمية قانونية ، كما نقول اليوم . لكن هنالك
شيخا اخر لمعت علاقته به ابعد من هذا كثيرا وهو الشيخ خضر . وقد وصل الى درجة
عالية من النفوذ لديه فان هدم بالعدس كنيسة وقتل نسيها ، وهدم كنيسة اخرى
بالاسكندرية . وبنى له السلطان زوايا كثيرة في ظاهر القاهرة والقدس وبعلبك وحماة وحمص
واقف له عليها الاوقاف الكثيرة .

ويبدو ان سيرة هذا الرجل الاولى كانت سيئة . فقد تنقل في خدمة امراء مختلفين
سنة بعد سنة مستغلا نفوذه لديهم حتى انتقل الى زاوية بجبل العزة بدمشق حيث اجتمع
ببعض الصالحين واتصل ببيبرس ثم تشدد واخبره بما سيؤول اليه امره في المستقبل .
ولما بلغ نفوذه هذا المبلغ صار مسيرة نفرت منه الناس والولاة . وفي سنة ٦٢١ هـ
حقق الظاهر بما نسب اليه وثبت من صحة التهم ، فاكتفى باعتقاله وقد اشار عليه الاتابك
والامراء باعدامه . لكن الشيخ انفذ نفسه اذ زعم للظاهر ان بين اجليهما اياما يسيرة
ومات في معتقله سنة ٦٢٦ هـ (٣) .

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ١ - ٢ - ولد سنة ٦٣١ هـ /
١٢٣٣ م وتوفي ٦٧٦ هـ / ٢٧٧ م . ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، ابن
الفرات ج ٧ ص ٨٥ م ١٠٩ ،

(٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، وهو يجعل الافتقال سنة ٦٢٠ هـ والوفاة ٦٢٥ هـ ،
ابن شاکر الكتبي ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ، ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٣٦٥ ، ابن الفران ، ج ٦ ، ص ٦٥
٢ ورقة ٩٦ ، ٩٧ ، ج ٧ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، المفريزي السلوك ، ص ٦٠٨ ، بالخطوط
ج ٢ ، ص ٤٣ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٦١ - ١٦٢ م والغريب ان
وقعت بعد وفاة الظاهر بايام . ويقول ابن الفران ان الظاهر ارسل بالبريد
الى القاهرة لاطلاق سراحه فوصلت الرسالة بعد وفاة الشيخ !! .

الفصل الخامس

بيبرس في سياسته الداخلية وتنظيماته الادارية

بعد ان تسلم الظاهر السلطنة واجه قضايا داخلية كثيرة منها الحركات الاستقلالية التي تحدثنا عنها في الفصل السابق . ومنها قضايا الاعراب والاسماعيلية والمماليك الاجتماعية والسياسية والدينية والتنظيمات الضرورية في الجيش والادارة والفضاء .

١ - القضايا الداخلية

أ - الاعراب

كان عز الدين ايبك اول من واجه قضية الاعراب من السلاطين المماليك . فقد ثاروا عليه في بلاد الصعيد واعلنوا انعتهم من خدمة ملوك مسهم الرق واتصلوا بالناصر صلاح الدين يوسف يحثونه على قصف مصر في سنة ٦٥١ هـ لكنهم فشلوا في ثورتهم هذه . وثاروا مرة اخرى سنة ٦٥٣ هـ واخذ ثورتهم هذه ايضا (١) .

ثم جاء بيبرس فوجد انه لا بد من مواجهة قضيتهم بصورة جدية كي لا يشعلوه وهو في حروبه مع الفرنجة والتتر . ففي سنة ٦٥٩ هـ حارب عرب زبيد الذين كانوا يخالفون الفرنجة ويدلونهم على نقاط الضعف في دفاع المماليك . حتى اذا فلبهم وجد ان سياسة العنف وحدها لا تكفي فانقطع امراءهم الاراضي والزمهم خفر البلاد وجعل ابن مهنا اميرا على الاعراب جميعا . وقد يكون الخطر من علم الدين منجر الحلبي هو الذي فرض عليه هذا السبيل (٢) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٥ المقرئ ، السلوك ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ .
(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٦٥ . وعرب زبيد قبيلة منتشرة في الغوطة والمرج وصرخد وحران والاحلاف قرب الرملة . (الفلحندي ، ج ٤ ص ٢١٣ ، ٢٢٤) .

وفي سنة ٦٦٠ هـ هاجم مريان الصعيد امير قوص، فهاجمهم الظاهر في رجب
وبدد شملهم (١) .

وفي سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٣ م . جاء بعض عرب خفاجه الى مصر وابلعوا السلطان
انهم يحاربون التتروا طلعوه على اخبار شيراز فالبسهم الفتوة وانعم عليهم ثم ارسل معهم
امرا^{من} عنده (٢) .

وبعد اعتقال المعيث صاحب الكرك احضر السلطان الامير مبيه وفيه من امراء بني
مهدي وبني عتبة ومفا منهم مما بدر منهم سابقا واوجب عليهم حفظ البلاد حتى الحجاز (٣) .
وفي جمادى الآخرة سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م ، ثار عليه اعراب المنطقة الشرفية فسي
مصر فحمل عليهم بعنف . . وفي ٢٠ منه سمر بعض مقدميهم على الجمال فركن البقية الى
الهدوء والطاعة (٤) .

وفي هذه السنة ايضا ثار زامل بن علي على الامير عيسى بن مهنا في شمال بلاد
الشام ، فاعتقل الامير الشائر . ثم افرج منه وبعد اعراب الوعود الطيبة لكنه ثار مرة اخرى
واعترض طريق رسل السلطان الى شيراز واخذ الرسائل التي معهم الى هولاكو ، فاعتقله مرة
اخرى في مصر (٥) .

وفي سنة ٦٦٦ هـ ، جاءه مريان الحجاز والتزموا بدفع الزكاة والطاعة (٦) .
وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م . حين كان السلطان يقصد الحج اوهم ابن مهنا انه
يهاجم العراق . وفي بداية سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م ، ثار اعراب على ابن مهنا فرجاء هذا ان

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ٥٢ ، المقريزي السلوك ، ص ٤٧١ .
(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ٩٨ ، المقريزي السلوك ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١١ .
(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، المقريزي السلوك ، ص ٤٨١ ، ٤٩٢ .
(٤) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٣٧ ، ٥ - ابن عبد الظاهر ، ص ٣٢ ، ٣٤ ، ابو الفداء ، مج
٤ ص ٣ المقريزي السلوك ص ٥٣ ، ٥٤١ ، ٦ - ابن الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ورقة ١١ .

يسمح له بالقدوم الى مصر ، فلم ياذن له ، حتى اذا جاء السلطان الى حماه استدعاه اليه

واستدعى معه بقية الامراء ، ونظر في خلافهم ، وحل قضيتهم وخلع عليهم جميعا (١) .

وفي سنة ٦٧٢ هـ هرب احد امراء الاعراب من سجنه في مجنون الى التتر ثم عاد

يطلب العفو من الظاهر فرفض السلطان الصفع منه قبل العودة الى السجن ووضع القيد في

رجليه . فرجع الامير الفار ، وفقا منه السلطان (٢) .

وهناك عرب برقة . فقد كانوا يرفضون دفع الزكاة . وفي ذى القعدة سنة ٦٦٢ هـ

استدعى اميرهم واتفق معه على دفع الزكاة وحفظ البلاد ومطاردة العصاة . وفعل نفس

الشيء مع عرب الجبهة الغربية من مصر (٣) . وفي سنة ٦٧١ هـ هاجم برقة كلها . وفي جمادى

الاخر من السنة التالية استسلم اليه امراءها وسلموه مفاتيح الفلاع (٤) .

وهكذا نجد ان العربان رضوا الخضوع للمماليك منذ البداية بحجة انهم ملوك

مسلم الرق ، وكانوا ايضا يتهمون من دفع الزكاة . وكانوا على استعداد للانحياز الى التتر

والصليبيين واتصلوا بهم بالفعل ، بحيث كان الظاهر يشعر بحرج موقفه احيانا . اما معاملة

السلطان الظاهر بيبرس لهم فكانت تتراوح بين الشدة واللين ، بين القسوة والرحمة ، لكنهما

كانت دائما مطبوعة بطابع الحذر . وكانت القبائل القاطنة بادية الشام اخطر القبائل ، لقربها

من التتر والفرنجة على السواء ، فاضطر لومدها الوعود الطيبة ، واطلاق الغلات لها ، وبذلك

ضمن انحيازهم اليه ، وجعل منهم ادلاء ومخبرين - اما الاعراب البعيدون عن مواقع الخطر

ففتك بهم بعنف .

(١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨٦ هـ ٨٧ ، المقريزى بالسلوك ص ٥٨٠ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ .

(٢) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٨٠ - ٢ - ابن عبد الظاهر ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ابن الفرات ،

ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٠٥ ، المقريزى بالسلوك ، ص ٥٢١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ - ٤ - ابن ابيسي

الفضائل ، ص ٢٢٥ ، المقريزى بالسلوك ص ٦٠٨ ، ابن تغرى بردى بالنجوم الزاهرة ج ٧ ،

ص ٢٤١ .

ثانيا - الاسماعيليه :

الاسماعيلية فرقة من الشيعة تعرف بالصعبيه اذ اعتبر اصحابها الامامة منتهيه عند الامام السابع اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفي في المدينة المنوره سنة ١٤٣ هـ وحاربهم الخلفاء العباسيون فاستعانوا بالتفيه وتلمسوا الملاحي في المراكز البعيده . فلجاء علي اصغر اولاد اسماعيل الى بلاد الشام فالمغرب بينما انتقل ولده الاكبر محمد الى الشرق ومنه الاسماعيليه الهنديه .

ومن الاسماعيليه الذين ايدوا عليا كان عبدالله بن ميمون القداح المتوفي سنة ٢٦١ هـ ، ومنهم مؤسسو الدولة الفاطمية في المغرب ثم الخلافة الفاطمية في مصر وبلاد الشام ، ومنهم الحسن بن الصباح المتوفي سنة ٥١٨ هـ ، وهو مؤسس الاسماعيليه المعروفين بالحناثين . اسس هذه الفرقة في قلعة الموت شمالي فري فارس ومنها الفرع الشامي الذي تركز في السليمه في منطقة حلب (١) . وقد لعبت هذه الفرقة دورا هاما اذ اضطرت الخلفاء والملوك (٢) . ان يدفعوا لها ضريبة ما بين ١٠٩٠ و ١٢٥٦ . وفي سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٢ حاصر جيش هولاءو ركن الدين خورشاه بن علا ثم اسره واضطره ان يقبل الارض بين يديه ويعطيه امرا للباطنيه في بلاد الشام بتسليم قلاعهم للمغتره ثم قتل (٣) .

اما الاسماعيليه في بلاد الشام فكانوا في هذه الفترة قد اخذوا يضعفون حتى انهم كانوا يهتمون بالصليبيين او يدفعون ضرائب للاستتار به منهم (٤) .

EI "Assassins" Vol I pp 491
C Huart "Ismailiya" EI Vol II pp 552

(١) ملحوظة ١ ، الملوك للمقريزي ، ص ٢٢٢ ،
(٢) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٤ وورقة ٦٩ - ٢ - R Grousset ، ج ٢ ص ٥٦٢
(٤) المقريزي ، الملوك ص ٥٤٢ ، و ٥٥٢ .

ثم جاء الظاهر بيبرس فنقم عليهم لانهم حاربوا صلاح الدين الايوبي حين كان يحارب الصليبيين ، وانهم يؤيدون الصليبيين ويمالئونهم وانهم " باطنية ملاحدة " لاهد من تطهير البلاد منهم . اذا لقد نقم الظاهر عليهم لسببين احدهما سياسي عسكري وثانيهما ديني مذهبي .

في سنة ٦٥٩ هـ ارسل صاحب قلاع الاسماعيليه رضى الدين بن العلي ونجم الدين بن الشعرائي رسولا حمل للظاهر في دمشق هدية ورسالة . وكان في الرسالة تهديد ومطالبة باستعادة اقطاعات ورسوم كانت لهما في عهد الناصر صلاح الدين يوسف وكان الظاهر لا يزال في بدء سلطنته امام مشاكل في بلاد الشام ، فقرر استعمال الحيلة مع الرسول . فاجاب الرسول الى ما كان في الرسالة لكنه اخبره حين ودّ العودة ، انه لم يسمع ان رضى الدين قد توفي وعرض عليه توليته مكانه ثم كتب له منشورا بذلك . فقبل الرسول وهكذا نجح الظاهر في احداث خلاف بين الرسول والمرسلين .

وماد الرسول الى مرسله فوجد رضى الدين حيا يرزق فاضطر لكتسم الخبر ثم مات رضى الدين بعد عشرة ايام فابرز الرسول منشور الظاهر ورضي نجم الدين بالمنشور لكن صام الدين مبارك بن رضى الدين رفض الخضوع لامر الظاهر فاعلن العصيان فسي قلعة العليقة . فازدادت نفعة الظاهر على الاسماعيليه وقرر ضربهم عسكريا . فارسل علاء الدين ايدكين البندقدارى في رجب سنة ٦٦٠ هـ لضرب سرمين فثار انصار نجم الدين الاسماعيليه تايدا لوالي سرمين وجرحوا الامير البندقدارى وهو مار على جسر مند حماء فامسك الظاهر نواب الاسماعيليه تايدا لوالي سرمين في مصر فاضطر نجم الدين للتنهل من المسؤولية ومسايرة الظاهر (١) .

(١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٥٨ ، وج ٢ ص ١١٤ ، و ١٦٢ و ١٦٣ ، و ١٥٤ و ١٥٥ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ابن الفرات ج ٦ ، ص ١ ، ١٦ و ١٧ و قسم ٢ ورقة ٦٩ ورقة ٧٩ - ٨٠

وفي ذى القعدة سنة ٦٦٤ هـ جاء رسول الاسبتار الى الظاهر وماله الصالحة على بلادهم في منطقة حمص وبلاد الدعوة فاشتراط الظاهر لذلك تخلي الاسبتار عما كانوا ياخذونه من الاسماعيليه من قطائع على حماه وبلاد ابي نبيس ، ومناصفته على الضرائب التي ياخذونها من بلاد الدعوة ، فقبل الاسبتار بذلك ومقد الصلح (١) .

وفي سنة ٦٦٥ هـ جاء رسول الامبراطور البيزنطي والفونس الاشيلي ورسل ملوك الفرنجة وملك اليمن بهدايا الى صاحب قلاع الاسماعيليه ، فرفض الظاهر السماح للرسائل بالمرور من فيران يدفعوا ما يترتب على الهدايا والاموال من " حقوق ديوانية " فخافه الاسماعيليه وارسلوا اليه في جمادى الاخر سنة ٦٦٥ هـ اموالا لينفقها في الجهاد . وفي رمضان من السنة نفسها الغيت قطائع الاسماعيليه من حماه وشيزر واقاميه وعيناب (٢) .

وهكذا ، نجد ان الظاهر استطاع خلال بضع سنوات ان يدق اسفينا في حقوق الاسماعيليه وان يفرض عليهم ضرائب واموالا . لكنه لا يزال عليه ان يحتل قلاعهم .

وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م ، وجد صام الدين انه لا بد من طلب العفو من السلطان . فارسل له هدية وشفع له عنده صاحب صهيون ، وصاحب حماه فرفض عنه الظاهر وكتب له منشورا باستنابته على حصون الاسماعيليه ، الكهف والخوابي ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس والرصافة . واستبقى مصياف له وحده . وفي رجب من السنة نفسها ارسل الى القلاع الاسماعيليه واليا من قبله شريكا لصام الدين . فتار هذا على الوالي لكنه اضطر للرضوخ اخيرا وللقبول بشراكة نجم الدين . ولدفع مبلغ الف دينار كل سنة (٣) . اما نجم الدين فكان عليه ان يدفع ١٢٠ الف درهم سنويا (٤) . ثم عاد فاعتقل صام الدين في ذى القعدة من السنة نفسها وسجنه في القاهرة . (٥) .

(١) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٠ ، وابو نبيس حصن مقابل شيزر يافوت ج ١ ، ص ١٠٣ - ٢ -
ابن الغرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٤ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٢ - ٣ - ابو
الغدا ، ج ٤ ، ص ٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٢ ، ٤ - ٤ - ابو الغدا ، ج ٤ ،
ص ٦ ، ٥ - البيهقي ، ج ٢ ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ابن الغرات ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة
٧٠ ورقة ٨٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٨٦ ، ٦٠٨ .

وفي شوال سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م ، تسلم السلطان حصن العليقة (١) .

وفي صفر من السنة التالية تسلم الظاهر عددا من القلاع وثارث عليه القلاع

الآخري فافتتم الفرصة لانفضاض على مواقع الاسماعيليه ، وتسلمها جميعا وارسل اليها

نوابه ونقل الزعماء الاسماعيليه الدين يخشى باسمهم الى ههر (٢) .

لقد كان الظاهر يساير الاسماعيليه حتى سنة ٦٦٨ هـ لكنه بعد هذا التاريخ

حين علم بمحاولات التتروالاوربيين للتحالف عليه ، وحين علم بإمكانية قيام حملة صليبية

جديدة ، تجمع بين التترومن الشرق ، والاوروبيين من الغرب ، رأى انه لابد من الفضا

عليهم ، كقوة عسكرية . وهكذا كان . وبفضائه عليهم تمهدت السبيل امامه لمهاجمة اسيا

الصغرى .

ثالثا - النوبة :

تمتد بلاد النوبة على شاطئ النيل من شلال اسوان الى مروي قرب الشلال

الرابع وتنقسم الى قسمين ، النوبة العليا والنوبة السفلى . وتقع هذه الاخيرة بين اسوان

ووادى حلفا . اما النوبة العليا فتقع بين حلفا والشلال الرابع وتشمل حلفا ودنطه وتسمى

ايضا بلاد العلى او طوة (٣) وفي بلاد النوبة السفلى كان بنو كنز (٤) . نسبة الى

عرب بني الكنز من ربيعهم . وكان هو لا منذ عهد الحاكم بامر الله الفاطمي ، يتمتعون

ببعض الاستقلال .

(١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٧٩ - ٨٠ ، المقرئى السلوك ، ص ٥٩٣ .
(٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٥١ ، ٤٧٣ ، ابو الفدا ، ج ٤ ، ص ٧ ، ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢
ورقة ٨٢ - ٨٨ ، بورقة ١٠٣ ، ١٠٥ ، المقرئى السلوك ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، وهو يجعل تاريخ
الاستلام في ذى الحجة ٠ - ٣ - ملحوظة ١ ص ١٨٨ و ١٨٩ ، ج ٧ ، النجوم الزاهرة
لابن تغرى بردى - ٤ - الكنز مقدم مصرى اقام باسوان واجتمع عليه الناس ، فظن انه يستطيع
بهم تملك البلاد ، وهاجم قوص في عهد صلاح الدين ، ثم قلب على امره ، صفر ، سنة ٥٧٠ هـ
١٢٧١ هـ / ابو ظلام ، كتاب الروضتين ، طبعة وادى النيل ، سنة ١٢٨٧ هـ ج ١
ص ٢٣٥ .

ثم جاء الظاهر ببيروم فتدخل ببلاد النوبة تدخلا فعليا ، لابل استولى عليها وجعلها جزءا من سلطنته (١) .

والنوبة خاضعة للممالك من الناحية الرسمية ، لكن صاحبها كان كثير الاحتكاك بالتجار وبولاة الممالك في الجنوب ، ففي سنة ٦٦٢ هـ علم الظاهران صاحب سواكن وصاحب دهلك يتعرضان للتجار فارسل اليهما رسالة تهديد (٢) . وفي سنة ٦٦٤ هـ حين كان الظاهر بدمشق وصله الخبر باصطدام واليه في قوص بصاحب سواكن واستيلاء الوالي على سواكن وفرار صاحبها (٣) . وفي سنة ٦٦٧ هـ وعلم خبر الاختلاف بين داود وابن اخيه مشكد (٤) وفي سنة ٦٧١ هـ هاجم صاحب النوبة عيذا بونهدب جيش النوبة اهلها وقتل قاضيها وواليها ، فقام والى قوص بحملة تاديبيه على دنظله وقاد بالاسرى والعنائس (٥) .

وازاء هذه الاحتكاكات كان لابد من حملة كبرى لاعادة احتلال النوبة . وقد جرت الحملة في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ . وكان السبب المباشر لها ان داود ملك النوبة امار على اسوان ونهبها واحرقها ، ثم اخطف مشكد (او شكده) مع ابن عمه داود هذا فجاء الى القاهرة مستنجدا بالسلطان الظاهر . فامر الظاهر الامير انستقر الفارقاني بالتوجه الى النوبة بحملة فويقتوسار في اول شعبان سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ الى دنظله وفي شوال جرت معركة منيفة قتل فيها معظم رجال الملك داود وفر الملك واسرت والدته واخته . . ودخل الفارقاني دنظله واقام مشكد ملكا فيها والبسه التاج ثم قرر عليه قطيعة سنوية هي ان يكون للسلطان ربع حلة البلاد من كل شي* ، لكنها عدلت الى مايلي : -

(١) ثلاثة اقبال وثلاث زرافات وخمسمائات فهود ومائة جواد اصعب ومائة بقرة منتجه .

(١) (S Hillelson) مادة " Nuba " الموسوعة الاسلامية ، مجلد

٣ ص ٩٤٥ .
(٢) ابن عبد الظاهر ص ٩٣ ، - ٣ - اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، المقرئى ، السلوك ص ٥٥٠ ، ابن تغرى بوى بالنجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢٩ ، ١٤٠ ، - ٤ - ابن الفرات ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٣٧ . - ٥ - ابن ابي الفضائل ، ص ٢١ ، ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٠٥ المقرئى السلوك ، ص ٦٠٨ .

- (٢) نصف طعة البلاد للسلطان علي ان يحرف النصف الباقي على عمارة البلاد .
- (٣) بلاد العلى والجبل - وهي ربع بلاد النوبة - للسلطان لقرىها من اسوان .
- (٤) يحمل للسلطان كل سنة فطن وتمروبية " الحقوق الجارى بها العادة من القديم " .
- (٥) دفع دينار من كل بالغ جزية سنوية .
- (٦) قبول نائب للسلطان في دنظم وطامته .

ثم كتب نسخة هذه الاتفاقية وحذف عليها الاكابر والملك . وبقي الجيش الظاهري في دنقله ١٧ يوما خرب فيها كنيسة سوس ونهب ما فيها من ذهب وفضة واخذ الاقمشة والرفيق واطلق سراح الاسرى المسلمين ، ثم عاد الى القاهرة ، فوصلها في ٥ ذى الحجة سنة ٦٢٤ هـ .

ثم عاد الملك داود فاستسلم واستتب الامر للظاهر في بلاد النوبة ، وبلغ خراجها وجزيتها مبلغا ضخما جعل السلطان ينشي ديوانا خاصا لذلك (١) .

وهكذا نجد ان لعلاقة السلطان الظاهر بالنوبة ثلاثة دواع هي :

اولا : حماية التجارة . وبلاد النوبة طريق تجارى من المحيط الهندي والبحر الاحمر .

ثانيا : تأمين الغلات منها . ويبدو انها كانت فنية بحيث استحدثت انشاء ديوان خاص لجمع الضرائب والغلات منها .

ثالثا : ضرورة حماية البلاد من عبث العابثين لاسيما والنوبة مجاورة لبلدين صديقيين هما الحبشة واليمن .

(١) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٩ ، ابن ابي الفضائل ص ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، المقريزي السلوك ، ص ٦٢٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ ، ابن

رابعاً - سياسته الدينية :

كانت الناحية الدينية هامة عند الظاهر بيبرس لما تحققت له من افراض .
ولمست اقصى بهذا ان بيبرس كان منافقاً في تمسكه بالمظاهر الدينية . الواقع هو ان بيبرس
كان حسن الاسلام شديد التمسك بكل طقوسه . حتى انه امر ببناء جامع من خام قرب خيمته
للصلاة بها (١) . لكنه كان يدرك ان لهذه الناحية اهمية سياسية وعسكرية . فهو لم يعمل فلسي
امادة الخلافة لما لها من مقام ديني وحسب . ثم انه كان حريصاً على سيطرته على مكة
والمدينة لما في ذلك من تعزيز لمكانته بين المسلمين ، داخل حدود سلطنته وخارج حدودها .
المنحوظ ان السلاطين المماليك عامة فنوا بصورة ظاهرة بانشاء الجوامع
والمزارات . كانوا بهذه السياسة يودون التعويض عما فاتهم من شرف النسب ، وصرف الانظار
عن سيئات حياتهم الخاصة . وواضح هذه الخطة هو الظاهر بيبرس . لم يكن في حياته
الخاصة مايسوء او يؤذي ، ولكنه كان في كل سنة يقوم بعمل ذي مغزى ديني يرضي به شعوره
الديني من ناحية ويحقق له فرضاً اخر من ناحية اخرى .

ففي سنة ٦٥٩ هـ ارسل الاموال والمعدات لعمارة الحرم النبوي بالمدينة
وفي شعبان من سنة ٦٦١ هـ وصله خبر من امير المدينة ، بانه قصد مكة وطلق فيها الكسوة
ببناء على اوامره (٢) وفي رمضان من السنة نفسها امر بتجهيز البنائين والنجارين والالات
والاخشاب الى المدينة لبناء الحرم النبوي . وكان حريصاً ان يعرف هذا منه . فامر بان تحمل
الادوات والاخشاب على بغال تطوف بها في مصر والعااهرة وان يركب معها ارباب الدولة
والقضاة والمدرسون والصوفية والفراء . وفي شوال سارت القافلة الى المدينة ومعها كسوة البيت
الحرام ايضاً (٣) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٣ ، المقريزي بالسلوك ، ص ٤٤٥ - ٢ - ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩
(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٣ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٥ ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، المقريزي
السلوك ، ص ٥٠٢ .

امرائه من الدين الطهي العائد من الحج للتبرك به (١) . وفي شوال سنة ٦٦٦ هـ خرج
الركب المصري الى الحجاز للحج فعني بامر تجهيزهم ثم استقبلهم عند مودتهم فسي
صفر سنة ٦٦٧ هـ .

وكان في كل مناسبة يرسل كموتين للكعبة ولغير النبي ويبحث بالعطايا ويسهل
الحج فازداد بذلك نفوذه (٢) .

وفي سنة ٦٦٧ هـ قرر السلطان الحج بنفسه . وقبل الرحيل اجري الترتيبات
اللازمة (٣) ثم فادر القاهرة في ١٢ جمادى الآخرة الى خربة اللصوص خارج دمشق . وفي
شوال ذهب الى فزه فالقوار كانه ذاهب للصيد . ثم دخل الكرك في اول ذي القعدة
وفي سادسه سار الى الشويك حيث قضى بضعة ايام . ثم استأنف السير الى الحجاز وهو
مكتنم (٤) في الوجهة المقصودة بمعه بدر الدين الخزندار و صدر الدين سليمان الحنفي
وفخر الدين بن نعمان وتاج الدين بن الاثير ونحو ٣٠٠ ملوك ، وبعض اعيان الحلفة .
ووصل المدينة في ٢٥ ذي القعدة . وبعد ايام قصد مكة فوصلها في ٨ ذي الحجة ولاقاه
صاحبها ابو نخعي ومعه ادريس واعلنا خضوعهما له ، وثبتتهما في امارتهما ، ثم سارا
بين يديه الى مرفات فمضى فمكة حيث صعد الكعبة " وفسلها بما " الورد وطيبها بيده " .
وبقي فيها حتى ١٣ منه ثم عاد الى المدينة (٥) .

(١) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ ، (٢) اليونيني ، ج ٢ ص ٢٨٧ ، المقرئى ، السلوك ،
ص ٥٨٠

(٣) ص ١١٤ ادناه

(٤) كان شديد الحذر حتى انه قطع لسان امير طلب منه اصطحابه الى الحج ، ووجه فرقة
للمراقبة بظاهر الكرك ، واوهم ابن مهنا انه قاصد العراق .

(٥) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٥٠٥ ، ٦ ، اليونيني ج ٢ ص
٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٦٢ - ٦٣ ، المقرئى ، السلوك ص ٥٨
٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨ ، التبر المسبوك ، ص ٨٦ - ٨٧ ، ٩٠ - ٩١ - ٩٥ ، ابن اياس

ج ١ ، ص ١٠٧ .

قام الظاهر بالحج تحفيفا لطف من ديني . ولكنه استهدف ايضا الاطلاع على
شؤون مكة والمدينة . كان له هدف سياسي ايضا . فقد اتصل بصاحب اليمن ودامه
لمحاربة التتروا حسن الى امراء ينبع وخليص واكابر الحجاز (١) . وكان قد علم بتحركات
التتروا نحو الحجاز (٢) ولا ننسى هنا ان الظاهر كان ينوي القيام بحملة ضد التتروا في اسيا
الصغرى ، فطبيعي ان يستفيد من المظاهر الدينية لكسب عطف المسلمين . لقد جمع
بذلك بين الجهاد والحج .

واعاد صلاة الجمعة والخطبة الى الجامع الازهر في ١٨ ربيع الاخر سنة ٦٦٥ هـ .
بعد مناقشة بين الفقهاء بعد ان كان الحاكم بامر الله الفاطمي قد نقلهما الى الجامع
الانور (٣) .

واهتم بمدينة القدس وبمدينة الخليل . ففي سنة ٦٥٩ هـ ارسل عمالا ومعدات
لبناء قبة الصخرة ، واستعاد ما كان الامراء استولوا عليه من اوقاف الخليل . وفي
جمادى الآخرة سنة ٦٦١ هـ زار القدس وارضى بحماية قبة الصخرة ، وتأمين نفقات القائمين
عليها . وفي صفر سنة ٦٦٢ هـ اوقف فيها خانا ورتب بمدينة الخليل ساطا ورواتب
للمقيمين والواردين . وفي سنة ٦٦٥ هـ عني بامر الكشف من الماء بالقدس . (٤) .

(١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٦٣ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢ ، التبر
المصبوك ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ابن الفرات ، ص ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٦٢ .

(٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٢ - ٤ لكن التواريخ
منه ١٨ و ١٩ ربيع الآخر . وقد رأى السيوطي هذا التدبير سيئا . (حسن
المحاضرة ج ٢ ص ٢٤) .

(٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٨ ، ٧٤ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٤٥ ، ٥٠٥ ، ٥٦٠ .

واستطرادا من هذه السياسة كان الظاهر يكثر بذل الصدقات • وقد كانت المناسبة المفضلة لذلك هي رمضان • والامثلة على هذه الصدقات كثيرة ذكرت المصادر بعضها • لكن ابن عبد الظاهر، بعد ان ذكر ما فعله في رمضان سنة ٦٦١ هـ قال ان ذلك كان "على عادته" (١) •

وكذلك في الظاهر بنشر الاسلام • وهذا ما تدل عليه وسائله مع بركة ومعاملته للمتقين الذين كانوا يردونه مستامين (٢) • وفي ايضا بتنفيذ الشرع (٣) • وهكذا نجد ان سياسة الظاهر الدينية كانت مبنية على احترام المظاهر الدينية والقيام بما يتطلبه الدين من طقوس وعبادات، وعلى انشاء الجوامع والمزارات والزوايا والوقف وعلى العناية بالمدن المقدسة، لكنه كان حريصا على ان تعرف اعماله هذه وان تداع بين الناس، مما يوحي بان اعماله هذه كانت ذات اهداف فير دينية •

٢ - الجهاز الاداري

بما ان السلطان الظاهر كان يوجه نشاطه في الداخل الى توطيد المالكة فسي ظل اسرته قد رايت ان ابداء الحديث من الجهاز الاداري بهيئت في السلاية منده •

اولا • السلاية •

نعلم ان الظاهر طمع بناية حذب، لكنه لما استولى على السلطنة، اخذ يطمع بالاحتفاظ لسلالته بالسلطنة على المالكة مخالفا بذلك العرف المعمول به بين المالكة بشأن الانتقال من سلطان الى اخر، والذي جاء الى الحكم بنفسه استنادا اليه، لم يكن

(١) ابن عبد الظاهر ص ١٠٣، ١١٨، المقريزي، السلوك، ٥٠٥، ٥١٣ •

(٢) ابن عبد الظاهر ص ٩٩، المقريزي، السلوك ص ٥١١ •

(٣) ابن عبد الظاهر ص ٢٥ - ٢٦ •

العرف المملوكي يقضي بالوراثة ولكن الظاهر اراد ان يجعله كذلك . وقد وجهت هذه الرغبة منه جميع تنظيماته الداخلية الادارية منذ بدء مهده بالسلطنة .
كان للظاهر عشرة اولاد بينهم ثلاثة ذكور وهم محمد بركة خان وقد ولد في صفر سنة ٦٥٨ هـ ، وسي كذلك على اسم جده لاييه ، ويذر الدين سلامش ونجم الدين خضر (١) .

وكان محمد بركة خان اكبر ابنائه الثلاثة . فقرر الظاهر اعلانه ولياً للعهد بعده ، وطلب من الجيش ان يحلف لميمين الولا . ثم راح يدرسه على شئون السلطنة ، ويستغل كل مناسبة للتاكيد على سلطنته بعده . ففي سنة ٦٦٠ هـ حين كان عمر محمد بركة خان ، نحو سنتين فقط ، حلف الجيش له يمين الاخلاص والولا . من بعده . وفي سنة ٦٦٢ هـ ختنه في حفل ضخم جمع ابناء الامراء والاميان والاجناد والرعية ليختنوا معه ، ووزع الهدايا والاموال على الامراء والاجناد والرعية (٢) .

ويوم الخميس ١٢ شوال سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ ، قبل الذهاب لملاقاة التقرر على البيرة استعرض الظاهر الجيش ، ثم اعلن ابنه وليا للعهد بعده ، ولقبه الطلك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ، ثم اركبه بابدة الطلك وادخله القاهرة من باب النصر ، وشق به المدينة والامراء مشاء بين يديه ، وهو ، اى الظاهر ، يحمل الغاشية له بنفسه (٣) .

-
- (١) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٤١ ، ابن ايام ، ج ١ ، ص ١١٢ .
 - (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٢ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ، لكنه يجعل الختان في ذى القعدة سنة ٦٦٣ هـ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ابن الفرات ج ٦ ص ١٠٠ .
المقرئى بالسلوك ، ص ٤٦٨ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، وهو يجعل الختان بعد السلطنة ، سنة ٦٦٢ هـ ، ابن ايام ج ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .
 - (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٦ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ابن ابي الفضائل ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ابن الفرات ، ج ٦ ص ٤٨ ق ، والتاريخ منه ١٣ شوال .

وفي ١٢ شوال ، قرى التقلید بتغويض عهد السلطنة السعيد ، وفي التقلید اشارات الى جهاد الظاهر ضد الخصوم واطلان سلطنة السعيد لمتابعة ما بدا به الوالد . ثم ارسل تصخا بذلك الى جميع النواب والولاة (١) .

ولم يكتف الظاهر بهذا . وفي يوم الخميس ٩ صفر سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٨ حين قد ان يقوم بالحج جلس الظاهر في ايوانه في قلعة الجبل واحضر الشهود والنفاسة لتحليف الامراء ومقدمي الحلقة بالجلطنة لابنه السعيد من بعده مرة اخرى . وفيوم الاثنين ١٣ صفر ، دخل السعيد الايوان راكبا كما يفعل ابوه ، ثم جلس وقرئت عليه الفسخص وفيوم الاثنين ، ٢٠ صفر ، اركبه السلطان مرة اخرى بابهة الملك ومشى امامه ومعهم الامراء والاجناد ، ثم عين له الامير بدر الدين بهليك الخزندار نائبا عنه لمساعدته . وبعد ذلك صار السعيد يجلس في الايوان لتصرف الامور مكان ابيه (٢) .

وفي جمادى الاخرة سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ ماز الظاهر الى دمشق في حملة على الفرنجسة واخذ معه ابنه السعيد وابيسر له من العمر الا ما يقارب الاثني عشر عاما وذلك لتعويده . تحمل المشقات والتدن . ب على الادارة . لاسيما وقد كانت سفراته الى بلاد الشام كثيرة .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٩ ، ١٠٦ - ١٠٩ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ابن الفرات ، ج ٢ ، ص ٤٨ ق - ٥٠ ، والحفيزي ، السلوك ، ص ٥١ .

(٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٣٧ - ٣٨ ، الحفيزي السلوك ، ص ٥٢٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٤ .

وسار السعيد على نهج ابيه . ففي ١٢ رمضان سنة ٦٧٢ هـ صاحب بعض الامراء وسار الى دمشق سرا ودخلها في ٢٦ منه . ثم عاد الى القاهرة مارا بشقيف ارتون وصفد ، حتى وصلها في ٢١ شوال سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ (١) . فوجد ان اياه قد قام له بمظاهرة اخرى في يوم ختان اخيه نجم الدين خضر في يوم عيد الفطر (٢) .

وفي ٢٤ محرم سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ ارسل الظاهر الامير بدر الدين الخزندار من دمشق الى القاهرة ليعود بالسعيد و ببعض الامراء الى دمشق . وفي سادس صفر زوجه من فائزة خاتون ابنة الامير سيف الدين قلاوون . وفي ربيع الاخر سنة ٦٧٥ هـ عمل له العرس في القاهرة في مظاهرة كبيرة اذ استمر العرس بضعة ايام مدت فيها الاسطة وتبارى فيها الجنود في الميادين . وتزاحم الناس للمتفرج ، واقامت الزينات ووزعت الخلع والهبات . وكان الهدف من تزويج ابنه بابنة قلاوون تثبيت مركز ابنه من بعده (٣)

هكذا نرى ان الظاهر كان يعد العدة لاستبقاء السلطنة في ذريته . لكن حلمه لم يتحقق . صحيح انما استطاع ان يورث ابنه السعيد السلطنة لكنها لم تدم في ابنيه السعيد وبدر الدين سلامش من بعده فمر سنوات قليلة . لقد كانت محاولته هذه تهيدا للغير من بعده . فقد استطاع قلاوون من بعده ان يبقي السلطنة في ذريته نحو من ثلاثة اربع القرن .

-
- (١) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٩١ ، ٦١٢ .
 - (٢) ابن الفرات ج ٧ ، ص ٦ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦١٢ .
 - (٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٩ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ابن الفرات ج ٧ ، ص ٥١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، لكن موعد الزواج عند هذا الاخير سنة ٦٧٣ هـ .

ثانيا - القوات المسلحة :

فني الظاهر بيبيرس بقواته المسلحة عناية كبيرة • وهذا طبيعي • وهو يعود الى سببين اساسيين هما ان حياة الممالك كانت عسكرية في طبيعتها • فمنذ ان يؤتى بالملوك صغيرا ، يوضع في مدرسة خاصة ، تدعى طباقا ويشرف عليه راس نوبة طواشي فيحفظه القرآن ويلقنه الكتابة والشرعة وبعض الفقه ، حتى اذا ما قارب البلوغ اخذ بتدريبه تدريبا عسكريا • والملوك في هذه الفترة خاضع لنظام دقيق حتى انه لا يسمح له بالخروج الى المدينة الا في اوقات معينة • وكان تدريبه يمر في مراحل مختلفة حتى اذا ما استكملها امتق واعطي السلاح والحق بالممالك السلطانية وقد تميز هذا النظام من امثاله بدقة التنظيم المتناهية •

والسبب الثاني الذي حدا بالظاهر للاعتناء بالجيش مثل هذه العناية الكبيرة هو ان الاوضاع التي كانت تحيط به حتمت عليه ان يعنى بتنظيم قوات مسلحة وابقائها على استعداد دائم ، وفي مستوى عال من التدريب • وفي مثل هذا الجو كان لابد له من ان يكثر من شراء الممالك ومن ان يتشدد في اختيار جنوده وتدريبهم احسن تدريب •

وقد نشأ الظاهر بيبيرس نفسه هذه النشأة العسكرية • وكان نفسه ايضا ، فيما يبدو ، جنديا وقائدا منذ فطرته • ومنذ معركة المنصورة اخذ يبدي عناية خاصة بجماعته من الجند • ولما فر الى بلاد الشام اكتم الذين لحقوا به وفني بشؤونهم برقم ضيق ذات يده • ولما استولى على السلطنة جمع شمل الممالك ورد عليهم ما كانوا خسروه في مدة التشرد وتفقده اولاد من ماتوا منهم ونسراهم ما يحتاجونه (١) •

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٢ •

انقسام الجيش المملوكي :

كان الجيش المملوكي بصورة عامة يتألف من ثلاثة اقسام هي :

اولا : المماليك السلطانية وهم فئتان : الفرانجى او فرق السلاطين الصابقيين ،
ومشتريات السلطان الفائم ويسمون بالاجلاب . ومنهم يترشح الخدم والحرس الخاصيه . وهم
ما نسميهم اليوم بالجيش النظامي الدائم .

ثانيا : مماليك الامراء وهم اجناد الامراء المقطعين . والى جانب هؤلاء سكان
البادية والقبائل التي يحطنها السلطان (١) .

ثالثا : اولاد الناس وهم اولاد الامراء ومنهم المجندون من المماليك الذين تألموا
ونلاحظ ان السكان الاصليين لم ينخرطوا في الجيش . ثم ان كل فرقة من هؤلاء
كانت مستقلة عن الثانية ، ولا تختلط بها .

عدد الجيش المملوكي :

نم جيش السلطان الظاهر هذه الاسماء الثلاثة جميعا . وليس وانما تماما عدد
جيشه من كل فئة من الفئات الثلاث . بيد اننا نستطيع ان نحدد الفئة الاولى بما يقارب
الاثنى عشر الفا ثلثهم في مصر وثلثهم في دمشق وثلثهم في حلب . وقد قيل
ان الظاهر رفع عدد جيوشه الى اربعة اضعاف ما كانت عليه عهد الملك المنصور نجم الدين
ايوب وبذلك بلغت اربعين الفا (٢) . اما الاربعون الفا فالارجح انها مجموع الجيوش من
الفئات الثلاث اثناء الحملات الحربية . وتعدينا استعراضاته العسكرية فكرة عن ان جيشه كان ضخما .

(١) المفريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن تليكر الكنبى ج ١ ، ص ١٦٩ ، المفريزى ، السلوك ، ص ٦٣٨ ، الخطط ، ج ٢ ، ص
١٤٢ - ١٤٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، بولياك ، ص ١٦ ، وسيد
نذرها هذا بمئة وشرالفا .

ولما سئل الظاهر في استعراض سنة ٦٦٢ هـ ، ما اذا كان الجيش الذي يستعرضه هو كل ما عنده من قوات ، اجاب انه جيش القاهرة وحدها (١) .

وكان الجيش موزعا على المدن الكبيرة في مصر وبلاد الشام ، وفي القلاع الداخلية وفي الشفور .

وكان للامراء رتب تبدأ برتبة امير مئة ، وهي العليا ، ثم امير طبليخاناء فامير عشرة ، فامير خمسة . وكان عدد امراء المئة اربعة وعشرين اميرا وعدد امراء الطبليخاناء ثلاثين اميرا (٢) .

نفقات الجيش :

ولم تكن نفقات الجيش ثابتة ، ان انه لم يكن للجند مرتبات ثابتة . فالعمالجك السلطانية نفقتهم على السلطان بالدات . اما جنود امراء الانطاع فنفقتهم من الانطاعات التي يمنحها السلطان لهؤلاء الامراء . واما نفقة الفئة الثالثة فما يرثونه من اباائهم ويزيد على هذا ، للنفقات الثلاث . ما يعطونه من مكاسب الحرب ، ومن هبات وخلق فسي المناسبات المختلفة . ولئن لم يكن لدينا ما يدلنا بدقة على مقدار نفقات الجيوش المملوكية مهد الظاهر ، فانه يوسعنا ان نقرر انها كانت كبيرة جدا . وهنالك روايات قد ظني ضوا على هذا ، الاولى ان المظفر قطز جمع نحو ستماية (٣) الف دينار لحملته على التتر في حين جالوت خلال بضعة اشهر . والثانية ان الظاهر خصص نحو مليون دينار (٤) لتجهيز عشرة الاف جندي في حملة على العراق ، والثالثة انه انفق نحو ٦٠٠ الف دينار (٥) في حملته سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م ، على البيرة ، والرابعة انه فرض مليون (٦) درهم على اهل دمشق للاسهام في حملته الاخيرة في اسيا الصغرى .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٣ ، ٢ — راجع ص ١٢٧ انباء وملحوظات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٨٧ . ٤ — ص ٨٧ ، املاء . ٥ — الذهبي ج ٢ ، ص ١٢٣ — ٦ — المقريزي ، الملوك ، ص ٦٤٠ .

وفي الخطط (١) فصل عن جيوش الدولة التركية ، اشار فيه الى كيفية تأمين نفقات الجيوش المملوكية فقال ان السلطان كان يحدد للامير ثلث الاقطاع ويجعل الثلثين لاجناده وان اقطاع امير المنيين المقدم يتراوح بين ثمانين الف دينار ومئتي الف دينار وان اقطاع امير الطبلخاناه من ٢٣ الى ٢٠ الف دينار ، اما الاجناد فادنى اقطاع الواحد منهم ٢٥٠ دينار .

ونقل القلقشندي من ابن مبد الظاهر ، ان نفقات السلاح خاناه كانت تتراوح ما بين ٧٠ و ٨٠ الف دينار (٢) .

قيادة الجيش

كان السلطان الظاهر نفسه القائد الاعلى للجيش . وهو مطلق التصرف في شؤون الحرب والسلم يعاونه في ذلك مجلسان - مجلس السلطنة او المشور المؤلف من اتاكه العماكر والخليفة والوزير وفضاة المداهب وامراء المنيين ، ومجلس الامور الخاصة وهو برئاسة امير من امراء المنيين ، ومهمته بروتوكولية . وقد نظم الظاهر هذين المجلسين بحيث كانت كلمته هي العليا (٣) .

وكانت الفئة الاولى - المماليك السلطانية - مقسمة الى ثلاثة اقسام يسمى ثلثها الاول جيش الزحف . ثم يتبعه الثلث الثاني فالثلث اذا لزم الامر . (٤) . وكان الظاهر يعطي فواده تعليمات دقيقة مفصلة عند الهجوم ، وغالبا ما كان يسجلها في رسالة مختومة ويعطيها للقائد ويأمره الا يفتحها الا في مكان معين (٥) .

(١) المقريزي ج ٣ ص ١٢٩ ، ١٤٥ - ٢ - القلقشندي ، ج ١٣ ، ص ٤٧٧ .
(٢) القلقشندي ، ج ٣ ، ص ٤٨١ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ج ٥ ، ص ٤٥٥ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٥ ، حسن ، ص ١٦٨ ، وقد عرف الفاطميون المجلس الثاني وقد كانت له عندهم صلاحيات واسعة - ٤ - ملحوظة ٢ ، ص ١١٧ لهلاء .
- ٥ - ابن مبد الظاهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، المقريزي ، السلوك ، ٥٢٣ - ٥٢٤ ،
٥٢٥ ، الخطوط ج ٣ ، ص ١٤١ .

خطته في معاملة الجنود :

كان الظاهر يعامل جنوده معاملة طيبة اثناء السلم وفي المعركة . فقد مین لهم يوم الخميس من كل اسبوع لاستماع شكوايهم ، وكان يعنى بترتيب اخبازهم حتى لا يكون مجال للتذمر .

اما في الحرب فقد كان يضع نصب اعينهم هدفا يستجلبهم كحصرة الاسلام ويشدد على ذلك ويدمو له بغوة حين يتدمر الجند . كما فعل اثناء الدفاع من البيرة ، سنة ٦٦٣ هـ وكان لا يحرضهم الى مخاطر لادامي لها .

لباس الجيش واسلحته :

كان الجندى يضع الكتوة الصفراء على راسه ، ويرتدى الغباء الابيض الضيق الاكام من الفطن البعلبيكي . وقد يكون لونه ازرق او احمر (١) .

اما الاسلحة ، فمنها السيف والرمح والترس والنشاب . واما الآلات فالمجانيق والدبابات ذوات العجل ، والزحافات والقطاطيع (٢) .

الاستعراضات العسكرية :

وليس ادل على هذه العناية بالجيش من الاستعراضات الضخمة المؤثرة التي كان الظاهر يجريها . ففي سنة ٦٦١ هـ امر الظاهر امراءه واجناده ان يعملوا العدد الكاملة لهم ولعماليتهم . فاشتغل الجميع بذلك حتى اذا صدف ان مرّ احد في سوق السلاح لم يقدر على العبور من كثرة الخيل والاجناد . ولم يعد لاحد شغل غير الاهتمام بعدته الحربية ، فارتفع سعر الحديد واجر الحدادين من جراء ذلك . ثم اجري الاستعراض وكان كل جندى يمر امام السلطان فيسأله هذا عن حاله حتى اذا تظلم احدهم من اميره اوجب انصافه (٣) .

(١) المفريزي الخطط ، ج ٣ ، ص ١٤١ - ٢ - المفريزي - السلوك ، ص ٤٢٥ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

وفي جمادى الاول سنة ٦٦٣ هـ ارسل الظاهر الامير سيف الدين بلبان الزيني
امير علم الى بلاد الشام لتجهيز العلاج ومرض المساكين في حماه وحلب وفي الثغور
المختلفة . ووجب على الامراء استكمال العدة للجهاد وامر بحمل خزانه كبيرة من المال
من دمشق الى البيرة لنفقات الدفاع عنها (١) .

وقرر اجراء استعراض اخر في ذى القعدة من السنة نفسها فاصدر تعليماته
بذلك منذ شعبان . فاهتم الامراء والجنود في القاهرة ودمشق وحلب وحماه حتى
انه لم يبق لهم ما يشغلهم فير تامين السلاح للاستعراض . وامر ان لا يلبس في يوم
الاستعراض الا عدة الحرب .

وفي اليوم المحدد للاستعراض جلس السلطان في صفة بجانب دار العدل
عند بزوغ الشمس وجاء الناس منذ الساعة الباكرة يتفرجون وامتلأت الساحات جنودا
حتى كانت العين لا تقع الا على خوذ لامعة وانوار ساطعة وخيول تصهل وجنود تقبل
واطلاب سائفة ومساكر متلاحقة . ثم امر السلطان كل امير ومقدم ان يعرض جنوده
ومساكنه في يوم واحد . واستمر العرض يوما كاملا ، والجندي يجيب ما يسأل ، ثم ضاق
الوقت فصاروا يمرون خمسة خمسة عشرة عشرة .

ومند المساء ركب السلطان بغيره ابيض وساق الى الدهليز ثم عاد الى الطعة ومنها
الى ميدان العيد حيث جرى لعب القبق ورمي النشاب .

وفي اليومين التاليين اخذ يوزع هباته على الملوك والامراء والخواص وارسل
المناصب والعمائم والوزراء والقضاة حتى تعجب الناس من كثرة ما يبدل ، ثم ختم

الاستعراض بسماط في قلعة الجبل (٢) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٩٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥١٠ .
(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٠ - ١١٣ ، ابن الفرات ج ٦ ، ص ٥٢ و - ٥٤ ، المقرئ

السلوك ، ص ٥١٢ ، ٥١٣ - ٥١٤ .

وقد كان السلطان الظاهر حريصا على المظاهر للتأثير على الناس • فقد جاء بالسير حرود (in Haroud) "فسطان يافا (١) لحضور الاستعراض ودعا رمل بركة لحضوره ايضا (٢) •

وفي اول سنة ٦٦٧هـ / امر بالاستعداد لاستعراض عسكري عام اشبه بالاستعراض السابق (٣) •

التدريب العسكري :

ومن مظاهر اهتمامه بالجيش انه رتب لعب العبق ورمي النشاب ، ليستمر بذلك تدريب الجنود وجعل من لعبة البولو والصيد ميدانا للتدريب العسكري ايضا • وكان يقيم لذلك رحلات وحفلات خاصة • ففي سنة ٦٦١هـ رتب لعبة العبق توفي سنة ٦٦٢هـ اقام احتفالا لرمي النشاب ، بعد الاستعراض الكبير ، وفي محرم سنة ٦٦٧هـ / ايلول ١٢٦٨ اقام احتفالا اخر خاصا برمي النشاب في ميدان الصيد ، ثم اتبعه بتدريب للجيش (٤) • وفي ذي الحجة سنة ٦٦٩هـ / تموز ١٢٧٠ لازم دار الصناعة لرمي النشاب •

وكان يوجب على جنده ان يصنعوا النشاب بانفسهم •

وفي رمضان سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٤ اقام احتفالا للعب العبق ورمي النشاب معا دام بضعة ايام • وانقسم الجيش فرقتين وقامتا بمانسبيه اليوم بالتدريب بالذخيرة الحية (٥) •

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٤ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٥٣ ق ٠ - ابن عبد الظاهر ، ص ١١٣ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٥٣ ق ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥١٩ - ٣ - ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٣٦ وورقة ٤٧ ، ٤٩ ، - ٤ - ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٤٨ - ٤٩ •
- (٥) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٢ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٧٢ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٠٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ابن اياس ج ١ ، ص ١٠٣ ، والعبق خشبه عاليه في اعلاها دائرة يحاول الرماة ادخال السهم فيها لاحكام الرمي • وكان لرمي العبق ميدان خاص بالقاهرة هو الميدان الاسود وقد بنيت فيه مصطبة خاصة للسلطان في محرم سنة ٦٦٦هـ (المقريزي ، الخطط ج ٢ ، ص ١١١ ، نقلا عن السلوك ، ص ٥١٨ - ٥١٩ ملحوظة ٦) •

العسوات البحرية •

كانت القوة البحرية قد أهملت في السنوات السابقة لمجيء السلطان الظاهر بيبرس واستخدم الأمراء رجال الاسطول في الحواريق • لكن الظاهر أمر في سنة ٦٥٩ هـ ان يعود الامر الى ما كانت عليه الحالة في عهد الملك الكامل ، وانشاء الشواني في الاسكندرية ودنيا ط ، واصدر تعليماته بضرورة العناية بالاشخاب • ويوم الاحد ١٩ رجب سنة ٦٥٩ هـ اجري استعراضا بحريا اشرف عليه هو والخليفة من جنود الروضة (١) •

ولما تحطم الاسطول الظاهري في عزوة قبرص ، اهتم ببناء اسطول جديد • وفي ربي الحجة سنة ٦٦٩ هـ تموز ١٢٧١ امر ببناء اربعين قطعة بحرية • وكان يشرف بنفسه على بناء الطرائد والسلايير والحواريق في دار الصناعة • ويوم الاحد ١٤ محرم سنة ٦٧٠ هـ ١٢٧١ نزل الى دار الصناعة لتدشين الاسطول الجديد • وفي سنة ٦٧١ هـ نصب مشقة منجنيق على اسوار ميناء الاسكندرية لصدد الفرنج (٢) •

حقا ان الظاهر لم يهمل القوات البحرية الحربية ، لكنه لم يعن بها كما عني بقواته البحرية المسلحة •

وينبغي الان نختتم هذا الفصل قبل الاشارة الى وسيلة اخرى لجاء اليها الظاهر للدفاع وهي استخدام القبائل لحماية الطريق والمناطق الواقعة على التخوم ، او اسكان هذه القبائل في مناطق الخطر • وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٧ اسكن بعض التركمان في فلسطين واسكن البعض الاخر في كسروان (٣) •

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣ ، المفريزي بالسلوك ، ص ٤٤٧ •

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٣ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ ، ٤٦٦ ، المفريزي ، السلوك ص ٤٤٧ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠١ ، ٦٠٨ ، بالخط ، ج ٣ ، ص ١١١ ، حاشية ١ •
النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٥٥ •

(٣) المفريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥١ ، راجع ص ٩٩ وما يليها من الاعراب •

ثالثا - الادارة

عني مؤرخو العماليك عامة عناية كبيرة بتفصيل أسماء البلاد التي حكمها
الفاطميون ، ثم تناولوا منها لائحة تسموها اربعة اقسام . قسم ملكه ، وقسم احتله من الفاطميين
وقسم اخر احتله من غير الفاطميين ، وكانت له فيها ثلاثة اقسام كاملة وقسم رابع لم يستطع
احتلاله بل قبل المشاركة في حكمه والمناصفة على غلاليه .

تدبر الملك من مصر الى اليمن الى العراق واراض الحزم والشوب •
اي ان ملكه امتد من تخوم اسيا الصغرى الى مال الى الجزيرة العربية
والنوبة جنوبا اما شرقا فكانت الاراضي التي بارت بعد غزوات التتر جدا فاحلا بينه وبين
اليلخانات فارس • ولم تخضع له الجزيرة العربية كلها ولكنه كانت له مدانة مع صاحب
اليمن ، وسيطرة على مكة والمدينة ، لتأمين حماية الكرك والشوبك ، والسبيل الى اليمن (١)
ودامت مدة حكم الظاهر سبع عشرة سنة واثنين وتسعين يوما منذ جلوسه
في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ الى وفاته في ٢٨ محرم سنة ٦٧٦ هـ •

(١) ملك دمشق وعجلون وبصرى ومصر والمدائن وحمص وتدمر والرحبة وتل ياشروصهيون
وبلاطنس وقلعة الكهف والقدمومر والمنيقة والعليفة والخوابي والرافقة والكرك والشوبك
وحلب وشيزر والبيرة والنوبة وبرقة ، وقبضية ، والقلعة ومصيف ، وقيسارية وارصوف وعفد
وطبرية ويافا والشفيف وانطاكية ، وبخراور وحصن الاكراد وعكا وحلبا والقرين وعافيتا ومرقية
ودرساك ودركوش وربعان وبانياس والحزبان ودلوييا وشميش وكردنين وبرزوية ، ومائس
اقليم مصر ، وناسف الفرنجة على الحرقب وانطرمومر • (ابن عبد الظاهر ، ص ١١٨ ، ابن ابي
الغضائيل ، ص ٢٨١ / ٢٨٢ ، المدريزي • السلوك ، ص ٦٣٨ ، ابن تغري بوردى ، النجوم
الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٨٦ - ١٨٨ ، ١٩٠ •

وطبيعي ان ادارة هذه البلاد الواسعة في وقت كانت الاخطار محدقة بها، تتطلب مقدرة كبيرة كالتي تحلى بها الخاسر. لكن هذا لا يفي ولا بد من جهاز ادارى معين ولا بد لهذا الجهاز الادارى من اسم معينة يقوم عليها .

وينبغي ان ننتبه هنا الى ان الممالك ورثوا ادارة سابقة ولم يكن بوسعهم ان يستبدلوا بغيرها بسرعة. ثم ان طريقة مجيئهم الى السلطة حتمت عليهم ان يضيفوا للادارة السابقة اشكالا واسما جديدة اقتضتها الظروف من جهة واقتضاها كونهم اتركا عرفوا في مواطنهم السابقة نوعا تترها وفارسيا من الادارة من جهة ثانية . ويدلنا على هذا تركيب اسمائهم من مقاطع تركية وفارسية وروسية . وقد اتبع الظاهر قاعدة ملوك التتار واحكام جنكزخان في المسق والتورا (١) .

وقد تنبه ابن تغرى بردي لذلك فقال "ان الملك الظاهر هذا هو الذى ابتداء في دولته بارهاب الوظائف من الامراء والاجناد وان كان بعضها قبله فلم تكن على هذه الصيغة ابدا . اى ان الظاهر احتفظ باسماء وظائف سابقة لكنه غير صلاحياتها من جهة وسلمها لسجند من جهة ثانية ، ثم انشأ وظائف جديدة سنها لرجال السيف .

(١) المسق تركية ومعناها الترتيب والتورا تركية ايضا ومعناها المذهب . واصل كلمة المسق هو سي ما . وسي فارسية معناها ثلاثة وسي مغولية معناها ترتيب . اى ان الكلمة تعنى الترتيب الثلاثي الذى اوصى به جنكزخان ابناؤه الثلاثة . ثم حرفت العامة الكلمة فقالوا "سياسة" ثم حذف الترك "سي" وحولوا "سي" الى "سي" (ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، وج ٧، ١٨٢ - ١٨٣) .

(٢) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٨٣ .

مقابلة الادارة الظاهرية بالادارة الايوبية من حيث الاسرار العامة .

كانت الادارة عهد الايوبيين ترتكز على قيام سلطان وراثي مركزه مصر ، ويتبع له الامراء الانقطاعيون من سلالته . وكان هؤلاء الامراء ذوي صلاحات واسعة في اقاليمهم . وظلت الادارة المملوكية تحت سلطان مركزه مصر لكنها اختلفت عن سالفتها في انها كانت اكثر حزما واكثر مركزية فقد كان الظاهر يتطلب تنفيذ اوامره بسرعة وبدون تردد . وكان دائما مسيطرا على الادارة . فعند سنة ٦٦٦ هـ / لم يبق ببلاد الشام امارة مستقلة استقلالها داخلها من السلطنة الا حماه فاستطاع بذلك ان يمنح ادارتها نسجا وتوازنا ضروريين لها . ثم انه لم يكن للسلطان الظاهر سلالة كما كان لصالح الدين الايوبي تضعف من سلطانه وتشل يده . ولم تكن السلطنة المملوكية وراثية من حيث المبدأ ولو شاء الظاهر ان يفعلها كذلك ، من حيث الواقع . اضاف الى هذا ان السلطنة الايوبية كانت تابعة لخلافة مركزها بغداد لها صفة السيادة الشرعية عليها ولها قوة عسكرية . بينما كانت السلطنة المملوكية تابعة شكلها لخلافة وهمية من صنعها مركزها القاهرة .

السلطان الظاهر وموظفوه .

كان السلطان على راس الادارة المملوكية . وكانت له صلاحات وسلطات واسعة كان في الحقيقة ، اولا بين زملاء - prius inter pares - ولكنه كان عظيما بينهم . مهابا لا يجسرون على الدخول عليه بدون اذن (١) . وبلغ من هيئته ان كان البعض يخشون الدخول عليه ولو ماؤنين (٢) .

(١) المقريزي بالسلوك ، ص ٦٢٢ .

(٢) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٩١ ، عندما استدعى عز الدين الدماطي وعلي الدين الركني اليه لارسالهما لدمشق لاعتقال طبرم .

وكان السلطان يعين كبار موظفيه كالنواب والوزراء وكتاب السر والمحتسبين ونظار الدواوين

وكان له حق عزل أو لاد الموظفين ساعة يشاء ، وله حق النظر في المظالم .

وكان الى جانبه امراء ارفعهم امراء الحنة (١) وامراء الاربعين او امراء الطبلخاناه (٢)

وامراء العشرة (٣) وامراء الخمسة .

وكان السلطان الظاهر دقيق المراقبة لموظفيه ونوابه جميعا . فديد في محاسبتهم ،

سريعا في معابنتهم او مكافأتهم وكان يطالع ورقة الصباح ، وهي نشرة يومية كان الوالي في القاهرة

يصدرها صباح كل يوم ذاكرة فيها ما مر من حوادث . وكان يتنكر في الليل ويسير في شوارع

القاهرة ، ليراقب سير الامور . ففي سنة ٦٦٢ هـ كثرت الجرائم في خليج القاهرة اذ اختفى عدد

من الناصر ثم تبين ان امرأة حسنة تعرى الشباب العشرين ، حتى يوافوها الى بيتها فتقتلهن

وتستولي على مالهمن . فصرها السلطان وسمر معاوتيهما (٤) .

وفي ربيع الاول من سنة ٦٦٣ هـ تبين للسلطان ان نواب الوالي في القاهرة لم يسجلوا

في ورقة الصباح حوادث سرقة ونهب . فشنق المسؤولين عن الاهمال (٥) .

(١) عدد هم ٢٤ اميرا . وامير مئة مرتبة خامة ميعال امير مئة مقدم الف . اسماهم العاطميون
الامراء المطوقين منسبة لاطواق الذهب (اللفشندي ، ج ٢ ص ٤٧٦ ، والمقريزي ، السلوك

ص ٢٢٩ ، الخطط ج ٣ ص ١٢٩ ، ونغم الصفحة ، ملحوظة ١ ، للدكتور محمد مصطفى زيادة

(٢) امراء لهم الحق بدق الطبول . اسماهم الفاطميون " ارباب الغضب " كان عدد هم ثلاثين اميرا .
ويرجع دوميبيين التسمية الى ان نواز مشاء جاء الخليفة العباسي الناصر ببعداد يضرب لنفسه
النوبة . (اللفشندي ، ج ٢ ص ٤٧٢ و ج ٤ ، ص ٥ ، المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٢٩

دوميبيين ص (IIV)

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٢٩ ، ومنهم سعاد الولاة والموظفين .

(٤) اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، المقريزي ، السلوك
ص ٥٥٢١ .

(٥) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٢٩ .

وفي ذي الحجة سنة ٦٦٤ هـ أمر بتسمير جماعة من الناس أيضا (١) وتجول في القاهرة ذات ليلة في ذي الحجة سنة ٦٦٣ هـ فوجد جنديا يهرى امرأة وراح يضربها في مركز الوالسي ولا يجروا الوالي على معاقبته • فاجب انزال العقاب الشديد بالمجرمين (٢) •

وكان سريعا في معاقبة الوالي اذا علم منه شذوذا او تقصيرا • ففي شوال سنة ٦٦٠ هـ امر باعتقال ملاه الدين طيبر من الوزيرى نائب السلطنة بدمشق • لانه اساء السيرة مع اهل دمشق ومكن العربان من شراء الغلال من دمشق مخوف اهلها من هجوم التتر حتى بيعت الموجودات باثمان بخسة وبيعت الجمال باسعار عالية • واثرى النائب اثره اعتبره السلطان فير مشروع (٣) •

ولم تكن جولاته السرية تقتصر على القاهرة • فكثيرا ما كان يتنقل بين القاهرة والاسكندرية ودمشق وحماه وحمص سرا للاطلاع على حقيقة الحالة فيها (٤) • ففي ذي القعدة سنة ٦٦٢ هـ خرج بجولة تفتيشية في الجهات الغربية من مصر (٥) • وفي رجب سنة ٦٦٧ هـ فادر دمشق الى خربة المصوص والقاهرة سرا على خيل البريد ثم عاد الى دمشق والباس يظنونونه مريضا (٦) • وفي محرم سنة ٦٧٠ هـ قصد الكرك سرا ونقل نائبها الى حصن الكركاد ومين فيها نائبا جديدا • ثم واصل السير سرا • حتى وصل حماه (٧) •

(١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٥٣ ، وج ٢ ، ص ٢٣١ نو ٣٦٣ ماين ابي الفضائل ، ص ٤٧٣ ، المقرئى بالسلوك ص ٥٤٠ •

(٢) ملحوظة ٣ ، ص ١٢٩ •

(٣) ابن عبد الظاهر ص ٥٨ ، اليونيني ج ١ ، ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ، وج ٢ ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٩٩١ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، ابن ابي الفضائل ص ٩٤ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٤٧٢ •

(٤) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٨٣ •

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٠٥ ، و ٥٢١ ، — ٦ — ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٥ ، اليونيني ج ٢ ، ص ٤٠٨ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٤١ ، ورقة ٦٤ بالمقرئى

السلوك ، ص ٥٧٤ ، ٥٧٨ ماين تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٥ •

(٧) ابن ابي الفضائل ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، و ابي الفرات ، ج ٦ قسم ٢ ورقة ٩٩ ، المقرئى السلوك ، ص ٥٩٠ ملحوظة ٣ ص ١٢٩ أدناه

واتبع مع موظفيه ونوابه سياسات أساسها الثقة من جهة والمراقبة والتفتيش من جهة ثانية والمكافآت والمعاقبة من جهة ثالثة . كان يعمل على استقرار الإدارة ، لذلك " كان كل من ولاه . . . في مملكة أو عمل أبقاه ولم يغير عليه ولا نزله " . فانه لم يغير أتابكه حتى مات هذا سنة ٦٢٢ هـ . ولم يول الوزارة غير واحد هو صاحب بها الدين بن حنا (١) .

وقل ان غير نائباً من نوابه في مصر . لكنه كان على غير ذلك في بلاد الشام فقد كان كثير رحلات التفتيش فيها . وكان يكثر من تغيير النواب والولاة والنادة العسكريين وقد قيل انه امر بكتابة ٨٠ مرسوماً لاجراء تنفلات بين نوابهم وموظفيهم في يوم وليلة سنة ٦٢٠ هـ (٢) .

لقد كان الظاهر يلعب الدور الاول في ادارته . ففي زمن السلم كان يقوم الى الصلاة صباحاً ، ثم يخرج الى باب دهلزيه فيأتيه الناس ليحكم لهم في قضاياهم ويعلم على كتبهم (٣) وفي زمن الحروب كان يشرف على الاستعدادات الحربية ، ويقود الحملات بنفسه . وهكذا نجد ان السلطان الظاهر جمع في ادارته بين مبادئ ثلاثة اساسية هي حسن اختيار الموظفين ، والثقة بهم يوم رافبتهم ومحاسبتهم بحزم وشدة (٤) .

لقب السلطان .

كان صلاح الدين اول من تقلب بالسلطان في مصر ، ثم تبعه المماليك بواتخذوا الظاهر لقباً له بعد مقتل قطز ، ثم لقب " قسماً امير المؤمنين " فصار اسمه الكامل كما يلي :

- (١) اليونيني ج ١ ، ص ٤٣٩ ، ج ٢ ، ص ٩٢ ابن أبي الفضائل ، ص ٧٩ ، المقرئ ، السلوك ص ٥٩٩ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٧٩ ، وقد دعاه الظاهر " يا ابي " ابن شاعر الكتبي ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٤ .
- (٢) المقرئ ، السلوك ، ص ٥٩٩ .
- (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٧٠ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٨٧ .
- (٤) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٢ ، ابن أبي الفضائل ، ص ١٣١ ، ٢٠٤ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٥٩ ، ٤٤٠ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٤٠ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

• السلطان الملك الظاهر السيد الاجل الكبير ، العالم العادل ، المجاهد المرابط ،
المؤيد المظفر المنصور ، ركن الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، سيد الملوك
والسلطين ، قاتل الكفرة والمشركين ، ناصر الحق ، مغيث الخلق ، ملك البحرين ، صاحب القبلة
خادم الحرمين الشريفين . محي الخلافة المعظمة ، ظل الله في الارض ، نسيم امير المؤمنين ،
بيبرس من عبد الله الصالحى (١) . • اما الدولة فسميت " المملكة الاسلامية " حينما او " الممالك
الاسلامية " حينما اخر .

السلطانيسة •

كان السلطان يقيم في قلعة الجبل مع رجال حاشيته ورجال البلاط . وكانت له فيها
خزانته واهراؤه ومطابخه واصطبلاته . وكانت الى جانبها دور للماليك الامراء ومساكن الاجناد
وكانت شؤون الفصر منظمة تنظيما دقيقا ، يسأل عنها موظف كبير ومعه معاونون يختص كل
واحد منهم بشان من شؤونه (٢) .

الموظفون •

وينقسم الموظفون في السلطنة المملوكية الى قسمين ذوي الوظائف العسكرية وذوي
الوظائف المدنية . وقد حصر القلقشندي الوظائف العسكرية في ٢٥ وظيفة (٣) . ومسند
الوظائف الديوانية او وظائف حطة الاتام فكانت تسعا ومنها الوزارة وكتابة السر ونظير
بيت المال (٤) .

وفى ما يلى موجز لبعض هذه الوظائف :

(١) نفلا من على ابراهيم حسن ، ص ١٥٧

(٢) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٥ .

(٣) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٦ ، ١٨ - ٢٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

الركاب خاناه ، وفيها امهات بلات البغال والسباع والفيلة وخيل البريد ، والحوائج خاناه ،
والشراب خاناه ، والطست خاناه ، والعراش خاناه ، ودار الضيافة (١) ، والزمام دار (٢)
والخازندار الكبير (٣) ، والاستدار (٤) ، والخزان سلاار (٥) ، واليتمدار (٦) ، واميسر
الشكار (٧) .

وهناك الطبليخاناه ، ولها مهتار مسؤول عن ادوات الموسيقى (٨) . والحاجب .
وقد جدد الظاهر هذا المنصب ليحكم بين الجند في احوال الاقلام ، ويامر فيهم ، ويقف
مع السلطان عند النظر في الحظايم ، لا ان يحجب الناصر عن الدخول اليه ، كما كان في بعض العهود

- (١) عرفت هذه الوظائف في عهد الفاطميين تحت اسماء اخرى . الفلقشندی ج ٣ ص ٤٨٢ وما بعدها ج ٤ ، ص ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، الحنريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .
- (٢) ومعناها ماسك البفجة الفلقشندی ، ج ٤ ، ص ٢١ .
- (٣) مسؤول عما يجذب للبيوت السلطانية ، ومعه معاونون يدعى كل واحد منهم خازندار ينسب الى المهمة التي يقوم بها ، كخازندار المنفاد اكان مسؤولا عن الاقمشة ، وخازندار العين لضبط الدخل والخرج . وهو امير طبليخاناه . الفلقشندی ، ج ٤ ، ص ٢١ ، ج ٥ ، ص ٤٦٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، دومبين ص (LI)
- (٤) امير مئة . ومهمته الدار في امور السلطانية على اختلاف غوائفها وانواع وظائفها . من احوال السباط والمطبخ والمشراب ومراجعة الالباء والبيوت السلطانية الطست خاناه والعراش خاناه ، والامطبلات ونفقت الامراء السلطانية . الفلقشندی ج ٤ ، ص ٢١ ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ ، ٤٦٠ ، دومبين ص (LXII)
- (٥) وهو كبير الخدم مكلف بالسباط السلطاني في الافراح والاعراس ومعه معاونون منهم الحاققي والمرقد ابوالمهتار . الفلقشندی ، ج ٥ ، ٤٥٤ ، ٤٦٩ - ٤٧٠ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .
- (٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، الفلقشندی ، ج ٤ ، ص ٢٢ .
- (٨) الفلقشندی ، ج ٤ ، ص ١٣ ، ١٥ ، دومبين ، ص (LIII) . وقد عرفت هذه الوظيفة مهتار الفاطميين .

السابقة واللاحقة (١) . ورامس النوبة ، وقد احدثها الظاهر ، لأول مرة في مصر ، وهي في التنرية بسول . ومهمة رامس النوبة رئاسة الممالك السلطانية والفصل في خصوماتهم ، واعتقال من يريد السلطان اعتقاله . وهو امير مئة ، ومعه ثلاثة من امراء الطبلخانة (٢) . والدوادار موقد كانت وظيفة يليها مدني متعم ، اورجل من رجال القلم يحمل للسلطان الدواة ويحفظها ، لكن الظاهر رفعها الى مركز مرموق يليها امير عشرة (٣) ، وامير اخسور وهو الناظر في امور الاصطبلات ، وخيل البريد ، والركائب المعدة لقطع المسافات البعيدة . وكان الظاهر اول من انشا هذه الوظيفة . وكان يختار من امراء المئة ويعاونه نفر يختارهم بنفسه من امراء العشرة ومنهم السراخور المسؤول عن العلف (٤) . وهي في الاصل مغولية باسم " اق طشى " (٥) . والمهمندار بمهمته استقبال الضيوف والسفراء والوفود وتعيين مركز كل منهم (٦) .

وهناك ايضا امير السلاح من امراء المئة ، وهو مسؤول عن الاسلحة والمسلحين ويحمل للسلطان سلاحه في الحفلات العامة (٧) وامير المجمر المسؤول عن الطبابة والادوية .

-
- (١) الفلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٣ - ١٨٤
 - (٢) الفلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٨ ، ج ٥ ، ص ٤٥٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٥
 - (٣) ١٨٤ ، ١٨٥ ، عويبدو ان الايوبيين عرفوها ولكنهم لم يهتموا بها .
 - (٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
 - (٥) الفلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
 - (٦) الحفريزي ، السلوك ، ص ٣٤٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٥ .
 - (٧) الفلقشندي ، ج ٣ ، ص ٤٨٨ ، عرفه الفاطميون باسم " نائب صاحب الباب " و ج ٤ ، ص ٢٢ .
 - (٨) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

يجلس على رأس عيسر السلطان (١) • وأمير العلم وهو المسؤول عن الاعلام وقت نرب
الطبول واثناء السفر (٢) ، وصاحب الجناح الكريم ، وهو اول من يدخل على السلطان
واخر من يخرج من حنجرته • ويحضر تعيين الموظفين والحالة وتحليفهم اليمين (٣) •
اما نهاية السلطنة ، فاحياها النظام مرة تليه عن القاهرة (٤) •
واخيرا هنالك ثلاث وظائف ديوانية عامة هي الوزارة وكتابة الانشاء وديوان
المالية • وكانت كتابة الانشاء تحت اشراف كاتب الانشاء ومعه موظفون من طبعتين اولاهما
طبقة الرئاسة والثانية هي طبقة كتاب الدست وكتاب الدرج (٥) • وهي ما نسميه اليوم بوزارة
الخارجية • وكان ديوان المالية ممسما الى دواوين لكل منها اختصاصه ومداخله
وكله ديوان مسؤول عن ناحية معينة من الميزانية (٦) •

-
- (١) المصدر السابق ، ص ١٨٤ • ١٨٥ •
 - (٢) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ ، د موبين ص (VIII)
 - (٣) حمزة ، ص ٥ •
 - (٤) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٦ ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ ، المقرئى بالسلوك ، ص ٦٤٢ •
 - (٥) القلقشندي ، ج ١ ، ص ١٣٢ •
 - (٦) ويعزرو بولياك ذلك (ص ٥) الى الصعوبات المالية •

البريد

وقد عني الظاهر بترتيب البريد منذ ان رقي السلطنة لان سلطانها كان يعتمد الى حد بعيد على بريد سريع وامين لا يخفي عنه " شيئا من المتجددات ولا يطوى حالة من الحالات " ولتأمين هذه السرعة رتب للبريد خيلا كانت في مراكز بين القاهرة والمدن الكبيرة الاخرى . وكان في كل مركز سوافون لا يتحركون الا بمرسوم سلطاني . ووضع في كل مركز جميع ما يحتاجه المسافرين . وقد كانت خيل البريد هذه سلة الوصل بين اجزاء السلطنة بحيث استطاع ان يجرى موكبا في القاهرة ودمشق في اسبوع واحد (١) .

وكان الظاهر يستطيع الانتقال بين دمشق والقاهرة مرتين في الاسبوع . وكانت هذه الرحلة لا تستغرق اكثر من يومين وسبع ساعات فقط . وقد جاءه خبر انتصار قواته في البيرة سنة ٦٦٣ هـ الى يبنى في اربعة ايام (٢) .

وكانت الاخبار تصله من سائر نواحي المملكة مرتين في الاسبوع ، وكان على كاتب الانشاء ان يبلغه اخبار التتر والغرنج كل صباح ومساء ، حتى استطاع ان يسيطر على المملكة من قلعة الجبل .

التجسس والعناية باستطلاع الاخبار

والى جانب البريد كان للظاهر عدد من الخبيرين يطلعونه على الاخبار الداخلية والخارجية . وهنالك عدد من القصاص تدل على دقة اطلاعه على ما كان يحدث في سلطنته او على حدودها (٣) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٦ . المنري ، السلوك ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ . ابن تغري بردي ،

النجوم الزاهرة مج ٧ ، ص ١٨٦ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) راجع ص ١٢٧ املاء .

وقد لاحظنا من اعتقاله الامراء انه كان شديد العناية بالاطلاع على الاخبار السياسية الداخلية . واضيف هنا قصة عن اطلاعه من اجتماع عدد من الامراء في دار احدهم لانتقاد السلطان فسمّر احدهم وكحل عيني الآخر ونطح يده ورجله ، ثم منع الاجتماعات اطلاقا (١) .

ثم هنالك اخبار التتروقد كان له جواسيس في بلاطهم بفارمر (٢) مولد لك علم بفدوم رسل التتر الى المعيث . واستطاع ان يعلم بمجيء جواسيس التتر الى مصر عن طريق سيرفسد عليهم الطريق واقطعهم (٣) . وعلم ان ملك الكرج تنكر في زي راهب وجاء الى سيرفسد فعا فيافا . وعنا علم به بدر الدين الخازندار فقبض عليه وارسله الى القاهرة (٤) وعلم ايضا بمجيء جاسوس الى البيرة سنة ٦٦٥ هـ فاعتقه واعدمه (٥) .

وهنالك قصة سلمان بن المؤيد بن عامر العفرياني المعروف بالزوين الحافظي . فقد كان كالفرمة الطافية على وجه الماء على حد تعبير هولاء ، من كثرة ما تنقل في خدمة الاسياد حتى استقر عند هولاء . وبني اخوه بخدمة الظاهر . وافر هذا للاح ان يتصل باخييه ويرعبه بالعودة فاطلع الزوين الحافظي هولاء على الرسالة واستادنه بمكانه امراء الظاهر ليشير فيه سوء الظن بامرائه ، فرفض هولاء اول الامر ثم عاد فرفض بعد الحاج . ووصلت رسالة الزوين الحافظي الى مصر فتسلمها الظاهر ورد عليه شاكرًا ما فعله حتى لايشير شكوك هولاء وبعث الرسالة مع جماعة احتالوا حتى اوصلوها لهولاء سرا فاعدم هولاء الزوين الحافظي (٦)

(١) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢ - (E. Floquet)
النهج السديد ، ص ٣٧٢ ، ملحوظة ٣ . اد يرى ان مسلمي فارس كانوا ميوّنا للظاهر على

المغول وان امير سميساط كان جاسوسا له . - ٣ - ابن عبد الظاهر ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٤ ، ٥ - ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٢ ، ورقة ٢ ، ٦ - اليونيني ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٢٩ ، المقرئى السلوك ، ص ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ .

كانت مصر مقسومة الى وجهين ، البحرى والغلبى ، مبالاضافة الى القاهرة والاسكندرية

(١) وكان كل وجه منقسم الى نواحي واعمال .

وكانت بلاد الشام خمس (٢) نيابات هي الكرك (٣) وصفد ودمشق (٤) لحماه وحلب . وكانت الاداره في كل من هذه النيابات على مرار الادارة في القاهرة ، فمع النائب مونسون مسكون ودينون ومديون (٥) وكانت اراضي هذه النيابات موزعة انطاعات على امرائه .

(١) ففي الظاهر بالاسكندرية وذهب اليها اكثر من مرة للتفتيش ، او للصيد او لمراقبة الاعمال اصلاحية والاجراءات الدفاعية في الميناء ، ففي شوال سنة ٦٦١ هـ قصدها للصيد واهتم بامر مياهها . وفي ردى القعدة اجري فيها استعراضا عسكريا ووزع الهدايا والهبات ثم لعب بالكرة . وذهب لزيارة الشيخ الشاطبي والشيخ العباري - وجلس بدار العدل فيها ثم عاد الى القاهرة في ١٨ ردى العدة . وفي صفر ٦٦٨ هـ قصدها مرة اخرى ومعها ابنه وذهب اليها سنة ٦٧٣ لبناء مانهدم من منارها . (ابن عبد الظاهر ، ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ ، اليونيني مج ١ ، ص ٥٤٣ ، ج ٢ ص ١٩٦ ، ٤٣٠ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٦١٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة مج ٢ ، ١٤٧) هذا بالاضافة الى الانشاءات التي انشاها فيها - ٢ - لم يكن هذا التقسيم الادارى لبلاد الشام ثابتا . وكان اول تغيير هام فيه بعد وفاة الظاهر هو احداث نيابة طرابلس بعد فتحها سنة ١٢٩١ هـ - ٣ - ففي الظاهر بالمدن الكبيرة في سلطنته ، كالاسكندرية والقاهرة في مصر والكرك وصفد ودمشق وحلب وحمص وحماء في بلاد الشام . ومعاملته لكل منها تصلح ان تكون بحثا مستقلا وقد تناولت علاقته بها باختصار في امكنه اخره وينبغي ان اشير الى مثل هذه المعاملة للبقية هنا . فقد تسلم الظاهر الكرك في ٢٣ جمادى الاخرة سنة ٦٦١ هـ بعد ان تسلم الشوبك . بناها الصليبيون في ردى الحجة سنة ٦٥٩ هـ وفي بهما عناية خاصة ان كان يمر بهما في كل رحلة الى بلاد الشام او الحجاز وفي صفر سنة ٦٧٣ هـ اقام في الكرك ١٣ يوما لكشف احوالها ثم جاءها سنة ٦٧٤ هـ . كانت الكرك هامة لموقعها ولانها مركز للسيطرة على العربان (ابن عبد الظاهر ص ٤٨ ، اليونيني ج ٢ ، ص ٤٦٧ ، ابن ابي الفضائل ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٩٨ ، ٥٤٤ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٦١٤ ، ٦٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥) - ٤ - كان لدمشق مركز خاص في الدولة الظاهرية وقد كانت اهم نيابة بين نياباته ، وقد جعل فيها بلاطه في بلاد الشام . كان ياتيها مرة او مرتين في السنة موتكا لا تضي سنة بعد تسلمها من علم الدين منجر من غير ان ياتيها . كان في السنوات الاولى من سلطنته يعني باختيار النواب المخلصين القادرين موعامب من يسي . التصرف ، كما فعل بعلاء الدين طيبر من الوزير ، ثم عني ايضا بتخفيف المصائب الاجتماعية ، كالسيول والمجاعات ، وعني بالانشاءات فيها ايضا . لقد كانت ، دمشق تصلح ان تكون بستانا لمصر ولا شك ان احسن ما في البلاد البساتين كما يقول القاضي الفاضل (حمزه ، ص ٢٤٩) لكن عفا بئس بها كانت عسكريا بالدرجة الاولى . وفي القسم الثاني من سلطنته ، حين اخذت حروبه مع الصليبيين والتتر تتوالى ، وحين انتقل ميدان الصراع الى اسيا الصغرى فخذ يرهقها بالضرائب الباهظة حتى ضعفت بساتينها وانعدمت ثمارها (ابن عبد الظاهر ، ص ٦٠ - ٦١ ، اليونيني ، ج ٢ ، ٣٨٧ ، ٤٥١ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٥٣٩ ، ابن شاذي الكتيبي ، ج ١ ، ص ١٧٤ ، ابن الفرات ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٥٤٩ ، ٥٨٣ ، ٥٩٦ .

وكان الى جانبه والنيابات ممالك وفلاحة مستقلة عن هذه النيابات ، تابعة للظاهر
راسا مثل شيزر .

خصائص هذه الحكومة ونومها :

كانت لهذه الحكومة خصائص بارزة هي سلطان نشيط ، على راس جيش منظم مدرب ،
ويريد سريع صادق ، يعاونه عدد كبير من العماليك الانصار ، جنودا وامراء ، يطبق مبداء
العقاب والثواب بينهم ، شديد في احكامه ، سريع في تنفيذها ، يعتمد التحوى واذرهاب
ويمنع الاجتماعات ويراقب الجميع بدقة . اما الهيكل الادارى فمزيج من عناصر فاطمية وايوبية
قديمة ومغولية مستحدثة .

اما نوع هذه الحكومة فلم يسم تعيينه بالامر السهل .

اول ما يلفت النظر انها حكومة اجنبية لم يشترك في وظائفها الا العماليك . اما سكان
البلاد الاعليون فلم يشتركوا فيها (١) .

وقد شبهها (G Wiet) بحكومة مبصر (٢) وشبهها على ابراهيم حسن

بالحكومة الاستبدادية بالمنيرة (٣) وجعلها عبد اللطيف حمزة الحكومة المدنية العسكرية (٤) .

ولكن مالنا نحاول ان نضع لهذه الحكومة صفات حديثة وقد حددنا الظاهر بنفسه في وصية

لابنه السعيد ؟ قال السلطان الطاهر : انك صبي ، وهو لا الاكابر يرونك بعين الصبي ،

فمن بلغاك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحفت عنه ذلك ، فاضرب عنقه ، في وقته ولا تعطله .

ولا تستشراحدا في هذا . واعمل ما امرتك به والا ضاعت مصلحتك * (٥) .

(١) ولعله طريق ان نذكر هنا انعمت على زنوك للنساء ما قد يوحى باشتراكهن بالحكم .
ولكن يبدو انهن لم يشتركن بالحكومة . واما الزنوك فعلمها كانت لابطائهن وازواجهن .

(٢) (G Wiet) ص ٣٤ ، المقدمة . ٣ - حسن ، ص ٤٢ . ٤ - حمزة ، ص ٤٥ .

(٥) ملحوظة ، ٥ ، السلوك ، للمفريزى ، ص ٦٤١ ، منقولة من ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٤٤ .

يتبين لنا من هذا ان الغاية الاولى من هذه الحكومة هي استمرار السلطنة في درية
الظاهر . ومثل هذا الاستمرار يستتبع الدقة والحزم والمراقبة . حتى اذا تحقق السلطان ان احد
يعمل لهدم هذه الغاية الاساسية ضربت رقبته . ولا فائدة من اعتقاله او استشارة احد في شأنه .
وهذه هي الخطة التي سار عليها الظاهر . حتى كان الامراء يخشون العدم اليه اذا دعاهم .
لعد كان الظاهر يرى ضرورة نصرته الاسلام ، ولكن نصرته لا تكون الا على يديه . ولذلك ارى انها
حكومة شخصية ، تستهدف اول ما تستهدف ابقاء السلطنة في شخص معين او في سلالة معتمدة
في ذلك على طبقة من الرقيق المجلوب من الخارج متعاونة معه على استغلال البلاد .
بالدرجة الاولى ، متخذة نصرته الاسلام شعارا ، لاجئة الى اية وسيلة للاحتفاظ بهذه السلطنة
في هذه السلالة ازا الممالك والسكان الاصليين معا . وانها حكومة عسكرية دقيقة التنظيم مع
ذلك . هنالك جماعة من الممالك ، منظمون تنظيما عسكريا استولوا على بلاد ، فتظموا ادارتها ،
بما لهم من احاسر اصيل بالحكم ، على حد قول (G. Wiet) (١) ، في سبيل تأمير
القوت والسلطنة . وساعدهم في ذلك ان الفرنجة والتتر كانوا يحتلون بعض بلاد الشام ،
فاتخذوا حماية الاسلام شعارا في هذا الصراع .

الْقَضَاءُ :

ادرك الظاهر اهمية القضاء منذ البدايه وادرك ان تثبيت سلطانه يقتضي له نظاما
مقبولا من القضاء . وقد كان لرجال القضاء والعلماء نفوذ كبير . ولذا ذكر هنا موقف القاضي
ابن عبد السلام منه عند المبايعة (٢) .

(١) ص ٣٤ ، مقدمة .

(٢) راجع سياسة الظاهر الدينية ، ص ١٠٨ اولا .

ويتبين اهتمام السلطان الظاهر بالتنظيم القضائي من رسالة وجهها للقاضي ابن بنت الامر عند توليته القضاء وقد جاء فيها : نفوض اليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية . . . لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجني ومسا ع حميدة ما برح الى الخلائق محسنا . . . فليباشر هذا المنصب الذي اضحى ظل شرفه وارفا . . . وليول من القضاء من يحصى من العدل سننا ويميت من الباطل بدما . . . وليتفقد امر العسود والدين اصبحوا على الحقيقة عدولا من المنهج القويم رافعين عن المحامد بما ياتونه من كل صنف ذمهم ، ولا يترك منهم الا شاهدا كان على المعايير فائبا او متورعا . . . واموال الايتام والاقواف فلا يباشرها الا من كان لمباشرتها اهلا ومن يتحقق ان يكون عليها قفلا . . . وامضى مزيمنتك في اقامة منار الشريعة بعد العقود . . . (١) .

بقي المذهب الحنفي سائدا في مصر حتى اواخر القرن الهجري الرابع / الميلادي العاشر حين اخذ المذهب المالكي ينتشر لكن قيام الدولة العبيدية قضى على المذاهب السنية واكتفى بالقضاء الشيعي . ثم جاء صلاح الدين ففضى على القضاء الشيعي واكتفى بتولية القضاء الشافعي . واستمرت الحال على هذا الموال حتى جاء الظاهر (٢) .

في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٥٩ هـ استمدى الظاهر القاضي تاج الدين عبد

الوهاب المعروف بابن بنت الامر وعرض عليه القضاء . واراد القاضي التنصل فتشدد في

شروطه ، لكن الظاهر قبلها لثقتهم به واجابه اليها وعينه قاضي القضاء وعزل برهان الدين الخضر بن الحسن بن علي المنجاري واعتقله عشرة ايام ثم افرج عنه وعينه قاضيا على الوجه القبلي من مصر فقط — ثم عزلها ثانيا في رمضان سنة ٦٦٠ هـ لانما ظل فيما طلبه منه السلطان اما تاج الدين فبقي قاضي قضاة حتى توفي في ١٧ رجب سنة ٦٦٥ هـ (٣) وعين مكانه قاضي

(١) نقلها سرور (ص ١٣٨) عن النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٨ ، قسم ١ ، ص ٨ — ١٢ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢٤ ، — ٢ — اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٤١ ،

٤٥٩ ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ابن شاكر الكتبي ، ج ١ ، ص ٥٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ص

٤٤٨ ، ٤٧٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ورقة ٥ ق . السيوطي ، حسن المحاضرة

ج ٢ ، ص ١١١ .

احدهما للوجه البحري ، وثانيهما للوجه القبلي ، (١) .

وفي دمشق عزل السلطان القاضي نجم الدين بن سني الدولة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٥٩ هجرية وفيه مكانه شمس الدين بن خلكان . وكان له ان يقضي " في جميع بلاد الشام من العرش الى سلميه يستنيب فيها من يراه لذلك اهلا " وكان له فوق ذلك ان ينظر في شئون الاوقاف والمدارس والهيئات (٢) .

وفي ذي القعدة سنة ٦٦٠ هـ عزل السلطان تاج الدين في مصر حق استنابة من يراه مناسبا من المذاهب السنية الاربعة للقضاء . وهذا هو ما كان سمح به لابن خلكان في السنة الماضية . وبذلك تم التعديل الاول لنظام القضاء في مصر وبلاد الشام (٣) . اما التعديل الثاني ، وهو الاهم ، فقد وقع سنة ٦٦٣ هـ . كان القضاء شافعيًا بيد ابن بنت الامز فجعله في ذي الحجة في هذه السنة على المذاهب السنية الاربعة في مصر ، وفي محرم من السنة التالية ، في بلاد الشام . فصار يعين قاضيا للمالكية وقاضيا للحنفية وعاقدا للحنبلية ، وبني ابن بنت الامز للشافعية في مصر . ولندكر هنا ان الظاهر كان سنة ٦٦٠ هـ قد اجاز لتاج الدين استنابة من يريد في الاحكام من مدرسي المالكية (٤) .

ولهذا التعديل دوافع ، ولا ريب ، ولكنها ليست واحدة عند المؤرخين . فقد كثرت القضايا بحيث لم يعد قاضي واحد يستطيع ان يفصل فيها كلها ، ثم كثرت الناموس المنتمون الى المذاهب السنية المختلفة . فوجب الاكثار من عدد القضاة على المذاهب المتعددة لتسهيل امور الناموس . قد يكون هذا دافعا معقولا . ولكن هنالك دافعا اخر هو ان الامراء الظاهرية لم يكن يرونهم ان يكون على راس القضاء رجل واحد كابن بنست

(١) المديني ، السلوك ، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٢ - ابو شامة ، ص ٢١٥ ، اليونيني ، مج ١ ، ص ٤٦٠ ، وج ٢ ، ص ١٢٤ . ابو الفداء ، مج ٣ ، ص ٢٢٣ ، ٠ - ٣ - ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، وقد خلا بين هذا التعديل والتعديل التالي ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٩٦ ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٤٧٢ ، ٥٠١ . ابن ايامر ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ٠٤ - ابن الفرات ، ج ٦ ، ورقة ٥ ق .

لم يكن يرونهم ان يكون على راس القضاء رجل واحد كابن بنت الاعز ، يدفق ويتوقف في تنفيذ الاحكام ربما يتحقق الغشية . ويروى ان الامير جمال الدين ايدعدي العزيزي ، بعد احتكاكات بالقاضي ، اقترح على السلطان تعيين قضاة من المذاهب الثلاثة ^{الاخوة} ~~الشيخ~~ ^{بورك} الشافعية لتتاج الدين (١) . وبذلك يكون الظاهر قد كسر احتكار الشافعية للقضاء . واضعف نفوذها في الدولة (٢) . ويظهر ان هذا التعديل لم يكن مرضيا للجميع فندروى العزيزي ان الشاير قال لرجل رآه في منامه : ما رايت اند على من وراء قضاة اربعة وقيل اي فرقست الكلمة (٣) .

اما الجيش فكان له قضاء مستقل . وكان قاضيهما يجلس بدار العدل الى جانب السلطان وهو دون بقية القضاة . وفي سنة ٦٦٢ هـ الذي حق الحربي بالاستيلاء على موجودات اليتيم (٤) . وفي سنة ٦٦٣ هـ اجاز للامير ان يعين شهودا عدولا في الجيش تسمع اقوالهم ليشهدوا بوصايا الجنود الذين يموتون في ساحات القتال (٥) .

واذا انتقامه الكبير بالقضاء فقد كان طبيعيا ان يبني دار عدل . وفي سنة ٦٦١ هـ انشاء دار عدل تحسنت الطلعة بالعاهرة (٦) ، ثم رتب دار السعادة بدمشق دارا للعدل (٧) .

وكان السلطان الظاهر يحضر الى دار العدل كلما سنحت له الفرصة . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد حضر الى دار العدل في رجب سنة ٦٦٠ هـ مطالبيا باسترداد بئر

- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٩ ، ابن ابي شامة ، ص ٢٣٥ ، وقد جعل تنفيذ التعديلات في دمشق في جمادى الاولى سنة ٦٦٣ هـ ، اليونيسي ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، العزيزي ، السلوك ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٦٤٠ ، ابن تعري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢١ - ١٢٢ - ١٣٧ السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، وكان ابن بنت الاعز قد قضى بفسخ شراء الدار الموقوفة واوام يتمكن البائع من رد الثمن برفض تسليم ربح او فاق الوصول صاحب المدينة بحجة انه لا يثق به مع ان الظاهر كان يريد ذلك ، ورفض شهادة احد الامراء . . .
- (٢) السيوطي حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١١ ، (F Saleque) ، ص ٢٠ - ٣ - ، العزيزي ، السلوك ، ص ٦٤٠ . وقد رأت فاطمة صادق فيه اقتناثا من العزيزي على السلطان . - ٤ - ابن الفرات ، ج ٦ قسم اول ورقة ٤٤ ق .
- (٥) الطعندي ، ج ٤ ، ص ٣٦ ، العزيزي ، السلوك ، ص ٣٦ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ورقة ٧٧ و - ٦ - العزيزي السلوك ، ص ٤٠١ . - ٧ - ابن عبد الظاهر ، ص ٣٣ ، العزيزي ، السلوك ص ٥٤٩ ، ٥٣٨ .

كان حفرها في عهد عز الدين ايبك • ولم يسمح للفاغسي ان ينف له لانه جاء متفانيا •
ووف الى جانب خصه (١)

وحضر دار العدل في رجب سنة ٦٦١ هـ واوصى بعدم استيلاء الوصي على اموال
خدا شيعته حتى لا يضيع مال اليتيم وامر بضبط اموال اليتامى والتحقيق مع الاوصياء (٢) •
وفي ذي القعدة سنة ٦٦١ هـ كان في الاسكندرية فحضر دار العدل فيها (٣) •
وحضرها ايضا في محرم سنة ٦٧٢ هـ • ثم اوصى نائبه فيها ان يحضر دار العدل اثنا •
عياه ليفضي بين الناس •

وهناك امثلة اخرى غير هذه لحضرة دار العدل • ويتبين منها جميعا ان الظاهر
كان ديفا في محاكماته • وقد زعم رجل في بداية سنة ٦٦٢ هـ ان شيخ الحنابلة يتمنى
زوال دولته لانه لم يجعل المحابلة نصيبا في مدرسته الظاهرية في مصر ، فتحقق من الامر
ووجد انه يدس على الشيخ فعاقبه (٤) • وجاءه رجل في نفس السنة وادعى ملكية
بستان سودر منه في ايام عز الدين ايبك فعضى الظاهر برد البستان له بعد ان اتى
المدعى باوراق ثبت دعواه (٥) •

وكذلك كان السلطان ديفا في مرافعة العشاء • ففي سفر سنة ٦٦٠ هـ اعتقل الفاغسي
برهسان الدين المنجاري ثم عزله (٦) وفي سنة ٦٦٩ هـ عزل الفاغسي

- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٥ - ٢٦ : اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ، ج ٢ ، ص ١٥٤ •
- (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠١ ، والمقريزي ، السلوك ، ص ٥١٢ ، وقد جعل المقريزي تاريخ
هذا التعديل سنة ٦٦٢ هـ - ٣ - المقريزي ، السلوك ، ص ٥٠ •
- (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٩٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥١٣ •
- (٤) ابن عبد الظاهر / - ٦ - راجع ص ١٤٠ اعلاه •
- (٥) ص ٩ •

شمس الدين بن خلكان في دمشق (١) واجرى تحقيقا مع قاضي اتهم في سنة ٦٢٠ هـ .
 بان لديه ودائع لتجار مات بعضهم فتبين للمسلطان صدق التهمة ، فاعتقل القاضي وصادر
 داره (٢) . وهنالك قصته مع الشيخ خضر . فقد اعتقله في سنة ٦٢٩ هـ لكثرة الشكاوى
 عليه ، مع انه كان اشيرا عنده ، وحقق فيما نسب اليه وابقاه معتقلا وتوفي بالمعتقل (٣) .
 لكن تدابير هذه لم تحل دون وقوع المظالم لاسيما في دمشق . وقد صدف ان
 كان فيها ثلاثة قضاة اسم كل منهم شمس فقبل فيهم :

اهل الشآم استوا بموا	من كثرة الحكماء
اذ هم جميعا شومر	وحالهم في ظلام

وقيل ايضا :

بدمشق آية قد	ظهرت للناس ماما
كلما ولي شمس	قاضيا زادك ظلاما (٤)

وكان للنقضاة لباس خاص مميز يختلف باختلاف الرتب . فقد كان كل من القاضي
 والعالم يلبس صمامة شاش كبيرة ويرسل بين كتفيه ذوابة تمتد حتى اخر سرج دابته ، او كان
 يلبس الطيلسان عوض الذوابة . اما قاضيا الحنفية والشافعية فتميزا بلبس طرحه تستسر
 العمامة وتنسدل على الظهر . ولا يجوز للقاضي ان يلبس الحرير ولا الالبسة الملونة فسي
 المنزل (٥) .

(١) الحفريزي ، السلوك ، ص ٥٩٦ ، هو القاضي شمس الدين الحنبلي ، وقد ذكر ابن الفرات
 (ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٩٢ - ٩٦) الكثير من سيرته .
 (٢) الحفريزي ، السلوك ، ص ٦٠٣ ، - ٢ - راجع ص ٩٨ ، اعلاه .
 (٣) ابوشامه ص ٢٣٦ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢٧ .
 (٤) القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٤١ .

الفصل السادس:

بييرس في علاقاته الخارجية - قسم اول

- عندما تسلم الظاهر بييرس السلطنة وجد نفسه امام عناصر مختلفة تتحد للقضاء عليه . وهي القوات الصليبية والقوات المغولية وما يتبع هاتين المجموعتين من قوات محلية مساييرة لهما خوفا منهما او حقدا على الظاهر ، كدولة السلاجقة وكدولة الارمن . وطالما عملت هذه القوى للاتحاد في محاربة السلطان بييرس . وكان طبيعيا امام هذا الواقع ان يتبع السلطان الظاهر سياسة تؤدى الى شق الخصم من ناحية ، والى انشاء كتلة من المؤيدين تناصره ، والى تقوية جيمشله يكون الدعامة الاولى في هذا الصراع . اما الجيمش فالحديث عنه في مكان آخر . واما شق الخصم فواضح من محالفته مع القمشاق ومحاولة التحالف مع الاشكرى . واما كتلته التي انشأها فكانت القوات المملوكية محورها . ولتأمين هذه الكتلة فقد سائر بعض المواقع الصليبية في بلاد الشام في البداية ، ثم انشأ صداقة مع صاحب اليمن ، واخيرا احتل بلاد النوبة .

وقد يسهل علينا ان ننظر الى هذا الصراع على اساس ديني . ولا سيما اذا تذكرنا ان السلطان الظاهر كان دائم الاشارة الى ان هدفه هو نصرة الاسلام ومقاومة خصومه . ولكنني ارى ان هذا الصراع كان سياسيا قبل كل شيء آخر . ان بييرس لم يقاتل النتر (١) لانهم مالوا للمذهب المسيحي النسطوري ، ولم يقاتل الصليبيين لانهم نصارى . الحرب بين

(١) كان المغول متساهلين دينيا . ويبدو ان الاكثرية كانت بوذية مع ميل للنصرانية النسطورية . E. Blochet ، النهج الجديد ، ص ٣٧٢ ، ملحوظة ٣ ، و ص ٣٧٣ . R. Grousset ج ٣ ، ص ٥١٩ . ويرى الاول ان العداء بين البوذية والاسلام قديم مستحكم . لكن المقریزی (السلوك ، ص ٢٠٥) يقول انهم "كانوا لا يدبنون بدین الا انهم يعترفون بالله تعالى من غیر اعتقاد وشریعة " .

السلطان والتتر سياسيتقي حينها . ومبعث هذا الصراع حماية الدولة المملوكية الناشئة من خطر مداهم . لقد استطاع المماليك ان يرجعوا التتر الى ما وراء الفرات وما هم يهددون الصليبيين بالابادة ، فطبيعي ان يعمد التتر للثأر وان يعمد الصليبيون للدفاع ، وطبيعي ان ينتهج بيبرس سياسة تمنع تكتل هاتين القوتين ، او تضعف هذا التكتل بحال حدوثه . ان توسع المغول نحو الغرب ادى بهم الى الاصطدام بالمماليك ، فكانوا الحلفاء الطبيعيين وكانت الخصومة سياسية في طبيعتها . ان المغول لم يقوموا بحرب دينية على المماليك (١) . وحالف الظاهر بيبرس المغول القيشاق ، وليسوا كلهم مسلمين ، ومحاربتهم ايلخانات فارس وهم مسلمون ، لما ينفي ان يكون الصراع دينيا .

ولنستعرض الان هذه العلاقات :

١- التتر - المرحلة الاولى :

في مطلع القرن الهجرى السابع الميلادى الثالث عشر ، بدأ ظهور التتر بشكل يوشعر في تاريخ الخلافة العباسية ، في الجهات الشمالية من بلاد الصين ، جنوبي فربي بحيرة بايكال . ثم اتحدت القبائل التركية والتتوية واخذت تزحف الى الغرب (٢) وكانت خلال هذا الزحف تتصل بالاوروبيين لتضع الخلافة بين شفي الرحي (٣) .

وفي سنة ٦٥٤ هـ مظم امر التتر وتواترت الانباء بفصد العراق والزحف نحو بلاد الشام وبينما كان التتر يزحفون الى الغرب بقواهم المنتصرة هذه كانت الخلافة فسي بفصداد

-
- (١) (R Grousset) ج ٢ ص ٥٦٢ ، ملحوظة ١ .
(٢) المفريزى ، السلوك ، ص ٢٠٤ : (W Berthold) مادة ("Tatar") الموسومة الاسلامية مجلد ٤ ص ٧٠٠ ، ٧٠٢ .
(٣) كما جرى سنة ١٢٤٥ مع البابا كلمنت الرابع (Clement IV) و ١٢٤٧ مع اينوسنت الرابع (Innocent IV) وسنة ١٢٥٢ مع لويس التاسع (R Grousset) مجلد ٣ ص ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ .

بيد المستعصم بالله الذي كان "سهل الاخلاق ٠٠ خفيف الوطأة ٠٠٠ مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بامور المملكة، مطموعا فيه، غير مهيب في النفوس ٠ ولا مطلع على حقائق الامور ٠ وكان يخفض جيشه، ويهمل تحذيرات صاحبي الموصل واربل له، ويعني بجمع المال ويسماع الاغاني والتفرج على المساخرة" محاطا باصحاب "مستولين عليه وكلهم من ارازل العوام، الا ابن العلقمي" مما حال دون وصول الاخبار الصحيحة اليه (١) ٠

وفي محرم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ كانت الجيوش التتارية تحاصر بغداد من الجهة الغربية بقيادة بايجو، ومن الجهة الشرقية بقيادة هولاءكو نفسه، ونشبت معركة عنيفة اسفرت عن استسلام الخليفة لهولاءكو في ٤ صفر / ١٠ شباط ونهاية الخليفة والخلافة العباسية في بغداد (٢) ٠

-
- (١) ابن الطقطقي، الفخرى، ص ٢٤٢، ويؤيده في ذلك اليونيني، ج ٢، ص ٨٦، ٢٥٤ — ٢٥٦، ابو الفداء، ج ٣، ص ٢٠٢، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥، ٤٨، ٦٤ ٠
- (٢) ابو شامة، ص ١٩٩، ابن الطقطقي، الفخرى، ص ٢٤٤ — ٢٤٥، اليونيني، ج ١، ص ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩ ٠ ابن الفوطي، ص ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٣ ٠ ابو الفداء، ج ٣، ص ٢٠٢، ٢٠٣ ٠ الذهبي، ج ٢، ص ١٢٠ ٠ المقرئ، السلوك، ص ٤٠٧ — ٤٠٩، وهو وابو شامة يجعلان مقتل الخليفة في سادس صفر، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥ — ٤٨ ٠
- ولا بد من الاشارة هنا الى ان جميع المصادر باستثناء ابن الطقطقي يجعل ابن العلقمي الخائن الذي خامر مع هولاءكو ولعب الدور الاول في اسقاط الخلافة، بينما يجعله ابن الطقطقي الوحيد الذي "كان من اعيان الناس وعقلا الرجال ٠ وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء" (ص ٢٤٢) والذي كان يشير على الخليفة "بالتيقظ والاحتياط والاستعداد" لمعرفة حقيقة الواقع (ص ٢٤٤) ٠ وينفي عنه المخالفة ويثبت ذلك بان هولاءكو لم يكن ليستخدمه لو كان مخامرا لقله الثقة به (ص ٢٤٧) ٠ ثم تنتهي حياته عند ابن الطقطقي (ص ٢٤٧) بمرض بينما يختلف المؤرخون الآخرون فيما اذا كان اهين ام اكرم على يدى هولاءكو قبل موته ٠ اما استسلام الخليفة فيقال فيه انه عائد لانخداعه بان هولاءكو مستعد لتزويج ابنته بابي بكر بن المستعصم بالله ٠ واما كيفية نهايته فقبل انها اختناق او اغراق بالماء او رفس في الكيس او تغطيس ببساط ٠

وانتشر الذعر بين الناصر واخذوا يغادرون بغداد طلبا المنجاة • واعتبر سقوط

الخلافة داهية احابت الاسلام لا افزع منها ولا ادهى (١) •

ثم توافد الملوك على مولاي يعلنون له العاقبة ، ثم عين مولاي الامير على بهادر

شحنه ببغداد وعين فيها الصدور والنظار والنواب (٢) •

وبعد هذه الترتيبات اندفعت جيوش التتري ثلاثة اتجاهات • ففقد مولاي كسو

كران وحارب ماردين ومياقاريين حتى استسلم صاحباهما • واندفع سندهون نحو الموصل

والجزيرة وسنجار • فاستسلمت الموصل وقتل صاحبها وهرب ابنه الى العائره ، وعرب صاحبها

الجزيرة وسنجار الى دمشق فالعائره • واتجه سقوط بن مولاي نحو حلب وارسل لاهلها رسالة

يطلب فيها قبول شحنتين مغولييين في المدينة والقلعة حتى اذا انهزم الناصر صلاح الدين

يوسف كانت حلب لهما واذا انهزمت الجيوش التتري كان الراي لاهل حلب ، فرفض الناصر

ودخل التتري حلب سنة ٦٥٨ م كانون الاول ١٢٥٩ واعطوا السيف في رواب

ابنائها • اما القلعة فلم يدخلوها حتى ربيع الاول •

(١) اليونيني ج ١ ص ٨٥ • ولم تنفذها حملات جيوش المماليك في مصر عندما كانوا

يحاربون المعيت والبحرية عند العباسية (عن اليونيني ، ج ١ ، ص ٨٩) •

(٢) اليونيني ج ١ ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ • ابن الفوطي ، ص

٣٣٢ ، ٣٤٧ ، المفريزي ، السلوك ، ص ٤١٠ • •

وكانت معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ثم معركة حمص في
محرم سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ وتراجع التتر بعدها عبر الفرات (١) .

(١) كان سيف الدين قطز قد ولي السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ نائبا على حلب
واقطع بعض امراء العزيزية والناصرية ارضا بجوارها . فاماء السعيد السيرة حنسي
ابنهم الناصر والجند . ولما قتل السلطان قطز استعمل التتر العرمة وقاودوا الهجوم
الى البيرة في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م فارسل نائب حلب نجدة سمغيرة
الى البيرة ابادها التتر فعذب الامراء من السعيد واعتلوه في ١٦ ذي الحجة ونفوه
الى قلعة مجاورة وولوا عليهم الامير حمام الدين الجوكندار . وفي هذه الغوصى
امتح التتر حلب وبدلوا الامان لاعلمها وهرب حمام الدين الى حماه لتحديده فاماء
به الضن ثم عرب امير حماه ايضا لما تحقق الخبر . ومنالك التتر بامانهم لاهل حلب
واعلموا السيف في رقابهم .

وعند حمص جمعت نوات حمص وحلب وحماه وهي نحو الف واربعماية جندى مقابل
سنة الاف للتتر . فانتصرت نوات المدن الثلاث وتراجع التتر ودخلوا حلب مرة ثالثة
ودعوا الناصر للانقسام حلبيين واعرابا . فالت كل جماعة ان السلامة في القرعة الاخرى
ولما تم الانقسام غرب التتر اعناق الاعتراب وتقامموا الحلبيين اسرى فيما بينهم .

ثم استطاعت نوات فخر الدين الحمصي وعلم الدين منجر الحلبى من قبل
الظاهر ان تستعيد حلب في اواخر سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . وبعد ذلك سارت حلب
مركزا هاما بالنسبة لمقاومة التتر والغضاء على الفرنجة ومهاجمة اسيا الصغرى . اسعد
سمارت منطلقا للدفاع والهجوم معا (ابن عبد الظاهر ص ٣٢ - ٣٤ - ٤٣ ، ابو شامة ،
ص ٢١٢ . اليونيني ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٥٥٤ ، ج ٢ ، ص ٣
٧٢ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ٤١٠ ، ٤٦٩ .
ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ . ابن ابى الفضائل ص ٧٠
٧٢ - ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ - ٨١ ، العزيزي ، السلوك ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٣ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٥٨٣ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .) .

وبهذا اختتمت المرحلة الاولى من التوسع التتري نحو الغرب، وفيها تعدد على التتري ان يسيطروا على بلاد الشام . فلجأوا الى خطة المناوشة والهجمات التخريبية المحدودة فسي مرحلتهم الثانية .

اما السلطان الظاهر فوجد ان الوسيلة الفضلى لمقاومة التتري هي في الجمع بين الوسائل الدبلوماسية والعسكرية معا . كانت للتتري ثلاث دول متناصرة في الحمين والعشاق وفارمر . وقد كانت عدائته موجهة الى الايلخانات فارمر فلا بد ان يصادم القباقي . وقد استمرت المفاوضات بين الظاهر وبركة خان نحو من سنتين ادت الى تحالف بينهما ونزع الايلخانات ببغداد من شقي الرحى (١) .

المرحلة الثانية :

انتهت هذه المرحلة بوفاة مولاي سنة ٦٦٤ هـ (٢) / شباط ١٢٦٥ م . وقد جرت فيهما عدة مناوشات بدأت سنة ٦٦٠ هـ حين هاجموا الموصل باتجاه حلب ، فارسل السلطان الظاهر الجيش للقائهم فوجت جماعة اخرى لحرق الاعشاب في طريق التتري فتوفي الزحف (٣) .

وفي سنة ٦٦١ هـ هاجم التتري طرعة الروم فبعث نائب البيرة ، الحد العامل بين الايلخانات والمماليك ، والحرمد لتحوكات التتري ، يعلم السلطان بذلك (٤) وفي محرم سنة ٦٦٢ هـ ، بينما كانت القوات المملوكية متفرقة في المراعي ، وبينما كان الظاهر في الصيد عند التتري موطنهم عند البيرة ، ظنا منهم ان المماليك لن يستطيعوا جمع جيوشهم لصد هم . ولكن السلطان سرعان ما جرد نحو اربعة الاف جندي بقيادة بدر الدين الخزندار وامر بتجريد اربعة الاف اخرى بقيادة عز الدين ايمان . وسار الجيشان في ٤ ربيع الاول ،

(١) انظر ص ١٦٦ وما بعده ما دناه . - ٢ - قال ابو الغداء (ج ٤ ، ص ٢) والمقريزي ، السلوك ، ص ٥٤١ ، وابن ابي الفضائل (ص ١٤٥) ان الوفاة وقعت سنة ٦٦٢ هـ ، ولو انهم لم يتفقوا حول اليوم الذي مات فيه . وقال ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، ٢٢٠) والد هبي (ج ٢ ، ص ١٢٨) ان وفاته كانت سنة ٦٦٤ هـ ، اليونيني سنة ٦٦٤ هـ ، ابن الجوزي (ج ٢ ، ص ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣ - ابن عبد الظاهر ، ص ٥٦ - ٥٨ ما بوشامه

وارسل الى المنصور مما حب عماء لينضم الى الجيشين الاولين ، فتراجع التتر عن البيرة مع انهم كانوا قد نصبوا عليها ١٧ منجنيقا .

وتابع الظاهر سيره حتى وصل ميذا وهنا جاءه الخبر بتراجع التتر ، فمسر بذلك ، وارسل الى البيرة الالات والامحة والجند والمؤونة ما يكفيها احصار عشر سنوات (١) .
لم تكن هذه المرحلة طويلة ولكن السلطان الظاهر افاد منها كل الافادة . فقد وجد فيها متسعا من الوقت للاستعداد ، ولحقه التحالف مع بركة خان ، والمقناة على المغنيث ، والمتفاهم مع الفرنجة في جنوب بلاد الشام الموقوف على الحياد في الصراع المقبل (٢) .
والمتفاهم مع الفرنجة في جنوب بلاد الشام الموقوف على الحياد في الصراع المقبل (٢) .

المرحلة الثالثة :

بدأت هذه المرحلة بارتفاع اباغا الى السلطنة الايلخانية سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م . وهي المرحلة الثالثة والنهائية في الصراع بين بيبرس والتتر . وقد كانت اطول المراحل واضعفها واكثرها تعقيدا . فقد كانت بين طرفين من حيث الاسم موافقها تناولت السلاجقة والارمن والمسلمين والاوربيين ، وفي الواقع ، وجرت معاركها في شمالي بلاد الشام ، وفي اسيا الصغرى ايضا .

وتتميز هذه الفترة بما يلي :

اولا : محاولات جديدة المتفاهم بين التتر والاوربيين للقيام بحملات مشتركة على المماليك .
ثانيا : اتصالات بين اباغا والسلطان الظاهر ، والمتفاهم في الظاهر ، والالقاء في الحقيقة .

(١) ابن عبد الظاهر ص ١١٩ - ١٢٠ ، ابو ثلثة ص ٢٣٢ ، اليونيني مج ٢ ، ص ٣١٨ ، ابن ابي الفضائل ص ١٣١ - ١٣٢ . ابن الفرات ج ٦ ، ص ٤٦ - ٤٧ ، والمفريزي ، السلوك ، ص ٥٢٣ - ٥٢٥ ، ٥٤٣ . وهنا في ميذا دعب المصيد وتقنطر وانهدم وجهه ، وجاءه صاحب يافا بهدايا . (المفريزي ، السلوك ، ص ٥٢٤) .
(٢) (F Sadeque) ، ص ٤٦ - ٤٧ .

ثالثا : ميل الاشكرى (بيزنطية) الى التتر صراحة .

رابعا : الحملات العسكرية العنيفة في بلاد الشام وفي اسيا الصغرى .

على انه ينبغي ان نعلم هذه المرحلة الى قسمين امتد الاول منهما الى سنة ٦٢٤ هـ وامتد القسم الثاني منهما حتى وفاة السلطان الظاهر . وقد اعتبرت السنتين الاخيرتين جزءا من هذه المرحلة الثالثة لعلاقتها الوثيقة بما جرى خلال السنوات العشر الاولى منها ، بين الظاهر والتتر . ولان المعارك فيهما كانت امتدادا للمعارك السابقة . واعتبرت فيهما مميزات من السنوات العشر الاولى لان المعارك فيهما جرت خارج اراضي السلطنة المملوكية ، ولان الظاهر ، فيها يخيّل الي لم يغم بها لمجرد الدفاع فقط .

وفي ذي الحجة من سنة ٦٦٤ هـ ارسل اباها هدية ورسالة للظاهر بيبيرم يعرض فيها المصالحة (١) ولكن هذه المحاولة فشلت . فعهد اباها الى وسيلة اخرى لمجابهة خطر المماليك وهي الاتصال بالفرنجية للتحالف معهم وفاد الى مهاجمة بلاد الشام . وفي ٦٦٥ هـ ، افارت فواته على الرحبة ونهبت وخرت (٢) . وفي صفر سنة ٦٦٦ هـ افارت فواته على حلب لكنها تراجعت امام استعدادات الظاهر (٣) ثم اتصل بالبابا لعقد حلف لمحاصرة المماليك وصا لاحت له تباشير نجاح هذه الخطة حتى ارسل للظاهر رسالة مع جماعة من التتر ومن اصحاب سيمر يهدده فيها ويندد باصله ثم يدعوه لعقد الصلح فرد الظاهر على ذلك بالمطالبة بالعراق والجزيرة وبلاد الروم وبلاد الشام (٤) .

(١) اليونيني ج ٢ ص ٤٦٢ . المقرئى ، السلوك ص ٥٥٣ . ابن تغرى بردى النجوم ، ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ - ٢ - ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٥ - ٣ - ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٣ المقرئى ، السلوك ص ٥٦٤ - ٤٠ - ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٢٩ ، ٤٠ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٥٧٤ . وابن تغرى بردى النجوم ، ج ٢ ص ١٥٤ .

وبعد الاتفاق مع الفرنجة على ان يهاجموا ساحل بلاد الشام ، قامت قوات اباغا في صفر ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م بهجوم على حلب . وارسل الظاهر علاء الدين الهندق دارى الى شمالي بلاد الشام ليحول دون وصول الجيوش الفرنجية القادمة من سيجس عبر البحر ، وسار بنفسه الى عزة في ربيع الاول ، ورد هجوما من فرنجة عكا على جينين وسفد ، وواصل السير الى دمشق ودخلها في ٢ ربيع الاخر . وفشلت هذه الحملة المشتركة لسرعة تحركات الظاهر من جهته ولانعدام الانسجام والتوقيت المضبوط بين القوات التتارية والفرنجية . زد الى هذا ان الحملة التي كان لويج التاسع يهيئها المشرق ، انحرفت الى تونس . ولعل المصدفة ايضا يدا فسي انتصار الظاهر ان ربحا هبت على سفن القوات الفرنجية فافترتها (١) .

وعاد الظاهر الى القاهرة . وفي محرم سنة ٦٧٠ هـ بدأه بجولة تفتيشية في بلاد الشام فمر في الكرك ثم دخل دمشق في ١٢ صفر ، ثم قصد حماه في ١٦ صفر وعاد الى دمشق في ٢٦ منه ثم جاء الخبر بان اباغا امر البيواناه بعصد بلاد الشام بعشرة الاف جندي . وفي ربيع الاول وصلت هذه القوات عينتاب وعمق حارم فاشاع الظاهر اخبار الزحف التتارى بصورة تويسية ليهرب السكان ، وتراجعت حاميته ليتوغل الحنول الحلي مستدريجهم الى الداخل فيبيدهم وما ان انتصف ربيع الاول حتى كانت قواته بقيادة بدر الدين بيسرى والمسنر الغارقاني وبعض جيوش العربان تقف امام التتر تردها على اعقابها . ووصل بقواته الى البيرة ودخلها ففسي ٢٥ جمادى الاخرة .

اما التتر فتراجعوا عبر الفرات ، لكنهم عادوا الى مهاجمة حران في ٢٥ رمضان فردهم مرة اخرى ثم عاد الى دمشق والقاهرة فدخلها في ٢٣ محرم سنة ٦٧١ هـ . ثم عاد الى دمشق في ٢٩ منه وبقي فيها حتى ٥ جمادى الاولى .

(١) المقريزي ، السلوك ص ٥٨٤ — ٥٨٥ .

ورأى ابافا نفسه عاجزا عن متابعة الحملة لاسيما وقد تحرك الفشاق والجفط الى
(١) فعاد الى مفاوضة الظاهر مرة اخرى . فارسل اليه في نهاية ٦٢٠ هـ ، بواسطة البروانساء
يدموه اليه لعقد الصلح . ثم اسفرت هذه الاتصالات عن ارسال وفد من قبل الظاهر الى ابافا
للمفاوض . وطلب الوفد الظاهري استعادة ما استولى عليه ابافا من بلاد المسلمين فرفض
ابافا واقترح استمرار الوضع الراهن . ثم حصلت مشادة بين الطرفين فعاد الوفد الى دمشق
في ١٥ صفر ٦٢١ هـ (٢) .

ولما فشلت المفاوضات عاد التتر الى الهجوم مرة اخرى . ففي ٥ محرم ٦٢١ هـ
كان السلطان في دمشق فعلم بحركة التتر الى الرحبة فذهب الى القصر فعاد التتر الى البيرة .
وهنا قصد السلطان القاهرة ووصلها في ١٣ منه واصدر تعليماته للاستعداد للدخال الى
بلاد الشام ، ثم كتب الى نوابه وامرائه في بلاد الشام ليتجهوا . وفي ١٥ منه اجري تمارين بحريسة
وفي يوم الاربعاء ١٩ منه ساق الى بلاد الشام . ومرة اخرى اعاد ابافا المحاولة لعقد الصلح
اذ ارسل وفدا يدموه الظاهر الى استنابة من يشاء للمفاوضة فرفض وتابع استعداداته وتدريباته
واجري استعراضا عسكريا في ظاهر دمشق حضره الوفد التتري ثم عاد الوفد في ٤ ربيع الاول سنة
٦٢١ هـ .

وفي ٥ جمادى الاول سنة ٦٢١ هـ كانون الاول ١٢٢٣ نزل التتر على البيرة
ونصبوا عليها المجانيق وسدوا معاير الفرات . وامام هذا الهجوم جهز الظاهر الامير فخر
الدين الحمصي الى جهة حام وجهاز ملا الدين الحاج طيبرمر الوزير الى جهة اخرى
نحو الفرات ، وارسل جماعة الاستطلاع اخبار التتر فعملوا ان مددهم نحو ثلاثة الاف جندي

(١) ابن ابي الفضائل ص ١٤٥ ، ابن الفرات مج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٣٨ ، ٧١ ، المفريزي ، السلوك
ص ٥٤١ .

(٢) اليونيني ج ٢ ، ص ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، باب الفداء ج ٤ ، ص ٧ ، ابن الفرات مج ٦ قسم ٢ ورقة ٩٠ ،
٩١ وورقة ١٠٠ ، المفريزي ، السلوك ، ص ٦٠٠ .

وفي ١٨ جمادى الاولى اتبع الظاهر الجيوش الثلاثة بجيش رابع بفيادته ومعه نحو عشرة مراكب صيادين مفككة جهزها في بحيرة حمص محمولة على جمال . ووصل الفرات فوجد التتر مرابطين على الشاطئ " المقابل " فانزل مراكبه في النهر ليصنع منها جسرا وشحنها بالجنود وتراموا مع التتر بالنبال والنشاب حتى استطاع ملاوون ان يخوض الفرات ومعه عدد من الجنود وعدة وافرة ثم تبعه بدر الدين بيسرى الشمسي في جمع اخر من الجند . ثم التقى الجنود بانفسهم على الفرات وقاموا فيه " الفارص الى جانب الفارص وهم متما مكون بالاعنة ومجاديفهم رياحهم — وعلى خيولهم الحديد " واجتازوا النهر حشودا لا افرادا ثم انتشروا يا سرون وينهبسون ولم يجدوا للقرائرا فظن الظاهر ان التتر يكمنون له . فلم يتبعهم ، بل اكتفى بالاستيلاء على البصرة وكان جيشه قد لاقى مشقات كبيرة في هذه الحطة .

ثم منح نائب البصرة هبات وخلعا واموالا . ووزع العطايا على اهل البلد وزاد عدد جنود الحامية ، ثم قفل راجعا الى دمشق ، فالقاهرة (١) .

وفي محرم سنة ٦٧٢ هـ / تموز ١٢٧٣ م عرف السلطان ، وهو في القاهرة ، ان ابافسا توجه الى بغداد بجيش كبير ينوي افتتاح بلاد الشام . فاعلم الظاهر النعير العام . ان اوجب على الجميع ان يتهيأوا للحرب ، ثم توجه الى دمشق فوصلها في ١٧ صفر / ايلول حيث علم ان التتر تراجعوا بعد ان علموا بوفاة البابا فرينغورى العاشر واستحالته قدوم حملة صليبية مؤيدة لحملته من الشرق . فعاد الظاهر الى القاهرة . ثم عاد التتر للهجوم مرة اخرى في جمادى الآخرة سنة ٦٧٢ هـ ، فبعث السلطان الامير ميسى بن مهنا فتراجع التتر ظنا منهم انه السلطان وفي جمادى الآخرة سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ ، قاود التتر الهجوم على البصرة ، فتاهب السلطان لملاقاتهم فوصل الى حمص حيث علم انهم عادوا (٢) .

(١) ابو الفداء ، ج ٤ ص ٧٤ الذهبي ج ٢ ص ١٣٤ ماين ابي الفضائل ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ابسن ابي الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٠٠ - ١٠٣ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ماين تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ - ٢ - ابو الفداء ، ج ٤ ص ١٥٩ ، الذهبي ج ٢ ص ١٣٣ ، ابن ابي الفضائل ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢١ (F Sadeque) ص ٦٢ .

وفي السنتين الأخيرتين من حكمه كانت الاصطدامات في آسيا الصغرى . هنا كان السلطان الظاهر قد اخذ يطمح باحتلال آسيا الصغرى، بعد ان عقد هدنة مع الفرنجة في بلاد الشام، وبعد ان فشلت محاولات التفاهم بين التتر والاوروبيين لتطويقه . لم يكن الدفاع هو العامل الذي حدا به لهذه الحملات الاخيرة وانما هو عامل التوسع .

وفي رمضان سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ ، استناب السلطان الامير اقسنقر الفارقاني في خدمة ابنه الملك السعيد وترك لهما خمسة الآف جندي، ثم خرج في ٢٠ منه الى المنزلة حيث عيّد العيّد . وفي ١٢ شوال غادر المنزل الى بلاد الشام ومعه وزير الصحة وكبار الامراء ووصل دمشق في ١٧ منه، ثم دخل حلب في اول ذى القعدة، ثم غادرها الى حيلان، من قرى حلب وجعلها قاعدة للهجوم على بلاد السلاجقة . وهنا امر نور الدين علي بن مجلي نائب حلب ان يتوجه الى نهر الساجور في منبج ويقيم على الفرات ليحول دون عبور التتر الى بلاد الشام . وهنا ايضا انضم اليه ابن مهنا لنصرته، ورد غزوة تترية واسر عددا ضخما من التتر (١) . وفي ٣ ذى القعدة قسم السلطان جيشه قسمين قاد احدهما بنفسه وقاد سنقر الاشقر القسم الآخر . وذهب السلطان الى كينوك او الحدث الحمراء في آسيا الصغرى، وكان احد قواده قد افتتحها له سنة ٦٧١ هـ (٢)، ثم الى ككصو فاقجار بند وملكها كلها . اما سنقر الاشقر فاصطدم بنحو ثلاثة الآف جندي تترى وانتصر عليهم في ٩ ذى القعدة (٣) .

(١) ابن الفرات، ج ٦، قسم ٢، ورقة ٤٩ — ٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٦٦ — ١٦٧ . ٢ — المقريزي، السلوك، ص ٦٠٨ . ٣ — ابن الفرات، ج ٦، قسم ٢، ورقة ٥٠ — ٥١، وهو ينقل عن ابن عبد الظاهر وصفا دقيقا لطريق الحملة : المقريزي، السلوك، ص ٦٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٦٧ — ١٦٨ .

ولم يكن هذا الانتصار سوى بداية حملة استغرقت نحو من شهر . وبعد هذه المعركة احتشدت قوات الروم السلاجقة والتتر عند نهر جيحان . فأرسل السلطان طليعة من جيشه تستكشف مكان العدو . فوجده في صحراء ابلستين منتظما في احد عشر طلبا ، في كل منهم ألف فارس . وفي العاشر من ذي القعدة استقدم الجيشان وكانت الجيوش التترة تنقصر ، وجرت معركة عنيفة ترجل فيها فرسان التتر وقاتلوا قتالا عنيفا . لكن الجيوش الظاهرية اضطرتهم المتراجع والمجور الى المرتفعات المجاورة حيث حاظت بها قوات السلطان الظاهر وابادتها ، وفر البرواناء و السلطان السلاجقة (١) .

وجرد السلطان سنقر الاشقر لمطاردة التتر ، فزحف نحو بيسرية الروم ومعه كتاب امان لاهليها . ثم لحقه حتى وصل العاصمة السلجوقية في ١٥ ذي القعدة فرحب به سكانها . وفي يوم الجمعة ، ١٧ منه ، وضع على راسه جتريني سلجوق ودخل دار السلطنة وجلس على عرش السلاجقة ، ثم دخل الجامع للصلاة وخطب باسمه في جوامع بيسرية السبعة (٢) .

وهنا وصلت رسالة تهنئه من البرواناء الغاريغده فيها بالعودة اليه بعد ١٥ يوما لكن الظاهر لم يامن له . وفي ٢٠ ذي القعدة عاد الظاهر نحو بلاد الشام . وفي طريق العودة جرد جيشا بقيادة طيبر من الوزير لمهاجمة الرمانه الارضية لان عيشوم ناصر الروم في موطنه ابلستين ثم واصل سيره الى ابلستين وجمع بعض بقايا جيشه حتى اذا جاء اباغا الى الساحة توهم ان يتلقى الماليك ليسوا كثيرا . ثم سار الى الدريند فحارم فانطاكية فحلبه حتى وصل دمشق في ٥ محرم سنة ٦٧٦ هـ . وما كان يدخل دمشق حتى علم بقدوم اباغا الى اسية الصغرى ، وتهايا لغصد بلاد الشام ، فعاد الى الاستعداد لحلافاته . ولكن اباغا تراجع (٣) .

- (١) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٠ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٥١-٥٢ ، المقرئى السلوك ص ٦٣٩ ، ابن تغرى بردى والنجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٧-١٧٠ .
- (٢) ابو الفداء ، ج ٤ ص ١٠ ، مالد ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٥٢-٥٦ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٦٢٨ - ٦٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٩ .
- (٣) ابن الفوطي ، ص ٢٨٩ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ١٠ ، مالد ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٥٧ - ٢٧٥ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٥٦-٥٩ ، ورقة ٦٠ ، المقرئى السلوك ، ص ٦٣١ - ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ابن بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

وهنا ينبغي ان نسأل سؤالا يسنا وهما : ما هو السبب المباشر لهذه الحملة ؟ وما هي فوائدها ؟ السبب الحقيقي للحملة هو استمرار الصراع بين السلطان الظاهر والتتر . اما السبب المباشر فهو ان البروانا ، اتصل بالسلطان الظاهر سنة ٦٧٢ هـ يدعوه لاحتلال بلاد الروم ثم عاد فطلب من السلطان تأجيل حملته ، فانصل امراء سلاجقة اذرون بالسلطان الظاهر يدعونه لاحتلال بلادهم ويعدونه بالمعون . فعقد السلطان مجلسا عسكريا قرر فيه مهاجمة بلاد السلاجقة (١) وهكذا يكون السلطان قد هاجم فيصرية بناء على دعوة من بعض ابنائها .

ولئن كانت قيادة الحملة قد برهنت عن ذراية عسكرية من حيث سد معابر الفرات الى بلاد الشام ، وارسال فرق استطلاعية قبل الهجوم ، وعدم اخذ اع بوعد البروانا (٢) بالعودة اليه بعد ١٥ يوما فان نتائج هذه الحملة لم تكن شيئا بالنسبة لما تكبدته فيها من نفقات ومشقات . وخسائر بالارواح ، لعلها لم تكن اقل من خسائر التتر . اليوم من المعقول ان قتلاه كانت اكثر من قتلى التتر فعند الى اخفاء هذه الحقيقة بدفن القتلى ؟ اما دخوله فيصرية وجلسه على عرش السلاجقة فمن دبل "المرجلة" الفارفة . لم يكن يكفيه انه رد التتر عن البيرة ، فلا داعي بعد ذلك لتحويل ميدان القتال الى اسية الصغرى . انراه كان يتوقع البقاء في بلاد الروم ؟ است احسد لك ممكنا وقد احس بريدك فور دخول فيصرية ، فعمد الى الانسحاب ، تاركا العاصمة السلجوقية للانتقام التتري . وهب ان اباعا واسل زحفه على بلاد الشام في محرم ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ فمادا كان يحدث والسلطان مريض ميمسوم منه ، والجيش لا يزال متعبا ؟ وكانى با بن ابي الفضائل يعتبر هذه الحملة معامرة لا فائدة منها (٣) . وما هو الحفرى يقول ان الخوف والندم ظهرا عليه وهو في فيصرية لتوريط جيوشه في بلاد الروم (٤) . ثم ان (E Blochet) يرى ان الحملة كانت حمالة لان الروم انفسهم لم يكونوا متفهمين على دعوته (٥) .

-
- (١) اليونينسي ج ٢ ، ص ٣٤٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ابن ابي الفضائل ، ص ٢٤١ - ٢٥٧ ما بين الفرات ج ٦ ، ص ٢ ، ورقة ٣٤ ، الحفرى ، السلوك ص ٦٢١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ .
 (٢) معنى الكلمة . الحاجب ، وهو لقب يندوب التتر عند السلطان السلجوني ، وقد لعب سليمان الدين البروانا هذا دورا هاما في هذه المعركة . انظر ١٨٣ ادناه .
 (٣) ابن ابي الفضائل ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ . - ٤ - الحفرى ، السلوك ، ص ٦٢٣ .
 (٥) (E Blochet) النهج الجديد ، ص ٢٨٧ .

والى جانب هذه الحروب المتواصلة بين ليلدخانك فارس والارمن والسلاجقة الروم من جهة
والظاهر بميرس من جهة ثانية ينبغي ان لا ننسى علاقات اخرى بين الطرفين تتناول لجوء الكثيرين
من التتروالسلاجقة الى الظاهر بميرس . ففي ٢٧ ذى القعدة سنة ٦٦٠ هـ جاء الى دمشق
نحو ٢٠٠ فارس نترى ومعهم نساؤهم واولادهم هاربين من جهش هولاء الكوالمهزم امام جيش بركة (١) .
ويوم الخميس ٢٤ ذى الحجة من السنة نفسها جاءت الى مصر جماعة تترية مستأمنة فاكرمهم
الظاهر ومنحهم اقلعاً كثيرة . ثم اخذ اللاجئين يتواترون جماعة اثر جماعة حتى خشي السلطان
منهم وحذرهم . ففي رجب سنة ٦٦١ هـ علم ان عاصم بيرة منهم قادمة اليه فخرج لملاقاتهم
بالسلاح حتى اذا كانوا خصوما حاربهم واذا كانوا اصدقاء اكرمهم . وكانوا اصدقاء . فانعم
عليهم وتزوج بنت مقدمهم كرمون (٢) .

وفي محرم سنة ٦٦٢ هـ وصلت جماعة اخرى مستأمنة من بغداد . وفي جمادى الآخرة ايضا
جاءه بعد امراء العراق فرارا من هجوم هولاء كوعلى بغداد . وفي سنة ٦٦٧ هـ ، بعد سلطنة
ابنه جاءته دفعة اخرى (٣) . وفي صفر ٦٧٢ هـ وصله الامير شمس الدين بهادر امير غشت
جلال الدين خوارزمشاه فاكرمه (٣) . وفي ١٧ محرم منه ٦٧٥ هـ جاءه وهو في دمشق
عدد كبير من المسول والسلاجقة لخلافهم مع البرواناء وتأمره عليهم عند ابعا (٤) .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٦ — ٨٨ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، اليوناني ، ج ١ ، ص ٥٣٤ ، وج ٢
ص ١٩٥ ، الذهبي ، ج ٢ ص ١٥٦ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥٠١ ، ٥١٥ . ابن تغري
بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٦ .

(٤) المقرئ ، السلوك ، ص ٦١١ ، ابن أبي الفصائل ، ص ٢٣٩ — ٢٤٤ .

القشاق فرع من المغول استوطن الاصقاع الجنوبية من روسيا . ويدعون بالقشاق ايضا .
اما المورخون الفرنجة فيدعونهم بالقبيلة الذهبية .

كان بركة خان (١) (١٢٥٦ - ١٢٦٦) اول سلاطنتهم المشهورين وقد اعتنق الاسلام
واختلف مع هولاكو، وكانت عاصمته سراي شرقي ستالينغراد (٢) . وفي سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١ كان
بركة خان قد اعلن اسلامه . وفي سنة ٦٦٠هـ وقعت الحرب بين بركة خان وهولاكو لاستيلاء بركة
من تاسيس دولة الايلخانات بفارمروا لثقتناع عن اعطاء القشاق نصيبهم من الاسلاب (٣) . فكان
عليهما بعد هذا ان يتصل السلطان بيهرس ببركة خان للتعاون معا على هولاكو .

وفي محرم سنة ٦٦١هـ ارسل السلطان الظاهر الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين
كشريك برسالة وهدية الى بركة . وفي الرسالة حضر على الجهاد وعرض لما يقوم به في سبيل الاسلام
واخباره باحياه الخلافة (٤) . والتقى وفد الظاهر في القسطنطينية بوفد من قبل بركة خان فعاد
مجد الدين مع وفد بركة خان الى السلطان الظاهر، وتابع سيف الدين سيره الى بركة خان .

(١) كان " خفيف اللحية كبير الوجه في لونه اصفرار ، يلف شعره عند اذنيه . في اذنه حلقة
فيها جوهرة ثمينة لبسه لباسا يتو عليه قبائي خطائي ، وعلى راسه سراقم وحياصه من ذهب
مجوهرة . وفي وسطه سولق بلعاري اخضر وفي رجله خفا حمراء . بلباء ابيض وليس في وسطه
سيف . وفي حياصته قرون معوجة معممة بذهب جالسا على تخت مرخي الرجلين على كرسي . .
لان به وجع النقرس " يستقبل السفراء في خرابة وعنده ٥٠ او ٦٠ اميرا ومعه زوجته .
(اليونيني ، ج١ ، ص ٥٤٢) .

(٢) اليونيني ، ج٢ ، ص ٣٦٤ ، ابو الفداء ، ج٤ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥٦١ ،
W.Barthold مادة Bereke نقحها J.A.Boyle في الموسوعة الاسلامية ،
الطبعة الجديدة ، مجلدا ، ص ١١٨٧-١١٨٨ .

٣ ابن عبد الظاهر ، ص ١١٦ ، اليونيني ، ج١ ص ٤٨٧ ، ٥٣٦ ، ج٢ ، ص ١٦١ - ١٦٢ ،
الذهبي ، ج٢ ، ص ١٢٦ ، ابن ابي الفاضل ، ص ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، المقرئ ،
السلوك ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ابن تغري بريد ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ،
ص ٢٢٢ ، D'Oshonson ص ٣٧٧ .

(٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٥٩ - ٦٠ ، ١١٣ ، ابن الفرات ، ج٦ ، ص ١١١ ، المقرئ ، السلوك
ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .

ووصل وفد بركة خان القاهرة فخرج سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م عبر الاسكندرية ومعه رسالة مضمونها

ان بركة خان " محب للدين وان هذا العدو يعني هولاكو قد تعدى على المسلمين واستولى على بلادهم " وقد رايت ان تفصده ، من جهتك واصدء من جهتي ونصدمه صدمة واحدة فنقتله او نطرده من البلاد . ومتى كانت واحدة من هاتين اعطينك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها " (١) .

هذا ما كان يريد الظاهر .

ثم واصل الوفد الظاهري برئاسة سيف الدين كشرىك سيره الى بركة وماد من عند بركة خان ومعه وفد اخر . وفي جمادى الاولى من سنة ٦٦٠ هـ ارسل الظاهر وفدا ثانيا الى بركة خان يعلن موافقته على ماورد في رسالته اليه ، ثم وصله وفد بركة في ردى القعدة سنة ٦٦٢ هـ والظاهر يتهيأ للاستعراض العسكرى الكبير (٢) فحمل له دعوة باللوق (٣) وانعم على اعضاءه بهدايا منيعة .

وردا على ذلك جهز السلطان وفدا من اعضاءه الامير فارس الدين افوش المسعودى الى بركة خان برسالة وهدية . وكانت الرسالة في سبعين ورقة بغدادية تحتوى على ايات واحاديث ترعب بالجهاد وتصف كثرة جند مصر ، ثم توافق على مقترحات بركة خان . وكانت الهدية تتضمن الحيوانات الغربية كالزرافة والفرد والهجين والخيول العربية والحمير المصرية الوحشية والخدم والاحباش والجوارى والمشاعل والشمعدانات الغضية والحصر العبدانية والامتنعة والثياب وما الى ذلك مما لا يحصى كثرة (٤) .

-
- (١) ابن عبد الظاهر ص ٨١ ، اليونيني ج ١ ، ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، وج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ابن ابي الفضائل ص ١١٠ ، ١١١ ، تاجن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٢ و .
 - (٢) ابن عبد الظاهر ص ٦٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ابو شامة ، ص ٢٣٢ ، المعريزى بالسلوك ص ٥١٧ ، ٥٣٨ .
 - (٣) وهي بساتين ومزروعات ليس فيها البنية الا ما عمره القاضي الفاضل ، ثم بنى الظاهر فيها الدور وانزل فيها التتر الوفود والمستأمنين (المعريزى ، الخطط ج ٢ ، ص ١١٧ ، السلوك ، ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ ملحوظة ١ - ٢ .
 - (٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٧ ، ج ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١١١ ، ١١٢ ، تاجن الفرات ، ج ٦ ، ص ٣١ ، ٣٢ ، المعريزى ، السلوك ، ص ٤٩٥ .

وفي ١٧ رمضان سار وفد السلطان من القاهرة الى العسطنطينية . وكان الاشكرى
فائبا من عاصمته في حرب مع الفرنجة ، وفند . وفد من قبل هولاء ، فسار الوفد الظاهري
اليه فاكهم اعضاء . ووفدهم بالمساعدة عندما يعود الى العاصمة . فعادوا الى العسطنطينية
لكنه استمر يماظلمهم سنة وثلاثة اشهر . فاستادنه الوفد بمواصلة السير الى بركة خان او بالعودة
الى القاهرة . فاذن لاحد الاعضاء بالعودة الى القاهرة واحتجز البقية وبينهم الامير فارس
الدين افوش المسعودي ، نحو سنتين آخرين حتى هلك اكثر ما كان معه من الحيوان وفسد
البقية (١) .

وفي هذه الفترة هاجم بركة خان العسطنطينية فهرب الاشكرى واستنجد بالامير فارس
الدين فقال هذا لعدم العشاق ان الاشكرى صديق للظاهر ، واعطاء وثيقة بانه باي عنده
الاشكرى برضاه . ثم انسحبت الجيوش العثمانية . وهنا سمح الاشكرى للوفد الظاهري بمواصلة
السير الى بركة خان ومعه رسالة تعهد فيها بغرامة سنوية معينة مقابل الصلح (٢) .

ثم سار الوفد الى بركة خان مارا على ساحل السودان فالعزم حتى استقبله مندوب بركة
خان وانزل اعضاء منزلة حسنة حتى كان يوم المفاودة مع بركة خان . دخل اعضاء الوفد عليه
بموجب الاداب المتبعة في بلاطه وتليت الرسالة واعجب بها ، ثم اكرمهم واكرمهم

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٨٢ ، اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، ابن ابي

الفضائل ، ص ١١١ - ١١٣ . ابن الفرات مج ٦ ، ص ٤٧ ، ج ٥١ و .

(٢) اليونيني مج ١ ، ص ٥٣٨ ، ج ٢ ، ١٩٧ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١١٤ . ابن الفرات ،

ج ٦ ، ص ٤٧ و - ٤٧ ق .

زوجته ايضا ، وسألهم من سبب التأخير ، وفي بالاسئلة من مصر ، ثم كتب رسالة الى
الظاهر ، وسيروفا بصحبته الى الظاهر (١) .

وكان طبيعيا ، عندما علم الظاهر بتأخير هذا الوفد عند الاشكرى ، ان يرسل وفدا

اخر الى بركة في رمضان سنة ٦٦٣ (٢) .

وتوفى بركة خان في رجب سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م . وخلفه ابن اخيه منكوتر وفي صفر

من سنة ٦٦٦ هـ ارسل الظاهر اليه يعزيه بوفاة عمه بركة خان ويعرض عليه استمرار التحالف

بينهما لمجابهة اباغا فقبل (٣) .

وفي سنة ٦٦٨ هـ هاجم منكوتر القسطنطينية (٤) وفي السنة التالية جاء الى الظاهر

رسالة من زعماء القبشاق يؤيدونه ويعلنون الولاء له فاجابهم السلطان مؤكدا استمرار الجهاد (٥)

وفي ذي القعدة سنة ٦٧٠ هـ وصل رسل منكوتر الى الظاهر بدمشق عبر بلاد الاشكرى ،

فالبجر حيث استولى عليهم مركب من المتشابهين وادخلهم مكا ، فاجب صاحبها تسييرهم الى

السلطان بموجب حلف مع الظاهر . لكن المتشابهين لم يردوا الاسلاب فامر السلطان بمصادرة

تجارهم في الاسكندرية . وكان مع الرسل رسالة مضمونها وقد برد جميع ما استولى

- (١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١١٨ ، ١١٩
ابن الفرات ج ٦ ، ص ٥٢ و ٥٣ ق اما الاداب المتبعة لديه فهي الدخول على اليسار
حتى تؤخذ الرسائل فينتقل الوفد الى اليمين ، والجلوس على الركبتين والتجرد من السلاح
والعدة وعدم دوس عتبة الخراكة ، وعدم حمل فوس او نشاب وعدم اكل الخبز او شرب الخمر
في الخراكة (اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٤٢) واعتذر فارمر الدين من تأخره بان الاشكرى اخبره
فابرز له بركة خان الوثيقة التي سلمها لمقدمه ولما عاد فارمر الدين الى القاهرة في جمادى
الآخرة سنة ٦٦٥ هـ اعتقه السلطان وصادر امواله (اليونيني ، ج ١ ، ص ٥٣٩ ، ج ٢ ، ص
١١٧ ، ١١٨ ، ابن ابي الفضائل ص ٤٥٦) - ٢ - المفريزى ، السلوك ، ص ٥١٤ ، ٥١٧ ،
٥٢٨ - ٣ - اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٤ ، ابن الفرات
ج ٦ ، رقم ٢ ورقة ٣٤ ، المفريزى ، السلوك ص ٥١٧ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ - ٤ - ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٦
- ٥ - ابن الفرات ج ٦ ، رقم ٢ ورقة ٧٣ - ٧٤ .

عليه بيت هولاكو من بلاد الاسلام مقابل نجدة بيت بركة لاستئصال شاة بيت هولاكو .

واجاب السلطان الظاهر على الرسالة بالقبول (١) .

وفي رجب سنة ٦٧٤ هـ بعث السلطان الظاهر بوفد ورسالة الى منكوتر (٢) . ومع ان المصادر لاتشير الى مضمون الرسالة ، فالارجح انها ذات علاقة بحملة بيبرس على بلاد الروم وارمينيا .

وهكذا نرى ان العلاقات بين بيبرس والتتر كانت عدائية مع ايلخانات فارس في عهدى هولاكو وابنه اباقا ، وودية مع الفشاق في عهد بركة خان وابن اخيه منكوتر .

٣ - الكرج ،

في رجب سنة ٦٦٦ هـ عاد رسول الظاهر من بلاد الكرج بجوابه مضمونه تاييد الظاهر والفشاق ومدا . لايلخانات فارس (٣) .

٤ - السلاجقة :

احتلت القوات التترية بلاد الروم سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م وابقى هولاكو ركن الدين بن فياث الدين سلطانا على البلاد لكنه جعل معه مقيما من قبله (٤) . وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . اختطف الاخوان ركن الدين ومز الدين فكان الخلاف فوصة للسلطان الظاهر للتدخل . ولما ايسد التتر ركن الدين ايد السلطان الظاهر عز الدين فارسل هذا رسالة له يتنازل فيها عن نصف بلاده واستنجد به على اخيه ، فارسل الظاهر جيشا لغمرته (٥) ولكن عز الدين لم يستطع

(١) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ ، وابن ابي الفضائل ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، الحفري ، السلوك ، ص ٦٠٧ والمتشابهين عند ابن ابي الفضائل ، هي البيسانيين ، عند اليونيني ولعلها نسبة الى بيزا .

(٢) الحفري ، السلوك ، ص ٦٢١ . (٣) ابن الفرات ج ٦ ، قسم اول ورقة ٧٧ وج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١٧ وج ٧ ، ص ٥ .

(٤) اليونيني ، ج ١ ، ص ٨٦ ، (E.I. "eljek") مجلد ٤ ، ص ٢١٢ .

(٥) ابن عبد الظاهر ، ص ٥٠ ، ٥١ ، الحفري ، السلوك ، ص ٤٧٠ .

مع ذلك ، الوفوف امام اخيه الدي يناسره التتر المحتلون . فهرب عز الدين الى انطاكية
ثم الى القسطنطينية (١) .

ثم ساءت العلاقة بين المقيم التتري معين الدين سليمان البرواناه وركن الدين فاتصل
البرواناه بالظاهر يدعوه الى بلاد الروم . ثم ذهب الى اباغا بناء على طلبه . ولما عاد الى
نيسرية ، دب الخلاف بينه وبين السلاجقة الذين كانوا اتصلوا بالظاهر معه ، فحاربهم
ثم ادى هذا الى ندوم السلطان الظاهر في اواخر سنة ٦٢٥ هـ في حطة الى بلاد الروم (٢) .

• - ارمينيا • -

كانت ارمينيا دولة صغيرة ناشئة تريد تثبيت اقدامها في زمن مضطرب وعاصمتها سيس
مدينة كبيرة ذات اسوار على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير . وكان طبيعيا بعد
امتداد سلطان التتر الى بلاد الروم ان تنشأ هذه الدولة صداقة التتر . لذلك زار ملكها
هيثم (١٢٢٦ - ١٢٢٠) الخان التتري الاعظم في فراقوم سنة ١٢٥٥ ، واعلن ولائه له .
وطبيعيا بعد هذا ان يرى الظاهر في هذه الدولة عدوة له .

وكأن هذه الدولة الصغيرة الناشئة كانت تطمح بشمال بلاد الشام لذلك كانت
منذ اوائل القرن الهجري السابع /الميلادي الثالث عشر تغير على مدن بلاد الشام الشمالية
واتخذت انطاكية حليفها ، قاعدة لهذه الغزوات على بلاد الشام . ففي شوال سنة ٦٦٠ هـ /
١٢٦٢ م . افارت قوات ارمينية على منطقة حلب فنهبت القوعة وسرمين (او سلمين) وجبل ببلون ،
فردم نائب الظاهر في حلب واسر بعضهم وارسلهم الى القاهرة فوسطوا .

(١) اليونيني ، ج ١ ، ص ٤٥٨ ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، المقرئى ، السلسوك ،
ص ٤٢٠ ، . ويخصر الرسالة للظاهر راجع ابن الفرات ج ٦ قسم ١ ص ٢٢ق - ٢٢

(٢) راجع ص ١٥٧ ، وما يليها .

وفي صفر من سنة ٦٦١ هـ • جمع التكتفور • ميثوم جيشا آخر وافار على الجومة والعمق وجبل
اليلون ومعة مسرين وسرمين والغوة بد لالة رجل من اهل الغوة واسر عددا من ابنا الغوة
وهرب البقية الى دار الدعوة حيث نجوا وكاد القائد يقتل (١) •

وفي هذه السنة ايضا زحفت جيوش ميثوم على سلاجقة الروم لتأييد التتر • وهنا فسي
عاصمة السلاجقة تحالف ميثوم والسلاجقة والتتر على محاربة المماليك (٢) •

وفي ربيع الاخر سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م هاجم ميثوم عينتاب ومعه نحو الف جندي فصدته
جيوش حمص وحماه • فاستجار بالتتر فارسلوا له نجدة من سبعماية فارسل لكن الثلوج والامطار
حالت دون وصول النجدة في الوقت المناسب • وفي جمادى الاخرة من السنة نفسها جرد جيشا
جديدا لمهاجمة حمص والبص بعض جنوده البسة ثرية ليوقع الخصوم ان التتر في نجدة •
لكن قوات الظاهر ردت بعد ان كبده خسائر جسيمة (٣) •

كان الظاهر في هذه الفترة يحاول تصفية خصومه الاقربين من فرجة وارمن استعدادا
للمصراع المنتظر مع التتر • لذلك رأى انه لا بد له من حملة تاديبية على سيمر ويبدو ان التكتفور
كان هادن الظاهر عند تسلمه العرش على خراج ثم راح يملكه بتأديته • وفي ١٩ شوال سنة
٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م بعد احتلال صفد • فصد دمشق ودخلها يوم الخميس في اول ذي القعدة •
وهنا جاءه رسل سماحب سيمر بهدية ورسالة المصالحة فرفض الهدية والرسالة واراهم رؤوس
نقل اتى بهم من فزوة على عكا (٤) • لقد جاءت محاولة الملح هذه متأخرة فكان طبيعيا
ان تفشل • •

-
- (١) اليونيني ج ١ ، ص ٤٩٦ و ٥٣١ ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، ١٩١ - ١٩٢ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ٨٠ - ٨١ ، ابن ابي الفضائل ص ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢ - ابن عبد الظاهر ص ٩٧ •
(٢) ابن عبد الظاهر ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ والمقرئى السلوك ص ٥١٠ ، ٥١١ •
(٣) ابن الفوطي ، ص ٣٥٥ ، اليونيني ج ٢ ، ص ٣٢٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ لكتهم يجعل تاريخ الحملة
سنة ٦٦٣ هـ ، ابو الفداء ج ٤ ، ص ٣ ، المقرئى السلوك ، ص ٥٥١ ، ٥٥٩ ، و"شذرات
تاريخية من صحائف منسيه" لمؤلف مجهول ، نشر الاب شيخو في المشرق عدد ١٨ سنة ١٩٢٠
ص ٦٠٢ •

عند ذلك اخذ هيثوم يستعد للحرب • وفي ٣ ذى القعدة سنة ٦٦٤ هـ تحرك جيش الظاهر بقيادة الامير اقصنقر الفارقاني ومز الدين بهدغان المعروف بسم الموت وفلاوون الالفي نحو الشمال ودخلوا قهلقيا في ٢٢ ذى القعدة واسروا عددا كبيرا من الارمن بينهم ابن هيثوم وقتلوا منهم عددا كبيرا ايضا بينهم شقيق لهيثوم • ثم انتشر الجيش المملوكي الى جهة بلاد الروم والحصيصة وادنه واياص وطرسوس حتى وصلوا سيمس في ذى الحجة ، حيث كان صاحب حماه ينتظرهم ثم قفلت قوات الظاهر راجعة الى بلاد الشام فخرج من دمشق يلانيها محتفيا بها (١) •

وفي سنة ٦٦٥ هـ ارسل هيثوم رسالة الى الظاهر في صدد يدعوه للمصالحة • ولكن الظاهر رفض مرة اخرى (٢) • يبدو ان الظاهر لا يريد ان يصالحه الا بعد ان يقص جناحيه لذلك لم يرض بعقد الصلح مع هيثوم الا بعد ان احتل انطاكية سنة ٦٦٦ هـ • اذ وجد هيثوم نفسه مرفعا على التنازل عن دريساك وبهسننا ومزبان ورعنان وشيخ الحديد والدوب ، وهي قلاع اعطاها له التتر عند احتلال بلاد الشام • وبعد ايضا بالتدخل لدى اباقا لاطلاق سراح الامير شمس الدين منقسر الاشقر الذي اسره التتر عند دخول حلب ، مقابل اطلاق سراح ليفون بسن هيثوم وابن اخيه وغلماهما الماسورين سنة ٦٦٤ هـ • وحاول هيثوم التخلص من تنفيذ المعاهدة لكنه اضطر لتنفيذها لانقاذ ابنه من الاسر • وتسلمه في رمضان سنة ٦٦٦ هـ • وتم الصلح ببسن الظاهر وهيثوم ثم منحه بهسننا اقطاعا منه له (٣) •

(١) ابن الفوطي ، ص ٣٥٥ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٣ • ابن ابي الفضائل ، ص ١٥٥ ، ٢٣١ و ٢٣٢ ، المقريزي السلوك ، ص ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ابن تغري بردى النجوم ج ٢ ص ١٤ ، ابن اياص ج ١ ص ١٠٤ • (٢) • المقريزي السلوك ص ٥٥٩ •

(٣) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ابن الفوطي ، ص ٣٥٥ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٥ • ابن ابي الفضائل ، ص ١٥١ ، ١٥٢ •

وبقي الملح نحو سبع سنوات . ففي اواسط سنة ٦٧٢ هـ كتب الظاهر الى نائبه بحلب
ان يستعد لغزو سيمس ، وبالفعل ذهبت بعض طلائعه الى موش ثم عادت (١) . اما الظاهر
فاستتاب الامير شمس الدين اقسنقر الفارقاني بالديار المصرية وتوجه الى بلاد الشام في ٤
شعبان ٦٧٢ ، فدخل دمشق في ٢٩ منه ثم رصد حمص وحماه في رمضان . وجند عساكرهما
وعربانهما . ثم وجه نسما من جيشه الى البيرة ليسد معاير الغرات على التتر . وساق بنفسه
على راس القسم الاخر الى سيمس مارا بدرساك فالدرند فباب اسكندرونه واستولى على ايمام
وادنه ومضيصة وهاجم غرسومر ، ودخل سيمر في رمضان ٦٧٢ هـ اذار ١٢٧٥ . واباد الكثرين
من الارمن وغنم الغنائم الكبيرة ، لكن جيوشه لاقى مشقات كبيرة . وفي ٢٠ شوال عاد بجيشه
الى بلاد الشام حتى ادا وصل عمق حارم اعاد توزيع جميع المكاسب بين جنوده . ثم ذهب
الى دمشق فدخلها في ردى الحجة ٦٧٢ هـ / حزيران ١٢٧٥ ، فالى القاهرة فدخلها في
جمادى الآخرة سنة ٦٧٤ هـ : كانون الثاني ١٢٧٦ م (٢) .

ما هو سبب نفق الملح ؟ وما هو سبب الحملة ؟ يقول (G. Wiet) : ان الظاهر
كان يريد هذه الدولة ان تبقى فقيرة ضعيفة (٣) ولكنه يبدو لي ان مداخلات السلطان الظاهر
في بلاد الروم جرته الى مثل هذه الحملة . وقد كتب البيرواني للسلطان الظاهر يحرضه على غزو
سيمر عام ٦٧٢ هـ على ان ينجده لفتح بلاد الروم في العام التالي (٤) ويبدو لي ايضا ان
السلطان الظاهر اصبح بحاجة الى مواصلة الحروب . كانت لديه قوات عسكرية كبيرة ينبغي
عليه ان يجد لها متنفسا .

(١) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٩ ، المقريزي السلوك ، ص ٥٦٨ - ٥٧٠ ، ٦١٦ ، ابن الترات ج ٦

نسم ٢ ، ورقة ١ نو ٢٩ ، ٣٠٠

(٢) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، ج ٤ ، ص ٩ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن ابي الفضائل
ص ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ابن الغرات ، ج ٧ ، ص ٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦١٦ ، ٦١٨ .

(٣) (G. Wiet) ، ص ٤٢٤ .

(٤) ابن ابي الفضائل ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٨ .

٦ - بيبرس والاشكرى :

كان الظاهر والاشكرى ميخائيل باليولوفوس خصوما للفرنجة ، ثم ان الصداقة بين السلطان الظاهر والقيساق تحتم على الاشكرى ان يميل الى مصادقة الظاهر لينجو من هجمات القيساق .
ويزيد في ضرورة هذا ان مطامح التترو السلاجقة في بلاد الروم لا يمكن ان تتحقق الا على حساب الامبراطورية البيزنطية . من هنا يتوقع المرء ان يجد الاشكرى الى جانب الظاهر بوجه عام ولكن الواقع هو ان العلاقات بينهما لم تكن كذلك . فقد كان الاشكرى يناور بين المعاليك والتترو ليوهم كل طرف انه ليس خصمه .

وقد بدأ الظاهر بايفاد الرسل والهدايا الى الاشكرى لمصادقته . وفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ارسل اليه وفدين . وكان اولهما بطريك واساقفة كان الاشكرى قد طلبهم للنصارى الملكانيين في بيزنطيه . وعاد هذا الوفد في رجب . وثانيهما يحمل هدية فيها زرافة وتحف فريبة ورسالة قراها الاشكرى احدى عشرة مرة . وعاد هذا الوفد في شعبان . وارسل الظاهر ايضا الادوات والالات اللازمة لترميم جامع في بيزنطيه مبني في سنة ٥١ هـ (١) .

وفي رمضان سنة ٦٦١ هـ اخر الاشكرى رسل الظاهر بيبرس الى بركة . ولما علم الظاهر بذلك جمع الاساقفة وابزلهم نسخ يمين الاشكرى له على حمن الجوار ثم اطلعهم على تصرف الاشكرى ازاء وفده الى بركة . فاجمعوا على ان عقاب مثل هذا العمل هو الحيم . فارسل الظاهر لالاشكرى رسالة مع راهب يعلن فيها استعداد له لمساعدته المتفاهم مع بركة وقد كان هذا هاجمه سنة ٦٦٢ هـ وادى هذا الى مساعدة فارس الدين المسعودي للرحيل الى بركة (٢)
هنا يمكن ان نعتبر ان العلاقات الودية بين الطرفين قد انتهت . كان الاشكرى يسي طريق التفاهم مع هولاء ولذلك اخر وفد الظاهر الى بركة (٣)

(١) ابن عبد الظاهر ص ٥٠ ، المقرئ ، السلوك ص ٤٦٩ ، ٢ - ابن عبد الظاهر ص ٢٨ .

٥٠ و ٥٣ ، والمقرئ ، السلوك ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٥ ، المقرئ ، السلوك ، ص ٥١٤ ، و ٥٢٨ .

وفي سنة ٦٦٢ هـ ، وسع الخرق بين الطرفين ، اد ان الاشكرى اعتقل عز الدين كيكاموس
 اللاجي ، اليه بعد خلافه مع اخيه ركن الدين حول سلطته السلاجقة ، بتهمة التآمر مع امراء
 بيزنطيين لقلب الاشكرى من الحكم (١) . وعز الدين هذا صديق للظاهر ، واعقب الاشكرى
 هذا التدبير بان ارسل في رجب سنة ٦٦٣ هدية للظاهر كانه يحاول اصلاح الحال . واستمر
 في مناورته السياسية هذا بان ارسل هدية ايضا الى هولاء في نفس السنة . وادت المفاوضات
 مع التتر الى عقد تحالف بينهما والى تزويج ابنه بابنة الاشكرى لتوطيد هذا التفاهم ، مما جعل
 العلاقات مع الظاهر سيئة (٢) .

وبهذا التفاهم بين الاشكرى والبخانات فارس من جهة ، والتفاهم بين الظاهر وبركة من
 جهة ثانية اخذ القيشاق يهاجمون العسطنطينية ، دخلوها سنة ٦٦٨ هـ مما حمل الاشكرى
 ان يكون اشد حذرا في علاقاته الخارجية وفي سنة ٦٦٧ هـ اتصل بالظاهر ، ثم لم يعهد
 يتدخل في الحروب التي جرت بين الظاهر والتتر والسلاجقة والارمن . حتى انه في سنة ٦٧٠ هـ
 ارسل للظاهر وفدا وقابله السلطان بالمثل (٣) وتبادلا الرسائل سنة ٦٧٤ هـ ايضا (٤) .
 وهكذا نجد ان السلطان الظاهر قد استطاع ان يصد التتر بسياسة التي وضعها
 لنفسه ان نجح بشق الخصوم المغول وبمحالفة قسم منهم وبانشاء جبهة متناسكة بوجه عام
 مدعومة بقوات مملوكية كبيرة ، لقد كانت معاركه مع التتر تجري في بلاد الشام في المرحلة الاولى
 لكنه استطاع ان ينقل ميدان المعركة الى بلاد الروم الموالية للمغول . ولعل قدرته في هذه
 المعركة الطويلة تنجلي على احسن وجه حين نجح في الحؤول دون قيام تحالف بين القوات
 التترية والقوات الصليبية المحلية والاروبية . وبهذا مهد السبيل للسلطنة المملوكية بعده ان
 تقضي على ما تبقى من المراكز الصليبية في بلاد الشام وان تقف بوجه الزحف التتري التالية .

(١) ابو الفداء ، مج ٣ ، ص ٢٢٨ ، المافريزي السلوك ، ص ٥٢٦ ، - ٢ - المافريزي السلوك
 ص ٥١٤ ، ٥٢٧ .

(٢) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٣٦ ، المافريزي ، السلوك ، ص ٥٨٨ ، ٦٠٧ ، - ٤ -
 المافريزي ، السلوك ، ص ٦٢١ .

بعبور في علاقاته الخارجية ، قسم ثان

٧ - الصليبيون .

يمكن النظر الى علاقاته مع الصليبيين من زاويتين ، الزاوية الدينية المبدئية والزاوية السياسية العسكارية . ولكن السلطان الظاهر لم يميز بين الناحيتين . لم يكن عنده منان للصليبيين في بلاد الشام . لقد كان مسلما ينادى بحماية الاسلام والمسلمين من المعتدين ، وينصرة الاسلام والمسلمين على المعتدين .

وكان السلطان بعد هذا مولد دولة المماليك . وكان يرى في الصليبيين خصوما سياسيين لهذه الدولة الناشئة . فمعركته اذا معهم معركة لثابتة . ولم يكن يهمه في ذلك انه قضى عليهم بقوة عسكرية وسياسية فعالة بعد معركة المنصورة . ولم يكن ينسى ان الصليبيين عميون للمغول على الجيوش المغولية . ونسي ان لوي التاسع اتصل بعز الدين ايبك التركماني سنة ١٢٥٢ لتحالف معه على الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وحلب ، وكان بحسب ذلك تدخلا منه في شؤون المنطقة . ونسي ان الفرنجة في جنوب بلاد الشام اهدوا قلز في حربه مع التتر وعرضوا عليه المساعدة العسكرية . ونسي ان بعض الصليبيين حاربوا التتر وان النهضة حرمت بوهند لتحالفه مع التتر . (١)

(١) المقرئ ، السلوك ، ص ٢٨٢ ، R.Grousset ، ج ٢ ، ص ٥٠١ ، ٥٢٦ E.Blochot
النهج السديد ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، جوزف نسيم يوسف ، ص ١٢٨ .

لقد كان الظاهر يستهدف في حروبه مع الصليبيين شيئا واحدا هو ان يببدهم ابادة تامة فير مفرق بين الناحية السياسية والناحية الدينية وفي هذه الناحية اختلفت سياسة الظاهر عن سياسة صلاح الدين الايوبي . وقد كان هذا يعني القضاء على الصليبيين كقوة سياسية عسكرية محتلة لكنه لم يكن يرى بأسا من التعامل معهم كافراد او كمستوطنين .

ولم يكن السلطان الظاهر يستطيع القضاء عليهم جميعا مرة واحدة . فكان لابد من ضرب مراكزهم واحدا بعد واحد . وكان لابد له ايضا في هذه المعركة من ان يمنع عنهم الامدادات من اية ناحية . لذلك ينبغي ان نذكر هنا ان تحالفه مع القباقي حال دون معونة ابلخانات فارس والدول الصليبية ، بصورة جدية منتظمة ، ولذلك ايضا انشاء محالفات مع بعض دول اوربا كصقلية ورافونه وجنوى واستطاع بذلك عزل الفرنجة في بلاد الشام .

لما تسلم الظاهر ببيبرس السلطنة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ كان الصليبيون يسيطرون على الشريط الساحلي من بلاد الشام . وبعد صراع دام اسنر سبعة عشر عاما ضاق هـدا الشريط وقصر بحيث لم يبق للصليبيين عند وفاة الظاهر الا بعض ما بين عكا وطرابلس .

مرت علاقات الظاهر بالدول الصليبية في ثلاث مراحل . ففي السنوات الاولى من سلطنته حتى نهاية سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٢ كان يعاهد الدول الصليبية على الصلح ليتسنى له القيام باستعداداته العسكرية والسياسية ، في الداخل والخارج ، ليعود لمحاربة الدول الصليبية بعد ذلك . ثم كانت المرحلة الثانية وفيها احتل موقعين هامين هما فيساريسـة وصفد ، ثم كانت المرحلة الثالثة وفيها حطم التحالف بين التتروالدول الأوروبية عن طريق البابا مواحتل مواقع صليبية هامة كانتاكية وحصن الاكراد ، وانحرفت الحملة الصليبية الاخيرة الى تونس . وقد احلانا مع بعض الدول الأوروبية . فاستكان الصليبيون في بلاد الشام بعد ذلك الى الهدوء والحياد .

وبرزت الناحية الاقتصادية في هذه الحروب بشكل واضح . اذ عمد بعض الصليبيين

الى محاربة الممالك اقتصاديا . وفي سنة ٦٥٨ هـ زوروا الدراهم في يافا جاعلين نسبة الفضة فيها الى النحاس بنسبة ١٥ الى ٨٩ بالمئة مما احدث الرعب بين الناصر . ولما اخرجوا هذه النقود للمتخلف منها بشراء البضائع تزايدت الاسعار وافتقر قوم واستغنى اخرون (١) . ثم حاولت بعض الدول

الصليبية منع التعامل التجاري مع المماليك بالاختشاب والحديد لانها مفيدة فسي
الصناعات العسكرية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية قامت علاقات السلطان الظاهر مع جنوى على
التبادل التجاري . وكانت التجارة الهدف الاول من تبادل السفارات السياسية مع صقلية .
حتى اراغون فقد رات نفسها ، بعد فشل المعونة العسكرية لها ، مضطرة لعقد تحالف
تجاري مع المماليك . ثم ان بيروت لعبت دورا كبيرا في المبادلات التجارية عبر البحر
المتوسط . فقد وجه السلطان الظاهر الى بيروت اهتماما خاصا .

والى جانب الحملات العسكرية العنيفة فقد كانت في هذا الصراع ، في مرحلتيه ، حملات
صغيرة استكشافية استهدفت منها الطرفان التخريب والالهاء .

اما ميدان هذا الصراع فكان يلاذ الشام بصورة رئيسية ولكنه امتد في مرحلتيه
الثانية الى تونس واسبانيا الصغرى . وقد ظن الصليبيون ان مهاجمة تونس تمهد السبيل
لاحتلال مصر ، وقد اعلن السلطان الظاهر عزمه على مساعدة تونس لصد الصليبيين في محرم
سنة ٦٦٩ هـ ، كما ان حملاته على ارمينيا كانت ذات علاقة بالحروب الصليبية ايضا .

ونلاحظ ان السلطان الظاهر قد قاد الدفة في هذا المعادين بحنكة ومهارة . وما
ان كانت سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢١ حتى كان الصليبيون في بلاد الشام قد اصبحوا خاضعين له
او محايدين في حروبه مع التتار والارمن والسلاجقة . لقد كالت الضربات القاضية للصليبيين
في بلاد الشام بحيث انه استطاع ، بعد سنة ٦٢٠ هـ ان ينقل ميدان الصراع مع التتار الى
اسبانيا الصغرى . ومع انه لم يحتل مكسا وطرابلس فانه كان قد اضعفها حتى ان احتلالهما
لم يتاخر بعده فبض سنوات معدودة .

وهناك نتيجة هامة أخرى لحروب الظاهر مع الصليبيين . لقد مهد السلطان الظاهر السبيل امام سياسة انعزال وانسغلاق . الا يمكن القول ان انقطاع هذه المنطقة عن أوروبا يعود الى حد كبير ، الى مثل هذه السياسة التي انتهجها السلطان الظاهر ؟ احسب ان السلطان الظاهر حين كان يعمل لابطاد الصليبيين في هذه المنطقة ، كان يعمل ايضا ، ولوعن غير ادراك ووعي ، لعزل هذه المنطقة . ولنذكر هنا ان الحملات الأوروبية للاستكشافات الجغرافية بدأت في هذا القرن .

المرحلة الاولى

كانت يد السلطان مغلولتين في الصنتين الاوليين من حلقه بالسورات الداخلية . وان الفرنجة يرسلون اليه والى نوابه شتى الشكاوى من غبن لحق بهم من استمرار الهدنة التي جرت بينهم وبين السلطان قنر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ويطلبون منه زرعين ، وبها جمون بعض القرن وبأسرون سكانها ويستولون على ماشيتها . ولما انتظمت الامور للسلطان الظاهر في دمشق وحلب واعتقل المغيث ، تفرغ الظاهر للفرنجة وجاء الغور في جمادى الاولى سنة ٦٦٢ هـ . وكانوا قد تذكروا من شروط الهدنة وطلبوا زرعين بحجة ان السلطان اميك كان قد وعدهم بها (١) . ولم يأت الفرنجة لاستقباله فارسل قوات هاجمت عذليت وقيسارية واستردت ما كان الفرنجة سلبوه منها وانلفت قواته زرعاً كان للفرنج (٢) . وهنا جاء نواب المراكز الصليبية في جنوب بلاد الشام للاجتماع به والتسليم عليه واتوا معهم بهدايا . ثم زعموا انهم لم يعرفوا بقدومه فرد عليهم ان جهل قدوم جيش كبير مثل جيشه يثبت عليهم التقصير والغفلة ، ثم عاد وقبل الهدايا منهم واصدر تعليماته لقواته ان لا يتركوا في زرع للفرنجة وان لا يتعرضوا لما شئتهم (٣) ثم طلب السلطان منهم ان يعرضوا عليه قضاياهم .

(١) ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٦ S. Runciman ج ٣ ، ص ٣١٧ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٥ - ٤٦ ، ٦٨ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٦٤ ، ٤٨٠ - ٤٨٤ ، ص ٥١٣ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٧ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٨٣ .

قال (١) السلطان ، ما تقولون ؟

قالوا ، نتمسك بالهدنة التي بيننا .

قال لهم لا كان هذا الكلام قبل حضورنا الى هذا المكان ، واتفاق الاموال التي

لوجرت لكنت بحارا ؟ ونحن لما حضرنا الى ها هنا (٢) ما آدينا لكم زرع ولا ميرة ، ولا نهـب

لكم مال ولا ماشية ، ولا اسرلكم اسيرا (٣) .

ثم راح السلطان يعدد مبالغات الفرنج المهدنة فقال : انتم منعتم الجلب والميرة
من العسكر . لو حرمتم خروج شي من الغلات والافنام وغير ذلك ، ومن انفرد من فلان العسكر
اسرتموه ؟ وسيرتم الينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين من عندنا لم تحلفوا
عليها ، وعلمتم انتم نسخة حلفتكم عليها وشرط اليمين الاولى تتعلق بالثانية . وسيرنا الاسارى
الى نابلس ومنها الى دمشق ، وما سيرتم انتم احدا ، وكل بيت يحيل على الآخر (وما سيرنا
الاسارى الا وفاء بالعهد واقامة الحجة عليهم) . وسيرنا كمال الدين بن شيت رسولا يعلمكم
بوصول الاسرى ، فلم تبعثوا احدا ، ولم ترحموا اهل ملتكم الاسرى وقد وصلوا الى ابواب بيوتكم
كل ذلك حتى لا تبطل اشغالكم من اسرى المسلمين عندكم . واموال التجار شرطتم القيام بمسا
اخذتموه منها ، ثم قلتم ما اخذت من بلادنا وانما اخذت في انطرسوس وحمل المال الى خزانة
بيت الديوية والاسرى في بيت الديوية ، فان كانت انطرسوس ماهي لكم فالله يحقق ذلك . ثم انا
سيرنا رسلا الى بلاد السلاجقة الروم وكتبنا اليكم بتسفيرهم في البحر ، فاشرتم عليهم بالسفـر
الى قبرص . (فاسافروا بكتابكم وامانكم) * فاخذوا ونيدوا وضيق عليهم ، واتلف احد هم على ما ذكر .

(١) النهى في ابن عبد الظاهر وابن الفرات والمقريزى واحد الا في بعض عبارات ليست نفسي

ابن عبد الظاهر ولا ابن الفرات وضعتها بين معكوفين .

(٢) ماقظة . لما حضرنا الى ها هنا ، من ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٧ و .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٨ ، المقريزى ، السلوك ، ص ٤٨٤ .

هذا مع احساننا الى رسلكم (وتجاركم ، والوفاء احد اركان الملك) . وجرت عادة الرسل انها لا تؤذى ، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردد ، (لوما القدرة على الرسول بشي . يسكن فيظنا) فان كان هذا بخير رضاكم فانه نفس في حرمتم ، واذا كان صاحب جزيرة قبرص من اهل ملتكم يخرق حرمتم (ولا يفي بعهدهم ولا يحفظ دمامكم ولا يقبل شفاعتكم ، فاي حرمة تبقى لكم واي دمام يوثق به منكم واي شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية ؟) ، وهل كانت الملوك الماضية تقي النفوس والرجال والاموال الا بحفظ الحرمة ؟ (١) (وما صاحب جزيرة قبرص ملككم ولا صاحب حصن منيع ، ولا قائد جيش كبير ولا هو خارج عنكم . بل) اكثر تعلقاته في عكا والساحل ، وله عندكم المراكب والتجار والاموال والرسل ، وليس هو منفرد بنفسه ، وعنده الديورية وجميع البيوت والنواب مقيمون عنده . وعنده كنديافا وغيره . فلو كنتم لا تؤثرون ذلكم كنتم فتم جميعكم عليه واحتظتم على كل ما يتعلق به واصحابه واسترحتم من هذه الغضبة ، وكتبتم الى ملوك الفرنجية والى البابا فعله . (واذا قلتم صاحب قبرص لا يسمع منكم ولا يطيعكم ، فادالم يسمع منكم صاحب قبرص . وهو من اهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة الا الامر والنهي ؟ ولا سيما وانتم تقولون ان اموركم دينية ، ومن ردها عصي المعبود ، ويغضب عليه المسيح فكيف لا يعص المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرص ، وهو فدر امركم واغوى بكم وبيع فولكم وكنا لو اشتهينا اخذنا حقنا منه ، وانما الحق عندكم نحن نطلب منكم وانتم تطلبون منه) . وانتم في ايام الملك الصالح اسماعيل (٢) اخذتم صعد والشفيف ، على انكم تجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين ايوب . وخرجتم جميعكم في خدمته ونجدتموه وجرى ماجرى من خذ لانه وقتلكم واسركم واسر ملوككم واسر مقدمكم ، وكل احد يتحقق ماجرى عليكم

(١) في ابن عبد الظاهر (ص ٦٩) ، وهل كانت الملوك تقي النفوس والاموال الا لحفظ الحرمة ؟

(٢) هم الملك الصالح نجم الدين ايوب ، وصاحب دمشق لفترة .

من ذهاب الارواح والاموال . وقد انتفضت تلك الدولة ولم يؤخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد واحسن اليكم فقابلتم ذلك بان رحتم الى الريد افرسر ، وساعدتموه وانتم صحبته الى مصر ، حتى جرى ما جرى من القتل والاسر . فاي امره وفيتهم فيها لمملكة مصر ام اى حركة الطحن فيها ؟ . وبالجمله فانتم اخذتم هذه البلاد من الملك اسماعيل لاعانة مملكة الشام ، وطاعة ملكها ونصرته (والخروج في خدمته وانفاق الاموال في نجده . وقد صارت بحمد الله مملكة الشام وفيها لي وما انا محتاج الى نصرتم ولا الى نجدتم ، (ولم يبق لي عدو اخافه) فردوا ما اخذتموه من البلاد وفكروا اسرى المسلمين جميعهم ، فانسي لا اقبل غير ذلك " (١) .

واجاب مقدم الاسبغارية ، صاحب ارسوف ، متدبرا من شدة شروط الهدنة . فقال له السلطان انه نقض العهد ان بدأ ببناء ريش . فرد صاحب ارسوف ان السغاية من بناء الريش هي حماية الصعاليك ثم اضاف الى ذلك ان امورا " قد بلعنا سوف تسمعونها : ورفض السلطان حجته وقال ان البلاد لا تحفظ بالخنادق وانما بحسن الجوار وبذل الاحسان وكف الاذى والسيف والعزم . اما بخصوص ما فناه من قدوم التتر فعبيره ، بسان الفرنجة يختبئون وراء الاسوار بينما يخرج المماليك لملاقاتهم (٢) .

وامام هذا الكلام بهت الفرنجة وقالوا :

— نحن لاننقض الهدنة ، وانما نطلب مراحم السلطان في استصحابها واستدامتها (٣) ونحن نزيل شكوى النواب (ونخرج من جميع الدعاوى) ونفك الاسرى (ونستأنف الخدمة) فرد السلطان : كان هذا قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء ووصول المعسكر الى هنسنا .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٨ ، ٧٠ ، ابن الفرات ، ج ٦ ص ١٧٠-١٨٠ ق . المقرئى ، السلوك ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٦٨ ، (٣) استصحابها و ، في ابن عبد الظاهر ، ص ٧٠ ، وابن الفرات ، ج ٦ ص ١٨ و .

فرد السلطان : كان هذا قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء ووصول العساكر

الى هنا .

وهكذا نجد السلطان الظاهر ينطلق في معاملة الفرنجة من اساسين هما ،عداوتهم

لمصر اولاً ونكثهم بوعودهم ثانياً . انه لا يجتمع بهم للمفاوضة هذه المرة ،ولكن ليسرد لهم تاريخ علاقاتهم بمصر وبلاد الشام في الامر القريب ، وليؤكد لهم ان معايشتهم مستحيلة وان استرجاع ما استولوا عليه من بلاد الشام امر لا بد منه .

القضية عنده سياسية قبل كل شيء . صحيح ان الموجة الاولى من التتر كانت

قد تقلصت ، ولكن الخطر لا يزال ماثلاً لذلك لم يرد القلاع الصليبية مراكز مؤامرات وتجسس .

وهو ينفي ان تكون القضية دينية بقوله ان الدين يقضي عليهم بالوفاء بالعهود .

واخيراً فان الظاهر حريص على الهدوء والسلامة لان ذلك ضروري للتجارة .

وانتهى المؤتمر او بالاحرى انتهى بيان الظاهر (١) ثم اصدر امره باخراج المندوبين

من الوطاق ولم يسمح لهم بالمبيت فيه (٢) .

ثم اراد ان يؤكد للفرنجة انه اقوى منهم وانه يستطيع التغلب عليهم والثأر منهم

فراح يرسل حملات صغيرة ثأرية تخريبية على مراكزهم . فارسل الامير علاء الدين طيبر من

لتخريب كنيسة الناصرة ، ثم ارسل جيشاً آخر ليقحم ابواب عكا وسار بنفسه على مراعي

الجيوش الفرنجية واستولى على الكثير من ماشيتهم وعاد به الى دهليزه (٣) .

وقبل مغادرة الطور ضرب على ايدي العابثين المفسدين بيد من حديد اذ الزم

الفلاحين في بلاد الساحل ان يحملوا الى بيت المال " جنایات " عما اخذوه من قتلى لاوارث

لهم او اسلاب جهل مالکها . وذلك لانهم كانوا يحملون اخباره الى الفرنجة (٤) .

(١) يقول S. Runciman (مجلد ٣ ، ص ٣١٧) ان المفاوضات انقطعت بسبب

رفض اعادة الاسرى المسلمين . (٢) ابن عبد الظاهر ص ٧٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٨٧ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، ص ٧٠ ، لهو الغدا ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ١٨ ، المقريزي

السلوك ، ص ٤٨٧ S. Runciman ، ج ٣ ، ص ٣١٧ (٤) ابن عبد الظاهر ص ٧ المقريزي السلوك ص

المرحلة الثانية :

وفي سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ بدأت المرحلة الثانية من صراع السلطان الظاهر مع

الصليبيين . فقام بحملة عنيفة احتل فيها قيسارية وقلث وارسوف ومغد .

في رمضان سنة ٦٦١ هـ هاجم الظاهر قيسارية ونهب بلادها واسر بعض سكانها

وقتل بعضها اخر واجبر مندوبها ان يحملوا الفرنجة على رد ما كانوا قد استولوا عليه من الاسرى

والمواشي في قارة سابقية (١) .

وفي محرم سنة ٦٦٣ هـ حين كان الظاهر وبعض امراؤه في رحلة صيد في اوسيم بلغه

الخبر بنزول التتر على البيرة ، فارسل جيشا لصد هم ثم تبعه بجيش في ربيع الاخر ومرت في

قزة في ٢٠ منه ثم في يبنسى في ٢٦ منه ثم ساق للعوجاء حيث اقام بضعة ايام . ولما كان

بعض امرائه يذهبون الى الصيد في طبة ارسوف حيث تكثر السباع ، ليخدع الفرنجة ، ساق السى

ارسوف وقيسارية في حملة استطلاعية ثم استدعى الجيش والأت الحصار من دمشق وامر جنده

بصنع عدة منجنيقات وسلالم حتى اذا تمت استعداداته هاجم قيسارية في ٨ جمادى الاولى

على حين غفلة وحاصر بها بجند مستعملا المجانيق والدبابات ورمى النشاب وارسل

بعض جيشه في تجاريد للغارة على بيسان وكما المحوول دون نجات لقيسارية .

وكان السلطان يشترك بنفسه في الهجوم فهو حينما يربط في اعلى كنيسة تجاه

القلعة وحينما اخبر عثلي دبابه ذات عجل ويسير الى السور ليرى القوب ، ثم ليقا تل حينما

ثالثا . وفي منتصف جمادى الاولى ، اذار ١٢٦٥ ، استسلمت القلعة ودخلها السلطان

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٢ و ١٠٤ .

وفي منتصف جمادى الاولى / اذار ١٢٦٥ ، استسلمت القلعة ودخلها السلطان وامراءه وجيشه (١) وفي سنة ٦٦٩هـ / عندما علم بقدوم حملة لويصر التاسع الى تونس جاءها هـا الظاهر وهدم اسوارها (٢) .

كان الظاهر هاجمها في رمضان ٦٦١هـ . وفي ١٦ جمادى الاولى . بعد احتلال قيسارسة ارسل ثرتين من جيشه لمهاجمة حيفا . وارسل فرقة اخرى لدك الملوحة . ثم هجم بنفسه على عثليث (٣) وخرسها في يوم واحد وعاد (٤) .

وبعد العودة من عثليث رأى الظاهر ان يهاجم ارسوف (٥) وفي مستهل جمادى الآخرة نزل عليها وجمع حولها الاحطاب تلالا ليجعل منها ستائر وحفر سربين من خندق القلعة الى خندق المدينة ، لكن الفرنجة احرقوا الاحطاب ولاقت القوات المهاجمة المشقة حتى ان الظاهر كان بنفسه يجر المجانيق ويرمي بالاسهم ، ويضرب بالقطاعة ويداء مجرحتان ثم حشد الفقهاء والمتعبدين والنساء الصالحات لسقي الماء في المعركة ، واطلق الرواتب للجميع حتى لا يكون لاحد شغل في غير الحرب . ثم تداعى احد الابراج وتسلمت القوات المملوكية الاسوار ورفعت الاعلام ثم منحت الامان للفرنج فاستسلمت القلعة في رجب ٦٦٣ / نيسان ١٢٦٥ . ولم يتعرض لها في القلعة من غلال وذخائر وانما سرح الاسرى المسلمين وهدم السور (٦) ، وصارت ارسوف فيما بعد موعى خصبا ينزلها الظاهر في طريقه الى بلاد الشام (٧) .

(١) ابو شامة ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٢ — ابن ابي الفضائل ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، ص ٦٧ و — ٦٨ و . المقریزی ، السلوك ص ٥٢٤ — ٥٢٨ . (٢) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧٤ — ٧٥ . (٣) تقع للجنوب من الكرمل وقد اسسها الداوية سنة ١٢١٨ . R. Grousset ج ٣ ، ص ٦٢٤ . (٤) المقریزی ، السلوك ص ٥٢٧ — ٥٢٨ . (٥) مينا صغير للشمال من حيفا . سماها الصليبيون Azotus احتلها صلاح الدين منهم سنة ١١٨٧ / ٥٨٣ ثم استعادوها ١١٩٢ / ٥٨٨ . (٦) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣١٨ — (٧) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، ابن ابي الفضائل ، ص ١٣٣ .

ثم عاد الى فيسارية وامر بكتابة البشائر الى القاهرة والى النواب فتزيت القاهرة
 لذلك (١) . ثم اخذ يعد الترتيبات الادارية اللازمة بعد الفتح . فتحقق من الارض الصالحة
 للزراعة في فيسارية وارسوف وطلب قاضي دمشق وعدولها ووكيل بيت المال وبعض الفقهاء
 والائمة وامر بتوزيع البلاد على الامراء المجاهدين الذين فتحوها . ثم كتبت التواقيع بذلك
 وامضيت من السلطان والوزير والخزندار وصاحب ديوان الجيوش ومستوفي الصحبة ثم وزعت
 على مستحقيها . ثم كتب كتاب تطبيق شرعي جامع وزعت نسخة على الجميع وكان فيه حمد الله
 وشكره على النصر الذي احرزته جيوش الحماليك على التتر والفرنجة ، وفخر بهذه القوات
 العظيمة " البانية الهامة والفاسدة الراحمة " واشادة بالسلطان ومآثيه " حتى خرج
 الامر العالي ان يملك امراءه وخواصه الدين يذكرون ما يعين من البلاد والضياع
 ليبقى ذلك فيهم " للولد وولد الولد (٢) .

وبعد استكمال الهدم ، والتطبيق فادر ارسوف الثلاثة ١٢ رجب ٦٦٣ هـ الى عسره
 ثم رحل الى مصر فخرج ابنه الملك السعيد والاتاك عز الدين الحلبي نائب السلطنة للقائه
 فاجتمعوا به عند بركة الحجاج ويوم الخميس ١١ شعبان دخل القاهرة والاسرى بين يديه ،
 وشفاها حتى خرج من لها زويلة ، ثم صعد الى قلعة الجبل وبعد ان استراح ، استعرض مع
 الامير عز الدين الحلبي والصاحب بها الدين بن حنا ما حصله في الخزائن ثم خلع على
 جميع رجاله فلم يترك اميرا او موظفا او مقدما او مفرديا ما واحدا من خواصه وسائر حاشيته
 ثم احسن الى رسل بركة وكتب الى اليمن والقسطنطينية بالخبر ووزع الصدقات على الفقراء (٣) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٢٢ .
 (٢) ابن ابي الفضائل ، ص ١٣٧ - ١٤٤ . اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣١٨ . المقرئى ، السلوك ،
 ص ٥٢٧ ، ٥٢٠ - ٥٢٢ .
 (٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٧١ . المقرئى ، السلوك ، ص ٥٢٤ - ٥٣٥ .

في ٢ رجب سنة ٦٦٤/١٢٦٦ بينما كانت جيوش اباغا في حرب مع جيوش القيساري التي غزت فارس، اصدر الساهر تعليماته لولاثة ليحضروا الاناد للفزوة، فملكوا في تلبية اوامره فارسل سلا حذاريته الى سائر اعمار مصر وعلقوا الولاة المتأذين في ايديهم ثلاثة ايام (١). ثم عين عز الدين ايدمر الحلي نائبا عنه في القاهرة والداحب بهاء الدين وزيراً في حدة ابنه السميد، ثم خرج في اول شعبان فاجدا بلاد الشام. غادر القاهرة ونزل في بركة النجب حيث وزع تعليماته للفزوة التي كان قد هيأها على صفد (٢). وهنا عين الامير ايدغر العزيزي والامير سيف الدين قنوقس مؤدبين على الجنود ومعهما امراء آخرون. وفي ٣ شعبان سارت الحيوث الثلاثة. فسار السلطان بضمه الى غزه فالحليل فالقدس وابد جيشه الاخرين في مهاجمة عكا ثم تركهم ياتعونان هجماتهما وبقي عند عين جالوت ينتدرون عودتهما. اما الجيشان الآخران فزحفا على الساحل يصبان فسادا ونهباً في منطفة عكا وصور وسيدا وعمره وطرابلس وحلبا والقنيمات وحصن الكراد وعسليفت وارسو- وجبن عاملة والقريين. ثم عاد الجيشان في نهاية شعبان بغنائم لا تحصى (٣).

كانت الغاية من هذه الحملة الداعية لترويع الصليبيين ونزع الذعر والفوضى في قلوبهم لشل حركتهم فاسابت نجاحا اكيدا في ذلك حتى ان اهل عكا اخذوا يتسددون في عدد قليل. لكن الفاتر بدا بمحاصرة صفد في ٨ رمان / تموز ١٢٦٦. واتى بالهانيو من دسوق على الجمال وعلى اكتاف الامراء والامناد واسهم بذاته بجر الاخشاب لا يتعب ولا يمل حتى نسيب المجانيو ورميت القلعة بها في ٢٦ رمان. لكن الجيوش الفرنجية صمدت للحصار حتى

- (١) الميرزى السلوك ص ٥٤٥. — ٢ — هي Saphet عند الفرنجة، كانت عينا لداوية وفي منطفتها حوالي عشرة الاف فرج في نحوستين قرية R. Grousset ص ٢، س ١٢٦. Templars
- (٢) الميرزى السلوك ص ٥٤٥، وابن تغربر برد، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٨.
- (٣) اليونيني، ج ٢، ص ٢٢٧، والميرزى السلوك ص ٥٤٥. ابن تغربر برد، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٨، وفي هذه الرسالة منع النصارى من دخول الى ليل (الميرزى السلوك ص ٥٤٥). اما القرن فلعلها القرين احدي قرى دمشق.

اقترح بعض امراء الظاهر ان يتراجعوا لاسيما وقد اعار اهل مكار على الشقيف . وهنا اضطر
السلطان ان يعد الحجارين العشرة الاول بمكافآت مالية واعتقل الدين اشاروا بالمصالحة
ودام القتال حتى ١٤ شوال ومع ذلك فان الفرنجة لم يستسلموا بل ان امراء الظاهر اخذوا
يشعرون بالتعب ويذهبون الى صوابينهم للاستراحة . فذهب السلطان اليهم وضرب
بعضهم بالدبابيس وسجن البعض الآخر . ثم عمد الظاهر الى حيلة لشق المدافعين
من صند بان منح الامان لسكانها الاصليين من المسيحيين دون الفرنجة فند ذلك ضعف
شان المدافعين من القلعة ففاوضوه على الامان والصلح .

وكان شرط الصلح ان لا يحمل المستسلمون سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الغضيات وان
لا يتلقوا شيوا من ذخائر القلعة ، وان يخضعوا للتفتيش عند الخروج ، حتى اذا وجد مع
اى منهم شيء من ذلك انتفض العهد . فقبل المدافعون بذلك واجلس السلطان الامير
سيف الدين كرمون التتري مكانه في دست السلطنة لشبهه به وانسم لرمل صند يمين الامان (١) .
وفي ١٨ شوال / ٢٩ تموز ركب السلطان الظاهر الى باب صغفواخذ الفرنجة يمرن والجنود
الماليك يفتشون فوجدوا معهم اسلحة وفضيات واسرى مسلمين فوضع رجال الحامية في خيمة
تحت الحراسة وعددهم نحو الف فارص ثم ضربت رقابهم جميعا الا اثنين اسلم احدهما
واميدا اخر للفرنج ليخبر بما شاهد .

ثم دخل الظاهر المدينة والقلعة فولي الامير مجد الدين الطوري ولاية القلعة
والامير عز الدين العلاني نيابة المدينة والامير علاء الدين الكبكي مقدما للجيش ، ثم
جمع امراءه وجنده في اليوم التالي وشكرهم على ما بذلوه من جهود واعتذر اليهم عما بدر منه
من قسوة نحوهم مبررا ذلك برغبته في حثهم على الهجوم ووعده بعدم اللجوء الى ذلعة اخرى .

(١) وفي راي ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ١ ، ص ١٠٤ ، و ، ان الامان لم يكن حفيقة .

وبقي السلطان في صفد الى آخر شوال وامر بعماريتها ونقل الذخائر اليها وكان يقوم بذلك بذاته فتشبه البقية به . ونقلوا الزرد خاناه الى القلعة في ساعة واحدة . ثم اقطع امراءه البلاد وامر بينا جامع في القلعة وآخر في الريض . وقرر لحاميه القلعة نفقة شهرية قيمتها ٨٠ ألف درهم نقرة ووزع الاسلاب والغنائم على امرائه . ثم اخذ يدعو الناس من دمشق للسكن في صفد (١) ولعل اهتمامه بصفد راجع الى انه سيجعلها قاعدة للهجوم على الفرنجة في الساحل .

وبينما هو منهمك في هذه الترتيبات جاء رسل عكا يطلبون منه ان يسمح لهم بنقل اجساد الشهداء . فقرر الثأر من اهل عكا . واحتفظ بالرسل عنده . وفي صبيحة اليوم التالي هاجم اهل عكا وهم خارجون من المدينة لقضا حوائجهم . ثم عاد الى الرسل وقال لهم انه اوقع في عكا شهداء وكفى اهلها مؤونة نقل شهداء صفد .

ثم قصد دمشق ونزل قلعتها فاستقبلته المدينة باحسن زينة (٢) .
ثم امر بالزحف على سيس .

اما اسباب نقمة الظاهر على صفد فقد نتبين بعضها في ما ذكره ابن العجي في رسالته لابن حطكان واصفا المعركة اذ قال : . . . صفد التي باء باثمها حاملها على النصرانية وسلطها بالنكاية على البلاد الاسلامية . . . كم استبج بسببها للاسلام من حصي وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الاحرار ومسلما ، وكم تسرب منها جيش الفرنج الى بلاد المسلمين فحازوا مغنما وقوضوا معلما (٣) .

(١) ابو شامة، ص ٢٤٠ . اليونيني، ج ٢، ص ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٦١ . وهو يجعل الفتح سنة ٦٦٣ هـ وفيه (٣٣٨ - ٣٤٢) نعر لرسالة كمال الدين احمد بن العجي لابن خلكان يصف فيها معركة صفد وصفا مبالغا فيه ، يبرز فيه شجاعة الفاتحين المسلمين ويندد بهزيمة النصارى المدافعين . ابن ابي الفضائل، ص ١٤٨ - ١٥١ ابن الفرات، ج ٢، قسم ٢، ورقة ١١ - ١٢، المقرئ، السلوك، ص ٥٤٥ - ٥٤٨، ٥٥٩ . ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٨، ١٢٩، R. Grousset ج ٣، ص ٦٢٦، ٦٢٧ . S. Runciman ج ٣، ص ٢٢١ - ٢٢٢ . وهو يتساءل ماذا كان المفاوض من قبل حامية صفد قد خان الحامية . (٢) ابن ابي الفضائل، ص ١٤٨ - ١٥١، المقرئ، السلوك، ص ٥٥٩ .
(٣) ابو شامة ص ٢٤٠ . اليونيني ج ٢ ص ٣٤٠ .

وهنا نتساءل ما اذا كان يصح ان نعتبر فعلة الظاهر باهل صفد قدرا بالامان . ومرة اخرى اتول انه ينبغي الا ننظر للقضايا السياسية بمنظار اخلاقي شخصي . ان مهاجمة الظاهر لصفد تتماشى مع خطته في القضاء على مراكز الصليبيين العسكرية ، لاسيما ما كان منها يشكل خطرا على سلطانه . كادت صفد تقهره فلا يجوز ان يبقى على اهلها وحاميتها باى ثمن كان وباية وسيلة كانت . ان نية القضاء على صفد كقوة عسكرية واضحة عند الظاهر منذ ان هاجم القلعة ، وان نية الغدر بسكان صفد الفرنج واضحة ايضا منذ ان كلف شبيهه الامير كرمون التتري باعطاء اليمين خداما للمستأنفين ولكن ينبغي لنا ان لانسى ان الظاهر اعطى امانين لاهل صفد - اولهما لنصاراها من السكان الاصليين وثانيهما للفرنجة وقد حثث بالثاني اما الاول فلم يعد له (١) .

وصارت صفد مركزا لمطباتا للحربية القادمة . وقل ان جاء بلاد الشام دون ان يعرج عليها . ففي جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ هـ جاء بلاد الشام ومربصفد وامر بعمارتهما . وفي رجب سنة ٦٦٥ هـ واتى معه بالبنائين والتجارين واقام فيها مدة طويلة حتى جدد ما تخرب منها اثناء مطبات الغتق وبنى ابراجا جديدة ايضا وجعل المسؤول المباشر عن عمارتها سيف الدين الزيني ، واوجب على الامراء المساعدة في بنائها واسهم بذلك بنفسه وحفر حولها خندقا وعمل له ابوابا سرية . ثم كتب عليها العبارة التاليسمة :

” ولقد كتبنا في الزبور من . . . بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون (الاية) . امر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحسينها وتكلمة ” وتكلم ” عمارتها وتحسينها من بعد ما ” خلصها من ايدي ” اسره ” الفرنج الملاعين ورداها

(١) ويبدو لي ان استعمال المفريزى كلمتي النصارى والفرنجة ذو مغزى في هذا السبيل . راجع ابن الفرات ج ٦ ، قسم اول ، ص ١٠٤ و ١٠٥ ، ص ١٨٤ املاء .

الى ايدى المسلمين ونقلها من مسكن اخوة الداوية الى مسكن اخوة المؤمنين " حوزة الداوية الى حوزة " فاعادها للايمان كما يداها اول مرة وجعلها الكفار " للكفار " خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوّض عن الكنائس بالجوامع والبيح بالمساجد وبدل الكفر بالايمان والناقوس بالاذان والانجيل ووقف بنفسه التي هي امر النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه ومن خواصه على الرؤوس ، سلطان الاسلام والمسلمين . . . سيد التتار ، فاتح الفلاع والحصون والامصار وارث الملك سلطان العرب والعجم والتتارك اسكندر الزمان صاحب القرآن ابو الفتح بيبيرم قسم امير المؤمنين (١) .

وفي ذي القعدة من سنة ٦٦٤ هـ استولى الظاهر على هونين وتبينين والرملة فجمع — هذه الاخيرة عملا ولي عليه واليا من قبله (٢) .

وفي محرم سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م هاجم الفرنجة طبرجة لكنهم قلبوا على امرهم (٣)

(١) اليونيني ج ٢ ، ص ٢٦١ . المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٨ ، ٥٦٣ . وقد نقلت النص عن سرور (ص ٨٣) وهذا بدوره نقلها عن مخطوطة النويري (ج ٢٨ قسم اول ص ١٣٦) وهي موجودة في السلوك (ص ٥٦٣) لكنها تختلف ببعض الكلمات وقد اشرت اليها بخط تحتها للدلالة انها ليست في نص النويري، واهتدت الى كلمات السلوك حين تختلف بمعكوفين مغيرين . وبعد كلمة سلطان يجعلها المقريزي (ص ٥٦٣) : " السلطان الملك الظاهر ابو الفتح بيبيرم . فمن صارت اليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ومن سكنها من المجاهدين فليجعل له نصيبا من اجره ولا يخله من الترحم في سر وجهه . فقد صار يقال عمر الله سرحها بعد ما كان يقال بحمد الله فتحها والعاقبة للمتقين الى يوم الدين " .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٠ .

(٣) ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١ .

المرحلة الثالثة :

ثم كانت المرحلة الثالثة • وفيها ، كما قلنا سابقا ، حطم التحالف الذي كان بين اباقا والبابا كلمنت الرابع (Clement IV) وخلفه البابا فريغورى العاشر (Gregory X) سنة ١٢٦٢ و ١٢٧٤ ، وبوهند صاحب طرابلس واباقا • وكان على الفرنجة بموجب هذا التحالف ، ان يقوموا بمناوشات محلية تلهي الظاهر ريثما يحتل التتر البيرة ويستعد الاوروبيون لحملة صليبية منظمة فبادر الظاهر لاحتلال الموانع الصليبية الهامة قبل وصول النجيدات التترية وقبل وصول النجدة الاوروبية الى مكاء ايضا • ولما وصل ادوارد الاول ملك انكلترا • الى مكاء سنة ١٢٧١ وجد الصليبيين هنا قد خضعوا للسلطان وعقدوا صلحا معه (١) •

وكذلك استطاع السلطان الظاهر باتصالاته بصقليه ان يحول الحملة المتوقعة الى تونس • وقد حاله الحظ ايضا بوفاة البابا فريغورى العاشر ، فاستحال بعد ذلك تحضير حملة صليبية •

وفي هذه المرحلة احتل ياقا والشفيف وبانيا مر وانطاكية ومسفلان وحصن الكراد ومكار والفريسن •

ياقبا : يبدو ان علاقات السلطان الظاهر بياقا كانت جيدة في البداية • ففي سنة ٦٥٩ هـ ، اتصل كند ياقا به في طريقه الى دمشق واعلن ولائه له وسلمه العوجاء ، فكتب الظاهر له منشورا بها (٢) • ومنع جنده من تخريب زرعها • لكنه عاد فهاجمها

(١) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٩٠ ، (R. Broussat) ج ٣ ، ص ٦٦٠ ،
(F. Sadeque) ص ٦٢ ،

(٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٤٦ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٤ ، المفريزى ، ص ٤٦٤ •

سنة ٦٦١ هـ ، بحجة انها آوت عددا من الفرنجة الهاربين ولم يقبل عذر صاحبها ولا هداياه .
ثم احتلها في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ وعوض على اهلها خسائرهم وسمح
لمن شاؤ منهم ان ينتقل الى عكا . ثم هدم القلعة ، وامر ببناء الجوامع فيها ورتب فيها حرس
الساحل ثم اتى ببعض التركمان واسكنهم فيها لحمايتها (١) .

الشقيف (٢) : بقي في يافا حتى يوم الاربعاء ١٢ رجب سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م
ثم قرر احتلال شقيف ارنون . فامر جيشه بالسير نحو دمشق . وسلم قواده رسالة شرط ان
لا يفضوها قبل الوصول الى بانياس . فسار القواد حتى بلغوا بانياس حيث فضوا الرسالة
فوجدوا فيها امرا بمحاصرة قلعة الشقيف . فباشروا ذلك يوم الثلاثاء في ١٨ رجب فنصبوا
عليه ٢٦ منجنيقا وشدوا عليه الحصار لكن القوات الفرنجية لم تستسلم فعمد الظاهر الى
حيلة يسررتها له رسالة من اهل عكا للقوات الفرنجية في الشقيف يدعونهم للمقاومة والاصطبار
امام هجمات المماليك ويلفتون انظارهم الى نقاط ضعف في الحصن . فكتب الظاهر رسالتين
احدهما للوزير في القلعة يحذره من القائد واثنيهما للقائد يحذره من الوزير . فكان هذا
سببا في الخلاف بين الطرفين . ثم ان الظاهر استفاد من اشارات اهل عكا لنقاط الضعف
في الحصن وشدد الهجوم فاحتل الباشورة في ٢٦ رجب وهنا رضي المدافعون عن القلعة
بالاستسلام مقابل الامان على حياتهم . فدخل القلعة يوم الاحد ٢٩ منه . وسمح للنساء
والاولاد بالرحيل الى صور واخذ الرجال اسرى وعين الامير صارم الدين قايمار نائبا على
القلعة ثم عين فيها قاضيا وخطيبا .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٣ . اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ . ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٤ ،
ابن ابي الفضائل ، ص ١٦١ — ١٦٢ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٤ — ١٥ . المقرئ
السلوك ، ص ٥٦٤ — ٥٦٥ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) قلعة على مرتفع حصين مشرف على نهر اللباني بين صيد ومرجعيون تعرف بشقيف ارنون
وهذا تصحيف لـ Arnould . يعرفها الفرنجة باسم قلعة Beaufort

وهدم القلعة القديمة ثم عين الأمير سيف الدين بلبان الزينى لبنائه ما كان متهدما منها
منذ ٦٥٨ هـ ، ولما تم الترميم نزل اليها الزرد خاناء والذخائر ووضع فيها حامية ووزع فيهم
مبلغا ضخما من المال (١) .

وفي عاشر شعبان ٦٦٦ هـ ، أرسل الظاهر أكثر الحملة الى دمشق ثم عزم على مهاجمة
بانياس (٢) ، بنفسه فجهز الأمير عز الدين أوفان والأمير بدر الدين الأيدمرى في جيشين
مختلفين لحفظ الطرقات على الفرنجة . واتجه الى منطقة طرابلس فشن عليها العارة فقطع
أشجارها وخرب مراها وهاجم طرابلس بالذات ثم اتجه الى حصن الأكراد وهاجم بانياس
ثم قصد حماه وأقامه وأعد العدة لمهاجمة انطاكية (٣) .

انطاكية (٤) : اعتبرها السلطان عدوا له لان أميرها بوهمند ذهب على رافرفة من
الخيالة لمناصرة جيش هولاكو يوم دخوله دمشق (٥) . ثم انها مركز للصليبيين ، مريحة
في انحيازها الى التتر ، خصم المماليك . لذلك بدأت غزواته على انطاكية وأعمالها منذ سنة
٦٥٩ هـ . ففي هذه السنة كانت جيوشه تحارب البولي في حلب ، فذهب في عارة على انطاكية
وفي السنة التالية أيضا أغار شمس الدين الرومي ومحابا حمص وحماه على انطاكية وأحرقوا
ميناءها . وفي سنة ٦٦٤ هـ ، حين كانت جيوش الظاهر عائدة من غزوة سيبريا عارت جيوشه
عليها وضيقت عليها الحصار لان صاحبها أغار على حمص (٦) .

١١ اليونيني ج ٢ ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ . ابن أبي الفضائل ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ابن الغرات ، ج ٦ ،
قسم ٢ ، ورقة ١٦ - ١٧ . المقرئى ، السلوك ، ٥١١ - ٥٦٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ،
ج ٧ ، ص ٤٧ ، ١٤٢ . (٢) مدينة مدينة جنوب اللادقية تعرف باسم (alu igre)
كانت للاستتارية منذ ١١٨٦م / ٥٧٢ هـ ، وقد دخلها بلاوون سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م
(Phoinix JS "Landis" EI new ed.) ج ١ ، ص ١٠١٦ - ١٠١٧ . (٣)
ابن أبي الفضائل ص ١٦٥ - ١٦٦ . المقرئى ، السلوك ، ص ٥٦٦ . ابن تغرى بردى ، النجوم
الزاهرة ج ٧ ، ص ١٤٢ . (٤) احتلها العرب سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ ، استردها البيزنطيون
سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م وبقيت بأيديهم حتى سنة ٤٧٧ هـ ثم دخلها الصليبيون سنة ٤٩١ هـ /
١٠٩٨م وبقيت تحت حكم سلالة بوهمند (Bohemond) النورمانية حتى
استعادها السلطان الظاهر . (٥) (P. de la -) ، ص ٢٩ (٦) ابن عبد الظاهر
ص ٥٥ ، ابن الفوطي ، ص ٣٥٥ . اليونيني ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ . أبو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ،
المقرئى ، السلوك ، ص ٤٧٢ .

واخيرا قرر السلطان احتلال انطاكية . فسم جيوشه ثلاثة انسام قاد احدها بنفسه . وبعد ان قام العثمان الاخران بهجمات على قرى مجاورة التفت الجيوش الثلاثة على انطاكية في اول رمضان سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ وحصارنها من جميع الجهات حتى استحالت نجد تدها وتضايفت المدينة لراى اهلها ان لا بد من المفاوضات لكن السلطان رفض شروطهم وشدد الحصار عليها . وفي ١٤ رمضان تسلى جنود الظاهر اسوار المدينة من جهة الجبل ونزلوا اسوانها . فاخذ اهلها يفرون امام الفاتحين لكن السلطان وضع الحرام على ابواب المدينة كي لا يفرو ولا ياخذوا معهم شيئا مما في المدينة والقلعة . كان في المدينة نحو مئة الف من السكان اسروا جميعا ووزعوا على الامراء والاجناد الاعدد سمح له بالذهاب الى طرابلس ، ثم احرفت انطاكية حتى استولى الناس على كميات كبيرة من حديد ابوابها ورضاصها . وقد بلغت الغنائم اكاداما هائلة حتى لم يكن لدى السلطان وقت كاف لاعداسها فاخذ يوزعها على امرائه واجناده بالطامسات ، وبلغ عدد العلما والجواري والنساء ما اقتضاه يومين لتوزيعه وقد قيل ان عدد القتلى بلغ نحو ١٧ الف قتيل (١) . اما القلعة فلم يتسلمها الا في اليوم التالي بعد اعطاء اهلها الامان (٢) .

وبعد هذا كان على السلطان ان يقوم ، بالترتيبات الادارية ، فسلم القلعة لبدرددين بيليك الخزندار والامير بدر الدين بيسرى الشمسي . ثم كتب الى نوابه في بلاد الشام ومصر يبلغهم خبر النصر ثم كتب الى بوهمند صاحب طرابلس وانطاكية يبلغه الخبر ايضا . قال له : قد علم العومس الجليل المبجل المعزز الهام الاسد الضرام بيمند فخر الامة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية كبير الطلة العيسوية الهمة الله رشد وقرني الخير قصده وجعل النصيحة

(١) اليونيني ج ٢ ، ص ٢٨٢ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٤٤٥ . وابن ابي الفضائل ص ١٦٦ - ١٦٧ و ١٧١ ، ابن الفرات ، ج ٦ نم ٢ ، ورقة ٢٦ - ٢٧ و ٢٩ . القريزي ، السلوك ، ص ٥٦٧ - ٥٦٨ . وابن تغري بردى ، النجوم ج ٧ ص ١٤٢ (R. Grousset) ج ٣ ص ٦٤١ .

(٢) ابن ابي الفضائل ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

محفوظة عنده ما كان من قصدنا طرابلس وفزونا له في مقر الدار وما شاهده بعد رحيلنا من اضراب العمائر والاعمار وكيف كتبت تلك الكنائس على بساط الارض ودارت الدوائر على كل دار وكيف كيف حصلت تلك الجزائر من الاجساد على كل ساحل البحر كالجزائر وكيف قتلت الرجال واستخدمت الاولاد وتملكت الحرائر . وكيف مطعت الاشجار ولم يترك الا ما يصلح لاموال المجانيق ان شاء الله والاستاير وكيف نهبت لك ولرعيته الاموال والمواشي وكيف استغنى الفقير وتاهل العازب واستخدم الخديم وركب العاشي ، هذا وانت تنظر نظره المغشسي عليه من الموت واذا سمعت صوتا قلت فزما على هذا الصوت وكيف رحلنا من عندك رحيل من يعود واخبرناك وما كان تاخيرك الا الى اجل معلوم معدود وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية الا وهي لدينا ماشية ولا جارية الا وهي لدينا جارية ولا سارية الا وهي في ايدي المعاول سارية ولا زرع الا وهو محصور ولا موجود لك الا وهو مفقود . ولا منعك تلك المفاتر التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ولا تلك الاودية التي هي في التخوم مخترمة وللعقول خارقة . وكيف سقنا منك ولم يسبقنا الى مدينتك انطاكية خبر وكيف وصلنا اليها وانت لاتصدق انا نبعد منك وان بعدنا فسنعود على الاثر . وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذي عليك قد سمع . رحلنا منك من طرابلس يوم الاربعاء ٢٤ شعبان (٦٦٦هـ) ونزلنا انطاكية في مستهل رمضان وفي حالة النزول خرجت مساكرك الى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصروا واسر من بينهم كندا سبطي فسال في مراجعته اقرانك ودخل الى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك واميان اعوانك فتحدثوا معنا فرايناهم الى ارايك؟ من اتلاف النفوس بالخرص الفاسد وان رايتهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد . فلما رايناهم قد فات منهم الغوث وانهم قد قدر الله عليهم بالموت ودناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصرو هذا هو الاول في الانذار والاخر فرحبوا وهم متشبهين بفعلك ومعتقدين انك تدركهم بخيلك ورجلك وفسي بعض ساعة مرشان المرشان وداخل الرعب للرهبان وبان البلاء للقسطلان وجاءهم الموت من كل مكان . وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت ١٤ رمضان وقتلنا من احتوته لحفظها والمحامة منها وما كان احد منهم الا وعنده شبي من الدينيس فما بقي احد منا الا وعنده شبي منهم ومنها وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك ان تكذب

لنا خبرا كما ان بعد هذه المخاطبة يجبان لا تسأل بعدها مخبرا (١).

وبما تدل انطاكيا اخذت النصارى المدينة تستسلم لنا اخر . فتسلمت جيوشه بفراس

ودريسا . ودركوس وليمير وكفردوين وسجر سفدان وارسوز بغير شروط (٢) . اما الصغير

بين حارم وانطاكيا ، فقبولت منا فقة وفي جمادى الاولى سنة ٦١٤ هـ . حاصرا حتي

اضطر تسييسها لنا . فوعد ولتسليمها في ٢٢ منه واستسلمت بلا طقس في اوائى السلام التالى (٣)

ثم استسلمت جبلة بعد ذلك (٤).

عسقلان : (٥) في ٧ فرسنة ٦٦٦ هـ / ١٢٧٠ م . بعد علمه به من انصار حملة تونس ،

غادر الظاهر القاهرة بجيش صغير وهدم سور عسقلان (٦).

صور : حاصر مندوبها احتلال الفاور . وفي رمضان سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م عقد على

لعشر سنوات على ان يكون لصور ٦٩ قرية محاذرة لها مقابل دفع ١٥ الف دينار سنوية

(١) ابن ابي الفاضل ، ص ١٦٧ — ١٧١ ، ويؤيد هذا ان يؤيد ان كان في حارابلس ولم يعلم به .
انطاكيا الا من رسالة الى اخر . ويقول **E. Blochet** انه قابل هذا النص من النوير .
فوجدنا متشابهين الا في احدى نصية . ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٢٧ — ٢٨ ،
وهناك خلافات توجب بان ابن ابي الفضائل اختصرها ، وان ابن الفرات يقول ان بيونند
عرف خبر احتلال انطاكيا من هذه الرسالة . (٢) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٢١ — ٢٢
انظر ملحوظة ٤ ادناه .

(٢) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٢٢ ، ورقة ٤٤ ، ج ٧ ، ص ٣٣ ، ٤٠ ، (٤) اليونيني ، ج ٢ ،
ص ٢٨٤ ، ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٥٥ . ابن ابي الفضائل ، ص ١٧٢ . ابن الفرات ، ج ٦ ،
قسم ٢ ، ورقة ٢٩ : **R. Grousset** ج ٢ ، ص ١٦٤ ، القريز ، المجلد ، ص ٥٦٨ ،
٥٧٠ ، ٦٢١ . ابن تغري بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٥ .

(٥) احتل الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٢ م وعلوها منذ لقا للبحر على بحر . استعادها
صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ثم استعادها الصليبيون من بعده . **B. Lewis**
مادة عسقلان ، الموسوعة الاسلامية طبعة جديدة ، جز ١ من ١ — ١١ .

(٦) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ . ابن تغري بردى ، النجوم الزارة ، ج ٧ ، ص ١٤٩ . ابن ابي
الفاضل ، ص ١٨٤ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٤٣ — ٤٤ ، الماريز ، المجلد ، ص ٥٩٠ .

قتل ، وتعلم الاسرى المسلمين (١) . ولكن الاحتكاكات استمرت ، وفي رمضان سنة ٦٦٧ هـ / تموز ١٢٦٨ م ، هاجم الظاهر صور ونهب من اعمالها الكثير لان صاحب سمور اعتقل تاجرا دخل المدينة (٢) . وهاجمها مرة اخرى في اواخر السنة حتى انعقد الملع في شوال ٦٦٩ هـ على ان يكون لصور عشرة اعمال فقط وان يكون للسلطان خمسة . اما بقية الاعمال فمناصفة (٣) .

حصن الاكراد

كان هذا الحصن للاستتار . وقد صالحهم السلطان ورفعوا الغنائم عن الاسماعيليه وحماه وشيزر واقاميه (٤) . ثم هاجمه الظاهر في طريقه لاحتلال انطاكية سنة ٦٦٦ هـ . لكنه لم يفتحوا حين اتصل به وفد من حاميته للمصالحة طلب منهم دية عن جندى قتلوه له . وكأنه لم يشا انداك اثاره هذه الحامية وهو متبل على محاصرة انطاكية . وفي جمادى الاولى سنة ٦٦٨ هـ اتجه السلطان الى قلعة المرب وفي ٣ جمادى الآخرة هاجم حصن الاكراد بمئتين فارس وكسر جماعة من حاميته خرجت له . ثم تغير وضعه في سنة ٦٦٩ هـ . ففي جمادى الآخرة استناب منه الامير شمس الدين اتسقر الفارقاني في القاهرة وفي ١٢ منه خرج الى دمشق مصطحبا معه ابنه والخزندار في قيادة قسم من الجيش وقاد القسم الآخر بنفسه وفادروا دمشق في جولة هجومية على جبلة واللاذقية والمرب ومرقية والقلبيات وحلبا وصافيتا والمجدل وانطرسومر في الساحل الشمالي من بلاد الشام ، على ان يجتمع الجيشان في مكان معين .

واجتمع الجيشان حسب المقرر واتجها نحو حصن الاكراد . وفي ١٩ رجب سنة ٦٦٩ هـ نصبت المجانيق عليه واشتد الحصار حتى خرق سور الاول بعد يومين ، اما السور الثاني ففي ٧ شعبان وفتح السور الثالث في ١٥ منه ، بعد قتال عنيف سقط فيه عدد كبير من القتلى .

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٥٩ .

(٢) البيهقي ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ . ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة . ج ٧ ، ص ١٤٧ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٩٥ .

(٤) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٧ .

اما اهل الطعة فاستسلموا في ٢٥ منه ولم تنفع محاولة عكا لنجدته بعد ان منحهم الظاهر الامان وسمح لمن شاء منهم ان يتوجه الى طرابلس .

وبعد احتلال الحصن اجرى الظاهر الترتيبات الادارية اللازمة فعين الامير عز الدين الافيم لعمارة والامير عز الدين الموصلبي نائبا عنه في المدينة . وعين فيه قاضيا وخطيبا وجعل كنيسته جامعا تقام فيه الجمعة . وكتب ايضا لنوابه يخبرهم بالواقع ثم كتب لرئيس فرسان الاسبتار الفريراوك يعلمه بالفتح ويتمنى عليه ان لا يعاند العذر . وكان الظاهر يعود الى طرطود كما فعل في ذي الحجة من السنة ٦٧٠ هـ اد جاء لمراقبة عمارة وتحصينه (١) .

عكا : بعد عقد معاهدة مع صاحب طرابلس ، قصد الظاهر صافيتا ، وهي على معاهدة معه منذ شعبان سنة ٦٦٦ هـ . ثم عادرها في ٤ رمضان سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ وادن لصاحبي حصن وحماه بالعودة الى مدينتهما . اما هو فزحف باتجاه حصن عكا حتى اشرف عليه في ١٧ منه . وفي ٢٢ رمضان نصب عليه المجانيق واخذ يرميه بشدة بينما تالتت الحامية بقوة . وفي ٢٩ منه قبلت الحامية تسليم القلعة مقابل السماح لمن شاء من افرادها ان يذهبوا الى طرابلس .

وفي ٤ شوال عاد الظاهر الى مخيمه في برج صافيتا ووصلته رسالة من صاحب طرابلس .

يلتصم ابقاء القلعة له فرفض لانه تكبد الخسائر الكثيرة لاحتلالها (٢) .

- (١) اليونيني ، ج ٢ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ و ٤٧٣ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٧ ص ١٥٠ - ١٥١ ، و ١٥٣ . ابو الفداء ، ج ٤ ص ٦٦٦ . ابن أبي الفضائل ص ١٨٥ - ١٨٧ ، ١٩٧ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٦٧ ، ورقة ٧٦ - ٧٧ ، ويجعل تاريخ الهجوم ٩ رجب . الحفري السلوك ، ص ٦٠٣ . السلوك ٥٩١ ، ملحوظة ٣ وسرور ص ٩٠ - ٩١ .
- (٢) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٨٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ابو الفداء ، ج ٤ ص ٧٠ ، ابن أبي الفضائل ص ١٩٠ ، ١٩٢ - ٢٠١ ، ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٧٥ ، و ٧٨ - ٧٩ ، الحفري ، السلوك ، ٥٦٧ ، ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٢ - ١٥٣ . وباحتلال عكا قال ابن عبد الظاهر : ان سلطان البرايا ضم الاعداء رعبا .
- زاده الله سعاده
وله بالنصر ساد
هو عكا وزين ساد
حصن عكا منيع

القرين : في ١١ شوال رحل الى دمشق ووصلها في ١٥ منه . وفي ٢٨ منه

نازل قلعه القرين واحتلها بعد قتال عنيف في ٢ ذى القعدة سنة ٦٦٩هـ / حزيران ١٢٧١
وأمن اطفالها ونساءها . وامر بهدم القلعة .

وفي ٢٦ ذى القعدة امر بالعودة الى مصر فمر على كركانه في منطقة عكا ثم على الصالحية
ودخل القاهرة في ١٥ ذى الحجة سنة ٦٦٩هـ . وبذلك تمت حملة استغرقت نحو من سنة
وكلفت ١٨٠ ألف دينار عينا (١) .

بيروت : اتصل صاحب بيروت بالظاهر وهو في دمشق سنة ٦٥٩هـ وانعقد الصلح

بينهما . ثم حضر مندوب صاحب بيروت مؤتمر الطور . ومع ان الظاهر لم يعقد صلحا مع الصليبيين
عامة في هذا المؤتمر فانه كان يدرك ان لبيروت وضعًا خاصًا . ففي سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣ -

١٢٦٤ توفي صاحبها Jean II D'Ibelin من غير ان يعقب ذكرًا يرثه . وخطبت ابنته

ووريثته ايزابيلا لملك قبرص هيوج الثاني ثم مات هذا وعمره ١٤ عاما . وفي رجب سنة ٦٦٥هـ

ارسلت ايزابيلا وفدًا للظاهر في صفد . تعتذر له عن اعتقال اخيها لبعض التجار ومصادرة

اموالهم وخلافهم متعدد بالتعويض عليهم عما فقدوه . وفي شعبان من السنة التالية اطلق

سراح التجار وردت اموالهم . وفي رمضان سنة ٦٦٧هـ / جاء رسول صاحب بيروت الى الظاهر

ومعه اسرى مسلمون فاطلق سراحهم في الحال . وفي عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢ تزوجت ايزابيلا من

Edmond L'Etranger فوضع هذا زوجته واماره بيروت تحت حماية السلطان . ولما توفي

الزوج انتقلت المدينة لحماية الظاهر بصورة نهائية ورسمية (٢) .

(١) اليونيني، ج٢، ص ٥٣، ابن الفرات، ج٦، قسم ٢، ورقة ٨١، ابن تفرى بردى، النجوم
الزاهرة، ج٧، ص ١٥٣ : راجع مصادر ملحوظة ٢ من الصفحة السابقة.

(٢) ابن عبد الظاهر، ص ٤٦، ابن الفرات، ج٦، قسم ٢، ورقة ٧، ورقة ١٧ - ١٨، و ج٧، ص ٣٥،
المقريزى، السلوك، ص ٤٦٤، ٥٦٦، ٥٨٠ : ومحمد مصطفى زيادة، ملحوظة ١، ص ٥٥٩، السلوك .

يبدو ان العلاقات ^{بين}البيروت والظاهر كانت ودية مموما . وقد كانت هذه المدينة هامة من الناحية التجارية .

بقيت مدينتان هما طرابلس وعكا وينبغي ان نتحدث عن علاقاتهما بالسلطان الظاهر بصورة اكثر تفصيلا ، ولو اننا اشرنا اليهما في معرض الحديث عن مدن اخرى .

طرابلس : كان الظاهر يبرس يرى في بيموند صاحب طرابلس وانطاكية العدو الاكبر له بين امراء الفرنجة لانه كان يتلقى النجدة من اوروسا ويعين التتري في غزواتهم على بلاد الشام . وكثيرا ما كان يقوم بغزوات تخريبية على مدن بلاد الشام . كما فعل سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ بحمص .

لذلك كان الظاهر يجهد لاحتلال طرابلس . وقد هاجمها مباشرة لكنه عجز عن احتلالها فعمد الى خطة احتلال القلاع المجاورة لها . ففي سنة ٦٦٤ هـ ، ارسل جيشه من سفد ليعمر بحملة ترويع وتخریب ، وفي سنة ٦٦٦ هـ ، هاجم طرابلس بعد احتلال انطاكية وفي سنة ٦٦٩ هـ هاجمها في طريقه لمهاجمة حصن الاكراد . واما دخل هذا الحصن أصبحت المنفذ الى طرابلس بيد السلطان الظاهر . وبعد فتح حصن الاكراد كتب له الظاهر رسالة هددته فيها وقد بد به ثم ارسل اليه صيدا ورسالة فيها ازدراء لخشيته من الخروج الى الصيد . وفي شوال سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ هاجم السلطان طرابلس ، فوجد صاحبها ان لا بد من المفاوضة .

واجتمع الوفدان الظاهري والعرجسي المتفاوض مطلب الوفد الظاهري ان يتنازل بوهمند له من نصف اعمال طرابلس ، وان يدفع له نفقة الحملة العسكرية ، وان يسمح له بانشاء دار وكالة لجمع الزكاة . فرفض بوهمند . ووجد الظاهر نفسه مضطرا للتساهل لعدد الصلح امام تهديدات التترواخيرا انعقد الاتفاق على مايلي :

١ - مرفه وجبيل واعمالهما لبوهمند على ان تكون الاولى " صده من السلطان " له .

(٢) نصف غلات اندلس و المغرب و ما يناسب للسلطان و النصف الآخر للدأوة و الاستنارة

(٣) قريتا بارين و حمص القديمة للسلطان و حصده •

(٤) مدة العقد عشر سنوات و عشرة اشهر و عشرة ايام •

وفي سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ توفي بولموند • وفي ٢٨ محرم من السنة التالية عاد من مملكة

صلي جديدة مع صاحبها الجديد علي بن بدقيق للظاهر بمبلغ عشرين الف دينار (١) •

وبعد انعقاد الاتفاقية، رأى صاحبها المغرب (٢) واندلس و ما يناسب مع ال آخر تفاوضا

لهجمات المتكررة عليها • وفي اور رمان وقعت اتفاقية على المئاة لخمسة سنوات و عشرة

اسهر و عشرة ايام، تأكيداً للاتفاقية مع بولموند • ثم ارسل ال آخر نائجين من قبله الى القلعتين (٣)

عكـا:

دام السلطان الظاهر بيبرس عكا اكثر من مرة اثناء سلطنته لكنه لم يستطع احتلالها

كان لا يستطيع ان ينسى انما آوت لويش التاسع سنة ١٢٥٠ • لكن هذه الهجمات ادت الى

ان حاف المدينة بحيث استطاع السلطان الاسرف طلي بن قزوون ان يحتلها بعد ١٥ سنة

من وفاة الظاهر والى اشغالها برد الزيات عنها فلا تذر على مديد المونة المحدية الس

المراكز الصليبية الاخرى • غير ان هذا ينبغي ان لا يعني ان العلاقات بين المماليك و عكا

كانت علاقة حرب باستمرار، حقا ان حقد الواحد منهما على الآخر كان يسير تصرفاته ازاء الثاني

ولكنها عرفا فترات هدوء و مهادنة •

(١) اليونيني، ج ٢، ص ٣٨٢، ٤٥٠ • ابو الفداء، ج ٤، ص ٣، ابن ابي الفائل، ص ١٩١ — ١٩٥ •

ابن الفرات، ج ٦، قسم ٢، ورقة ٢٠ — ٢١، ورقة ٧٩ • المبريز، المصنف، ص ٥٦٦ — ٥٦٨،

٥٩١ — ٥٩٣، ٦١٩ • ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٢، ١٤٢، ١٥٢ •

C. Cahen ص ٧١٥ • (٢) هي *Castrum Merghatum* عند الصليبيين •

(٣) اليونيني، ج ٢، ص ٤٤٨ • ابن ابي الفائل، ص ١٨٩ • المبريز، المصنف، ص ٥٦٠،

٥٨٦، ٥٩٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٨، ١٥١ •

في اوائل سنة ٦٦٢ هـ/ اذارت الحساكر المملوكية على السواحل ووصلت ابواب عكا (١).

وليلة السبت ٤ جمادى الآخرة استناب السلطان الامير شجاع الدين النبلي الميمندار في دهليزه في منزلة الدور ثم سار بنفسه الى عكا فوصل اعمالها عند الصبح ثم حالف حولها من ناحية البر، ثم حاصر بعض حصنه برحا قريبا من عكا حتى المنزلة، ثم رجع الى دهليزه في الدور (٢). وفي اليوم التالي عاد الى مباحمة عكا مرة اخرى، بعد هذه الاستعدادات، فوجد ارا الحامية قد حفرت خندقا حول تل الفول واوجدت معاصر في الطريق، لكن حصنه اقتحم الخندق والتل فانهزم حشد عكا واقتلوا ابواب المدينة (٣). وهكذا اثبت لاهل عكا انه غير عاجز عن تحديهم في عقر دارهم. لعله لم يكن يقصد احتلال المدينة، وانما كان يقصد تحديهم وحسب.

وصعد السلطان بيبرس حيشه الى تل الفول وهدم بعض الابراج المدافعة. وفي اوائل سنة ٦٦٢ هـ/ نوفمبر ١٢٦٤ استغل الفرنجة في عكا انشغال الظاهر بمعاربة الممولى فاغاروا على بيسان. وفي ذى الحجة من السنة التالية امر الاهر بالقيام بزيارة ثارية على المراكز الصليبية. فاغار جيشه على نسيحا وقتل نحو مئتين واستولى على الكثير من الموانى لان الفرنجة كانوا قد سلقوا اربعة من المسلمين المعتقلين (٤). وفي رجب من سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ علم وهو في صفد ان بعض الفرنجة في عكا يترحون غداة الى ارض القلعة. فحاجهم فقرر مفاضة لهم. وفي الليل امر جماعة من حنده وزحفوا الى ابواب عكا. وما ان خرج الفرنجة حتى فتت بهم حنده فتكا ذريعا. ثم اعاد الكرة في المسر التالي ايضا، فاحرق الاشجار واسر بعض الفرنجة ثم عاد الى صفد (٥).

(١) ابن عبد الظاهر، ص ١٠٠ (٢) ابن عبد الظاهر، ص ٧١ (٣) ابن عبد الظاهر

ص ٧٢، والمقريزي، السلوك، ص ٤٨٨ (٤) المقريزي السلوك، ص ٥٥٠ F.Sadeque

ص ٥٤ (٥) ابو شامة، ص ٢٤٠، ابن الفرات، ج ٦، قسم ٢، ورقة ٦، المقريزي السلوك

ص ٥٥٨ و ٥٥٩

وفي اوائل ربيع الاول سنة ٦٦٩ هـ علم الظاهر ان فرنجة عكا اعدوا نحو مئة اسير مسلم فتأثر لذلك باعراق عدد من اعيان اسرى عكا في البحر (١) . وبينما كان عائدا السبي مصر بعد فتح حصن الاكراد من سنة ٦٦٩ هـ نزل على كودانه في يوم الاثنين ٢٦ ربي العدة وسار بعسكره حتى اشرف على عكا ثم عاد فواصل طريقه الى القاهرة . فدخلها الخميس ١٣ ربي الحجة . وهنا هاجم اهل عكا الشاغور واحرقوا الغلال (٢) .

وفي سنة ٦٧٠ هـ قام فرنجة عكا وعثليث بهجوم على نابون بناء على اتفاق مع التتار واخذوا عددا من الاسرى واستولوا على كثير من الغنائم ولما علم الظاهر بذلك اعتقل القواد والمسؤولين من الدفاع وارسل جمال الدين اقوش الشمسي يطارد المهاجمين حتى استردوا الاسرى والغنائم واستولى على بعض ماشية الفرنجة واثف موءونتهم (٣) .

وفي شعبان سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ بعد انقطاع الامل بوصول حملة لويصر التاسع الى الشرق سار الظاهر الى بلاد الشام وخيم بين يمسارية وارسوف ثم اعار على عكا لترويض اهلها وتخریب زرعها . لكن جنوده تضايقوا بسبب الامطار .

وهنا وجدت عكا انه لا بد من المصالحة . وفي ٢١ رمضان ارسل الظاهر وفد السبي عكا وانعقد الصلح بين الظاهر وعكا لعشر سنوات ثم خرج اهل عكا يتفرجون على نوات الظاهر المسلحة تقوم بمنارات عسكرية (٤) . ومع ان الظاهر شغل فيما بعد بمهاجمة السلاجقة فسي آتتها الصغرى فان عكا بقيت هادئة .

- (١) ابن ابي الفضائل ، ص ١٨٤ .
- (٢) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٩٦ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٣ .
- (٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ . ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٩ . المقرئى ، السلوك ، ص ٦٠١ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٧ .
- (٤) ابن الفوطى ، ص ٤٧٠ . اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٧١ . المقرئى ، السلوك ، ص ٦٠١ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٧ .

قبرص^١ لم تقتصر حروب الظاهر ببرص على المواقع البرية وحسب • وقد اعد الظاهر الاسكندرية لتقوم بدورها في رد الصليبيين وخرّب ميناء دمياط لكي لا يستعملوها مرة اخرى للنزول الى البر المصري •

وكانت قبرص مركزا للصليبيين خطرا عليه لاسيما وقد كان صاحبها يمنع باستعادة ما احتله من مدن الصليبيين في بلاد الشام • لذلك اتسمت علاقات الظاهر بقبرص بالحقود والعدا •

في محرم سنة ٦٦٥ هـ ارسل صاحب قبرص نجده الى عكا لتهاجم طبرية (١) ولكن سقوط انطاكية بيد السلطان الظاهر حمل صاحب قبرص على مفاوضة السلطان • ويبدو انها لم تسفر عن نتيجة • وفي رجب سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ علم الظاهر ان الفرنجة استولوا على سفينتين بالاسكندرية • وفي ٥ شوال علم انهم يتجهون للمقدم الى عكا • وهاجموا الاسكندرية مرة اخرى واستولوا على مركب تجارى فيها • فعصد الظاهر الاسكندرية واتخذ التدابير الاحتياطية لرد اى عدوان • ثم عصد دمياط وبنى جسرين بين الجزيرة والجزيرة وبقي فيها حتى عرف بانحراف الحملة الى تونس (٢) •

وبسبب وضع قبرص الجغرافى لم يكن السلطان يستطيع مناوشتها ، لكنه بعد هاتين المحاولتين قرر مهاجمتها • وفي شوال سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ امر رئيس الاسكندرية ورئيس دمياط بتجهيز اسطول وقدم عليهما جمال الدين بكى بن حصون وهاجموا قبرص في اسطول من ١٧ شينيا وذلك ليشعل صاحب قبرص عن نكرة عكا • ودخلت الشوانسي الجزيرة ليلا وهاجمت الريح وانكسر الشيني ثم تبعته الشواني الاخرى من عيران تدوى بمسا حدث للشيني الاول حتى تحطم ١١ شينيا واسر بحارتها وعددهم نحو ١٨٠٠ •

(١) المفريزى ، السلوك ، ص ٥٥٥ •

(٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٤٣١ - ٤٣٣ • ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة مج ٤ ، ص ١٤٨ •

وهرب رئيس الاسكندرية والمقدم (١) .

وفي ١٠ ذي القعدة وحملت رسالة من نائبه في القاهرة يخبره فيها بالكارثة . فشكر السلطان الظاهر للمعلّى ان الكارثة لم تكن اعظم . ثم جاءه رسول صاحب قبرص فخبّره بما جرى للاسطول شامتا به فرد عليه السلطان بانه احتل في حملته ١٤ حصنا من الملبيين . ثم كتب لصاحب قبرص رسالة ارعد فيها وابرق (٢) . ثم بشره بفتح القلاع والحصون الصليبية ، وجعل فتح هذه اهم من الاستيلاء على الخشب والحديد وهذه بيننا . اسطول جديد (٣) .

وفي ذي القعدة سنة ٦٦٩ هـ عندما احتل الظاهر القرين ، بعد فشل حملة قبرص جاءه رسول من صاحبها يطلب منه الرجوع عن القرين وتسليم بعلي بك ونابله مقابل الصلح بين الطرفين . فرفض الظاهر العرض وهدد باخذ كل حصون الملبيين اولا بأول (٤) . وفي سنة ٦٧٣ هـ استطاع الظاهر استعادة بعض كبار الاسرى من قبرص اد ان بعض امراء استطاعوا رشوة حراس السجن في عكا فاطلقوا سراحهم (٥) .

وهكذا نجد ان العلاقة بين الظاهر وقبرص كانت عدائية . ولكن كون قبرص تنزيهة حال دون مهاجمتها جديا . وقد اسفرت بحارسة احتلال قبرص عن الدليل .

(١) اليوناني ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ . ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٧٠ . ابن ابي الفضائل ، ص ١٩٩ . ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ٨٢ ، الحفري السلوك ، ص ٥٩٤ . ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٤ .

(٢) ابن ابي الفضائل ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ . الحفري السلوك ، ص ٥٩٤ .

(٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٧٠ . ابن ابي الفضائل ، ص ١٩٩ . الحفري السلوك ، ص ٥٩٤ .

ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٥ .

(٤) ابن ابي الفضائل ، ص ١٩٩ ، ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨٢-٨٣ .

(٥) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٦١ . الحفري السلوك ، ص ٦١٩ .

٨ - الدليل الأوربي - صقليه ، جنوى ، اراغون ، اشبيلية :

لقد عمل الظاهر في علاقاته الخارجية على عدة جبهات . لم يكن الميدان العسكرى وحده كافيا لتوطيد النفوذ وقد كان يحلم ان التتر يتصلون بالصلبيين في بلاد الشام وبالأوربيين للحصول على نجدات لذلك عمد الى مصادقة صقليه وجنوى . فكان هذا كافيا للحوار دون وصول نجدات عسكرية الى عكا وانطاكية والتتر ، عدا انه كانت لهذه العلاقات فائدة تجارية .

وفي سنة ٦٥٩ هـ نشر الظاهر ايفاد رسول الى صقلية . وبالفعل فانه ارسل المؤرخ ابن واسل مندوبا منه الى منفريد بن فردريك امير صقليه حاملا هدية ورسالة فيها عرض للمتعاون والصدقة . وفي سنة ٦٦٢ هـ رمضان ، كتب امير صقلي للظاهر يقول ان الملك شارل شقيق لويس التاسع امره ان يستجيب لاوامر الظاهر مما كانت . وكان شارل عدا هو الذى حول الحملة الصليبية الاخيرة الى تونس (١) .

وفي جمادى الاولى سنة ٦٧٠ هـ ارسل روجر صاحب صقليه المظاهر وفدا يستهدف فيما يبدو والمشفاعة بصاحب عكا لكن الغاية الحقيقية كانت الناحية التجارية . وقد كانت بينهما معاهدة تجارية منذ ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م .

امام جنوى والبندقية فكانت العلاقات تجارية بالدرجة الاولى . وقد رغب هذه ان تبيعه الاخشاب والحديد لبناء السفن ووضع الاسلحة ، وان تبيعه الرقيق المجندية (٢) .

-
- (١) يبدو ان النواد الصليبيين اختلفوا حول الخطة . اراد شارل العسطنطينية والعد مرانه . بينما ارتأى آخرون ان فتح تونس يمهّد السبيل لغزو مصر من البر . (F. Sadouk) ج ٢ ، ص ٦٥٩ ، (F. Sadouk) ج ٢ ، ص ٦٥٩ ، (F. Sadouk) ج ٢ ، ص ٦٥٩ .
- (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٤ ، اليوناني ، ج ٢ ، ص ١٢٥ . ابن ابي الفضائل ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ . المفريزى ، السلوك ، ص ٦٠١ . (F. Sadouk) ج ٢ ، ص ٦٥٩ . (F. Sadouk) ج ٢ ، ص ٦٥٩ .

وفي سنة ٦٢٤ هـ • تبادل الرسل (١) •

واما اراعون فكانت علاماتها بالظاهر سيئة • وكانت تواصل ارسال العدد لعكا

كما جرى في ربيع الاخر سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م لكن جيمر ملك اراعون رأى بعد مصالحته

عكا والظاهر ، ان يتصل بالسلطان لعدد معاهدة تجارية • وفي سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ تبذلت

الوفود والهدايا حتى تم الاتفاق على تبادل التجارى (٢) •

وكانت المعاهدة تجارية مع اشبيلية منذ سنة ٦٦٩ هـ (٣) •

يبدو لي ان الظاهر اصاب نجاحا كبيرا في هذا الميدان • فهو من جهة ، عزل

الصلبيين في الشرق ، وحال دون التحالف مع التتر ، ثم استطاع من جهة اخرى ان يعيد

المعاهدات التجارية وامن بذلك الموارد المالية النخمة الضرورية له من الناحية العسكرية •

اسباب نجاح الظاهر على التتر والصلبيين :

لارب ان الظاهر ، فيما يبدو ، اصاب نجاحا باهرا في حروبه مع التتر والصلبيين اما

اسباب ذلك فهي :

- (١) جيشه المنظم تحت قيادته واخلاص العادة له والمبادرة الى تنفيذ اوامره على الفور •
- (٢) وجود قادة ماهرين اكفاء يحيطون بالظاهر •
- (٣) محالفته مع العشاقي والدويلات الاوروبية لاسيما صليبيجنوى ، مما ادى الى توزيع قوى خصومه والحيلولة دون اتحادهم •
- (٤) انقسام التتر الى ايلخانات فارصو جمعطاي وقبشاق متنافسين •
- (٥) انقطاع المدد العسكرى من اوروبا للصلبيين والتتر •

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٢١ • (٢) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٨٥ •

(٣) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٢١ ، وملحوظة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ملحوظة

٢ ، ص ٦٢١ ، في السلوك ، للمقرئى •

٩ - بيبرس واليمن :

كانت علاقات الظاهر باليمن علاقات ود وصداقة . يدل على ذلك ان التجار كانوا يأتونه مرتين في السنة . وكان التجار واصحاب الاموال يامنون المعروف في اراضي سلطنته بسبب عدله والامن السائد في البلاد (١) .

وفي سنة ٦٦١ هـ جاء رسل صاحب اليمن بهدية الى الامراء والخواص في مصر فاستقبل الظاهر الرسل وسمح لهم بتوزيع الهدايا على امرائه وخواصه (٢) .

وفي اواخر سنة ٦٦٥ هـ كان الظاهر قد انتصر على التترو والصليبيين في معارك عديدة فارسل اليه صاحب اليمن هدية فيها عشرون فرسا وعليها لامة حرب ، وفيل وحمار وحشي ابيض واسود ، وخيول وصيني ، وتحف ، ورسالة يطلب فيها محالفته مقابل الخطبه له في بلاد اليمن . ولما عاد الظاهر من دمشق في صفر سنة ٦٦٦ هـ اجتمع بالرسل في جمادى الاولى ثم رد على صاحب اليمن بهديه ورسالة وافق فيها على طلبه .

ولما حج الظاهر الى مكة سنة ٦٦٧ هـ اتصل بصاحب اليمن وحرضه على الاسهام في محاربة التترو . وفي ذى الحجة سنة ٦٦٩ هـ وفي رجب سنة ٦٧٤ هـ ارسل صاحب اليمن هدايا للظاهر (٣) .

وهكذا قامت العلاقات بين الظاهر وصاحب اليمن على التهادى وتبادل التأييد المعنوي من ناحية ، وعلى تأمين مرور التجار من ناحية ثانية . واذا لم تكن الناحية الاولى ذات اثر فعال فلا ريب ان الناحية الثانية كانت ذات اثر بارز في حياة المعاليق الاقتصادية عامة . ولعل هذا هو ما دفعه لتوطيد سلطانه على النوبة .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٥٤ (٢) ابن عبد الظاهر ص ٨٨ ، والمقريزي ، السلوك ص ٥٠١ .
(٣) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ . ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٢ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٦٤ و ٥٩٥ و ٦٢١ . ابن خلدون ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٤١ .

١٠ — الحبشه :

وكانت بلاد الحبشه على علاقه ودية مع الظاهر بيبرس . ويبدو ان الظاهر لم يتفرغ للبلاد الواقعة جنوب مصر الا بعد ان كان قد وجه ضربات قاصمة للصليبيين وحال دون التحالف التتوي الاوروبي . ففي سنة ٦٧٢ هـ . ارسل ملك الحبشه عن طريق صاحب اليمن رسالة للظاهر بيبرس تحدث فيها عن كثرة جيوشه وعن وجود المسلمين والنصارى فيها وعن استعداداته لمناصرته ويعلم له الخضوع ويصف له حسن معاملته للمسلمين الوافدين عليه ثم يطلب منه مطرانا لبلاده . فرد عليه الظاهر مخاطبا اياه " بصدق الملوك والسلاطين (١) " .

(١) ابن ابي الفضائل، ص ٢١٩ — ٢٢٢ و ٣٨٣ — ٣٨٥ . ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٣ .
القلقشندي، ج ٨، ص ١١٩ — ١٢٠ . المقرئ، السلوك، ص ٦١٥، ٦١٦ . لكن هذا
الاخير يجعل تاريخ الرسالة سنة ٦٧٣ هـ .

شخصية الظاهر بيبرس ومنشأته

تناولنا حتى الان حياة الظاهر العامة في حروبه وخطته في داخل مملكتيه وخارجها . ويجب علينا هنا ان نتناول نواحي اخرى من حياته لنستكمل وصف شخصيته وتحديد ها ، ولنستطيع ، بعد ذلك ، ان نحدد مكانته .

اولا - حياته الخاصة :

تزوج الظاهر خمس نساء ، هن الشهزورية التي تزوجها في الكرك ، لما كان فارا من وجه عز الدين ايبك ، ثم عاد فطلقها لما تسلطن (١) . ثم بنت الامير سيف الدين نوكاى التتري ، ثم ابنتي الامير سيف الدين كراى التتري (٢) . ثم ام الحاك السعيد بركة خان (٣) ثم ابنة حسام الدين بركة بن دولة خان التتري (٤) .

وكان له ثلاثة ابناء وسبع بنات (٥) وكان السعيد اكبر ابنائه الذكور . ويبدو ان العلاقة بين الظاهر وابنه هذا ، كانت اوثق منها بولديه الاخرين . كانت علاقة ابوة وزمالة في وقت واحد . وقد تحدثنا عن علاقاتهما الرسمية اما الناحية الابوية فلها تنضح بقوة لنا في الحادثة التالية : في ٢٢ ربيع الاول سنة ٦٧٣ هـ كان الظاهر وابنه السعيد عائد من الشوهاب وصرع السعيد في الطريق طيرا ففيل له : لمن تدعى ؟ فقال : لمن ادعوا بحياته ومن اتقرب الى الله بدعواته ، الذي حسبي افتخارا ان اتول والدي ، ومن يتمرن لصرع اعدائه ساعدى ؟ وهنا تقدم الظاهر منه وقبله (٦) .

-
- (١) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٤٠ . وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٩ .
(٢) ابن ابي الفضائل ص ٢٩٩ . المقرئى ، السلوك ، ص ٦٤٠ - ٦٤١ (٣) المقرئى ، السلوك ص ٦٤٠ - ٦٤١ وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٩ . (٤) ابن ابي الفضائل ص ٢٩٩ والمقرئى ، السلوك ، ص ٦٤٠ . وهناك ان ركن الدين بيبرس تزوج من خوارزميه حين انضم اليهم على الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٤٣ هـ . (المقرئى السلوك ، ص ٣٢٤) لكنه ليس السلطان الظاهر بيبرس . (٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٧٩ . (٦) المقرئى ، السلوك ، ص ٦١٥ . وقد تسلطن السعيد سنة ٦٧٦ ثم خلع سنة ٦٧٨ هـ . حين تولى السلطنة اخوه بدر الدين سلاش ، ثم خلع في نفس السنة وتولاها قلاوون . ولم يتول نجم الدين خضر السلطنة .

كيف كان الظاهر يفضي اوقات فراغه ؟ او هل كانت لديه اوقات فراغ يفضيها بصورة ما ؟ ان المعلومات التي لدى لا توحى بوجود اوقات فراغ . وانما تصور لنا الظاهر دائم الحركة من ميدان تدريب الى ميدان تدريب اخر ومن لعبة العبق الى الرمي بالنشاب . . . لم يكن لديه فراغ يلهو فيه . هنالك قصص عن بعض امراءه يفضون جلسات يتندرون فيها يشربون ويتماجنون . ولكن الظاهر كان يتجنب مثل هذه الجلسات . والواقع انه كان يمنعها (١) .

ويبدو انه كان للظاهر انواع اخرى من التسلية هي اللعبة التي نسميها اليوم بالبولو والسباحة ولعب الكرة وركوب الخيل والصيد . وقد احب هذه الهواية الاخيرة حبا جما ومارسها بصورة متواصلة حتى اننا نستطيع ان نقول ان رحلات الصيد كانت استعراضات مصغرة . كان يقوم برحلات الصيد في كل مناسبة اذ انه جمع فيها بين التسلية الشخصية والتدريب العسكري له ولجنوده . ولا يتخلى عن رحلة الصيد حتى حين يكون في طريقه الى معركة او في رحلة تفتيشية في سلطنته (٢) .

وكانت البلاد ، فيما يبدو ، مليئة بانواع الحيوانات للصيد . اما امكنة الصيد فكانت تتوجه واوسم والصالحية وبركة زيزا في الغالب .

وفي محرم سنة ٦٦١ هـ . خرج يتصيد في اوسم ثم صد البركة . وفي ربيع الاخر من السنة نفسها خرج الى بلاد الشام ولما وصل غزة خرج في حلقة سيد ومعه ثلاثة الاف فارس (٣) . وفي شوال من السنة نفسها توجه الى تزوجه ثم دخل البرية للصيد (٤) وفي محرم

(١) انظر سياسته نحو الخمر . . . ص ٢٢٤ اذنا ملحوظة ٣ .
(٢) اليونيني ، ج ٢ ص ٢٣٧ والمقرئى السلوك ص ٦٠١ . (٣) ابن عبد الظاهر ص ٦٥٥
والمقرئى السلوك ، ص ٤٨١ . وفي هذه الرحلة تفنطرا الاميران شمس الدين منقصر
الرومي وسيف الدين ملاوون فعني السلطان بهما حتى شفيما . (٤) ابن عبد الظاهر
ص ١٨٤ .

سنة ٦٦٢ هـ ذهب الى اوسيم ثم الى الغربية جامعا بين الرعبة بالصيد والرعبة يتفقد احوال

الرعبة • وبعد التحقيق باحوال الناس وشكاويهم توجه الى منزلة ابن حنون وتصيد (١) •

وتبين لنا عنايته بالصيد من انه ما ان فرغ من الاستعراض العسكري سنة ٦٦٢ هـ حتى قصد

الاسكندرية للصيد (٢) •

وفي محرم من السنة التالية قصد اوسيم والعباسية للصيد • وفي هذه الرحلة ادعى

له جماعة من الصيادين • (٣) • وفي هذه السنة ، حين ذهب لبلاد الشام فامد البصرة

لصد التتر مر قريبا من صيدا للصيد فتفطر به الفرص وانهم وجده وانسلخ جلده • وبقي

في يبنى رشما شفي • وهنا جاءه خبر تراجع التتر (٤) •

وفي ربيع القعدة من سنة ٦٦٤ هـ ، خرج الظاهر للصيد في جرد معلولا ووصل الى

اقاميه (٥) •

وفي محرم سنة ٦٦٥ • خرج الى بركة زيزا للصيد فسقط عن فرسه وانكسرت رجله (٦) •

واحب الظاهر السباحة لمسافات طويلة • وقد بلغ من حسن سباحته انه جرف في النيل

بسطا كبيرة فونها اميران بفرسيهما (٧) • واحب لعب الكرة حتى انه عيّن لها كل يوم سبت

وثلاثاء (٨) •

اما واهمه بركوب الخيل فكان اديدا • ولا غرو في ذلك فالخيال ضرورة عسكرية •

وهكذا نجد ان الظاهر كان راغيا من الدرجة الاولى ، الى جانب كونه جنديا •

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٩٢ • (٢) ابن عبد الظاهر ، ص ٩٢ • (٣) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٨

والمقريزي ، السلوك ، ص ٥٢٢ • ويفهم من هذا انه كانت عادة الصيادين ان ينقسموا بين

مبتدئين وهواة • وكان المبتدئون ينتمون او يدعون الانتماء لاحد الهواة • (مصطفى

زيادة ، حاشية ص ٢٢٢ من السلوك للمقريزي) • (٤) ابن عبد الظاهر ، ص ١٢ •

(٥) المقريزي ، السلوك ، ص ٥٤٩ •

(٦) ابن الغرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ورقة ١ - ٢ • (٧) المقريزي ، السلوك ، ص ٦٠٨ •

(٨) ابن عبد الظاهر ، ص ٨١ •

ثانيا - هيئة الظاهر :

كان الظاهر طويل القامة ، اسمر اللون ، حسن الوجه ، في عينيه زرقة ، وفي احداهما نقطة صغيرة . وكان مستدير اللحية يغلب عليها البياض . وكان جهوري الصوت (١) . وكان يتمتع بقوة جسمية كبيرة توحى بها المشقات الكثيرة التي تكبدها في حروبه . وهذه الصفات اساسية لنالو شئنا ان ننحت للظاهر تمثالا . ولكن يجب ان نحجب على ان تظهر في التمثال صفات اخرى ليست واضحة كهذه . وانما يجب ان نطمسها تلمسا .

ثالثا - صفات الظاهر :

كان الظاهر شجاعا ، شديد الشجاعة ، وتدل على ذلك موافقه الكثيرة في مختلف المعارك التي خاضها . فقد كان كالاسد بين الاشبال الخادرة (٢) . ثم انه كان ذا انفة وابطاء محبا للمخلصين له من امرائه . لكنه كان الى ذلك سريع الغضب ، عسوفاً عجولاً (٣) . وكان سخيا جدا . فما كادت تمر سنة الا ويتصدق فيها بالمبالغ الطائلة وبالاتمسة الكثيرة وبالخلع الوافرة . ولندكر هنا معاملته لامرائه المخلصين والتخلصي لابنائهم من نصيب الادارة من ثروات المتوفين منهم (٤) . وكانت للسلطان الظاهر هيبة وحرمة في نفوس امرائه وفي نفوس خصومه ايضا . فعند كان يهودى دفين مصافا في قلعة جعبر عندما صدها النترولما تراجعوا اخذ اليهودى ادنا من السلطان للعودة الى جعبر لنهبش امواله فسمح له ولما رآه بعض الاعراب وعرفوا انه مادون من الظاهر ساعدوه على استعادة امواله وحموه حتى وصل حماه (٥) .

(١) المقرئى بالملوك ، ص ٦٣٧ وابن اياس ج ١ ص ١١٠ . (٢) ابن عبد الظاهر ص ٢ .
 (٣) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٣٧ وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة مج ٢ ، ص ١٨٠ . (٤)
 المقرئى ، السلوك ، ص ٥٩٥ ، ٥٩٨ . (٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

وقيل ان كتبنا التتري اشار الى شجاعته في حديث له مع بعض امراءه وخواجه (١) .
ومر تجار اعجام بسيم في طريقهم الى مصر فاستولى ماحبها على بضائعهم فتهدده الظاهر
فافرج عنهم . وكان يعطي التجار توافيع منه ليمروا في بلاد فارم وكرمان والقبشاق وكانت
هذه التوافيع تحتهم (٢) .

وفي رى الحجة سنة ٦٦١ هـ ، غرّب احد امراءه دلالا حتى مات فغضب السلطان
ولجأ الامير الى سيف الدين فلاوون لانقاده . فعمد هذا الى دفع مبلغ من المال لورثة
القتيل ليقولوا ان اباهم مات قضا ، وقد را . فعرف الظاهر بالحيلة وغضب لكنه كان مضطرا
للمسكوت امام المخرج الشرعي (٣) .

وينبغي الا ننسى هنا انه كان "فيه استعداد الطبع" . فسمت الى تربي منازل
الملك نفسه (٤) .

والى جانب هذه الصفات ينسب اليه المؤرخون مفة الخدر . وقد اشرفنا الى ما فعله
بالمغيث وبحامية صفد ، ولكنني لست ارى في هذا عدرا بالمعنى الاخلاقي . لقد قلت ان
الظاهر كان يبني دولة ، وكان مصمما على ازالة جميع العبيات امامه . فهل يصح مع هذا ان
نصمه بالعدو ؟ ماذا كان المغيث يفعل به لو نجح في مقاومته ؟ لقد كانت المصلحة
التي يعمل من اجلها هي التي تحتم عليه تصرفاته . وادا نظرنا اليوم الى ما يجري في بعض انحاء
العالم باسم العدالة ، لما جازلنا ان نعتبره عادرا .

واخيرا ينبغي ان لا ننسى ان ملامح الشر كانت تلوح عليه منذ الصغر . ولد ذلك
اشارت ام صاحب حماء على ابنها ان لا تشتره . ولعلها الملامح التي طبعتها على وجهه تماوة
التشرد والخاصة .

(١) ابن عبد الظاهر ص ١٥ - ٢ - ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٨٠ .

(٢) المقرئ ، السلوك ، ص ٥٠ - ٤ - ابن عبد الظاهر ص ١ .

رابعاً - منشأته :

عني الممالك بوجه عام بالإنشاء والتعمير (١) . وبهمنا هنا ما كان منها في عهد الظاهر بيبرس . وقبل ان اذكر هذه المنشآت ينبغي ان اسجل الملاحظات التالية :

اولاً : كان القسم الاكبر من هذه المنشآت ذا صبغة عمرانية ودينية وقد كان اكثرها في مصر .

ثانياً : كان القسم الاكبر من المنشآت في بلاد الشام ذا صبغة عسكرية .

للظاهر بيبرس من الآثار الحسنة الكثيرة ما لم يبق مثله في زمن الخلفاء وملوك بني ايوب مع انه كان منهمكاً في الحروب الكثيرة (٢) . وقد تعددت انواع المنشآت فكانت مدارس وجوامع . واسبلة واربطه (٣) وبالقطع ينبغي ان لا ننسى بناء القلاع .

فما ان تسلم الظاهر السلطة حتى عهد للامير جمال الدين بن يغمور بترميم ما تهدم من قلعة جزيرة الروضة . فقام الامير بذلك ورمم ما كان تخرب من قاعاتها ثم فرق ابراجها على الامراء قلاوون وعز الدين الحلبي وعز الدين اوغان ومدر الدين بيسرى واوجب على كل منهم ان يبني فيها اصطبلاته ومنازله (٤) .

وفي سنة ٦٦٥ هـ ، شيد برجاً في قلعة الجبل . وعمر فيها دار الذهب . وبنى في رحبة الجوارح قبة عظيمة لها ١٢ عموداً من رخام ملون . واسكن في هذه القبة رجال حاشيته وامراءه . ثم عمر فيها طبقتين على رحبة جامعها . وانشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة . واخرج منه روائض وبنى عليه قبة مزخرفة السقف ، وشيد بجواره طباقاً لسكن الممالك .

(١) لخصها ابن شاکر الکلبی ، ج ١ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ . (٢) ابن کثیر ، ج ١٣ ، ص ٢٧٦ . ابن تغری
بردی النجوم ، ج ٧ ، ص ١٨١ . - ٣ - ابن عبد الظاهر ، ص ٢٩ . المقریزی ، السلوك ، ص ٤٤٦ .
ابن تغری بردی ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٢ . (٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٩ . المقریزی ،
السلوك ، ص ٤٤٦ .

وفي رحبتها بنى دارا كبيره لولده السعيد فيها ١٦ عقدا .
وبنى بظاهر القاهرة دورا واصطبلات للامراء ليعبد الممالك عن القاهرة وعن سكانها .
وبنى لابنه حماما في سوق الخيل وميدانا في البورجي غرس فيه النخيل وبلغت نفقاتها
١٦ الف دينار .

والى جانب ذلك بنى مناظر وقاعات ومبوتات كثيرة (١) واكمل بناء دار عند باب السر
الذى يفتح على سوق الخيل وجعلها دارا للدعوات التي يقيمها للامراء (٢) .
وفي اواخر سنة ٦٦١ هـ امر ببناء دار العدل تحت قلعة الجبل (٣) .
وفي سنة ٦٦٦ هـ بنى قرية الظاهرية عند العباسية (٤) .

كانت له في بلاد الشام ومصر ٤٦ قلعة (٥) وكان طبيعيا ان يباشر بالانشاءات ذات
الصبغة العسكرية ، بحكم الظروف التي كان فيها . وقد بدا ذلك في بلاد الشام .
امر ببناء مشهد في عين جالوت عرف بمشهد النصر تخليدا لذكرى صد الزحف المغولي (٦) .
رسم بترميم ما خربه التتر من قلاع الشام كقلعة دمشق التي كان التتر هدموا شراذمها وروؤس
ابراجها فجددوها ودهن سقوفها وبني فيها منظره وقلعة اتصلت وقلعة عجلون وقلعة صرخد
وقلعة بصرى وقلعة بعلبك وقلعة شيزر وقلعة الصبيه وقلعة شميمش بجوار حمص وقلعة حمص ،
فتم اصلاحها جميعا " ونظفت خنادقها ووسعت ابراجها وشحنت بالعدد وجرد اليها الممالك
والاجناد وخزنت بها الغلات والازواد " ثم جدد اسوار حصن الاكراد وعمر قلعتها (٧) . وفي
جمادى الآخرة من سنة ٦٦١ هـ ، ثم بنا " برج في قارا . وامر ببناء برج آخر اكبر منه لحفظ
الامن والدفاع ضد الفرنجة المجاورين (٨) .

(١) ابن تيمزي بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩١ (٢) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٤٤ (٣) ابن عبد
الظاهر ، ص ٩٠ (٤) المقرئى ، السلوك ، ص ٥٦٤ . ابن تيمزي بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٥ .
ابن اياس ج ١ ، ص ١١٢ . (٥) ابن ابي الفضائل ص ٤٦٦ . (٦) ابن عبد الظاهر ص ٢٩ المقرئى ،
السلوك ٤٤٦ و ٤٦٥ . (٧) ابن عبد الظاهر ص ٣ . المقرئى ، السلوك ص ٤٤٦ . ابن تيمزي بردى
النجوم ، ج ٧ ، ص ١٩٦ . ابن اياس ج ١ ، ص ١١١ . (٨) ابن عبد الظاهر ص ١٠٠ ، المقرئى السلوك
ص ٥١ . وقد جعل تاريخ قلعة قارا سنة ٦٦٢ هـ .

وامر ايضا ببناء اسوار الاسكندرية وخصص لذلك نفقات شهرية وبني مربعا
لكشف البحر في ثغر رشيد وامر بردم بحر دمياط كي يضيق ويتعذر دخوله على السفن .
وفي سنة ٦٦٢ هـ ارسل من ينظف خليج الاسكندرية وفي رمضان من السنة التالية وجه اميرا الى
بحر اشمو ثم تبعه في ٢ شوال لتنظيفه مما تجمع فيه من الحول وعرق فيه عددا من السفن .
وفي صفر سنة ٦٦٤ هـ ذهب الى الاسكندرية للمشاركة في حفرة ثم عرق فيه المراكب ليستحيل
على سفن العدو الدخول اليه (١) .

امر بتجديد صارة ثغر دمياط وبني وجدد فيه سلسلة الحديد من البر الى البحر ،
وردم الناحية التي تدخل منها مراكب العرنجة (٢) .

وفي بركة مصر قلعة العمودين وفي السويس بني قلعة ايضا (٣) .
وهدم قلعتي ميسارية وارسوف وبني قلعة في فانون بدلا منهما (٤) . وفي الكرك
هدم برجين صغيرين ثم جدد بناءهما (٥) .

وجدد باشورة في قلعة صفد وعمر فيها ابراجا وبدنات ثم انشا في الطلعة
مهرجبا كبيرا مدرجا وبني عليه برجاً بلسغ مئة ذراع (٦) .

وجدد ايضا بناء قلعة العصبية وكان التتردد دموها (٧) .

-
- (١) ابن عبد الظاهر ص ٤٩ - ٣٠ . المقرئى السلوك ص ٤٤٦ ، ٥١٠ ، ٥٣٧ ، ٥٤٤ .
القلقشندي ج ٣ ص ٤٠٤ . اليونيني ج ٢ ص ٣٢٢ . (٢) ابن ايام ج ١ ص ٨٧ .
(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٢ . (٤) ابن الفرات ج ٦ قسم ٢ ورقة ٤ ،
المقرئى ، السلوك ص ٥٥٧ .
(٥) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٥ . (٦) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
(٧) المصدر السابق ص ١٩٥ .

وفي منتصف سنة ٦٦٤هـ / شباط ١٢٦٦ م ، كلف السلطان جمال الدين محمد بن نهار
ومحمد بن رحال والى نابلس والاغوار ببناء جسر سلطاني (١) على نهر الشريعة ، في الغور .
وتم بناءه وه في رمضان سنة ٦٧١هـ . لكن اركانه تزعزعت . فاعيد اصلاحه بعد جهد جهيد
اذ ان الماء كانت تحول دون ترميمه حتى صدف ان توقفت عن الجرى في ٨ كانون الاول سنة
١٢٦٧ زما كافيا بسبب هبوط قطعة كبيرة من الارض المجاورة فيه فتم اصلاحه ثم عادت الماء
للجى كالعادة (٢) .

- وانشأ جسورا اخرى في الغور والساحل (٣) .
- وبني جسرا في كل من القليوبية ودمياط (٤) .
- وبني جسرا بين قلعة الصبية والمدينة (٥) .

لم يحصر الظاهر نشاطه العمراني في مصر في ميدان معين . وقد تناول شتى

الميادين العلمية والدينية والزراعية .

(١) الجسور نوعان — سلطانية وبلدية . الاولى عامة جامعة للبلاد ينفق عليها من الديوان السلطاني تحت اشراف كاشف الجسور . والبلدية منها يتولاها المقطعون من اموال اقطاعاتهم (زيادة حاشية
٣ السلوك ص ٦٣٨ . القلقشندي ج ٣ ص ٤٤٨ . المقرئى الخطط ج ٣ ص ١٦٥) . (٢) اليونيني
ج ٢ ، ص ٣٤٦ . المقرئى ، السلوك ، ص ٥٤٤ . ابن تغرى بردى النجوم ، ج ٧ ، ص ١٤٠ — ١٤١ ،
لكن تاريخه محرم سنة ٦٦٥هـ : M.Clement Ganneau, JA., 8eme Serie, Tome X, Nov. Dec. 1887 pp509.
صدر الامر ببناء الجسر عام ٦٦٤هـ وتم بناءه سنة ٦٧١هـ . ولا يزال باقيا لليوم وعليه
اسم المهندس والسلطان في اربعة اسطر : بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد
وصحبه اجمعين . امر بعمارة هذا الجسر المبارك مولانا السلطان الاعظم الملك الظاهر ركن الدين
بهرس بن عبد الله في ايام ولده مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان اعز الله انصاره
وغفر لهما وذلك بولاية العبد الفقير الى رحمة الله علا الدين على السواق غفر الله له ولوالديه في
شهر رمضان سنة احدى وسبعين وسبعماية : ملحوظة ٦ ص ١٤٠ — ١٤١ من النجوم ج ٧ ، ابن تغرى
بردى . (٣) ابن تغرى بردى النجوم ، ج ٧ ، ص ١٩٥ (٤) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٣٨ و ٦٣٩ .
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٢ .
(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٩٥ .

ولعل اروع ما بناء في مصر هو المدرسة المعروفة باسمه بين القصرين . فقد بدئ
ببنائها في ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ وانتهت عمارتها في سنة ٦٦٢ هـ . وكان لهذه المدرسة
اربعة ايوانات وفيها خزانة كتب تحتوى على امهات الكتب في مختلف العلوم . ثم بني بجوارها
مكتبا يتعلم فيه الايتام القرآن . وبني فيها سقاية ماء .
وتقع هذه المدرسة بجوار قبة الملك الصالح نجم الدين . وكان لهذه المدرسة باب
جميل من النحاس ، حسن الصنع متقن الزخرفة منقوش عليه اسم الملك الظاهر وسنة ٦٦١ هـ .
ثم رتب فيها مدرسين للمذاهب الشافعية والحنفية والمالكية ودون الحنبلية . ورتب
شيخا لتدريس الحديث ، ومقرئين لاقراء القرآن وخصص لهم جميعا طعاما وكسوة .
وابتدأ التدريس فيها في ١٣ صفر سنة ٦٦٢ هـ وقد حضر حفلة الافتتاح السلطان
والوزير ابن حنا واستاذ الدار ابن يغمور وعدد من الامراء والاعيان . والقى الشعراء قصائد هم
احتفا بهذه المناسبة (١) .
في رجب ٦٦٢ هـ بلغه ان على المشهد الحسيني جامعاً بقره موضع للقصر . وكان
مكان الجامع قد بيع وارسل المبلغ للديوان فامر الظاهر برد المبلغ وبناء المسجد (٢) .

(١) احتلت المدرسة قاعتي الخيام واللوتس في قصر الفاطميين الذي استولى عليه الظاهر باسم بيت
المال . والقصران احدهما قصر بناء كافور الاخشيدى وثانيهما بناء جوهر الصقلي . ابن عبد الظاهر
ص ٢٩ ، اليونيني ج ١ ص ٥٥١ — ٥٥٢ و ج ٢ ص ٢٣٠ ، ابن ابي الفضائل ص ٤٦٦ ، ابن الفرات ج ٦
قسم ١ ، ص ٣٧ ق ٣٨ ، و ، المقرئى ، السلوك ص ٥٠٣ و ٥٥٦ ، الخطط ، ج ٢ ص ٤٠٠ ، ابن تغرى بردى
النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

Margoliouth, D.S., Cairo, Jerusalem, and
Damascus, three chief cities of the Egyptian Sultans,

F. Sadeque ، ص ١١٤ ملحوظة ٢ ، Dodd, Mead & Coy, N.Y. 1907 ص ٢٢ — ٢٣ ،

وينبغي ان نلاحظ ان التواريخ بشأن بناء المدرسة وافتتاحها لمست كلها واحدة .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ص ٥١١ — ٥١٢ .

وفي جمادى الآخرة من سنة ٦٦٤ هـ بدي بناء جامع الظاهر في ميدان قراقوش بالحسينية بجوار مدرسته وانفق عليه ما يزيد على مليون درهم . وسبب بنائه كثرة الزوار لزواية الشيخ خضر هناك .
 شرع في بنائه في ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ ودشنه بحضور الوزير في ٨ ربيع الآخر . وجلبت له الاخشاب وحجارة الرخام وغيرها من ادوات البناء من سائر انحاء السلطنة . وزينه بنقوش حتى صار احسن مثل للمساجد الفخمة التي بنيت في عهد المعاليك البحرية .
 ثم رتب له اماما حنفيا (١) .

وفي هذه السنة اجري ترميمات هامة في الجامع الازهر (٢) .
 وانشأ في مصر عدة جوامع اخرى (٣) وفي سنة ربيع الآخر سنة ٦٦٩ هـ تم بناء جامع المنشية واول ما اقيمت فيه خطبه الجمعة كان يوم ٢٨ ربيع الآخر (٤) .
 شهد قناطر السباع على الخليج (٥) .

وفي سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م بوشربنا قنطرة على بحراي المنجا . وفي محرم سنة ٦٧٧ هـ اعيد فتح البحر (٦) وفي السنة التالية تمت القناطر فكانت عجيبة في بنائها متينة (٧) وبنى قناطر كثيرة منها قنطرة منية السرج والقصر على بحراي اش ذات سبعة ابواب وفي الجسر الموصل الى دمياط ذات ١٦ قنطرة وعلى خليج الاسكندرية (٨) . وامر بتكملة عمارة بئر اللبون

١ ابن الفرات، ج٦، قسم ٢، ورقة ١ و ٢ . المقرئ، السلوك ص ٥٥٦ و ٥٨٨ . ابن تغري بريدى
 النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٩٢ . اليونيني ج ٢ ص ٣٦١ . ابن أبي الفضائل ص ١٦١ . حسن ص ٤٢ .
 ويسمى ايضا جامع العافية وهو الان خرب ويسمى مكانه ميدان الظاهر . (٢) ابن الفرات ج ٦، قسم ٢
 ورقة ٤ . (٣) ابن تغري بريدى النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٢ . (٤) اليونيني، ج ٢، ص ٤٤٣ . ابن
 تغري بريدى النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٥٠ . (٥) المقرئ السلوك، ج ٢ ص ١٤٦ (٦) ابن الفرات، ج ٦،
 قسم ٢، ورقة ٨، المقرئ السلوك ص ٥٦ و ٥٧٣ و ٦٣٩ . وكان قد انشئ في عهد الامر بالله الفاطمي
 تحت اشراف ابي المنجا شعبا اليهودى فعرف باسمه (المقرئ الخطط ج ٢ ص ٣٨١ — ٣٨٢، وابن تغري
 بريدى النجوم ج ٧ ص ١٩٣) (٧) اليونيني ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٣٣ . المقرئ السلوك ص ٦٣٩ . ابن تغري
 بريدى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٨ و ١٤٩ . والنهية من العمل في القناطر كانت ٦٦٩ هـ عند اليونيني
 وابن تغري بريدى (٨) المقرئ، السلوك ص ٦٣٨ وابن تغري بريدى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٣ .

بجوار الاسكندرية في شعبان سنة ٦٦٢ هـ (١) .

وحفر خلجانا كثيرة منها خليج الاسكندرية . وبحر اشميم ، وترعة الصلاح وخور سخا ،

والمحامدى ، والكافورى ، وبحر الصمصام وسردوس وبعض ترعة ابي الفضل (٢) .

وبالقياس عمر " قبة رفيعة مزخرفة (٣) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م امر بعمارة القناطر بجسر شمرانت من الجيزة احيا الاراضي

التي لم تكن تصلها الماء (٤) .

وفي سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ، امر ببناء قرية الظاهرية عند العباسية (٥) .

وتناول نشاطه العمراني ببلاد الشام نواحي مختلفة منها الناحية العسكرية والدينية

والتعليمية والاجتماعية فقد نالت دمشق حظا كبيرا من عنايته . فقد بنى فيها مدرسة عرفت

باسمها ايضا (٦) . وهي من ابداع ابنية الشرق بحجارتها الملونة ونقوشها بالفسيفساء المذهبة

والملونة البديعة الممثلة نباتات مشبكة واشجارا وابنية واشكالا هندسية (٧) . وفي رمضان

سنة ٦٦٣ هـ شرع بتبليط قسم من الجامع الاموى وجدد بعضه ، وامر بتروخيم حائطه الشمالي

وجدد مشهد زين العابدين ، وبنى فيه بركة ماء . وفي اوائل سنة ٦٦٤ هـ جدّد بناء حوض

في شرقي القناة بباب البريد (٨) .

وفي سنة ٦٦٥ هـ انشأ القصر الابلق في الميدان الاخضر على نهر بردى ، وكان بناؤه

بالرخام الابيض والاسود . وكانت البساتين تحيط به من كل جانب (٩) .

وبنى فيها حماما خارج باب النصر وجدد بناء ثلاثة اصطبلات . ورمّ شعت مغارة الدم (١٠) .

(١) ابن عبد الظاهر ص ٩٣ . (٢) ابن عبد الظاهر ص ٢٨ ، المقرئى ، السلوك ، ص ٦٣٩ . ابن تغرى
بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٣ . وبحر الصمصام هو بحر الصمصام في السلوك ، ص ٦٣٩ . (٣)
ابن تغرى بردى النجوم ج ٧ ص ١٩٢ . (٤) ابن عبد الظاهر ص ٢٩ المقرئى السلوك ص ٤٤٦ . (٥)
ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ١٣ . (٦) ابن كثير ج ١٣ ص ٢٧٦ وابن تغرى بردى النجوم ج ٧ ص
١٩٥ - ١٩٦ . ابن اياس ج ١ ص ١١١ . (٧) مقال لمدى اعمال المجمع العلمي العربي "مجلة المجمع
ج ٢ ص ٢٢٠ . (٨) ابو شامة ج ٢٣٧ ومصادر المخطوطات السابقة (٩) ابن الفرات ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة
٨ المقرئى السلوك ص ٥٦١ . (١٠) انظر ملحوظة ٦ .

وفي سنة ٦٦١ هـ اعز الظاهر ببنا خان فيها وجي له بباب من القاهرة كان على دهليز قصر من قصور الفاطميين . واوقف عليه غلات بساتين في امكنه مختلفة من بلاد الشام لتصرف على اطعام ابنا السبيل واصلاح نعال المسافرين . وبنى له طاحونا وفرنا (١) وفي سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م ، امر باصلاح قناة المياه (٢) .

في صفر سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ، امر ببنا مسجد الخليل (٣) .

وفي سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م ، تم بنا صخرة بيت المقدس (٤) . ثم جدد جامع الرملة وقبر

جعفر الطيار وقبر نوح في الكرك (٥) .

وفي قاقون بنى جامعا وحوضا لابنا السبيل (٦) وغير كنيسة صدد الى جامع وانشأ فيها رباطا (٧)

وانشا في الصبية دارا لنائبه فيها ومنارة لجامعها (٨) .

اما قارا فجعل كنيستها جامعا .

وفي ربيع الآخر سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٠ كان الظاهر في حلب فبنى دارا شمالي قلعتها ثم

اضاف دارا اخرى اليها (٩) .

وفي المدينة المنورة اتم عمارة مسجد الرسول . ثم جعل للضريح درا بزينا ولون سقوفه

بالذهب وببيض جدرانه وبنى فيها مستشفى جهزه بالادوية والاطباء (١٠) .

(١) اليونيني ج ١ ص ٥٥٤ وج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ . المقرئى السلوك ص ٤٩١ ، ٥٢١ . ابن تغرى بردى النجوم ج ٧ ص ١٢١ و ١٩٤ . جعل اليونيني التاريخ سنة ٦٦٢ هـ (٢) ابن الفرات ج ٦ ، قسم ٢ ، ورقة ٨ . (٣) المقرئى السلوك ص ٥٦٣ ، ٥٦٥ . ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ . (٤) ابن عبد الظاهر ص ٢٨ . المقرئى السلوك ص ٦٠٨ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ (٥) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ . ابن كثير ج ١٣ ص ٢٧٦ . (٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٥ (٧) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٥ . (٨) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٢ ، ص ٤٦٨ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٦ . (١٠) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٩٤ .

وهكذا يبدو لنا ان السلطان الظاهر لم يكن يكتفي بسماع نعيعة السلاح وحسب ،
وانما كان يعنى الى درجة كبيرة بالناحية العمرانية ، كانه كان يحب ان يسمع رنة
الادوات البانية ايضا . " بنى ما لم يكن في ايام الخلفاء المصريين ولا ملوك
بني ايوب من الابنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمصاجد والحمامات " حتى
انتشرت عمارته " من قريب مسجد النين الى اسوار القاهرة الى الخليج وارض الطبالة
واتصلت العمارات الى باب المقسم الى الموق الى البورجي ، ومن الشارع الى الكيش وحدة
بني فميحة الى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة الى السور العراوني " (١) وكذلك
عني بالبناء في بلاد الشام . ولكننا نلاحظ انه لم يعن بالناحية الزراعية في بلاد الشام .

(١) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ . منار الكيش
قصور انشأها الملك المالح نجم الدين ايوب على جبل يشكر بجوار الجامع الطولوني
مشرفة على برك وبساتين وعلى النيل . بقيت منازل ملكية حتى سنة ٧٦٨ هـ .
(النجوم ج ٧ ص ١١٩ ملحوظة ٢٠) .

الفصل الثامن .

حول المجتمع المملوكي في عهد الظاهر .

ليس المقصود هنا ان اتناول المجتمع المملوكي في عهد السلطان الظاهر . ومثل هذا البحث لا يصح في فترة لم تتجاوز سبعة عشر عاما لم تكن كافية ليتبلور فيها المجتمع المملوكي . ولكنني رأيت ان اضع هنا بعض ما عثرت عليه وبعض ما استنتجته ، حول هذه الناحية ، اثناء مطالعاتي (١) .

كان المجتمع المملوكي يتكون من عناصر مختلفة اكثرها عددا هم السكان الاصليون . وهناك الاكراد والتركمان . لكن المماليك كانوا فوق هؤلاء جميعا ولو ان عددهم كان يقل عن عدد السكان الاصليين بكثير . واحسب ان عددهم (٢) لم يكن يزيد عن بضعة وعشرين الفا . وعن هؤلاء ساقصر حديثي الآن .

وقد تميز المجتمع المملوكي هذا بصفات هامة هي :

اولا - كان المماليك طائفة منفصلة عن حواليهم من السكان وظلوا كذلك ولم يختلطوا بالسكان الاصليين ، ولا سمحوا لهؤلاء بالاختلاط بهم ولم يتزوجوا من بنات السكان الاصليين الا نادرا ، بل كانوا يتزوجون الرقيقات .

(١) وقد تناول D. Ayalon المجتمع المملوكي من ناحية العلاقات بين الاستاذ ومماليكه في دراسة صغيرة بعنوان *L'Esclavage du Mamelouk* وهو يرى ان معلوماتنا عن حياة المملوك ونشاطه اثناء استرقاقه ليست كافية . لكنها اوفر حين تتناول اثر الاسترقاق في علاقات المماليك بالاستاذ . وقد كانت الفرقة تبقى بعد وفاة السلطان ، الى ان يموت جميع اعضاءها وقل ان تذوب في فرقة اخرى لسلطان آخر . (٢) لا تشير المصادر بصورة واضحة الى عدد المماليك . وانما هنالك تلميحات حطنتني الى مثل هذا التقدير . فقد ذكر المقرئ (السلوك ، ص ٥١٤) ان عدد مماليك الظاهر كان كبيرا جدا حتى انه كان يعتق ثلاثين نسمة كل ليلة من ليالي رمضان . وجاء في النجوم الزاهرة ، (ج ٧ ، ص ١٧٩) انه "كان للملك الظاهر اربعة آلاف مملوك مشتريات امرا" وخاصكيه واصحاب وظائف " . ولنذكر هنا ان عدد امراء المئة في مقدمي الالف ، كان ٢٤ اميرا ام ان عدد الجنود كان ٢٤ الفا على ابعد تقدير . راجع المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٤٢ وما بعدها .

ثانيا - تميز المماليك الجدد عن ابناء المماليك القدماء - اولاد الناصر -

ثالثا - لم يسمحوا للسكان المسلمين بالانخراط بالجندية ، بل سمحوا للمغلبين منهم بالاستغفال بالاعمال الادارية ، ووجهوهم للمعمل في الشؤون الزراعية والصناعية والتجارية .

كان التجنيد محصورا بالارقاء الجدد .

رابعا - انضم المماليك فيما بينهم ، على رءس اتحادهم ازاء السكان المسلمين . وقد كانوا كتلا متناوئة تحارب الواحدة منهم الاخرى . كان انتسابهم الى استادهم بالدرجة الاولى ولم اجد انهم انقسموا على اساس اصولهم . لكن مثل هذا الانقسام ، على هذا الاساس من الاخير كان لا بد له من الظهور في دور المماليك الجراكسة .

خامسا - كانت رابطة المملوك باستاذه وثيقة في حالتي الضراء والسراء . والواحد منهما خشداشي الاخر ويستولي على موجوداته عند وفاته (١) . وقد يصل المملوك الى اعلى مرتبة لكن اسمه يظل مربوطا باسم استاده . ولا تنقطع هذه الصلة بوفاة الاستاد .

سادسا - الترفي من مرتبة الى اخرى مفتوح للجميع ، لكنه بني على المقدرة الجسدية والعسكرية ، وعلى الحنكة في التأمروالعدو . وكان ممالك السلطان امحاب الاسبقية فسي الترفي منهم نواة الجيش متى اعدوا ادخلوا في حرمه . ولا اعتبار للاصل ولا الموطن ولا للعشاة .

سابعا - كثر الغدراء ودور العاهات في هذا المجتمع فكان لا بد للظاهر من العناية بهم وجمعهم في امكنة خاصة ، لاسيما في اوقات المجاعات . ولعل هذا هو ما جعل الظاهر يكثر من انشاء الخانات والاقاف (٢) .

(١) ابطال الظاهر هذه العادة سنة ٦٦٢ هـ . انظر ص ١٤٣ اعلاه .

(٢) المغريزي ، السلوك ، ص ٥٥٢ .

ثامنا — لم يكن للمرأة احترام في هذا المجتمع . وقد شدد المماليك وضيقوا عليهم .
تاسعا — كان المماليك ازدواجيين في حياتهم . فهم في حياتهم الخاصة " لا يتورعون عن
اتيان اشنع المنكرات والتعسف في اذى الخلق واهراق الدماء بلا اكتراب بابطال المبادئ الانسانية
" لكنهم على عكس ذلك في الحياة العامة يتمسكون " بقواعد الدين الحنيف من حيث الصلاة والزكاة
وتشييد العمائر الدينية (١) .

كان عصرهم عصر انحلال خلقي . ومع ان بذور هذا الانحلال كانت موجودة من قبلهم فانها
ثمنت في عهدهم . " واخبار الاسراف في صنع الخمر وشربها وانتشار الزنا وتعاطي المخدرات
والشذوذ الجنسي " كثيرة تدلنا على ذلك حلقاتهم الغنائية المتعددة . وقصة الوليمة التي
اقامها لاجين بن عبد الله الامير حسام الدين الجوكندار العزيزي مشهورة (٢) .
وقد عمد الظاهر الى كبح هذه العيوب ومحاربتها . ولذلك اصدر عدة مراسيم (٣) .

(١) على ابراهيم حسن ، ص ٢٥ . (٢) اليونيني ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ — ٣٠٣ . توفي الامير سنة ٦٦٢ هـ .
(٣) حرم السلطان الظاهر الحشيشة والخمر لاسباب دينية وعسكرية وراقب تنفيذ هذا التحريم . ففي
سنتي ٦٦٢ هـ و ٦٦٣ هـ حرم المذر واغلق بهوته ومنع النساء من التزيين بازياء الرجال . وفي ذي
القعدة من السنة التالية الغي ضمان الحشيشة وادب اكلها (المقرئى السلوك ٥٥٠ ، ٥٥٣) واعاد
اعلان هذا المرسوم سنة ٦٦٥ هـ . ومنعت النساء من العمل في الحانات حتى انه امر بصلب ابن
الكازروني في حالة سكره وعلق الكاس والجرة في عنقه (ابن شاکر الكتبي ، ج ١ ، ص ١٧٠ — ١٧١ ،
المقرئى ، السلوك ص ٥٥٣ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٤) وخاف الناس وامتنعوا عن الشرب حتى قال
الشاعر

مات يا قوم شيخنا ابليس وخلا منه ربه المأنوس .

وفي سنة ٦٦٧ هـ امر بازالة الخمر والغا ببيوت النساء والخواطي (المقرئى ، السلوك ٥٧٨) وفي سنة
٦٦٨ هـ قام بحملة تفتيشية على حانات الشرب والمواخير . وفي سنة ٦٦٩ هـ اعاد اعلان تعليماته مرة
اخرى وفي سنة ٦٧٠ هـ امر " باراقة الخمر وازالة المنكرات " وفي سنة ٦٧١ هـ رفران يمنح المغنيين
خلعا وهدايا . وفي سنة ٦٧٤ هـ شنع ملوكا شرب الخمر (ابن عبد الظاهر ص ٩٠ ، اليونيني ، ج ٢
ص ٤٥٤ ، الذهبي ، ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠ ، ابن شاکر الكتبي ، ج ١ ص ١٧٠ — ١٧١ ابن الفرات ،
ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٤٣ ، ٨٣ ، ٨٦ ، المقرئى السلوك ص ٥٠٣ ، ٥٢٥ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦١٢ ،
الخطط ج ١ ص ١٨٨ ج ٢ ، ص ١٠٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٤ ، ابن اياس ،
ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٧) .

للحد منها ، لكن كثرة اصدار الحراسيم تدل على انه لم يوفق الى حد بعيد للنضاء عليها .
وقد انتشرت من بعده .

عاشرا — كان هذا المجتمع هرميا في شكله فاعده السكان الاسليون فالعماليك الارما
وراسه السلطان . ولكن طبقات هذا المجتمع كانت متمايزة الى حد بعيد ، لاسملة بين
الانلس والادنى الاسملة السيد بالحمود . فهو جدار فائم مداما فوق مداما ولكن الحجارة
في هذا المداما ليست مشدودة بعضها الى بعض .

الحالة الاقتصادية العامة .

وهنا ايضا لنسححوا ان نتحدث عن الحالة الاقتصادية العامة في فترة
وجيزة كقترتنا هذه . ولكنه لابد من تسجيل بعض ملاحظات سريعة من خلال ما عثرت عليه
في المصادر . وقد يكون هذا نواة لدراسة مقبلة اكثر شمولا ، تتناول عهد العماليك كله .

كانت مصادر الثروة في عهد الظاهر اربعة انواع هي .

اولا — علات الارض المنطعة للامراء والخواص والاجناد . وقد كان قسم منها
يعود الى الامراء السلطانية بالاضافة الى العلة التي تعود اليها من اراضي السلطنة .
ثانيا — الضرائب التي تؤخذ من التجار كالعشر على التجار القادمين الى مصر
وعلى المرور في ثغورها ورسو السفن فيها . وقد كانت مصر طريقا للموافل التجارية بين
الهند واوروبا .

ثالثا - الضرائب العادية كالخراج والزكاة والجزية والجوالي والضريبة على المعادن

وعلى تركات الموارث • ومحصول دار الضرب (١) •

رابعا - المصادرات والاستخراجات • وقد كثر عدد في عهد الظاهر • وهنالك امثلة

منها نربأبن الفخاعي في ١٠ شعبان سنة ٦٦٦ هـ حتى الموت بعد اخذ موافقة الخطيبة

على تسليم امواله للسلطان (٢) • ومنها مصادرة اموال شيخ حنبلي في ٢ شعبان سنة ٦٧٤ هـ

ومصادرة اموال الواسي على يد الشيخ • والدافع للمصادرة هي التهمة بالندح في الدولة (٣)

خامسا - الضرائب التي كانت تفرض على الناصر عمة في الظروف الاستثنائية • وقد

كان يصادر الدواوين ويجبي الاموال مضاعفة من الرعية ، لاسيما جوالي النصارى • وكان

يصادر ارباب الاموال (٤) •

وبلغت مداخيل السلطان الظاهر ارباما كبيرة ولا ريب ، يدل على ذلك ما انعمه على

الحملات العسكرية الكبيرة • وكذلك كثرت الثروات الخاصة وبلغت ارباما خيالية (٥) •

وكان دخل الملوك ، ايا كانت رتبته ، من عدة اقطاعه بالدرجة الاولى • انفس التي

ما كان يعطى له قبل الحملة او بعدها ، وعند انتقال السلطنة ، وهو ما يسمى بنفقة البيعة ،

او ما يوزع عليه في مناسبات خاصة من لحوم وكسوة وعليق وخبيل وجمال •

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٤ ، الطشندى ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،

ج ٧ ، ص ١٩٨ • (٢) اليونيني ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، (٣) اليونيني ج ٢ ، ص ٤٧٠ •

(٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٤ ، الطشندى ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ ، الصريزي الملوك ، ص ٦٤ ، ابن

تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٨ •

(٥) ابن شاذكر الكتبي ، ج ١ ، ص ٣٧ •

وكانت النفقات ، تبعاً لذلك ، كبيرة ايضاً . فهناك النفقات في البيوت السلطانية وقد بلغت نحو نصف مليون دينار في احدى السنوات . والنفقات على الجيش ، وما يحيط بالماليك من جامكيات ، وقد كانت تبلغ نحو ٢٨٠ الف دينار في السنة ، ونفقات دور الخسوف واولادهم ، ثم الدرات بللغراء والمستخدمين في العمور ، والاطعام والصلف والكارات والمعدات حتى بلغ ما ينفقه السلطان في سنة نحو مليون وستماية الف دينار وخمسمائة ٣٠٠ مركب مسن الغلال (١) . هذا غير ما كان الامراء ينفقونه .

وعلى كبر هذه النفقات فقد كان الظاهر حريماً ان لا يخل بالتوازن بين الدخل والانفاق . ولذلك عين امينا خزانة البيت المال وكان يتشدد في جمع الضرائب ريثما تسمى المصادرة والتهديد بالاحراق والضرب بالمقارع (٢) . وكان يشرف بنفسه على ذلك كسبي لا يخل بالتوازن . وقد راينا ان يقوم بعمليات على الاعراب لاجبارهم على الدفع .

وكانت في هذه انواع من الدراهم هي الكاملة والناسخية واليافية . وقد ضرب نقوداً باسمه فيها ٧٠ بالمئة فضة و ٣٠ بالمئة نحاساً ووضع عليها رنكة الامد واسمعت على مع الدراهم الاخرى في مصر وبلاد الشام (٣) .

وكان طبيعياً ان يعنى الظاهر بمصادر الثروة الداخلية كالزراعة والصناعة والتجارة . وقد كان السكان الاصليون يعملون بالزراعة والصناعة بالدرجة الاولى .

-
- (١) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٤ ، ٩٠ ما بن شاعر الكتبي مج ١ ، ١٧٠ القلقشندي مج ٣ ، ص ٤٥٢ - ٤٦٣ بالمقريزي ، السلوك ، ص ٥٠٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ابن تشرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .
- (٢) ابن الغرات ، ج ٦ قسم ٢ ، ورقة ٥ ، المقريزي السلوك ، ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٦٤٠ .
- (٣) المقريزي ، كتاب النقود الاسلامية ص ١٥ .

الزراعة •

كانت ارغمني مصر في عهد الظاهر موزعة بين السلطان والامراء والاجناد • كانت للسلطان اربعة مرابط وكان الباقي موزعا بالتساوي بين الامراء والاجناد • اما في بلاد الشام فقد اختلف التقسيم • وقد راينا الظاهر يقطع الارض على امراءه بعد فتح قيسارية •

وعني الظاهر بالزراعة عناية خاصة وارصى بالمحافظة على المزروعات وانشاء التسقيع والخلجان والقنوات والنفاطر والجمور كما يتبين مما ذكرناه في فصل سابق عن انشاءات هذا الرجل (١) •

الصناعة •

وعني ايضا بالصناعات المعدنية ، تدل على ذلك مدينته لبركة خان (٢) • وهنالك ايضا صناعة الادوية وصناعة السفن ، والنسيج والزجاج واللات الحربية (٣) • ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان الصناعة كانت حرة بصورة عامة كما نستدل من الاسواق الخاصة بالادوات الحربية ، وزخرفية كما نستدل من الاثار •

التجارة •

وفي عهد الظاهر نشطت الحركة التجارية • وقد عمل على ذلك بنفسه فعقد المعامدات التجارية مع صقلية وقشتالة وارموني والبندقية وجنوى وسيلان واليمن ونهضت اسواق مصر بمختلف انواع البضائع (٤) •

ولتشجيع التجارة كان يعنى بالمحافظة على سلامة الطرق التجارية من البحر الاحمر فالبحر المتوسط عبر مصر (٥) ولذلك وجه عناية للاستيلاء على بيروت •

(١) الفصل السابع
(٢) ابن عمري القضايل ص ١١٢
(٣) المنري السلوك ، ص ٥١ و ٥٥٦
(٤) القلقشندي ج ١٣ ص ٣٤ ، المنري ، السلوك ص ٧١٣ ، وعاشور ص ٢٠٩
(٥) القلقشندي ج ٢ ص ٤٦٨ •

المجاعات:

ولئن كانت الزراعة والصناعة والتجارة مزدهرة في عهد الظاهر، ولئن كانت المداخل كبيرة والنفقات كبيرة فإن ذلك لا يعني أن الناصر عامة كانوا في خير. فقد كثرت المجاعات في عهد المماليك عامة، وكان منها في عهد الظاهر عدد كبير وتعود أسباب هذه المجاعات إلى سوء معاملة المماليك البحرية كأفراد الناصر وإلى كثرة الضرائب المثرونة عليهم، وإلى استغلال التجار والمستولين أخبار الحروب والأرجافات بالزخرف والارجية، وإلى العيش في حرب النفود (١) وإلى الحركات الداخلية (٢) وأخيرا إلى شح النيل (٣).

وفي سنة ٦٦٠ هـ اشتد الغلاء ببلاد الشام عامة، ومات الكثيرون من الجوع (٤) وفي ربيع الآخر سنة ٦٦٢ هـ غلت الأسعار في مصر فلجأ السلطان إلى خطة التسعير لكن الحالة ازدادت تازما فجمع الفقراء ووزع بعضهم على الأمراء وأمر الأمراء السلطانية ببيع ٥٠٠ أردب كل يوم بكميات قليلة، واستبقى لنفسه بعضا منهم لأطعامهم (٥). ثم انتهى بعض النفود المزيفة فكان الناصرية وعمد إلى تخفيض مبلغ ضمان حرب النفود (٦). ثم أمر بالغاء الضرائب (٧).

- (١) حدث علاء عام ٦٥٨ هـ لأن الفرنجة ضربوا نفودا يافيه مغشوشة فيها ١٥٠ / ٠ فضة فكان الناس يخرجونها بكثر فالتخلص منها فيقع الغلاء (ابو شامة، تراجم ص ٢١١) والنفود التي ضربت في عهد الكامل تغيرت فصار الدرهم منها ٢٤ فلسا بدلا من أن كان ٤٨. (المقريزي، افاتة الامة، ص ٦٩ - ٧٠)
- (٢) تحركات سنجر الحلبي والبرلي (ابن عبد الظاهر ص ٣٤) (٣) كما في سنة ٦٦١ و ٦٧١ و ٦٧٢ هـ ابن ايامر ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٨ (٤) اليونيني ج ١ ص ٤٩٩ و ج ٢ ص ١٦٢، (٥) ابن عبد الظاهر ص ٩٤ هـ ٩٥. اليونيني ج ١ ص ٥٥٥ و ج ٢ ص ٢٣٢. المقريزي الملوك، ص ٥٠٦ - ٥٠٨. ابن تغري بردى، النجوم ج ٧ ص ٢١٣ - ٢١٤ وابن ايامر ج ١ ص ١٠٣. (٦) ابن عبد الظاهر ص ٩٥. المقريزي، السلوك، ص ٥٠٨ (٧) المقريزي السلوك ص ٥١٤.

وكانت الحالة العامة في السنوات الاولى من عهد الظاهر سيئة حتى انه اضطر لاعلان

الاعفاء من الرسوم في رمضان سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م وفي ذى الحجة سنة ٦٦٢ هـ (١) /

١٢٦٥ م.

وهكذا نستطيع القول ان المعاملة وعددهم لم يتجاوز العشرين الفا كانوا طبقة تحكم البلاد على هواها وتستغل خيراتهم، كأنها شركة يقتسم افرادها المنتوجات فيـ ما بينهم بائنا السلطات وتذلل كثرة السكان تحت رحمتهم .

معاملة النصارى:

كانت معاملة السلطان الظاهر بيبرس للنصارى الاصليين من سكان البلاد عنيفة بوجه عام . اما تعليل هذا فليس بالشئ اليسير . قد يسهل فهم عدائه للنصارى الصليبيين الغزاة، ولكن المعاملة التي لقيها النصارى من سكان البلاد الاصليين، على يديه، بعد حسن علاقته مع الحبشة باستمرار ومع الاسكندرية، احيانا، لا يمكن ان يفسر الا بانه تأثر بموقفه من الفرنجة من جهة وتغطية لمصادرة اموالهم من جهة ثانية .

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٦٢ هـ وقع حريق في الباطنية في القاهرة، فاحترقت ٦٢ دارا

جامعة بينها ربيع فرج لاسراف المدينة وربع العادل الموقوف على الساقية .

وانهم الظاهر النصارى واليهود بذلك وفي ١٨ سببا امر بالقبر عليهم جميعا وبوضعهم

(١) ابن عبد الظاهر، ص ١٠٤ . اليونيني، ج ٢، ص ٣٢٤ .

في جورة وحولهم الاحطاب المشتعلة، لكن راهبا يعمر بالحبير وعد النصار بالتعويض عن

الحرائق بنصف مليون دينار فعفا عنهم (١) .

وفي ذل الحدة سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ حرق الناصر من دمشق لملاقاة حبيسه عائدا

من غارة ناجحة على سير فمر في قارا فنهبها وقب على الرهبان ووسد بهم واخذ اهل

البلد الى ظاهرها وضربت رقابهم جميعا واسر منهم نحو الـ رجل وامرأة وولد . ثم احرقها

وخرب كنيستها ثم حولها حامعا . واستبدل سكانها بتركمان . وسبب ذل ان اهل قارا

كانوا يخطفون التجار واهل الضياع ويستولون على اموالهم وينزعونهم ويبيعونهم اسرى للفرنجة (٢) .

وفي سنة ٦٦٦ هـ احضر الناصر الراهب (٣) وطلب منه المال كله ففر هذا

تأديته دفعة واحدة لانه يسعف به المصادر والمعوذين فامر السلطان بتعذيبه حتى

مات وهو بظاهر القلعة . ثم افق قريبا الاسكندرية بسرعة مقتله لاني في اعماله ما قد

يؤثر على ضعاف النفوس من المسلمين .

(١) ابن شاكر الكتبي ج ١ ص ١٥٩ . ابن تغري بردي النجوم ج ٧ ص ١٤٠ . اليونيني ج ٢

ص ٣٢٠ — ٣٢٢ . ابن ابي الفخائل ص ١٣٥ — ١٣٧ . المقرئ السلو ص ٥٢٠ .

ابن اياس ج ١ ص ١٠٤ . على انه ينبغي ان اتوه دنا بثلاثة اسبعا اولها ان المقرئ

يقول انه " اشيع ان ذلك من النصارى " مما يوحي بانه لم يكن متأكدا من الرواية .

وثانيهما ان المبل ٥٠٠ الف عند ابن ابي الفضائل واليونيني وهو خمسون الفا عند

المقرئ . وثالثها ان الذي من دفع التعويض هو الميراث عند المقرئ . لا الراهب المعروف

بالحبير . ثم ان اليونيني وابن ابي الفضائل يتفقان على ان الراهب كان يستد

هذه الاموال لمساعدة الذين يصادر اموالهم من سائر الطوائف " اما النويري (نقلا

عن E. Blochet ، النهج السديد ص ٣٥٦ و ٤٧٦) فيقول ان الحرائر سببها النصارى

في مصر انتقاما لما فعله الناصر بالفرنجة ببلاد الشام . (٢) اليونيني ، ج ٢ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

ابو الفداء ، ج ٤ ص ٤٠٤ . ابن ابي الفخائل ص ٤٩٥ — ٤٩٧ . ابن الفراء ج ٦ ،

قسم ٢ ، ورقة ٧٨ . المقرئ السلو ص ٥٥٢ — ٥٥٣ . (٣) كان كاتباً ثم ترهب .

مصادر ملحوظة ٢ ص ٢٣٠ . واليونيني ج ٢ ص ٣٩٠ .

بـ سـ بـ سـ والعلم والادب :

لم يكن الظاهر ليغفل أهمية اثر المدارس في تثبيت سلطانه وفي القضاء على المذاهب الدينية المعارضة . لذلك لم تكد تستهمل سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٢ حتى دسّن المدرسة الظاهرية بباب القصرين يوم الاحد ٥ صفر . وفي هذه المناسبة القيت قصائد كثيرة، لم يحفظ لنا منها الا القليل .

ثم بنى الى جانبها خزانة كتب جليلة، وبنى ايضا مكتبا قرر لمرميه من الاتساع خبزا يوميا وكسوة لفصلي الصيف والشتاء (١) .

وكذلك بنى في دمشق مدرسة ثانية عرفت بالظاهرية ايضا . وهي المعروفة بالمدرسة الظاهرية الحوانية بحوار الجامع الاموي . وقد كانت دار والد صلاح الدين الايوبي . ثم صارت دارا للعقيقي فمدرسة وترية للسلطان الظاهر (٢) . وبيدوا ان الممالكة عامة زادوا عدد المدارس عن الايوبيين (٣) .

اما الناحية الادبية، فارى ان اسجل عنها بعض ملاحظات .

اولا : كان في عهد الظاهر عدد من الشعراء لكنه لم يؤثر عن احدهم مجموعة كبيرة عن الشعر ليضعه في صف البها . زهير مثالا . وقد توفي في سنة ٦٥٦ هـ . ولهؤلاء الشعراء نثف محفوظة في المجموعات التاريخية .

ثانيا : قيل هذا الشعر بمناسبة الانتصارات العسكرية على الفرنجة او التتر او الارمن وهي مقطوعات قصيرة قل ان تجاوزت الابيات القليلة . فلو اخذنا ما اثر لنا من شعر عن انتصارات

(١) ابن عبد الظاهر ص ٩١ - ٩٢ . المقرئى السلوك ص ٥٠٤ .
(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس مطبوعات المحمى العلمى العربى بدمشق . سنة ١٩٤٨، ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .
(٣) القلقشندى، ج ٣، ص ٣٦٧ .

صلاح الدين في " كتاب الروضتين " كان ضخما بالنسبة لما اثر لنا من سمر عن انتصارات
الظاهر . ويقول ابن تغرى بردى ان عددا من الشعراء ندموا الشعر بمناسبة حملة الظاهر
الاخيرة الى آسيا الصغرى لكنه لم يحفظ لنا الا قصيدة واحدة (١) ، واكبر مجموعة من الشعر
قيلت في مناسبة ظفر الظاهر ذكرها ابن شاکر الكتبي (٢) وهي ابدا بليلة .

والثالث : ان القسم الاكبر من الشعر الماثور عن عهد الظاهر ببيروسي قاله ابن عبد الـ اهر
كاتب انشائه . فهل ان بقية الشعراء لم يقولوا فيه شعرا ام انه شائع كله ؟ وحين مات
الظاهر لم يرده الا كاتب انشائه ابن عبد الـ اهر ، بقصيدة طويلة حفر ابن الفراء القسم
الا وفر منها (٣) .

اما النثر فكان تسمين اولهما الرسائل المتبادلة بين السلطان وولاته والدور الانبيية
وهي ركيكة ضعيفة عموما الا ما كتب له ابن عبد الـ اهر . ومراجعة " ذيل مرآة الزمان "
لليونيني تعطينا صورة عن المستوى اللغوي الذي كان سائدا في هذه الفترة اما ما كتبه
ابن عبد الـ اهر فمجموع تتوفر فيه المحسنات اللفظية . واما الادب في هذه الفترة فكان
تقليدا يعوزه الابداع ، ولذلك استمعوا المؤلفون عن ذلك بالحجم فسارت المؤلفات مجموعات (٤) .
وهنا يبدو لي ان عهد الظاهر كان عهد توطيد سلاسل وتثبيت اركان فلم يكن فيه
مجال للنشاط الادبي . انه لم يستطع ان يترك في هذا الميدان اثرا كالذي تركه صلاح
الدين الايوبي .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٠ .

(٢) ابن شاکر الكتبي ج ١ ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٣) ابن الفراء ج ٧ ، ص ٩٠ — ٩٢ .

(٤) E. Blochet النهج السديد ص ٣٦٧ .

وفاة الظاهر بيبرس ومكانه - خاتمة

كان الظاهر بيبرس في غزوته في آسيا الصغرى سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م وانتصر في هذه الغزوة، ثم عاد الى حلب فدمشق حيث توفي عصر يوم الخميس ٢٨ محرم سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م ، بعد مرض استمر ثلاثة عشر يوما وقد تجاوزت سنه الخمسين سنة وبعد ملك دام ١٧ سنة وشهرين واثنين عشر يوما (١) .

نهار الخميس الواقع في ١٤ محرم سنة ٦٧٦ / حزيران ١٢٧٧ جلس السلطان يشرب القمز . وفي اليوم التالي احس بحرارة في باطنه وتقيأ ثم ركب الى الميدان بعد الصلاة وعاد الى القصر الا بلى أخو النهار . وتزايدت الحرارة في احشائه واستعمل دواء لم يشربه عليه طبيب فترأيد الالم . واستدعى الاطباء فاعطوه دواء ولما لم يفده هذا الدواء وصفوا له دواء اخر فزاد في اسهاله معدته فتضاعفت الحمى ورمى دما ثم مات .

هذه هي العناصر الاساسية لقصة وفاته وينفق عليها المؤرخون جميعا (٢) .

ليس في مثل هذه القصة شيء غريب . رجل جندى يرهو نفسه ويشرب القمز . ثم يشعر بالحمى ويموت . ولكنه لم يكن يد من نسج اسطورة حول وفاته .

غزا الظاهر آسيا الصغرى ومعه الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن المعظم عيسى بن العادل ابي بكر ايوب قابلى هذا بلا حسنا في المعارك بحيث اخذ الناس يلهجون باسمه بينما شعر الظاهر بالندم والخوف من توريط جنده في هذه الحملة . ثم ان

(١) الفوطي ص ٣٩٣ . المقرئى ، السلوك ص ٦٣٦ ، ابن تغرى بردى النجوم ، وهي ٢٧ محرم في المصدرين الاولين ويذكر ابن الفرات التاريخ ويرجع ٢٧ محرم . (ج ٧ ص ٨٩) . وهي ٢٧ محرم عند ابن عبد الظاهر . (ابن الفرات ج ٧ ص ٨٨) .
(٢) الفوطي ص ٣٩٢ - ٣٩٣ . ابو الفداء ج ٤ ص ١٠ . ابن الفرات ج ٧ ص ٨٨ . ابن ابي الفضائل ص ٢٧٦ - ٢٧٧ . المقرئى ، السلوك ص ٦٣٥ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٧٥ - ١٧٧ .

المنجمين، وقد اولع الظاهر بهم، قالوا ان ملكا سيموت بالسم بدمشق سنة ٦٧٦ هـ . ومات الظاهر بيبرس في هذه السنة فكان لا بد من ايجاد علاقة بين قول المنجمين والوفاة، وكانت صلة الوصل بينهما حكاية الملك القاهر وتسميه . ثم كانت بعد ذلك محاولة لتعليل التسميم .

شعر الظاهر بالحسد من القاهر بهاء الدين، اولعه اراد صرف النظر عنه بان اراد تسميم القاهر، فدعاه للشراب معه واعد له سما ليدسه في كاسه . وكانت للظاهر ثلاث كاسات يشرب بها وحده ولا يسقي فيها معه الا من يختص بمكرمة . وحدث ان قام الملك القاهر لبعض حاجته فدرس السلطان السم في كاس امسكها بيده الى ان يعود القاهر . فلما عاد هذا ناوله اياها ليشرب وقام بدوره لبعض حاجته . فشرب القاهر ما في الكأس واعطاها للساقى . ولما عاد الظاهر كان الساقى قد اعاد من الكاسات وشرب الظاهر من احداها من غير ان يفطن الى ان الساقى قد يكون خلط بين الكاسات من غير ان يدري . وللحال احس الظاهر بالتغير فعلم انه شرب بقايا السم الذى كان في الكاس .

هذه هي القصة التي تروى عن كيفية وفاة الظاهر نقلا عن اليونيني . وينفرد ركن الدين بيبرس الدوادارى في " زبدة الفكرة " بالقول بان التسميم يعود الى رغبة الظاهر في ان يصرف عنه ما قالته النجوم . ويشير ابو الفداء الى القصين قائلا ان الظاهر نسي انه امر الساقى بالتسميم للملك القاهر وشرب بنفسه الكأس . وينفرد ابن ابي الفضائل بعدم الاشارة الى قصة التسميم ويرد الوفاة الى الاكثار من شرب القمز واضطراب المعدة . ويرى ابن الفوطي ان الظاهر " سم في الماء " الذى يستعمله في الطهور " ثم يروى حكاية رغبته بتسميم امير اراد التخلص منه فسقاه القمز المسموم ثم شرب في ذات الكأس . اما المقرئى فلا يؤيد تعليلا على تعليل . لكن ابن تغرى بردى يؤيد حكاية التسميم خوفا مما قالته النجوم (١) .

(١) ابن الفوطى، ص ٣٩٢ . ابو الفداء، ج ١، ص ١٠ . ابن ابي الفضائل، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، المقرئى، السلوك، ص ٦٣٥ — ٦٣٦ . ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٧٧ — ١٧٩ ، والحاشية رقم ١، ص ١٧٨ منه .

وروى ابن الفرات التعليقات المتعددة بشأن وفاة الظاهر فقال ان خاطر الشيخ الامام محي الدين النووي تغير عليه لنكته بوعده له باعفاء اهل دمشق من جباية الاموال ومطالبته بجبايتها كاملة غير منقوصة . وقال ان شدة الفرج من نصره في آسيا الصغرى حملته على الاكثار من شرب القمزر فاحس بتبعث . وقال ان حسده من القاهر ولوم هذا الاخير له لتورطه في حملة آسيا الصغرى جعل الظاهر يعمل على تسميمه . وكان التسميم بيد الظاهر نفسه . على رواية ، وبيد الساقى بامر منه ، في رواية اخرى ، ثم شرب الظاهر من ذات الكأس على جهل منه بحقيقتها فكان تسممه ومرضه ووفاته .

نقل ابن الفرات حكاية التسميم عن اليونيني . اما عن ابن عبد الظاهر فنقل الكثير مما قاله هذا بشأن وفاة السلطان ولكن يبدو ان ابن عبد الظاهر لم يذكر شيئا عن حكاية التسميم . بل قال ان السلطان ركب عصر يوم الجمعة ١٤ محرم " في ميدانه كلفه مودع لاختدانه ومثرودا من رؤية موكبه وركوب حصانه ونزل والثالث جسمه تلك الليلة بعض التيات واصبح واصبح ولمس عنده ذلك الا نبعاث (١) .

وابن شداد ايضا لا يأتي على حكاية التسميم . وانما يبدو انه يجعل الاكثار من شراب القمزر سبب المرض والوفاة . ويقول ان الاطباء ظنوه مسموما حين دفع دما محتقنا (٢) .

ويقول S. Runciman ان بعض الاخباريين الفرنجة قالوا انه مات متأثرا بجراحه في المعركة (٣) . وهكذا يبدو ان حكاية التسميم والتسميم موضوع جدل ولعل نفيها هو الاصح . وقد سكت ابن الفرات والمقريزي عن نفيها او تأييدها . ولعل هذا السكوت معنى . ثم ان ابن عبد الظاهر وابن شداد لم يأتيا على ذكر مثل هذه القصة . وكذلك

(١) ابن الفرات، ج ٧، ص ٨٤ — ٩٠ .

(٢) ابن شاعر الكتبي، ج ٢١، ص ١٢٥ .

(٣) S. Runciman ج ٣، ص ٢٤٨ .

فعل ابر ابي الفاضل • واخيرا فان الداربة التي قيل ان التسميم حارب بها ليست مما يتفق ووسائل الداهر • انه لم يتخذ الحذر الكافي وقد عودنا السلطان ان يكون حذرا، مبالغا في حذره • ثم ان توسع الداهر ان يحتقل الملك القاهرة اذا كان لا يد من اقصائه ويتركه في معتقله يموت شيئا فشيئا • ثم ان مسئة الداهر بان يحول عنه ما يتوله المنعمون ليس منطقيا • لماذا يكون هذا العظيم الذي سيموت في دمن هو الداهر بهينه ؟ ولعل منشأ حكاية التسميم يعود الى ان الاطباء ظنوا الظاهر مسموما •

ولما مات السلطان كتم نائب السلطنة الامير بدر الدين بيليه الخزندار موته وكتب للسعيد ابنه يعلمه بوفاة ابيه • ثم حملت الجثة علو محفة في الليل كان السلطان مريضا ونقلت من القصر الابلق الى قلعة دمن • وقد حمل الجثة كبار الامراء امثال سيه الدين قلاوون وسمر الدين سنقر الاشقر وبدر الدين بيسر وبدر الدس بيليه الخزندار وعز الدين أقوس الافرم وعز الدين ابي الحموي وشمس الدين سنقر الالف وعلم الدس سنقر الحموي ثم غسلوه وحنطوه وتركوا الجثة بالقلعة • واشيع انه مريض • ثم سار الخزندار بالجيس بمحفة فارغة الى مصر •

ثم ان السعيد لما وصلت الرسالة فانه اضرب الفرح تظليه للنار ثم ركب علو عادته ثم وصل الخزندار القاهرة في ٢٦ صفر تحت السناجق القاهرة • ولما تسلم السعيد الخرائن والحير اعلن خبر الوفاة وصاح الحاجب : يا امراء نرحموا علو السلطان الملك الظاهر • ثم حددت الايمان للسعيد • وفي اليوم التالي يوم الجمعة ٢٧ صفر، دعا الخطباء للملك السعيد وصلوا على الملك الظاهر صلاة الغائب

كان الظاهر قد اوصى ان يدفن على الطريق السالكة قريبا من داريا • لذلك
كانت جثة الظاهر لا تزال في دمشق • فامر السعيد بنسرا دار الحقيقي وجعلها
مدرسة للشافعية والحنفية، وأنشأ فيها قبة لدفن الظاهر • وتم البناء في آخر
جمادى الآخرة • عندها ارسل السعيد الامراء الى دمشق، وفي ليلة الجمعة ٥ رجب
حملوا حدة السلطان من القلعة على الاعناق الى جامع اميه حيث صلى عليها ثم حملت
ودفنت بقبة المدرسة (١) •

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل •

وكان طبيعيا ان تترك وفاته اثرا في الادب • وقد رثاه ابن عبد الدهر بعدة مراث
نقل ابن الفرات احداها • ولعل اجمل ما قاله ابن عبد ال اهر فيه هو ما ختم به سيرة
السلطان : نزل في قاهره بالميدان الاحمر معتقدا ان الدنيا قد حصلت في يده • • •
واذا المنية قد نشبت ا اثرها • • • ووجه السرور قد قطب وابو لهيب الحزن قد حطب • •
ورماح الخط وقد قالت لاقلام الخط اصمت في لبر الحداد من المداد والسيوف والقلوب
وقد قالت عند شق الجيوب نحن احق منه بهذا المراد، والحنون وقد قالت لقصره الالف
ما كان بناؤك على هذه الصورة الا قالا بما يسود الدرار به عند الفحايح من السواد • • •
فاى عين لم تبكه بدموع محاجرهما حتى عبون الارزواز قلب لم بأسر عليه وا • • • قد لم يلطم
عليه • • • (٢) •

(١) ابو الفداء، ج ٤، ص ١١، ابن ابى الفضائل، ص ٢٧٦ - ٢٧٩، ابن الفرات، ج ٧،
ص ٨٩ • المقرئى، السلوك، ص ٦٤١ - ٦٤٣، ٦٤٦ • ابن تغرى بردى النجوم
الزاهرة، ج ٧، ص ١٧٥ - ١٧٧ • ابن اياس، ج ١، ص ١١١
(٢) ابن الفرات، ج ٧، ص ٨٧ - ٨٨

والآن بعد ان تناولنا سيرة هذا السلطان بتفصيل اراد ان نعود الى تقدير مكانته

واثره وان نقول الى اي حد كان مبدعا والى اي حد كان مفكدا في ما قام به (١) .

وقبل الادلاء برأى في شخصية السلطان ال احر بيبرس اراد ان استعرض ما قاله المؤرخون

المحدثون والقدامى .

(١) للظاهر مكانة عسيمة في الفصحى الشعبي . ولكنني لست انور مساحة هذا الموضوع هنا . وقد تناول عبد الحميد يونس في مؤلف صغير عنانه " ال احر بيبرس في الفصحى الشعبي " (سلسلة المكتبة الثقافية ، رقم ٢ ، الادارة العامة للثقافة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دار القلم مكتبة النهضة المصرية ، بدون تاريخ) . ويرى عبد الحميد يونس ان السيرة " ترسم ال احر بيبرس كما يحب الشعب " ان تكون ، ويستبرأ " حجة السبب الذي تحكي ملامحه وقسماته " (ص ٥) . وهو يدرسها من ناحية ادبية وثنية . ويرى عا وثيقة " تصليح لدراسة المجتمع العربي الاسلامي " في عهده كتابتها (ص ١٧) . وال احر بيبرس ، في هذه القصة ، " منقذ " ينتقذه الشعب بنان صبر (ص ١٩) . وميزة هذه السيرة انها تعنى بيبرس قبل وصوله الى السلطنة (ص ٢١) .

والطابع العام الذي يطبع السيرة ، حالي . والسلطان ال احر فيها حاكم عادل يعنى بالدفاع عن رعاياه ، ويحمايتهم . واهمية هذه السيرة التاريخية هي انها تمثل الغذاء العائلي الذي كانت الجماعات الكبيرة من المسلمين تتقبله في المناسبات في العصور الوسيطة المتأخرة R.Paret مادة Baybars Romance ، الموسوعة العربية ، الطبعة الجديدة ، مجلد ١ ص ١١٢٦ — ١١٢٧ .

ويستدل من المصادر ان حياة ال احر بيبرس كانت ذات أهمية استثنائية في عهده يدل على ذلك قتلوا الناس عليه يوم تقنعر عن فرسه في موسم سنة ٦٦٥ هـ وهو يتعبد عند بركة زيزاء ، وفرسهم يوم غربت البسائر بشفائه . ويدل على ذلك ايضا مركبه وود صندوق عليه " كتابة اسم الملك ال احر اذا وصفته " في حفرة تحت باب فرس . ووال لقا الفاداميين (المقریزی ، السلوك ، ص ٥٥٥ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٧ ، ص ١٦٢) .

هناك فئة قليلة لم تر له فضلاً في كل ما غام به إذ أنه وراء أركان السياسة الخارجية والنظم الداخلية عن الدولة الأيوبية التي نشأت تلبية للسنور بالدار الصليبي (١) وهو ظالم يفرر الضرائب بحجة الحاجة للما للأنفاقه في سبيل الجهاد (٢) لكن أكثرية المؤرخين يتناولون هذا السلطان بتفصيل أوسع ويندر إليه من زوايا مختلفة • وقد رأيت أنه تعارض هذه الآراء كما يلي :-

(١) سعة الدولة وإدارة : كان السلطان الحاكم السلطان المعاليه الاقوياء الذين " ابتنوا امبراطورية شاسعة الانحاء ممتدة الاطراف " ونقل مقر الخلافة السياسية من بغداد الى القاهرة واند بتتظيم الدواوين وتعدد الدوائن كبار الموظفين وتأسيس اول جيس ثابت في مصر في الصور الوسطى (٣) • واسار آحر الى اشمية نفر مركز الخلافة والتنظيمات الادارية (٤) • ونوه Muir بسعة الدولة المملوكية في عهد الحاكم حسن الفراء حتى النيل ومن آسيا الصغرى حتى سواكن باستثناء بلاد القبح الصليبية وان انه وطد سلطانه بادارته الحكيمة واكتسب ثقة الناس بوسائله السريعة التي كان يلجأ اليها ويحسن معاملة معاليكه (٥) وهو في طليعة حكام عصره من حيث تعريف الشؤون الادارية بحكمة ولباقة ومن حيث وضوح الاهداف (٦) •

(١) عاشور، ص ٥١ •

(٢) رزق، محمود سليم، ج ١، قسم ١، ص ٣٤ •

(٣) عطيه، عزيز سوريا، مقدمة الطبعة الثانية، دراهات في تاريخ المعاليه لعلي ابراهيم حسن صفحة ج •

(٤) حسن، زكي محمد، مصر والحداثة الاسلمية، نقلتها عن المصدر السابق ص ٤٢ •

(٥) Sir W. Muir ص XII و ٥، ١٤، ١٧، ١٨، ٣٠، ٣١، ٢٢٠ •

(٦) S. Runciman، ج ٣، ص ٣٤٨ •

(٢) نشاطه ومقدرته : والدولة المملوكية فريدة من نوعها إذ استطاع جماعة عسكرية تتزايد باستمرار عن طريق الشراء ، أن تسود بلاداً غنية لمدة تزيد عن القرنين . لأسباب عديدة منها ظهور الظاهر بيبرس في أول عهد هذه الدولة (١) وهو مثل رائع على النشاط الذي أدى إلى الانتعاش السياسي ، غير المتوقع . ففي هذا السلطان الذي لا مثيل له فرضت مصر سيادتها على الشرق ، على رغم الاضطراب الذي أعقب سقوط الخلافة العباسية والمحاولات التي قام بها الصليبيون والتتر للتحالف والمؤامرات التي حاكها الأمراء الأيوبيون والأمراء المماليك ذوو المصالح الشخصية . لقد كان الظاهر عبقرية حين رحب باللاجئ العباسي واعترف به خليفة فجنى من هذا العمل السيادة على الحجاز واستطاع بذلك أن يزعم أن مصر دولة إسلامية .

وكانت حياته سلسلة من الحملات العسكرية . ففي ١٧ سنة قام بثماني وثلاثين حملة عسكرية قاد منها ١٥ بنفسه . وكانت تسع منها ضد المغول ، وخمس ضد أرمينيا وثلاث ضد الإسماعيلية وأحدى وعشرون ضد الصليبيين . وقد قطع في هذه الحملات أكثر من أربعين ألف ميل . ولقد كان نشيطاً قبل السلطنة وظل كذلك بعدها (٢) .

(٣) القسوة والغدر : والظاهر بيبرس هو المملوك النموذجي في حسناته وسيئاته معا . أن أعمال الغدر والابتزاز والخيانة التي قام بها لوثت اسمه الذي كان ، لولاها ، نظيفاً بصفته حاكماً قام بخدمات كثيرة ، وبإنشاءات دينية وعمرانية عامة . كان عادلاً في إدارته لكنه كان يصفى إلى الوشائات المريبة ويستنهين بالحياة البشرية . وكان الغدر أبرز

(١) E. Blochet ص ٣٤٥ — ٣٤٥ و Sir W. Muir ص ٢١٥

(٢) G. Wiet ، مادة بيبرس في الموسوعة الإسلامية ، الطبعة الجديدة ، ج ١ ، ص ١١٢٥ —

صفاته ، وكان لا يتورع عن اللجوء الى اية وسيلة لبلوغ اهدافه . والمثال على ذلك ما فعله بالمغيث بعد ان اقسم له الايمان المغلظة على امانه . لكنه اكرم عائلته (١) .

(٤) اثره : لقد كان ذا عقلية مفتوحة بحيث انه ترك في المصريين اثرا ابعد مما تركه صلاح الدين . وكان له دور هام في تنظيم الجيوش المملوكية ، وكان لهذا التنظيم على اساس الولاة المذهبي ، اثر في تنظيم الجيوش الاو رومية في القرون الوسطى على نفس الاساس ايضا (٢) . وكان سببا رئيسيا مكن لجماعة عسكرية تتزايد باستمرار عن طريق الشراء ان تسود بلادا غنية لمدة تزيد عن قرنين (٣) .

ومجده اخرون حتى صار الظاهر بطلا وطنيا " حفظ وطننا المحبوب من غارات اعدائه " وبذلك اظهر " الحضارة المصرية بظهر يعبر نواة لنهضة دولة المماليت التي قامت عليها نهضتنا الحديثة من قريب او من بعيد " (٤) ، وصار عصر المماليت ، بفضل انشاءات الظاهر من ازهى عصور " تاريخ مصر القومي " (٥) .

وارى ان اتم هذه المحاولة لجمع آراء المؤرخين بالظاهر برأين احدهما لستيفنس والاخر لكاهن . وفيهما موجز لجميع هذه الآراء . قال الاول :

كانت سلطته الظاهر بيمر بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية .

ان سياسته التي كانت عودة لسياسة صلاح الدين الايوبي ، كانت كذلك مبنية على نشاط متواصل وبعد نظر سياسي ، لكن الرجلين كانا متباعدين من حيث الخلق الشخصي . " لقد كان السلطان الجديد هو الرجل المناسب لاستغلال الوضع على افضل وجه " وهو شخصية فذة

(١) Sir W. Muir ، ص XII ، ٥ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٢٢٠ و F. Sadeque
ص ٦٩ — ٧٣ ، و S. Runciman ج ٣ ص ٣٤٨ ، و R. Grousset ج ٣ ،
ص ١٧ و ٣٠ من المقدمة (٢) F. Sadeque ٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من المقدمة و ص ٦٩ — ٧٣ .
(٣) E. Blochet ، النهج السديد ص ٣٤٥ — ٣٤٦ و Sir W. Muir ، ص ٢١٥ .
(٤) سرور ، ص ٧ . (٥) ملحوظة ٣ ص ٤٤٩ عداية .

أخذ على عاتقه أن يستعيد بلاد الشام من الصليبيين • وكان المتوقع أن لا يلاقي صعوبات في ذلك بسبب ضعف الصليبيين، لكن حروبه مع شعوب أخرى والمصاعب التي صادفها في سبيل الاحتفاظ بممتلكاته جعلت هذه المهمة صعبة • وقد نجح في هذه المهمة بسبب صفاته الخاصة قبل كل شيء • أما الخيانة والقسوة اللتان صبغنا سيرته فأفادناه أنهما لم تسنحاً لخصومه أن يكونوا خطرين عليه • وتمتع فهو ذلك بصفات حسنة أبرزها نشاطه المتواصل وسرعة حركاته السرية التي كانت تأخذ الخصوم على غرة • وكان جندياً شجاعاً وقائداً قديراً وسياسياً ثاقب النظر • وكان يعنى بالفنون والآداب والبناء • ولم يكن يتمتع بحب أي طبقة من طبقات الرعية لكن الجميع كانوا يحترمونه ويخافونه لشجاعته ونجاحه • كان يكفيه فخرا أنه احتل انطاكية (١) •

وقال الثاني : السلطان الظاهر شخصية غريبة عجيبة • تدرج من رقيق إلى مرتبة السلطنة • فهو إذا شخصية نادرة في عصور الإسلام المتأخرة يجمع بين الغدر والقسوة والشجاعة والاقدام والاحتبال من جهة • لكنه ، يتمتع إلى جانب ذلك ، بذكاء سياسي مقرون بالحزم والجرأة والحذر ، وباحساس دبلوماسي حاد ، وبمعرفة تامة بالشؤون العسكرية • وبالاختصار • فقد كان بيبيرس رجل دولة عظيماً ، استطاع أن يستغل الظروف الناشئة من الغزو المغولي لإقامة دولة لعلها أقوى دولة عرفها الإسلام (٢) •

ومن هذا الاستعراض ، يتبين لنا أن المؤرخين الأقل منهم ، اجمعوا على الاعتراف بشخصية الظاهر الغدة القوية وبما تشبهه الرائعة في الميدانين الداخلي والخارجي •

(١) Stevensón ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، ٢٤٦ •

(٢) C. Cahen. ، ص ٧١٣ •

ولكن المؤرخين المصريين يجعلون منه مثالا للوطنية، غايته الدفاع عن مصر، ومثالا للحاكم الصالح في تشجيعه الفنون والآداب، كانه قام بذلك عن وعي وادراك . وايدتهم في ذلك فاطمة صادق الى حد بعيد . وكأني بها تعتبر الولا للسلطان والولا للدولة شيئا واحدا . وكأني بها تراه موضوع ملحمة انسانية اشبه بقصة عنتره . ولم يشر هو^١ الى الناحية الخلقية فيه .

اما المؤرخون الغربيون، فاشاروا الى قدرته العسكرية والادارية، والى سعة نشاطه في مختلف الميادين، لاسيما في ميدان الحروب مع التتر والصليبيين . لكنهم ابرزوا الناحية الخلقية السيئة عنده .

وقبل متابعة مناقشة هذه الآراء ينبغي ان اذكر آراء المؤرخين القدماء بالسلطان الظاهر .

السلطان الظاهر فارس، شجاع خبير بمدخل الحروب ومخارجها — عادل لا يسمح بوقوع مظلمه ، حلیم يهفو ولوانه قادر على غير الحلم والعفو، يرفض ان يستولى على شيء ليعر له ، كريم يبذل بسخاء على امرائه واجناده . وهو شخصية مشرقة لامعة، منقذة، تجمع افضل الصفات الانسانية وانبلها . كان عبدا فصار سلطانا . كان دائم النشاط والحركة ، محدد الاهداف، واضح الخطوات، يسهم بنفسه في تنفيذ التعليمات التي يوصي بتنفيذها (١) .

ويتبين لنا من النصف التي لدينا من سيرة ابن شداد ان هذا ايضا يجارى ابن عبد الظاهر في النظر الى السلطان، ولوانه لا يمتنع عن اظهار ما فعله الظاهر بخصوص الضرائب .

(١) ابن عبد الظاهر ، ص ٢٠ ، ٢٧ .

وقال عنه شافعي بن علي بن عباس صاحب " المناقب السرية المنزعة من السيرة
الظاهرية " انه احسن القيام باعباء المملكة واقام منار الاسلام وحارب الفرنج والتتر واحتل
الحصون وكان مظفرا في جميع حملاته . ثم انه كان ماضي العزائم ، احرز الانتصارات المتواصلة
على اعداء الله " (١) .

وكذلك امتدحه ابن الفوطي (٢) .

وقال ابو الفداء انه " كان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا (٣) " وقال الذهبي عنه
" انه البطل الهمام فارس الاسلام لبيت الحروب السلطان الكبير اشتهر بالفروسية
والاقدام ثم كان طليعة الاسلام يوم عين جالوت (٤) " ونقل ابن تغري بردي عنه انه
قال ان الظاهر " كان خليقا بالملك لولما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له
فان له اياما بيضا في الاسلام ومواقف مشهورة وفتوحات معدودة (٥) .

وقال ابن ابي الفضائل ان الظاهر " كان شجاعا بطلا مقداما هماما عسوقا عجولا جبارا
محبا للاموال كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصا لاهل دمشق . فانه كان يكرههم
ويكرهونه وعزم مرتين على خلوها وتحريقها " (٦) .

وقال ابن كثير فيه انه " كان شهما شجاعا عالي الهمة مقداما جسورا معتنيا بامر
السلطنة ، يشفق على الاسلام ، متحليا بالملك له قصد صالح في نصره الاسلام واهله ،
واقامة شعار الملك " (٧) .

(١) نقلها عن سرور ص ١٧١ . ورقة ١٣ أ - ب . (٢) ص ٣٩٢ - ٣٩٣ . (٣) ج ٤ ص ١١ .
(٤) دول الاسلام ج ٢ ، ص ١٣٤ . (٥) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٨ .
(٦) ابن ابي الفضائل ، ص ٢٨٣ . (٧) ج ١٣ ص ٢٧٥ و ٢٧٦ .

وقال المقرئى انه "كان من خير ملوك الاسلام " بوجه عام . وقد كان امراؤه يخافونه
مخافة شديدة حتى لم يجسر احد ان يدخل عليه في مرضه بغير اذن . " وكان خفيف الركاب
طول ايامه ، يسير على الهجن وخبول البريد لكشف القلاع والنظر في الممالك . فركب
للعاب الكرة في الاسبوع يومين يوما بمصر ويوم ابد مشق (١) .

وقال فيه ابن تغرى بردى انه اطلال ترجمته لانه " مستحق لذلك لانه فرع فاف اصله ،
كونه كان من جملة ممالك الصالح نجم الدين ايوب فزادت محاسنه عليه وكان
ملكا شجاعا مقداما غازيا مجاهدا مرابطا خليقا بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر
الحروب بنفسه (٢) .

واما رأى ابن الفرات فيه فواضح من انه كتب سيرته في جزئين وبعض جز . ومع انه
يشير عادة الى الاراء المختلفة في الظاهر . عند اختلاف الرأى في عمل من اعماله ، فان
التابع العام الذى يطبع سيرته هو اظهار هذا السلطان بمظهر الرجل القوى الذكى الذى
يعرف كل شىء ولا تغوته شاردة ولا واردة .

وقال ابن اياس عنه انه " كان شجاعا بطلا " اظهر من الشجاعة ما لم يسمع بمثله .
وقال انه " كان ملكا عظيما جليلا مهيبا كثير الغزوات خفيف الركاب وكان يلقب بابي
الفتوحات في ايامه وكان كريما سخيا على الرعية باسط اليدين وكان محبا لجمع
الاموال كثير المصادرات للرعية لاجل الغزوات والتجاريد وكان كفوا للسلطنة منقادا
للمشيعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله بر ومعروف وآثار لا سيما ردة الخلافة
لبنى العباس وكان من خيار ملوك الترك (٣)

(١) المقرئى السلوك ، ص ٦٣٨ و ٦٤١ . (٢) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٧٧
و ١٩٩ . (٣) ابن اياس ج ١ ص ٩٨ و ١٠٩ — ١١٠ .

وقال عنه النعماني ان " له فتوحات مشهورة ومواقف مشهودة ، ولولا ظلمه وجبروته

في بعض الاحايين ، لعد من الملوك العادلين " (١) .

ونستنتج من هذا ان المؤرخين القدماء رأوا في الظاهر شخصية ذات ثلاثة جوانب —

صفاته الشخصية العسكرية — ونجاحه في محاربة " اعداء الله " — وصفاته الشخصية

الخلقية . فاثنوا على قدرته الشخصية العسكرية وشجاعته واجمعوا على انتصاراته

على الخصوم من تتر وفرنجة . اما الصفات الشخصية الخلقية فكان بين المؤرخين اختلاف

بشأنها ، كما رأينا .

وهنا لابد من مناقشة هذه الآراء ، جديدها وقديمها ، قبل محاولة تكوين رأي بصدد

هذا السلطان .

لناخذ الناحية العسكرية من جميع وجوهها — من حيث قدرته الشخصية وكفاءته

العسكرية وانتصاراته ، واهمية هذه الانتصارات .

ويبدو انه لامجال للجدال في كفاءته العسكرية وشجاعته وانتصاراته . بيد انه

يبقى لنا سؤالان : ماهي اسباب الانتصارات اولا وما هي اهمية هذه الانتصارات ثانيا ؟

لاريب ان انتصاراته تعود بالدرجة الاولى الى قدرته العسكرية وحسن تنظيم جيوشه

والى دبلوماسيته من جهة ، والى ضعف خصومه الصليبيين والى تعذر اتفاقهم مع التتر

من جهة ثانية . لقد ابدى الظاهر حنكة ودراية في الميدانين العسكري والدبلوماسي ، ولكن

ينبغي الا نستهيئ بالناحية الاخرى ، وهي ان خصوم الظاهر كانوا ضعافا من الناحية العسكرية

وضرب الصليبيين قبل ان تصلهم نجدات التتر والارمن .

اما اهمية هذه الانتصارات فكبيرة ولكن ينبغي الانبالح فيها . يرى E. Bickner
ان طرد الصليبيين كان اقل اهمية من صد الزحف المغولي . يعتقد ان انتصار عين جالوت
لم يكن صدفة ، اذ ان المماليك استطاعوا النصر في المعارك التالية مرة بعد مرة (١) .
هذا صحيح ويرى مؤرخ ان الحضارة العربية كان مصيرها الزوال لو قدر للتر ان ينتصروا
في عين جالوت (٢) . وينالغ كذلك جمال الدين سرور في اهمية هذه المعركة التي انقذت
"وطننا المحبوب" وحفظت الثقافة التي كانت اساس النهضة المصرية الحديثة (٣) في
هذا مبالغة كبيرة . ان معركة عين جالوت كانت هامة ولكنها لم تكن حاسمة . اليسر في
الانقسامات التترية عبر الفرات سبب هام لهذا النصر المملوكي ؟ ألم يكن بعض التتر يشيرون
على كتيبا ، قائدهم ، ان لا ينازل قطز وعدة جيشه نحو المئة الف ؟ ثم هل كان دور الظاهر
في هذه الحملة التي ادت الى نصر عين جالوت ، اعظم من الدور الذي قام به قطز .
كلا ، قد كان قطز منظم الحملة وقائدها ، ولم يكن للظاهر اكثر من دور الجندي المنفذ
بمقدرة ومهارة ، خطة القائد الحكيم .

وبعد فهل كان بإمكان التتر ان يبقوا في بلاد الشام فيما لو انتصروا في عين جالوت
او ان يمتدوا الى مصر ؟ ان جوابي على هذا السؤال هو بالنفي . فبعد ان عاد هولاكو
من حلب على اثر وفاة الخاقان الاعظم ، لم يكن بإمكانهم البقاء في بلاد الشام . لان عددهم
كان قليلا ، نحو العشرين الفا ، ولان انقسامهم وراء الفرات ، حال دون وصول نجدات جديدة
واذا تذكرنا ان التتر لم يستطيعوا قبل قرن ونصف من الزمن ان يتوغلوا في بلاد الشام ، كان
لنا ان نحكم ان التتر كانوا قد وصلوا الى الحد الاقصى من امتدادهم في بلاد الشام .
كان لابد للتر من التراجع لكن المماليك عجلوا فيه .

(١) E of I Art Egypt, Vol II ص ١٠ - ١١ . (٢) E. Bickner

النهج الجديد ص ٣٦٦ . (٣) سرور ص ٧ .

وهنا اود ان اتساءل : ألم يكن قدوم التتر هو الذى سهل للمماليك قيام دولتهم ؟
هذا معقول جدا . فلولا انتصار التتر على الخليفة لما كانت مصر الملجأ البعيد المضمون
جغرافيا للهاربين من التتر . ثم ان الناصر صلاح الدين يوسف كان في سبيل توحيد
بلاد الشام لمقاومة التتر ، لولا اصطدامه بالمماليك وانشغاله بهم عن الخطر الاساسي .
ثم ان قطز وعد الناصر بالنجدة ولكنه لم يجعل بها .

واما انتصاراته على الصليبيين فكبيرة حقا . ولكنه ينبغي لنا ان لانسى ان الصليبيين
كانوا منقسمين ايضا وانه لم يكن بإمكانهم البقاء طويلا في هذه الحال . التتر لا يستطيعون
مساعدتهم والاروبيين لا يقدرّون ان ينجدوهم . ان احتلاله انطاكية وحصن الاكراد عمل
عسكري مجيد عجلّ في القضاء على الصليبيين بحيث لم يبقوا بعده اكثر من خمسة عشر عاما
حين سقطت عيكا . آخر معقل لهم بيد الاشرف خليل . واذا كان الظاهر فعل اكثر من
اضعاف الصليبيين فلماذا لم يستطع ان يحتل عكا وهي اقرب اليه ؟ ولماذا قبل بالصلح
مع طرابلس ؟ لقد كان يعلم ان القضاء على الصليبيين لا يمكن ان يتم دفعة واحدة فينبغي
ان تصيب فيهم نقطة الضعف .

ثم اليس يحق لنا ان نساءل قليلا عن حسن تقدير الظاهر لنتائج بعض حملاته العسكرية ؟
اليس يحق لنا ان نتساءل عن الفائدة التي جناها ، او توخاها ، من حملته الاخيرة على آسيا
الصغرى ؟ ان فائدة هذه الحملة اقل بكثير من النفقات المالية والضحايا البشرية التي
هدرت فيها . اتراه كان يتوخى احتلال آسيا الصغرى ؟ مثل هذا الحلم دليل على
سوء تقدير لامكانياته العسكرية . ام اتراه كان يدافع عن بلاد الشام ؟ وهنا ايضا ارى ان
السلاجقة كانوا اضعف من ان يهددوا بلاد الشام . ام ان الحملة كانت ترتدى طابعاً تظاهرياً
وحسب ؟ هذا ما يخيّل اليّ . لقد كان يريد ان يرى خصومه انه يستطيع دخول

عواصمهم غير مهال بالثمن . وقد قال : انه قام بتسبع حملات عسكرية ضد المفلول
كانت هجوما معاكسا ، الا حملته الاخيرة فقد كانت بدافع منه (١) . حقا لقد كان مستهترا
بالارواح البشرية .

وبعد فلماذا يكون النصر على التتر عملا صخما ؟ ان انتصاره على التتر حمى الثقافة
العربية . ولكن هل كان الظاهر ينوى حماية هذه الثقافة ؟ وهل كانت لديه مثل هذه
المفاهيم ؟ وليربوسعي هنا ان اناقش في نوع الثقافة العربية التي ازدهرت بعد
انتصاره على التتر . ينبغي لنا مثلا ان نعاين ما فعله ايلخانات فارس للثقافة لنرى ما اذا
كان الظاهر بصورة خادعة ، والمماليك بصورة عامة ، بانوا اسد حديبا على الثقافة .
ان المماليك حين حاربوا التتر والصليبيين ، كانوا يعملون للمحافظة على سلطانهم .
ومع هذه الرغبة والعمل لتحقيقها ، تحققت بعد المنافع المادية لمصر وحسب .

ولناخذ الان ناحية ثانية هي الصفات الشخصية الخلفية . قد لا نستطيع ان ننكر
ان الظاهر كان قاسيا عسيفا عجولا ، وانه كان غدارا . ثم اتنا لن نستطيع ان ننكر انه
كان سخيا كريما ايضا ، وانه كان حليما بارا احبانا اخرين . بيد وانه كان يجمع حقا
بين المتناقضات ، وانه كان مثالا نموذجيا على حسنات السلاطين المماليك وسيئاتهم .
وقد ضخم ابن عبد الظاهر صفاته الحسنة ولم يذكر له عيبا . لكن مؤرخين اخرين
ذكروا له الكثير من الصفات الحسنة والصفات السيئة . وهذا طبيعي الا اذا شئنا
ان ننسى ان الظاهر انسان اولا . فهو عرضة للتأثر بكل ما يتأثر به انسان في ظروفه . فهو
كريم حقا ولكن للذين يناصرونه . وهو حليم ايضا ولكن على الذين يويدونه . اما ما ينسب اليه من

(١) الموسوعة الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، مادة بيمبر ، ج ١ ، ص ١١٢٥

١ لغدر والقسوة فليس غدرا ولا قسوة اذا تذكرنا ان الظاهر كان اولاً واخيراً يحاول توطيد دولة فهو لن يسمح ببقاء ما قد يضعف مثل هذه الامنية . لقد لاحظ اليوناني ان التهم التي نسبت للمغيث ليست صحيحة ، ولكن المغيث كان ايوبيا قد يدعي الحق بالسلطنة ثم انه لذلك خطر عليه اذا حاول الاستقلال ، كما فعل سنجر الحلبي بدمشق او البرلي بحلب . اذا لابد من القضاء عليه . الم يوحى ابنه بضرورة التخلص من يقف في سبيل مصلحته ؟ .

اما من حيث علاقه بعائلته وبالامراء كافراد ، فيبدو لي انه كان لطيفاً رقيقاً ، حسن الخلق حادياً على ابنائه وعلى امرائه واجناده وابناء الامراء . لقد كان يعنى بهم جميعاً لانهم المادة الخام التي تتركز عليها الدولة .

ولنتناول ، بعد هذا ، الناحية الادارية . تبين لنا من دراسة النظم الادارية في عهد الظاهر انه اتبع الخطة الطبيعية التي لابد من ان يتبعها كل رجل دولة حكيم . فقد اعتمد الهيكل الاداري الايوبي السابق و اضاف عليه بعض التفاصيل الجديدة او حدد اختصاصات بعض رجال الادارة او غير بعض هذه الاختصاصات . ولابد لنا من ان نسجل له قدرته على مراقبة هذا الجهاز مراقبة دقيقة ، كان حازماً نشيطاً في ادارته ، سريعاً في تنفيذ احكامه .

واحب الظاهر العمران والبناء حبا عظيماً . وقد تناولنا هذه الناحية في فصل سابق .

لعل الظاهر كان ينشبه بصلاح الدين الايوبي . والواقع هو ان بعض المؤرخين القدامى والحد يثين فعلوا ذلك . وقد اشار ابن عبد الظاهر الى الاثنين ثم فضل السلطان على سلفه (١) وقد اشرت عند تقييم الظاهر في فصل سابق الى كثيرين آخرين ممن قابلوا بين الاثنين .

ويرى G.Wiet ان الظاهر اختلف عن صلاح الدين في شيئين : الاول هو الغاء
الاقطاعية • ولم يكن للظاهر سلالة كما كان لصلاح الدين ، فاضعف الاقطاعية • والثاني هو
انه كان يقوم بزحوف منظمة على الخصوم ويقيم دفاعا في المكان الذي يحتله بينما كان احتلال
صلاح الدين للقدس رعدا بلا مطر (١) وفضلته فاطمة صادف على صلاح الدين في نواحي
كثيرة • اما S.Runciman فكان مغايرا لهما في رأيه •

صحيح انه لم يكن للظاهر سلالة كما كان لصلاح الدين ، ولكنه حاول انشاءها ، ثم ان
المماليك الذين احاطوا بالظاهر كانوا اشبه بسلالة صلاح الدين مع فاروق هو ان الظاهر كان
اشد مراقبة عليهم • اما القول بان فتنة القدس كان رعدا بلا مطر فغريب • ولئن صح ان
الصليبيين انتعشوا بعد موت صلاح الدين واستعادوا القدس بتحالف مع الكامل ، لكن
شوكتهم العسكرية كانت قد خضت •

انا لا ارى في الظاهر مقلدا لصلاح الدين ولكني ارى فيه ساء را على مخطط سلفه

ولو اختلفت وسائلهما باختلاف الظروف والاحوال •

فما هو الرأي الذي ينبغي ان نخلص اليه بعد هذا بخصوص السلطان الظاهر ؟
حقا لقد جمع الظاهر الصفات الشخصية النبيلة والصفات العسكرية العالية الى جانب الصفات
السيئة ، ولكن الناحية السياسية كانت طاغية عليه • لقد كان يود توطيد دولة المماليك دفاعا
عن الاسلام ، لذلك حارب الصليبيين والتتر بقسوة وعنف لانهم الخصوم السياسيون من غير ان
ينظر اليهم على انهم خصوم دينيون او مضرون من الناحية الثقافية • وكان يود توطيد هذه
الدولة في سلالته باي ثمن كان ولذلك لجأ الى جميع الوسائل بقطع النظر عن ناحيتها الاخلاقية •

(١) G.Wiet ، مادة بيبيرس ، الموسوعة الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، ج ١ ،
ص ١١٢٥ •

ونجح الظاهر لانه كان يتمتع باحساس دبلوماسي عميق وقوة عسكرية لم تعط لغيره آنذاك .
انه موطن دولة المماليك وكفى . اما محاربة الصليبيين والتتر ، فقد فرضتها الظروف
عليه ، فساعدته عبقريته العسكرية ودرايته الدبلوماسية سية على القيام بذلك ، من غير
ان تكون له يد فيما نتج عن ذلك من منافع او مضار في السياسة او في الثقافة .

تاريخ ابن الفرات

وهو

تاريخ الدول والملوك

المجلد السادس - الجزء الاول

لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات

Submitted in partial fulfillment of the
requirements of the Degree of Master of
Arts in the History Department of the

American University of

Beirut

BEIRUT - LEBANON.

1961.

تاريخ ابن الفرات

المجلد السادس - الجزء الاول

تحقيق ميخائيل خوري

بإشراف الدكتور قسطنطين زريق

توطئة

ينبغي ان اشير هنا بايجاز الى الطريقة التي اتبعتها في تحقيق هذه المخطوطة .
ولما كانت هذه المخطوطة جزءا من مؤلف متعدد الاجزاء كان الدكتور زريق قد بدأ بتحقيقه ونشره فقد اعتمدت ذات الطريقة التي كان الدكتور قد اعتمدها ، مع تغييرات طفيفة اقتضتها
ضرورات الآلة الطابعة . وفيما يلي خطوطها الاساسية (١) :

(١) التقييد بالاصل ما امكن ذلك الا في بعض الكلمات حين وفقت بين المحافظة على الاصل
وبين طرق الاملاء الحديثة ، كاثبات الهزة بعد الف المد ، او حيث اسقطت في وسط الكلمات
او حيث خففت الى ياء في وسط الافعال .

(٢) وضعت النقاط حيث يهملها المؤلف - وهو كثيرا ما يفعل ذلك - دفعا للتباس .

(٣) قسمت الكتاب الى فقرات لتسهيل المطالعة . وعند بداية كل سنة سجلت في اعلى

الصفحة تاريخ الحوادث التي يرويها المؤلف بالسنة الهجرية وبالسنة الميلادية معا .

(٤) اما الكلمات والعناوين التي ارادها المؤلف مميزة وكتبها بحبر احمر ، فقد وضعت خطأ

تحتها . ووضعت الكلمات التي زدتها على الاصل ضمن قوسين () . ووضعت علامتي اقتباس

حول الكلمات التي لم اتمكن من تحقيقها او لم استطع التثبت من صحة قراءتها .

ووضعت نقاطا مكان الكلمات التي لم استطع قراءتها . وكنت اشير الى ذلك في

الهامش .

(١) الدكتور زريق ، توطئة الناشر . تاريخ ابن الفرات . مجلد ٩ ج ١ ، سلسلة العلوم الشرقية

الحلقة التاسعة ، بيروت ١٩٣٦ ، ص ١ - ن .

(٥) اعتمدت ارقام صفحات نسخة فيينا وارققتها ب "و" او "ؤ" للدلالة على

صفحة الوجه (recto) او القفا (Verso).

(او) الرومي وجماعة من البحرية والحلقة فسافروا من القاهرة المحروسة في رابع جمادى الاول من هذه السنة . وكتب الى دمشق بخروج عسكرها صحبة الامير (ا) علاء الدين والحاج طبرس . ورحل عسكر مصر وعسكر الشام من دمشق في عاشر جمادى الآخرة من هذه السنة والله اعلم . وفي هذه السنة ولي عز الدين ابني وداعه الوزارة بدمشق . وفيها تسلم السلطان الملك الظاهر قلعة البيرة . وفيها وصل الخبر الى دمشق بأن الخليف وقع بين التتار ببلاد العجم وتفرقت كلمتهم وانتصر بركة قان على هولاء . وكان ما سذكروه الله تعالى . وفيها في ثالث عشر المحرم الامير عز الدين بيليك الخزندار على بنت بدر الدين (٢) .

ذكر صلح الملك الظاهر مع صاحب الكرك .

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي لما ملكه الله تعالى قد ترددت بينه وبين الملك المغيث صاحب الكرك عدة رسائل . وكان الملك المغيث قد سير في الباطن الى جماعة من الشهرزورية فاستمالهم اليه وهربوا الى الكرك . وكان الملك الظاهر قد سير عسكرا مقدمه الامير شجاع الدين طغرل الشلي الى جهة الشويف فاناروا على البلاد مرة بعد مرة (٣) .

-
- (١) في الاصل " للامير " .
 - (٢) الكلام هنا غير مقروء كله وهو على الهامش في الاصل وهذا ما جاء في اليوناني جزأ ١ ص ٤٥٢ وجزأ ١٠٧ : وفيها (سنة ٦٥٩ هـ) في ثالث عشر شوال استدعى (الظاهر بيبرس) اولاد بدر الدين صاحب الموصل وعرفهم مكانة الامير بدر الدين بيليك الخزندار عنده ومحلته منه وطلب منهم ان يزوجه بأختهم فبدلوا جهدا الاستطاعة في السمع والطاعة فعقد عقده وملكه بانياس والصبية بعد البيع الشرعي وجعل ذلك مكافأة لخدمته له ومصابرته معه في حالتي الشدة والرخا .
 - (٣) ابن عبد الظاهر (ص ٤٨) .

وكتب السلطان يردهم ويصد هم (١) . سير جرد السلطان الامير جمال الدين
المحمدي وتوجه الى الكرك فحاصرها فنزل عليها ونمايقها . ثم رحل عنها الى جهة
حلب وقال السلطان : والله ما قصدته بسوء حتى ابتدأ به (٢) وسير الى
بلاد افسد الشهرزوريه واستعان بهم على فساد البلاد . وشرح السلطان
في تجهيز عسكر آخر . فوردت رسل صاحبها الملك المغيث الى الخليفة المستنصر
بالله قبل خروجه من الديار المصرية يسأله النفاة . فكتب الى السلطان وشفع
وعاود فقبل السلطان شفاعته ولم يسيرا احدا . وسير الخليفة رسولا صحبة رسول السلطان .
ولما خرج السلطان الملك الظاهر صحبة الخليفة الى جهة الشام كما قدمنا شرحه وردت
الرسول من جهته ولم يتقرر حاله . والوافدون من جهته تتواصل واهل البلاد يطلبون
رضى السلطان . وكان الملك المغيث قد سير ولده الى هلاكوا (١ و) ملك التتار .
وعاد الى دمشق قبل كسر التتار على عين جالوت . فلما كسرهم الملك المنصور قطار
كما سبق ذكره ودخل الى دمشق قبل على الملك العزيز بن الملك المغيث واحضره
الى مصر فأعتقل بها . فلما تملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس واتفق ما قدمنا شرحه
ضاف الحال على الملك المغيث وقلت حيلته ورأى الامر عليه قد صعب سرع في استعطاف
السلطان الملك الظاهر فأبقى عليه الكرك وبلادها واطلق الملك العزيز بن الملك المغيث
واقطعه " ديبان " (٣) بمنصور شريف . وحلف السلطان لوالده الملك المغيث .
ثم بعد ذلك سير السلطان له سندقا وشعار السلطنة فقبل عقب السنجق
وركب بشعار السلطنة . وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى . واستأمن الشهرزوريه
الى السلطان فعفى عنهم وامر بعضهم والله اعلم .

(١) في ابن عبد الظاهر (ص ٤٨) " وعسكر السلطان يردهم ويصد هم "

(٢) في الاصل " ابتدئ "

(٣) كذا في ابن عبد الظاهر ص ٤٩ لكنها بغير تنقيط في الاصل .

ذكر تحليف الناس لولد الملك الظاهر بولاية العهد

بأمر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي عز وجل العساكر بنفسه • وحلف الناس لولي العهد الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركه خان • فحلف الناس بآمال منبسطه وطاعة غير مشترطة وعهود بالوفا مغتبطه واتم الله نعمته عليه كما اتمها على ابويه من قبل • وسيرت نسخ الايمان الى القلاع فحلف الناس جميعهم والله اعلم •

ذكر وصول الحاكم بأمر الله العباسي الى مصر

لما كسر التتار الخليفة المستنصر بالله واصحابه ورجع الحاكم بأمر الله ومن معه كما قدمنا شرحه وصل الحاكم بأمر الله الى دمشق المحروسة ودخلها يوم الاحد ثاني عشر صفر من هذه السنة • ثم (٢ و) سافر من دمشق الى مصر في يوم الخميس سادس عشر صفر التمهيد المذكور فوصل الى القاهرة المحروسة في السابع والعشرين من شهر ربيع الاول من هذه السنة • واحتفل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي للقاءه وانزله في البرج داخل القلعة بقلعة الجبل المحروسة ورتب له ما يحتاج اليه • وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى •

وقال صاحب "كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" : في نصف شهر رجب الفرد من هذه السنة وردت جماعة من البغادده مماليف الخليفة الذين كانوا تأخروا في بلاد العراق بعد قتل الخليفة ومقدمهم الامير سيف الدين سار • فالتقاهم السلطان بالاحسان واعطى الامير سيف الدين سار خمسين فارسا في الشام نصف (١) مدينة نابلس • ثم غيره له واعداه طبلخاناه بمصر • فلما شاهد احسان السلطان كتب الى من تأخر من خداتيته والى اصحابه من خفاجه يعلمهم بالحال كما قال

الله تعالى " يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين " (١)
وكان قد جرى من الامير سيف الدين قليج البغدادى المستنصرى امر اوجب اعتقاله
بعد ان كان السلطان اعطاه الانعطاعات العظيمة (له) (٢) ولولده . فلما
كان في بعض الايام افتكره السلطان وعلم انه لعظم ذنبه لم يجسر احد من
الامراء يشفع عنده فيه وان الاسباب انقطعت عنه فأطلقه بغير شفيع وجعله يلعب
معه الكرة وشاهده البغادده الواصلون على هذه الحالة فدعوا للسلطان وشكروا
جله والله اعلم .

وفي شعبان من هذه السنة وصل الى الابواب الشريفة (٢ ف) الامير سيف
الدين الكرزي والقاضي اصيل الدين خواجا امام رسل السلطان الذين كانا توجهها
الى الانبرور ملك الفرنج وصحبتهما كتابة . وذكرنا انه اهتم بهما اهتماما عظيما
واحضرهما ساعة الوصول قبل ان يستريحا . وان الانبرور تجملا لهما
عظيما . وعرضت عليه الهدية فأعجبت الزرافة اعجابا عظيما وشاهد التتار المسيرين
اليه وقرى عليه كتاب السلطان وهو يردده ويتفهمه وجهاز رسولا وهدية تحضر
صحبة رسله فيما بعد . ولما وصل رسل السلطان المذكورون كان في جملتهم
نفران من البحرية امر السلطان بتأديبهما لانه بلغه سؤاتهما . وسيرهما
الى قلعة الجزيرة بروضه مصر المحروسة يعملان فيها .

ووصل ايضا الى الابواب الشريفة الامير شرف الدين الجاكي والشريف عماد
الدين الهاشمي من عند صاحب الروم السلطان عز الدين كيكائوس بن كيكائوس وصحبتهما
الامير ناصر الدين نصر الله بن كوج رسلان امير صاحب الصدر صدر الدين الاخلاطي
رسولان منه ومعهما كتابان الى السلطان الملك الظاهر يتنزل فيه تنزلا عظيما .

(١) سورة يس (٣٦) رقم ٢٥ و ٢٦ .

(٢) ابن عبد الظاهر (ص ٥٠)

وانه نزل للسلطان عن نصف بلاده . وسير دروفا فيها غلام بما يقطع من البلاد
لمن يختاره السلطان ويؤمره ويكتب له من جهته منشورا قرين منشور صاحب الروم .
ولما وصل الرسل المذكورون اكرمهم السلطان الملك الظاهر وسكن جاشهم
وشرع في تجهيز جيتن نجدة لصاحب الروم . وامر بكتب المناشير وعين الامير ناصر
الدين اغلمس السلاح دار الصالحي لتقدمة العسكر وعين له ثلاثماية فارس واقطاعه
(٣ و) في الروم . ووصلت تذكره على يد الامير ناصر الدين المذكور ونسخها
بالعربية - بمقتضى الوقت والحال حصل من جهة حضرة جلال السلطنة اجلها
الله الجناب المحروس الاسفمسلار الاجل الكبير العالم العادل المؤيد المنصور
المظفر المجاهد المठाغر المعاون المساعد المفاخر ناصر الدين نصره الاسلام عدة
الملك عمدة الممالك ذخيره الحضرة كهف الجيوترقايد العساكر نصره الغزاة سيد
الامراء والحجاب صاحب السيف والقلم عضد الملوك والسلاطين " ساسلع ملكا رما دار
حاص سوباشي " سيد الامراء والحواص ملك الحجاب ناصر الدين حاكما مطلقا
وسلم اليه المناشير وشرفه (١) بما يليق به . ورسم له بالسجق والمنديل
واليد كجاري العادة . وسير الى خدمه الجناب العالي المولوى الملكي الظاهري
خلد الله سلطانه واقسمنا بالله سبحانه وتعالى وابتدأنا (٢) بوالله والله والله
وبالله وبالله وبالله وبالله وتالله وتالله الطالب الغالب الضار النافع المدرك المهلك
الحي القيوم الذى ارسل مائة الف نبي اربعة وعشرين الف نبي الى الخلايق كافة وبالحلال
والحرام يعنى الطلاق انه مهما امر مولانا السلطان الملك الظاهر خلد الله سلطانه
بحضور الامير ناصر الدين هو مقرر على ما يتقرر من غير تبديل ولا تغيير على جماعة
الامراء وغيرهم لا ينطرق الى ذلك كلام احد ولا يسمع في ذلك قول قابل ولا ينقصه (٣)

(١) في الاصل " وشرف "

(٢) في الاصل " وابتدأنا "

(٣) في الاصل " ينقصه "

وهذه اليمين يمينى وقد حلفت بها مهما ٠٠٠٠٠ (١) من المدن والاقطاعات والملكية وغير ذلك مهما قرر ورسم يكون مقررا على الوجه الذى يؤمر به ٠ ولا يعزل احدا من الجماعة المذكورين وكل من احضر من الديوان العالي المولوى السلطاني الملكي الظاهرى مثالا (٣ ق) او توقيعاً بمثل ذلك بعد اليوم وصار البيتان واحدا والمحبة الكليسة تؤكد ٠ والله على ما نقول وكيل ٠ كتب في اواخر جمادى الآخرة سنة ستين وستماية ٠ وكتب السلطان الملك الناصر الدين الرسول المذكور منشورا بثلاثماية طواشي واقطعه آمد واعمالها ٠ وتقرر سفره صحبة العسكر وان يتوجه صدر الدين الرسول الاخر صحبة رسل السلطان في البحر الى السلطان عز الدين واعلامه بأن السلطان قد اجاب داعيه ولبى مناديه ووقع الاهتمام في كتب المناشير وتجريد الامراء من حلب والشام ٠

وفي شهر رجب من هذه السنة ايضا وصل الى الابواب الشريفة الامير عماد الدين بن الامير مظفر الدين صاحب صهيون رسولا من جهة اخيه الامير سيف الدين وصحبته الهدايا الحسنة ٠ فأحسن اليه السلطان ٠ وكتب له منشورا في بلاد حلب بثلاثين فارسا وكتب له منشورا آخر في البلاد الرومية بمائة طواشي ٠

وفي هذا التاريخ وصل كتاب صاحب الروم يذكر فيه ان العدو لما بلغهم اتفاه مع السلطان خافوا من هيبتهم فولوا هاربين وانه سير الى قونيه يحاصرها ليأخذ من بها من اصحاب اخيه ٠

وفي هذا التاريخ وصل كتاب السلطان الى الملك المنصور صاحب حماه وصحبته قتاد وصلوا اليه من التتار وعلى ايديهم فرمان للملك المنصور ٠ فشكر السلطان على ذلك واعتقل القتاد ٠

(١) في الاصل بيا غير بقدر كلمه ٠

وفي هذا التاريخ وصلت كتب الامير عز الدين الافرم امير جاندار مقدم العسكر المتوجه الى جهة الصعيد للعربان بتديد شملهم وسبب ذلك طمعهم بتغيير الممالك ونفاتهم وسوء اعتمادهم وتعديهم على الامير عز الدين الحواس (١) والى قوص وقتله وانه اراح المسلمين من فسادهم والله لا يحب الفساد *

وفي شعبان (٤ و) من هذه السنة توالى وصول جماعة ممن كان صحبة الامير البرلي من العزيزية والناصرية فأحسن اليهم السلطان الملك الناصر ولم يؤاخذ احدا منهم بشيء مما جرى *

وكان الاشكرى سير الى السلطان الملك الظاهر يلتزم منه بطركا للنصارى الملكيين فعين الرشيد الكحال لذلك وسيره اليه صحبة الامير فارس الدين انور المسعودى فأكرمه الاشكرى واكرم البطارك واكرم من صحبه من جماعة الاساقفة واعطاء ووصل الامير فارس الدين انور المسعودى الذى كان توجه رسولا الى الاشكرى في هذه الايام وصحبته البطارك المذكور * ولما وصل البطارك احضر الى السلطان الملك الظاهر هديه كبيره من جملتها مصوغ من فضة وقمار وذهب وما تحصل له من مال * فرد السلطان ذلك عليه * وصادف وصول الامير فارس الدين الى الاشكرى عند فتحه للقسطنطينيه فركب الاشكرى يوما ليفرج الامير فارس الدين المذكور فيها وفي عمايرها ثم عبر على مكان فقال : جامع * وقد ابقينه ليكون ثوابه للسلطان * واذ قد جرى ذكر القسطنطينيه وهذا الجامع فلنذكر يزيد بن معاويه ومسلمة بن عبد الملك وغزوها القسطنطينيه ونهاية الجامع *

كان يزيد بن امير المؤمنين معاويه بن ابي سفيان الاموى رضى الله عنهما في سنة احدى وخمسين للهجرة في خلافة والده غزا القسطنطينيه ومعه ابو ايوب الانصارى

(١) "الهواس" في السلوك للمقرئى ج ١ ص ٤٧١ . . . وفي الاصل بدون تنقيط *

رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم • فلما حضرته الوفاة وص
انه يترك تحت ارجل الخيل حتى تدوسه خيل المجاهدين ففعل ذلك • وقيل
انه دفن تحت سورها • والروم الى الان يستسقون المطر اذا انحبس عليهم الغيث
بقبره ويدعون الله تعالى به • ونقل ابن حمدون في (٤ ق) كتابه التذكرة
ان سبب بنايه الجامع بقسطنطينية ان في سنة ست وتسعين للهجرة وقع الصلح مع
الروم على ان يبني بها مسجد جامع فبني • ولما طالتمدته جعلوه حيسا • وقال
• غيره ان الصلح كان تقرر على ان يبني مسجد قدر جلد بعير • وتقررت العهد
على ذلك • فلما استقر الحال عمد المسلمون الى جلد بعير فقدوه سيورا ومدوها •
فأنكر الروم ذلك • فقال المسلمون ان هذا جلدا لبعير ما زدنا عليه شيئا وكان
عليه الاتفاق فسكتوا • وقيل ان بانيه الامير مسلمة بن امير المؤمنين عبد الملك بن
امير المؤمنين مروان بن الحكم الاموي في ايام اخيه امير المؤمنين الوليد لما غزا القسطنطينية
كما سبق ذكر ذلك في موضعه من هذا الكتاب •

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادي
بن مروان الايوبي لما صالح ملك قسطنطينية اراد ان يعمر هذا الجامع ويخطب له
فيه • وسير ابن البزار (١) في هذا السبب فما اجابه الروم ولا مكنوه منه • واخر
الله تعالى ذلك ليكون اجره للسلطان الملك الظاهر وفخره لدولته • فلما رجع
الامير فارس الدين اقوس من عند الاشكرى وبلغه ما قال له الاشكرى في امر جامع
القسطنطينية فرح واعجبه كون الله سبحانه وتعالى هباً هذه الحسنة في ايامه
وجعل شعار الاسلام في بلاد الكفر بهيبته • وامر لوقته بتجهيز الحصر العبداني
والقناديل المذهبة والستورة المرقومة والمباخر والسجادات والمسك وما الورود والعنبر
(١) كذا في الاصل • وفي ابن عبد الطاهر (ص ٥٤) "البرار" • اشار ابو شامة (كتاب
الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠) لذلك ولم يذكر الاسم • وكذلك فعل ابن شداد
في "سيرة صلاح الدين" (ص ١١٥ - ١١٦) ولكنه لم يذكر الاسم •

والعود • وذكر الله فيه بداريقه وهذا عمل صالح للملك الظاهر مكتوب في صحيفته
لأن الله تعالى يقول : ولا يبطئون موطنًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً
الا كتب (٥) و) لهم به عمل صالح " (١) والله اعلم •

ذكر نزول عسكر الملك الظاهر على انداكيه ورجوعهم عنها •

كنا قد منا ان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ارسل عسكرا
الى جهة حلب • ولما استمرت بالبلاد الحلبية صلحت الامور وحفظت الغلات • وكان
البرنس صاحب انداكيه مستمرا على ما هو عليه من التخوف من المهابة السلطانية •
فحصل التقدم للعساكر بالاغارة على بلاده فتوجهت العساكر اليها صحبة الامير شمس
الدين سنقر الرومي • وكان من جملة من صحبه صاحب حمص وصاحب حماه والامراء
كلهم فنزلتها العساكر واخذت المينا واحرقت المراكب • واخذت حواصلها • وحاصرت
السويداء واخذتها • وقتلت واسرت وجاهدت احسن جهاد • وعادت ودخلت
القاهرة المحروسة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين هذه السنة
صحبة الامير المذكور • وصحبته الاسرا وهم مائتان نيف وخمسون اسيرا • فأحسن
السلطان الملك الظاهر الى الامير المذكور مقدم العساكر والامراء • وسير الخلع الى
الملكين المذكورين الى بلادهما والله اعلم •

ورأيت بخط صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم بن الامير ناصر الدين محمد بن
الامير عز الدين ايد مردقماق في ترجمة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس من كتابه
الذي الفه وسماه " الدر المنضد في وفيات اعيان امة محمد صلى الله عليه وسلم "
ما صيغته : وفي سنة ستين وستماية رتب السلطان الملك الظاهر في مصر اربع قضاة وجعل
لكل قاغي نايب (٥ ق) انتهى كلامه والا ظهر ان ذلك كان في سنة ثلاث وستين كما

سنذكره فيما ان شاء الله تعالى • لكن الذي اتفق وقوعه في هذه السنة ان السلطان الملك الظاهر في ثالث شهر رمضان من هذه السنة عزل قاضي القضاة برهان الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز الى قضا مصر والوجه القبلي مضافا لقضا القاهرة والوجه البحري • وكان قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز متشددا في الاوامر الضرورية السلطانية فأوجب الامر السلطاني اليه ان يستنوب عنه في الاحكام مدرسي المدرسة الصالحة النجمية التي بين القصرين داخل القاهرة المحروسة على المذاهب الاربعة ففعل ذلك • وجلس القاضي صدر الدين سليمان النفسي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي • وذلك في العشر الاواخر من ذي القعدة من سنة ستين هذه السنة • وتم هذا الامر ثم جرى ما سنذكره ان شاء الله تعالى •

قال بعض اهل التاريخ في يوم الاربعاء رابع ذي القعدة من هذه السنة قبض الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على نائبه بدمشق وهو الامير علاء الدين طبرس الوزيري • وكان قد تولى دمشق بعد مير الامير علاء الدين ايدكين البندقدار عنها • وسبب القبض على علاء الدين طبرس ان الملك الظاهر بلغه عنه امور كرهها • فأرسل اليه عسكريا مع الامير عز الدين الدماطي والامير علاء الدين ايدغدي الحاج الركني وغيرهما من الامراء • فلما وصلوا الى دمشق خرج الامير طبرس لتلقيهم • فقبضوا عليه وارسلوه الى مصر فحبسه الملك الظاهر واستمر في الحبس سنة (٦ و) شهرا • وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهرا ايضا • ولما قبض على الامير علاء الدين طبرس حكم في دمشق الامير علاء الدين ايدغدي الحاج الركني •

وفي ذي الحجة من هذه السنة ظهر بين القصرين بالركن المخلق (١) بالقرب

(١) في الاصل المخلق، وقد جاء في الخطط للمقرئ ج ٢ ص ٢٤٧ انه قد سمي "الركن المخلق" بواو بعد الخاء • • • • الخواص الصحرا التي لا ماء بها ويقال الواسعة واخوق واسع فلعله سمي المخلق بمعنى الاتساع • • • • او يكون المخلق • • • • اي مستو امس • • • • وسمته العامة بعد ذلك الركن المخلق بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام وفتحها •

من رجه باب العيد بالقاهرة المحروسة معبد وفيه حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى بن عمران عليه السلام فجددت عمارته وهو الان يعرف بمعبد موسى وهو منزل مبارك وفيه انس كثير وفيه مساكن والله اعلم .

ذكر وصول جماعة من التتار الى الباب الشريف ودخولهم في طاعة

الملك الظاهر

لـ يـزل السلطان مهتما بأمر الاعداء ومحترزا من مكائدهم وآخذا بالحزم في امرهم . وقصاده لا تنقطع من بغداد وخلاط وغيرهما من بلاد الشرق والعجم . وهو يغرم عليهم الاموال الكثيرة لان من يسافر في هذا المهم ويسخو بنفسه لا بد ان يأخذ مثل ديتسه ولولا ذلك ما غرر احد بنفسه . فلما ارشد الله السلطان لهذه المصلحة ترددت القصاد وتعرفت بمن يطلعها في البوارج وكان بهم السلطان وسير اليهم التحف . وسيروا يعرفون ان هلاون خزاه الله جمع جمعا كثيرا ولم يعلم قصده . فاحتز السلطان وسير الكشافة من خواصه وجرد معهم جماعة من الترك الخفاف بالخيول المسومة والجنائب وسير الكشافة جمال الدين الرومي السلحدار من الخواص ومعه خيول منها حجرة من خيل خفاجة سابقه وغيرها من الخيل كل فرس بألف دينار واكثر ثم الامير علاء الدين اقسنقر الناصري كذلك حتى اخذ السلطان الاخبار . وقبض من وسط التتار ناسا اخذ الاخبار منهم وكانوا مسلمين ، فأطلقهم وكتب الى الشام بار دافهم بجماعة . وارسل (٦ق) امراء العربان معهم فساقوا الى حدود العراق . وفي نصف شهر رمضان من هذه السنة وقع بدمشق ارجاف من جهة التتار وتجهز اكثر الناس للهرب للديار المصرية وباع الامراء حواصلهم وجفل الناس من حمص وحماة واخلوا الى دمشق وذكروا ان مثل هذا الارجاف حصل ببلاد الفرنج .

ولما تواترت الاخبار بحركة هؤلاء عمل السلطان بالحزم • وتقدم الى اهل دمشق بالحضور الى القاهرة بأهلهم لتحتضنهم وترخص الاسعار ويؤمن نفاق من له ميل الى جهة العدو • فحضرت جماعة كبيرة • وكتب السلطان بتخفيرهم من ولاية الى ولاية الى باب القاهرة وان لا يؤخذ منهم حواري ولا زكاه ولا غيرها ولا ينصرف الى ما معهم من تجر وقمار ولا تفتن لهم محابر ولا شدات • فوصلوا الى القاهرة سالمين • وكتب الى النواب بحلب بحريق الاعشاب • وسير جماعة الى بلاد آمد ومواقع الاعشاب التي جرت عادة هلاون بنزولها • لما وصل الى حلب وكانت محمية بحريق الاعشاب فتوجهوا واحرقوا تلك المروج مسيرة عشرة ايام الى ان صارت جميعها رمادا • وفعل في احراق اعشاب بلاد خلاط كذلك • وتطعم السبيل (١) احترازا • ثم سير كشافة آخر مثل الاولى وصحبتهم العربان • وفي اثناء هذه الحال بلغ الملك الناصر امور عن الامير علاء الدين طبرسر الوزيرى النائب بدمشق انكرها • فسير الامير عز الدين الدماطي والامير علاء الدين ايدغى الحاج الركني فقبضوا عليه وارسلوه الى القاهرة • وتسلم الامير علاء الدين المذكور دمشق ينظر فيها الى حين حضور نائب مستقل كما قدمنا شرحه • وسير الامير علاء الدين ايدغى الحاج الكشافة جماعة بعد جماعة • ثم وصل كتاب الحاج علاء الدين بأن الكشافة وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين الى الباب الشريف لانهم من اصحاب الملك برکه • وكانوا نجده عند هلاون • فلما وقع بينهما كتب الملك برکه اليهم بالحضور اليه وان لم يقدروا على ذلك يتجاوزن الى عسكر الديار المصرية ويذكرون (٧) ان العداوة قد استحكمت بينهما • وان ولد هزون قتل في المعصاف وان عسكر هولاء كسر ابن عمه برکه قان وهرب جماعة هولاء في البلاد وقصدت كل طائفة منهم جهة • وان هولاء هرب الى قلعة تيملا وهي في وسط بحيرة انريجان فدخلها وقطع عنها الداروق فصار كالمحبوس

(١) في الاصل " السبل "

ففيها ٠٠٠ (١) وانهم فوق المايقي فارس ٠

فكتب السلطان الى نواب الشام باكرامهم والاقامة لهم ٠ وحمل الخلع اليهم والى نسائهم واحسن الى مقدميهم الاربعة وسير اليهم الاقامات من مصر من الاغنام والسكر والشعير والحوايح خاناء ٠ ووصلوا في يوم الخميس رابع عشرين ذى الحجة من هذه السنة ٠ وخرج السلطان الملك الظاهر للقايم يوم السبت السادس والعشرين منه ٠ ولم يسبق احد من اهل القاهرة ومصر حتى خرج وكان يوما عظيما وراوا من كثرة العساكر وكثرة العالم شيئا بهر عقولهم وكان السلطان قد رسم بعمارة ادر ومساكن لهم قريب اللوق ٠ وفي يوم السبت سادس عشرين الشهر المذكور عملت لهم دعوة عظيمة في اللوق وحملت اليهم الخلع وسييت الخيول وفرقت فيهم الاموال ولعبوا الكرة مع السلطان ثم امر كبارهم بماية فارس فما دونها وياقيمهم نزلهم في جملة بحرينه وماليكه وصار كسل منهم كامير مستقل له الاجناد والغلمان واسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنة وافردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم وحسن اسلام جميعهم ٠ وبلغ التتار ذلك فتوافدوا جماعة بعد جماعة والسلطان يعتمد معهم الاحسان ويفرقهم كل جماعة بين اضعافها من **الماليك السلطانية** ٠

ثم ان السلطان نظر في مصلحة عامة الاسلام وهي انفاذ رسل الى الملك بركه فسير الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين كشيرك (٢) ومعهما نفران من التتار الواصلين اصحاب صراغان (٣) وكتب على ايديهم الكتب بأحوال الاسلام ومبايعه الخليفة ما سنذكره ان شاء الله تعالى ٠

(١) كلمات غير مقروءة ٠
(٢) في الاصل بدون نقط ٠ ولكنها كشيرك في ابن عبد الظاهر (ص ٦) وهي كشرتك في السلوك للمقريزي (ص ٤٧٩)
(٣) كذا في الاصل ولكنها صراغان في السلوك للمقريزي (ص ٥٠١) ٠

وفي هذه السنة اخذ قاع بحر النيل المبارك فكان ستة اذرع وسبعه اصابع وانتهت الزيادة الى ثمانية عشر ذراع فقط .

قال بعض اهل التاريخ . وفيها وصل التتار ومقدمهم صدعون (١) وصحبهم الملك المظفر صاحب مارين الموصل ونزلوا عليه (٢ ق) وكان في الموصل مع الملك الصالح ركن الدين اسماعيل سبعمائة فارس و نصبوا عليها خمسة وعشرين منجنيق ولم يكن بها سلاح يقاتلون به ولا قوت فغلا بها السمر حتى بلغ المكوك اربعة وعشرون دينارا . فاستصرخ الملك الصالح اسماعيل صاحب الموصل المير شمس الدين البرلي فخرج اليه من حلب وسار الى ان وصل سنجار . فلما اتصل بالتتار و صوله عزموا على الهروب فاتفق وصول الزين الحافظي اليهم من عند هولاء فعرفهم ان الجماعة الذين مع البرلي قليلون والمصلحة ان يلاقوهم فقام عزم التتار على ملاقات البرلي فسار صدعون (١) بطايفه من ثلثاء على الموصل عدتهم عشرة الاف . وقصد سنجار وبها المير شمس الدين البرلي ومعه تسعمائة فارس واربعمائة من التركمان ومائة من العرب فخرج اليهم والتقاهم يوم الاحد رابع عشر جمادى الآخرة فكانت الكسرة عليه فانهزم جريحا وقتل من كان معه من الامراء وغيرهم . ووصل الى البيرة فأرسل اليه هولاء فيطلبه اليه ليقطعه بلاد فأرسل طلب الاذن من الملك التاثير في دخوله الى الشام فأذن فخرج من البيرة في تاسع عشر شهر رمضان . ودخل الى الديار المصرية في العشر الاول من ذي القعدة فأنعم عليه الملك التاثير بالمال والخلع واعطاء امرة سبعين فارس .

واما صدعون (١) فانه رجع الى الموصل وداوم عليها الحصار . ثم ارسل يقول للملك الصالح ان لم تستلها والالات لم الانفسك اذا دخلناها بالسيف فجمع امراءه . وشاروهم . فأشاروا عليه بالخروج فخرج اليهم يوم الجمعة خامس عشر شعبان بعد الصلوة . فلما وصل اليهم احتالوا عليه وعلى من معه ونادوا في اهل البلد بالان . فظهر الناس

(١) كذا في الاصل . وهو صدغون في رأى الدكتور زيادة في السلوك للمقريزى (ص ٤٦٧) ملحوظة ٤

وشرع التتار في خرب الاسوار • فلما اطمأن الناصريون باعوا واشتروا دخل التتار البلد ووضعوا
السيف فيهم سبعة ايام • ووسطوا علا الدين ابن الملك الصالح وعلقوه على باب السجن
ثم دخلوا وقتلوا الملك الصالح اسماعيل وهم متوجهين الى هولاء •

وتولى نيابة حلب بعد البرلي الامير عز الدين ايدمر الشهابي • وعاد عسكر سبى
من انطاكيه على الفوج من بلاد حلب فنهبوا وافسدوا فخرج اليهم الامير عز الدين الشهابي
ناهب حلب فكسرهم واخذ منهم جماعة وارسلهم الى مصر فوسطوا بها وقيل غير ذلك •

(و٨) ذكر وفاة من توفي من النجسان في هذه السنة وحضر اخبارهم •

احمد بن الحسين بن الحسن بن ابراهيم بن سنان بن موسى بن حسن بن بشر بن
ابراهيم الجذامي الداري الخليلي الاصل المصري يكنى ابا العباس ولد في سنة ثمان
وثمانين وخمسماية وتوفي بمصر في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الاخر من هذه السنة سنة ستين
وستماية ودفن بسفح المقطم •

عبد العزيز بن عبد السلام بن ابي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي يكنى ابا
محمد ويلقب عز الدين حضر ابا الحسين احمد الموازيني الخشوعي وسمي عبد اللطيف بسن
اسماعيل الصوفي والقسم بن عساكروا بن طبرزد وحنبل المكبروا بن الحرستاني وغيرهم وخرج
له الدماطي اربعين حديثا عوالي وروى عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد والدماطي
وابو الحسين اليونيني وغيرهم وثقفه على الامام فخر الدين ابن عساكروا الاصول والعريه
ودرسوا فتي وصنف وبرز في المذهب وبلغ رتبة الاجتهاد وقصدته الطلبة من البلاد وتخرج
به ايمه وله الفتاوى السديده ومن مصنفاته "القواعد الكبرى والقواعد الصغرى" • واختصر
"نهاية المطلب" • وله "مقاصد الرايه" وكان يكتب خطا حسنا • وكان مع امامته وعلمه
ناسكا ورعا امارا بالمعروف وينها عن المنكر ولا يخاف في الله لومة لائم • ولي خطابة جامع
دمشق بعد الدولعي فلما تملك الملك الصالح عماد الدين اسماعيل دمشق واعطى الفرنسج

صفد والشقيف نال الشيخ ابن عبد السلام منه على المنبر وترك الدعاء له فعزله عن
الخطابة وحبس ثم أطلقه فخرج الى مصر فلما (٨٠ ق) قدمها تلقاه الملك الصالح نجم
الدين ايوب صاحب الديار المصرية وبالح في احترامه واتفق موت قاضي القضاة شرف الدين
ابن عين الدولة فولى قاضي القضاة بدر الدين السنجارى قضاء القاهرة والوجه البحرى
وولي عز الدين ابن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلي مع خطابة جامع مصر . ثم ان بعض
غلمان وزير الملك الصالح وهو معين الدين الشيخ بنا بنيانا على سطح مسجد بمصر وجعل فيه
• طبلخانة معين الدين فأنكر قاضي القضاة عز الدين ذلك ومضى لجماعته وهدم البنيان وعلم
ان السلطان والوزير يغضبان فاشهد عليه باسقاط عدالة الوزير وعزل نفسه عن القضاء فعظم
ذلك على السلطان الملك الصالح وقبل له اعزله عن الخطابة والاشنع عليك علي المنبر
كما فعل في دمشق فعزله فأقام بيته يشغل الناس وفيه يقول الشيخ جمال الدين ابو الحسين
الجزائر

سار عبد العزيز في الحكم سيرا لم يسره سوى ابن عبد العزيز

عمنا حكمه بمعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز

وكان قاضي القضاة عز الدين ابن عبد السلام رحمه الله تعالى مع شدته حسن المحاضرة
بالنادرة والشعر . ويقال انه لما حصر بيعة الملك الظاهر ربن الدين ببيبرس الصالحى قال
له • يا ركن الدين انا اعرفك مملوك البندقدار فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخرع
عن رقه الى الملك الصالح نجم الدين ايوب وعقته • ولد في سنة سبع او ثمان وسبعين
وخمسماية • ولما مرض مرضه قيل له ان السلطان الملك الظاهر يقول لك عين مناصبك
لمن تريد من اولادك فقال ما فيهم من يصلح • وهذه المدرسة الصالحة تصلح للقاضي تاج
الدين ففوضت اليه بعده • وتوفي في يوم الاحد عاشر (٩٠ و) جمادى الاولى من هذه السنة
سنة ستين وشهد الملك الظاهر جنازته والخلايق •

عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسين بن عساكر الدمشقي توفي بمكة

المشرفة في يوم الاثنين حادي عشر جمادى الاولى من هذه السنة .

عمر بن قاضي القضاة نجم الدين ابي الحسن احمد بن هبة الله بن محمد هبة

الله بن احمد بن يحيى بن زهر بن هرون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن ابي جسرادة

الحلي الاصل المصري الوفاة يلقب كمال الدين ويعرف بأبي العديم الفقيه الحنفي المذهب

كان واحد عصره اصلا وفضلا وبلاغة ونبلا جليل القدر كثير العلوم والوقار واحد في الكتابة

صنف تاريخ حلب سماه " بغية الطلب في تاريخ حلب " وله نظم رايق (١) وشعر رايق .

وولي الوزارة وكان سفيرا للخلافة المعظمة في الامور المفخمة . وكان من فضيلته وعلو

رتبته ومثرت له كثير التواضع يلتقط الناس من فرايده ويقبسون من فوايده . ارسله الملك

الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي صاحب حلب الى الديوان العزيز ببغداد رسولا مرارا .

وكلما قدم الى بغداد ظلم موكب الخليفة لتلقيه وحضر الى باب الخلافة لتقبيل العنبة

على جاري عادة الرسل فخرجت اليه سجادة وامر ان يصلي ركعتين شكرا لما حصل له

من الرفعة وامر الخليفة برفع ذكره ثم خرج له امر الخليفة : نحن نعظم الرسل لاجل

مرسلها ونحن الان نعظم مرسلك لاجلك " . ومن شعره صاحب كمال الدين المذكور

قوله حين وصل الى الديار المصرية وحمل اليه الشيخ ابد مر مولى محي الدين وزير الجزيرة

المسمى (٢) فيما بعد بابراهيم الصوفي ديوان شعره ليظالعه (٩ و) فتصفحه وظالعه

وكتب عليه من نظمه

لهم ان رنت بالسحر منها واجفان

وكنت اظن الترك تختر اعيننا (٣)

قوافي هي السحر الجلال وديوان

الى ان اتانى من بديع قريضهم

يقولهم هاروت فيه وسحبان

فأيقنت ان السحر اجمع لهم

(١) بغير تنقيط اصلا .

(٢) في الاصل " المسي "

(٣) الضرب " اعين "

وله

قلبي وطرفي منزلاه لانه
ياساكن الجفن القريح وليته
قمر وتلك منازل الاقمار
يرعى لجارى الدمع حق الجار

ولد في العشر الاول من ذى الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بحلب وتوفي
في العشرين من جمادى الاول من هذه السنة بظاهر مصر ودفن في يومه بسفح المقطم .
• محمد بن احمد بن ابراهيم بن سراقه الشاطبي الاندلسي المحدث روى لاحد

بن صابر اولغيره

هجرتهم وقتلهم براه الضنى
وجرتهم وقتلهم اقم اونسسر
فغيرتموني وعيرتموني
فحيرتموني وخيرتموني

توفي هذه السنة .

محمد بن سليمان بن ابي الفضل بن ابي الفتوح بن يوسف بن يونس الانصارى
الصقلي الاصل الدمشقي وفاة . يكنى ابا عبد الله الدلال كان شخصا صالحا
راويا للحديث عنه رواية عالية . روى عن ابي الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن
الحراني وغيره . ولد ليلة الفطر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . وتوفي
في صفر سنة ستين هذه السنة بدمشق .

٦٦١ هـ (١٥ ت ٢ - ١٢٦٢ - ٤ ت ٢ ١٢٦٣)

(١٠) ذكر الحوادث في سنة احدى وستين وستماية

ذكر البيعة للامام الحاكم بامر الله احمد العباسي ثاني خلفاء بني العباس

واول من اقام بها (١) منهم .

كنا قد منا في السنة الماضية ان عسكر التتار التقوا مع الخليفة المستنصر بالله العباسي وهزموا من معه . ومن نجا من الوقعة الامير احمد بن ابي علي بن علي بن ابي بكر بن امير المؤمنين المسترشد بالله العباسي . فلما وصل الى القاهرة التقاه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى واكرمه وقدمه . وانزله في البج الكبير داخل القلعة بقلعة الجبل المحروسة . وادر عليه النفقات . وكذلك جميع من معه . ثم ان السلطان امر بعمل نسبة الامام احمد المذكور الى النبي صلى الله عليه وسلم وثبت نسبه على قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز .

فلما كان يوم الخميس ثاني شهر الله المحرم من هذه السنة سنة احدى وستين وستماية جلس السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مجلسا عاما فيه جميع الناس وجماعة التتار الوافدين من العراق ورسل السلطان المتوجهون الى الملك بركة الذين جهزهم ليسافروا اليه كما سنذكره ان شاء الله تعالى . واحضر الامير احمد العباسي راكبا الى الايوان الكبير بقلعة الجبل المحروس وبسط له الى جانب السلطان وقرى شجرة نسب الخليفة بيبرس يديه على الناس . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر ماصيفته : حضر الامام الحاكم سلام الله عليه راكبا الى الايوان الكبير بقلعة الجبل

المحروس وبسط له الى جانب السلطان وذلك بعد ثبوت نسبه الشريف وامر السلطان بعمل شجرة نسب له فعملتها وقرأتها بين يديه على الناس " . ورأيت بخط صاحبنا الامير صارم الدين محمد ابراهيم الشهير بأبن دقماق ما صيغته : في ثامن محرم عقد مجلس عظيم لعقد البيعة للامام الحاكم بأمر الله فأحضر ابو العباس احمد بن الامير محمد بن الحسن بن ابي بكر بن الحسن بن علي القبي (١) بن الحسن بن امير المؤمنين الراشد بالله . وقيل كان ذلك في يوم الخميس تاسع المحرم الشهر المذكور وحضر صاحب بها" الدين وولده فخر الدين وقاضي القضاة تاج الدين واعيان الامراء وارباب الدولة وقرى نسب الخليفة على قاضي القضاة وشهد به عنده فلما اثبت مد يده فبايعه " . وبعد ذلك اقبل السلطان الملك الظاهر عليه وبايعه على كتاب الله وسنة رسول الله على الله عليه وسلم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد اعداء الله واخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها والوفاء بالعهود واقامة الحدود وما يجب على الائمة فعله في امور الدين وحراسه (١٠ ق) المسلمين ، بعند ذلك تلقب بالحاكم بأمر الله . واقبل على السلطان وقلده امور البلاد والعياد ووكل اليه تدبير الخلق وجعله قسيمه في اقيام الحرب وفوز اليه ساير الامور وعدو به صلاح الجمهور . ثم اخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته فلم يبق ملك ولا امير ولا وزير ولا قاضي ولا مشير ولا جندي ولا فقيه الا وبايعه . وتمت هذه البيعة المباركة وحصل الحديث معه في انفاذ الرسل الى الملك بركة فوافق على ذلك وانفصل المجلس .

(١) في الاصل غير واضحة . راجع السيوطي " الخلفاء " تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، (ص ٤٧٨) .

ولما كان يوم الجمعة ثاني هذا اليوم اجتمع الناس وحضر الرسل الذين جهزهم الملك
الظاهر الى الملك بركه وخطب الخليفة بالجامع وعلى بالناس وهذه الخطبة المباركة :
الحمد لله الذي اقام لآل العباس ركننا وظهيرنا . وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا
احمده على السراء والضراء واستنصره على دفع الاعداء واسهده ان لا اله الا الله
وحده لا شريك له واسهده ان محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه نجوم الاهتداء وائمة الاقتداء الاربعة الخلفاء وعلى العباس عمه وكاشف
غمه . ابي السادة الخلفاء الراشدين والائمة المهديين (١) وعلى بقية الصحابة
والتابعين لهم بأحسن الى يوم الدين . ايها الناس اعلموا ان الامامة فرض من فروض
الاسلام والجهاد محتوم على جميع الانام . ولا يقوم علم الجهاد الا باجتماع كلمة العباد
منها . ولا سبب الحرم الا بانتهاك المحارم . ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم .
فلو شاهدتم اعداء الاسلام حين دخلوا دار السلام واستباحوا الدماء والاموال وقتلوا
الرجال والابطال والاعفان . وهتكوا حرم الخليفة والحريم واذاقوا (١ او) من استبقوا
العذاب الاليم . فارتفعت الاصوات بالبكاء والعيويل وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم
الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمايه . وكم طفل بكى فلم يرحم لبكائه فشمروا عن
ساق الاجتهاد في احيا فرض الجهاد واتقوا الله ما استطعتم . واسمعوا واطيعوا وابتغوا
خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . فلم تبق معذرة عن القعود عن
اعداء الدين والمحاربة عن المسلمين . وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الاجل
العالم العادل المهاد المربط ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الامامة عند قلة الانتصار .

(١) " المهديين " في ابن عبد الظاهر (ص ٦٢) .

وشرد جيوش الكفر بعد ان جاسوا خلال الديار . فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود والدولة العباسية به متكاثرة الجنود . فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة واخلصوا نيابكم تنصروا وقاتلوا اولياء الشيطان تظفروا ولا يروعنكم ماجرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين والدرهم يومان والاخرى للمؤمنين جمع الله على التقوى امركم . واعز بالايمان نصركم . واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم .

الخطبة الثانية : الحمد لله حمدا يقوم بشكر نعمائه واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له عدة عند لقاءه . واشهد ان محمدا سيد رسله وانبيائه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلق في ارضه وسمايه اوصيكم عباد الله بتقوى الله ان احسن ما وعظه الانسان كلام الملك الديان " يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم . فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله (١١٠ ق) والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تاويلا (١) نفعا الله واياكم بكتابه واجزل لنا ولكم من ثوابه وغفر لي ولكم وللمسلمين اجمعين والحمد لله رب العالمين .

وخطب للخليفة في هذا اليوم على المنابر بجميع الجوامع وبدمشق في سادس عشر المحرم الشهر المذكور .

وكتب بدعوته الى الافاق وتعلل بذكرها الرفاق وكتب الله للسلطان هذه الحسنة التي يجدها يوم ينفذ كل شئ وما عند الله باق والله اعلم .

ذكر ارسال الرسل الى الملك بركه

لما وصلت جماعة التتار الذين وصلوا اولا الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيمرس الصالحي كما قدمنا شرحه واستطلع منهم الحال وعرف احوال الملك بركه ومقامه والطريق اليه جهز الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين كشرت (١) . وكتب على ايديهم الكتب بأحوال الاسلام ومبايعة الخليفة الحاكم بامر الله عليه السلام . وامر بعمل نسبه الظاهره الى النبي صلى الله عليه وسلم فكتبت واذهبت وسيرها السي الملك بركه وسير ثبوت نسبه مسجولا على قاضي القضاة تاج الدين . ولما تجهزت هذه الكتب احضر الملك الظاهر الامراء والمفارده وغيرهم وقرأ الكتب على الجميع واستشارهم في ذلك فاستصوبوا رأيه . وسير صلبة الرسل نفرين من التتار المذكورين من غلمان الملك واصحابه ومن يعرف البلاد . وكتب على ايديهم كتابا فيه شيء عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد ووصف العساكر الاسلامية وكثرتهم وعدة اجناسهم ومن فيها من خيل وتركمان وعشائر اكراد وقبايل عربان ومن اطاعهما من الملوك الاسلامية والفرنجية ومن حالفهما ووافقها ومن هادها وهادنها . وان جميعها في طاعته وسامعه لشارته الى غير ذلك من الانراء بهلاوون خزاء الله وتهوين امره والاستيلاء (٢) عليه وتقبيح (١٢ او) الغفلة عنه وافهامها ان كلما يفعله عناد له ويعلم بوصول جماعه التتار الذين وصلوا وادعوا انهم من اصحابه وان الاحسان اليهم انما هو من اجله . ولما جهزهم السلطان وركبهم في " الجرايد " اعطاهم زواجة شهور كثيرة . ولما بويع الخليفة الحاكم بأمر الله بحضورهم وحضروا خطبته المباركة واجتمعوا به حملهم السلطان من المشافهة مافيه

(١) ملحوظة ٢ (ص ١٣) اعلاه .

(٢) بدون نقاط اصلا .

صلاح الاسلام وعرف الرسل من التتر اصحابهم التتار احوال عساكر السلطان وكثرتها وما هو بصدده من جهاد واستخدام وما يبذله من نصرة الدين وقاتل الاعداء المشركين وانه صاحب في الملك بركة وداع له بالنصر على الاعداء وموافق له على ما فيه صلاح العالم .

وتوجه الرسل من الديار المصرية في المحرم من هذه السنة سنة احدى وستين ووصلوا بلاد الاشكرى فأحسن اليهم . وصادف وصولهم رسل الملك بركة الى الملك الاشكرى فسيرهم صحبتهم . ورجع الفقيه مجد الدين لعرض حصل له صحبة رسل الملك بركة الامير جلال الدين والشيخ نور الدين علي وسافر الامير سيف الدين كشرنك (١) ورفقته . ووصلت كتب الملك الاشكرى بان رسل السلطان الملك الظاهر وصلوا اليه وانه جهزهم وتوجهوا سالمين وربما وصلوا الى جهة الملك بركة صحبة رسله خدمه للسلطان والله اعلم .

ذكر تفويض نيابة دمشق الى الامير جمال الدين النجيبى

لما تسلم الامير علاء الدين ادغدى الحاج الركني تدبير دمشق بعد القبض على الامير علاء الدين طبرس الوزىرى كما قدمنا شرحه اختار السلطان الملك الظاهر الامير جمال الدين اقوش النجيبى الصالحى وعينه لنيابة السلطنة بها . وتقدم صاحب عز الدين بن عبد العزيز بن وناعة (١٢ ق) وزير الشام . وكان قد جرت بينه وبين الامير علاء الدين طبرس الوزىرى مفاوضات اوجبت حضوره الى مصر صحبه الركاب الشريف بالعود الى وزارته ومباشرة ما هو معدوق به . وكتب على ايديهما تذكرة تشتمل على كل شيء من الكليات والجرائم واحوال الحصون وذخيرها يستعين من يتولى من الامور بالنظر فيها والاستمئاد منها وفيها من الامور الملوكية والاسباب الدينية واحوال الاموال وعرض الرجال

مالو كتب بمفرده . لكان كتابا ينتفع به في تدبير الملك . وخلع السلطان الملك الظاهر عليهما واعطاهما ١٠ اقطاعات في الشام وتوجها في هذه السنة والله اعلم .

ذكر مسير الملك الظاهر الى جهة الطور ونزوله عليها

في شهر ربيع الاول من هذه السنة سنة احدى وستين وسنماية عزم السلطان الملك الظاهر على التوجه الى الشام . فتجهز الناس وخرج من قلعته في سابع شهر ربيع الاول . واقام على باب القاهرة مخبيا الى حين تجهز الناس . وسافر في حادي عشر الشهر المذكور فوصل الى محروسة غزه وهو يديم الصيد في الطريق . وضرب حلقه بالمرش بثلاثة الاف فارس كلهم خواصه . وكان في هذه الحلقة من الصيد شيء كثير . وتقتظر الامير شمس الدين سنقر الروي فساق السلطان اليه ونزل عنده وجعل راسه على ركبته واخرج من خريطته موميا فسقاها وسار به الى خيمته . وكذلك الامير سيف الدين قلاون الالفي تقتظر ايضا . فاعتمد السلطان معه هذا الاعتماد .

ووصل الى غزه فوجد فيها والده الملك المغيث صاحب الكرك . فاقبل عليها واكرمها واحسن اليها وانعم عليها واعطاها شيئا كثيرا وحصل الحديث في حضور ولدها . وتقررت الامور على ما لم يعلمه احد . واعاد عليها العطاء والانعام وعلى كل من حضر معها حتى انه حمل في جملة ذلك من الصيد (١٣ و) خمسة عشر حملا وردها الى الكرك ، وتوجه صحبتها الامير شرف الدين الجاكي المهندار برسم الاقامات وتجهيزها للملك المغيث اذا حضر . وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى .

ونظر السلطان الملك الظاهر في امر امراء التركمان وخلع عليهم واحضر امراء العايد وجرم وشعلبه وضمنهم البلاد والزمهم بالعدد وشرط عليهم البريد واحضار الخيل برسمه . ورأى اعمال الحيلة البعيدة المراعي في امر العدو المخذول وكتب الى ملك

شيراز وملك اللور والي حفاجه يستجيشهم على هولائوا ملك التتار ويعرفهم بما وصلت به الاخبار من جهة الروم في البر والبحر من كسر الملك بركه له مرة بعد مرة .

وسار من غزة فنزل الطور في ثاني عشر جمادى الاول (١) وسير الملك الاشرف صاحب حمص يلتزم الاذن له في الحضور الى الخدمة فأذن له فحضر في نصف الشهر فتلقاء السلطان واحسن اليه وسير اليه سبعين غزالا جملة واحدة وقال صيد هذا اليوم جعلته لك والله اعلم .

ذكر احوال الكرك من ابتدا امره الى هذه السنة والقبض على الملك المغيب صاحب الكرك .

قال القاضي الامام الرئيس الاوحد العالم عز الدين محمد بن علي بن شداد الحلبي في تأليفه " كتاب الاعلاق الخلية في ذكر امراء الشام والجزيرة " : ومما هو مستحدث ذكره في كورة الجبال من البلاد الكرك والشوبك ، فاما الكرك فهو في عصرنا حصن منيع ومقل حصين وله روض عليه سور وهو وريضة على جبل وبين الرض والقلعة خندق عميق نحو ستين ذراعا ويدخل الى فضا الحصن من حنية منحوتة في الجبل طوله عليها بابه وحراسه . قال ولما لم اجد له ذكرا فيما طالعت من كتب التواريخ الموضوعة في صدر الاسلام ولا في الكتب المصنفة في المسالك والممالك لم ازل (١٣ ق) ابحث عنه الى ان اخبرني ثقة اعتمد عليه انه كان ديرا للنصارى . وكانت العرب تخطف من فيه مسن الرهبان مقيم فشيده الرهبان بناء وحصنوه ولم يزل ذلك دأبهم في توسعته وتحصينه الى ان صار حصنا واستدعوا اليه طائفة من الفرنج المجاورين لهم (٢) فيه عندهم يشقون بهم على من يقصد اذا هم فزاده الفرنج تحصينا واقاموا فيه حاكما ورتبوا له جندا وجعلوا يشنون منه الغارات على ما داناها من القرى والضياح الى ان اجلوا

(١) ابن الفرات يستعمل جمادى مونثا هنا على غير عادته .

(٢) كلمة غمر مقروءة .

عنها كثيرا من اهلها واستولوا عليها وصيروها له عملا لتحميه سيوفهم ٠٠٠٠ (١)
ايدىهم الى ان ملكه البرنصر ارناط صاحب انطاكية وسبب ملكه له انه
لما تخلص من اسر السلطان (٢) وراء بن محمود بعد موته تزوج
ووجد صاحب الكرك بحكم ان زوجها مات فملكه ٠ وكان نور الدين
قد قصده في سنة خمس وستين وخمسماية فقصدته الفرنج في حموع
كثيرة فرحل عنه ثم قصده مرة اخرى في سنة ثمانى وستين وخمسماية
وحاصره ثم رحل عنه لسبب ومات ولم يظفر منه بفقر ٠

ولما ملك السلطان صلاح الدين يوسف قصده في سنة سبع وسبعين وخمسماية
قصده عز الدين فرخشاہ نايب الملك الناصر صلاح الدين على دمشق والملك العادل
من مصر ٠ وسبب ذلك ان البرنصر ارناط صاحب الكرك كان من شياطين
الانس واشدهم عداوة للمسلمين فجمع عسكرا وعزم على المسير الى (٣)٠٠٠
ومنها الى المدينة المعظمة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم (٤) ليستولي
على تلك البلاد ٠ فسمع الامير عز الدين بذلك فجمع العساكر (٥) الدمشقية
وسار الى بلده فنهبها ٠ فلما بلغ ارناط ذلك علم (٦) ان المسلمين لا يعودون

(١) كلمة غير مقروءة ٠

(٢) كلمة مطبوسة ٠

(٣) كلمة غير مفهومة ٠

(٤) في الاصل " وس ٠٠٠٠ " ٠

(٥) غير ظاهر الا " الع ٠٠٠٠ " ٠

(٦) في الاصل " ع ٠٠٠٠٠٠ " ٠

الى بلادهم حتى يغزو جموعه ففرقها وانقطع طمعه عما قصده فعاد عز الدين
الى دمشق • وغزاه (١٤ و) السلطان صلاح الدين بنفسه في سنة تسع وسبعين
وخمسمائة فملك ريشه وتسلط على حصاره ونصب عليه المجانيق فلم ينل منه طائلا •
ورحل عنه في منتصف شعبان • ثم غزاه في شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة
فنصب المجانيق على ريشه واشتد عليه القتال حتى ملك وقي الخندق (١) وامر
صلاح الدين بالقاء الاحجار في المحانيق ليظمه ولم يجسرا احد على الدنونه لكثرة
• الرمي بالنشاب واحجار المجانيق فأرسل من فيه الى الفرنج يستجدونهم (٢) فصاروا
اليهم ٠٠٠٠ (٣) فلما بلغ الملك الناصر رحل عنه وسار الى نابلس فنهبها واخربها
وحرقها ثم ان اللعين البرنسر طلب المهادنة من السلطان صلاح الدين
فأجابه ولم يف وذلك انه ٠٠٠٠ (٤) بالسويك قفل من الديار المصرية في حالة
المهادنة لينزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فنذر صلاح الدين نفسه (٥) انه
متى ظفربه قتله •

فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وستماية (٦) جمع الجمع من الموصل (٧) وديار بكر
والجزيرة واربل وبلاد التبر وبلاد الشام • وسير ٠٠ (٨) على الكرك فحصره وخيىق
عليه ثم بلغه ان الفرنج جمعت لدفعه عن الكرك فرحل وترك عليه اخاه الملك العادل
في عسكر والتقى السلطان صلاح الدين بالفرنج على حطين وكانت الوقعة التي اسرت
فيها اسرهم وثلت عروشهم وزعزت اسرتهم • ولم يزل حصن الكرك محاصرا الى ان فتحه
الله تعالى في شهر رمضان سنة اربع وثمانين من نايب البرنسر ارناط بالامان بعد

- | | |
|---------------------------------|---------------------------|
| (١) الكلمة في الاصل غير واضحة • | (٥) كلمة مضموسة • |
| (٢) في الاصل بدون نقط • | (٦) يجب ان تكون خمسمائة • |
| (٣) كلمات غير مفهومة • | (٧) غير واضحة في الاصل • |
| (٤) كلمة غير واضحة • | (٨) غير واضحة في الاصل • |

ان حوضر سنة ونصف • واعطاء لآخيه الملك العادل واخذ منه عسقلان • وكان
البرنسر قد اخذه الملك الناصر في وقعه حظين اسيرا فوفى بقتله نذره • وكان
ذلك على الله يسيرا •

ولم يزل في يد نواب الملك العادل الى سنة خمس عشرة وستماية (١٤ ق) وقبل
وفاته بمدة يسيره سلمه لولده الملك المعظم عيسى بجميع ما فيه من الخزائن والذخير
فزاد في عمارته وتحصينه ونقل اليه ارباب الصناعات حتى جعله مدينة لا تحتاج الى
غيره • ونصب في قراه الاشجار واجرى خلالها العيون • ولم يزل في يده الى ان توفي
سلخ ذي القعدة سنة اربع وعشرين وستماية • وانتقل الى ولده الملك الناصر داود
ولم يزل في يده الى ان خرج عنه ووفد الى حلب مستغيثا بالملك الناصر صلاح الدين
يوسف بن الملك العزيز محمد علي الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر فانه
كان قد سير الى الحصن الامير فخر الدين بن الشيخ فحاصره ونايقه حتى قلت
به الاتوات فخرج عنه لهذا السبب في شهر ربيع الاول سنة سبع واربعين وستماية
وترك به اولاده وجعل ولاية عهده فيه لولده الملك الامجد فراسله الملك الصالح
وقرر معه انه متى سلم اليه الحصن عوضه عنه خمسين الف دينار واقطاعا بمصر • فاجابه
الى ذلك وسير اليه الملك الصالح جمال الدين اقور النجيب مملوكه وبعث معه بدر
الدين الصوابي وفوغر اليه الحكم فيه • وولى كمال الدين ابن شكر النظر فيه وفي
اعماله • وحمل اليه خزانة مقدارها الف دينار ومايتي الف دينار • وولى الريس
لرجل يسمى الهمام • ولم يزل في يده الى ان توفي في سنة سبع واربعين وملك
بعده ولده الملك المعظم • ولما قتل في المحرم سنة ثمان واربعين وستماية وملك
دمشق الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب بعث بدر الدين الصوابي الى
قلعه الشويك من احضر الملك المغيب عمر بن الملك العادل زين الدين ابي بكر
بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ابي بكر بن نجم الدين ايوب

في خفية • وكان الملك الصالح نجم الدين ايوب قد حبسه (١٥ و) بها فدخل به الكرك ثالث عشر شهر ربيع الاول سنة ثمان واربعين وستماية واهناه • ثم ان رسولا من الملك الناصر صاحب دمشق وصل من دمشق يطلب من بدر الدين تسليم الكرك فأنزله واكرمه وبعث الى من معه في الحسن من سيحفظه • وعرفهم انه لا ينبغي ان يخرج الحصن عن احد من اولاد الملك الكامل فانهم مواليه واريد منكم الموافقة على ما اردت • فأجابوه الى ما اراد • فأمر باحضار الملك المغيب فحضر وحلفهم له وملكه الكرك • ثم استدعى الرسول وقال له هذا صاحب الحصن فتحدث معه • فالتفت اليه وبلغه الرسالة فأجابه بكلام كان قد قرر معه بعد ان قام وتبيل الارض مضمونه • اني كنت في الحبس وقد من الله باطلاقي وليرلي ولا لمن بقي من اهلي موضع ينذرون اليه ويهتمدون في النفع عليه والسلطان اعز الله نصره اذا احذا هذا الحصن لا يسد له نايب والملك نايبه فيه لا اصدر ولا ارد الا عن رأيه ومراسمه • فلم يعارضه الملك الناصر وقهل هذا القول منه وذلك في العشر الاواخر من جمادى الاول • ولما صار في يده من غير منازع له فيه ملك بلد السويد • وبقي الحصن في يده الى ان استولت التتار على دمشق في سنة ثمان وخمسين وستماية فانهوى اليهم وصيروا معه نايبا في الحصن • ثم كانت هزيمة التتار على عين جالوت في شهر رمضان من سنة ثمان • ونولى الملك المظفر قدار على بلاد الشام فكاتبه الملك المغيب في ابقائه على ما في يده فأجابته الى ان يبقى معه الكرك لا غير • وحل عنه ما كان الملك الناصر صالح الدين يوسف صاحب دمشق اخاف اليه من النواحي وهي الصلت والخليل والملقاء • ثم قتل الملك المظفر قطز في بقيه السنة وملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالح (١٥ ق) البلاد فحمل الملك المغيب الحسد على ان كتب الى التتار عدة كتب ووصلته الاجوبة على يد رسول منهم فخاف ان يتم عليه ذلك فسيره تحت الحوطة الى ابواب السلطان

بالقاهرة . فما زال السلطان يتحيل على الرسول ويمسك امله الى ان اعترف له لما كاتب به الملك المغيث الى هولاكو ملك التتر من حنه على النهوض الى بلاد الشام ثم ردف ذلك بأن كتبه وصلت الى الشهرزورية الذين كانوا تحت حرم السلطان الملك الظاهر بالقاهرة بأفسادهم . فتوجه اليه يعقوب بن بدل واعمامه واهله . ووصلت العرب القصاد الذين قفلوا من عند هولاكو الى السلطان فأوقف السلطان الفقهاء على الكتب واخذ فتاويهم بأن قتاله يتعين .

ومرر من القاهرة، ووصل الى غزة فوصلت اليه عليها ام الملك المغيث وقيل وجد فيها ام الملك المغيث وفعل ما قدمنا شرحه . وسار الى الطور فنزل عليها يوم الاثنين حادى عشر وقيل ثاني عشر جمادى الاول من سنة احدى وستين وستماية هذه السنة كما قدمنا شرحه وكانت الملك الظاهر الملك المغيث بالحضور اليه فسوف ووعد بالحضور وصارت رسله تتوالى الى السلطان وهو يعطيهم وينعم عليهم . وخرج الملك المغيث من الكرك بعد مدافعه كثيرة واقام مدة في الطريق . وظهر السلطان من الاحتفال شيئا كبيرا وخدعه اعظم خديعه واتى بيوت الخداع من ابوابها وكنم امره عن كل احد . . . ولم يستشر في امره غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحبها .

وقيل نزل الملك المغيث من الكرك وجماعة من اصحابه في خدمته منهم ابن مزهر وكان ناظر خزانة المغيث . قال ابن مزهر . وشرعت البريدية تقبل الى الملك المغيث كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر ويرسل صحتهم الغزلان ونحوها والملك المغيث يخلع عليهم حتى نقد ما كان بخزانته من الخلع . ومن جملة ما كتب اليه في بعض المكاتبات الملوكية ينشد في قدوم مولانا .

خليلي هل ابصرتما او سمعتما بأكرم من مولى تمشى الى عبد

فلما وقف الملك المغيث على هذه المكاتبة سار لوقته .

ولما وصل الملك المغيث الى بيسان وكان ابن مزهر قد حذره من الملك الظاهر فلم يسمع منه ركب الملك الظاهر لتلقيه يوم السبت سابع وقيل سادس عشرى جمادى الاول (١٦) ومن هذه السنة وسار في احسن زى • فالتقى الملك المغيث فلما شاهد الملك المغيث الملك الظاهر ترجل فمنعه الملك الظاهر من ذلك واركيه وساق الى جانب السلطان • ولما وصل الى باب الدهليز ترجل الى الخيمة المتصورة • ودخل به الى خركاه وقبض عليه وعلى اصحابه • وشق السلطان غيظه •

• وكان السلطان الملك الظاهر قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق ••• (١) واطهر ان ذلك لملك ولعبايه • ولم يدلع احد على غير ذلك • فلما وقعت الحوطة على الملك المغيث احضر السلطان الملوك والامراء والقاضي والشهود والاجناد ورسل الفرنجية والملك المغيث واخرج كتبه الى التتار وكتب من جهة العدو المخذول اليه والفتاوى واحضر الفصاد الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاء ملك التتار وقال الامير اتاك الملك الظاهر: السلطان يسلم عليكم ويقول ما احدث الملك المغيث الا بهذا السبب • وقرئت هذه الكتب على الناس فعذره من لم يكن يعرف الباطن في قبضه عليه • وانصرف الملك الاشرف صاحب حمص والجماعة كلهم • وقال السلطان للقاضي ولجماعة العلماء : ما طلبتكم الا بهذا السبب • وكتب مكتوب بصورة الحال وكتب فيه القاضي والجماعة • ثم جهز الملك الاشرف وركب السلطان لوداعه •

وفي اليوم الذي قبل فيه على الملك المغيث جلس الملك الظاهر بعد انقضاء المجلس وامر بالكتب الى الكرك بعد من فيها بالاحسان ويحذرهم عواقب الطغيان وسير الامير بدر الدين بيسرى السمسري والامير عز الدين الظاهري استاد الدار العاليه الى جهة الكرك وجهز الخلع والاموال ليلحقها بها • وجهز الملك المغيث عتبه الى الديار المصرية صحبة الامير شمس الدين آقسنقر السلحدار الفارقاني استاد الدار فوصل به الى

قلعة الجبل بالديار المصرية فحبسه فيها . واطلق السلطان اهله وحاشيته (١٦ ق)
وسير حريمه الى مصر واطلق لهم الرواتب . وكان ما سذكروه ان شاء الله تعالى .

ذكر الامور التي اوجبت انحراف الملك الظاهر عن الفرنج
خذلهم الله تعالى وما جرى بينه وبين رسلهم من الخطاب
وانفصالهم عن غير رضى الى عكس .

كنا قد منا حديث الصلح مع الفرنج خذلهم الله تعالى . ولما راوا احسان السلطان
الملك الظاهر ركن الدين ببيبرس الصالحى شرعوا يحيدون عن الحق ويطلبون زرعين والسلطان
يجاوبهم بأنكم اخذتم عوضها في الايام الناصرية ضياع من مرج عيون وقايضتم صاحب تبينين .
وصارت كتبهم ترد الى السلطان بان سلوحا سرقونا من جهة الاطرون وتارة من جهة بانياس
والسلطان يأمر برد كلامهم . ووصلت كتب نواب الشام يشكون منهم وانهم اعتمدوا امورا تفسخ
الهدنة . ولما سار السلطان من الديار المصرية الى الشام كما قد منا شرحه وصار في وسط
بلادهم ورد رسول منهم يهنونه بالسلامة ويقولون ما عرفنا بوصول السلطان فكان الجواب :
ان من يريد يتولى امرا ينبغي ان يكون فيه يقظه ومن خفي عنه خروج هذه العساكر
وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرة هذه العساكر التي بيوتكم
ما فيها موضع الا ويكنس منه التراب الذي اثارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنا بكمها
قد اصم اسماع من وراء البحر من الفرنج وفي موغان من التتار . اذا كانت هذه العساكر
تصل جميعها الى ابواب بيوتكم ولا تدرون فأى شيء تعلمون ؟ " .

وانفصل الرسول على هذا الحال (١٧ و) ووصلت نواب يافا ونواب ارسوف بهدية اخذت
منهم تطمينا وتسكينا لقلوبهم . هذا والسلطان يأمر ان لا ينزل احد لهم في زرع ولا يصيب
فرس ولا تؤذى لهم ورقة خضراء ولا يتعرض الى شيء من مواشيهم ولا فلاحيتهم . ورفق بهم

اتم رفع انتظارا لرجوعهم عن الغري وكانت كتبهم قبل توجه السلطان الى الشام مضمونها طلب فسخ الهدنة والندم عليها . وصارت عند قرب السلطان ترد بأنهم باقون على العهد مستمسكون بأذيال الموائيق . وكان مقدم الاستبار قد كتب عدة كتب منها جواب عن مشافهة على لسان افرير صاماح كمندور الديوية بقبرس مضمونها : انكم نقضتم العهد بأمور منها ان شرط الهدنة لا يحدث (١) بناء . وقد شرع بيت الاستبار في بناء ريفر على ارسوف . فكان جوابهم : اننا لم نبين هذا الريفر الا لحماية الصعاليك من متحومة (٢) المسلمين ولا مور قد بلغتنا سوف تسمونها يعني اخبار التتار . فكان الجواب اليه : اما تجديد الربط لحفظ الصعاليك فالبلاد ما تحفظ بالاسوار ولا تحفظ الرعية بالخنادق ولا تحفظ الا بأحد امرين اما بالسيوف والعزائم واما بحس الجيره وبذل الاحسان وكف الاذى . ومن يخاف من اللصوص لم لا يخاف من غيرهم . واما امر التتار فقد علم كل احد انا عندما تحصنتم بالاسوار والخنادق خرجنا الى التتار وما جعلنا حصوننا الا خيولنا ولا خنادقنا الا سيوفنا ولا اسوارنا الا رجالنا .

ولم تنزل رسلهم تتردد في هذا ومثله الى ان فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه وهو حديث الملك المغيث . فلما كان اليوم الذي قبرر عليه فيه احضر الملك الظاهر بيوت الفرنجية وقال : ماتقولون ؟ قالوا نتمسك بالهدنة التي بيننا . فكان الجواب : لم لا كان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان وانفاق الاموال التي لوجرت (١٧ق) لكنت بحارا ونحن (٣) ما آذينا لكم زرا ولا غيره . وانتم منعتم الجلب والميره عن العسكر (٤) وسيرتم

(١) " يجدد " في ابن عبد الظاهر ص ٦٨ . (٢) متحومة ، في ابن عبد الظاهر ص ٦٨ .
(٣) في المقرئى السلوك ص ٤٨٤ ونحن لما حضرنا الى هاهنا ما آذينا لكم زرا ولا غيره
ولأنهيب لكم مال ولا ماشية ولا اسر لكم اسيرا (٤) في المقرئى ، السلوك ص ٤٨٥ " وحرمت
خروج شئ من الغلات والاغنام وغير ذلك " .

الينا الى دمشق (١) نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين (٢) لم تحلفوا عليها وعلمتم انتم نسخة حلفتم عليها وشرط اليمين الاولى تتعلق (٣) بالثانية • وسيرنا الاسارى الى نابلس ومنها الى دمشق وما سيرتم انتم احدا الا كل بيت (٤) يحيد على الآخر (٥) وسيرنا كمال الدين بن شيت رسولا يعلمكم بوصول الاسرى فلم تبعثوا احدا ولم ترحموا اهل ملتكم الاسرى وقد وصلوا الى ابواب بيوتكم • كل ذلك حتى لا تبطل اشغالكم من اسرى المسلمين عندكم واموال التجار شرطتم القيام بما اخذتموه (٦) لهم • ثم قلتم ما اخذت من بلادنا وانما قلتم اخذها (٧) في انطرطوس وحمل المال الى خزانة (٨) الديوية والاسرى في بيت الديوية (٩) فان كانت انطرطوس ماهي لكم فالله يحقق ذلك • ثم اننا سيرنا رسلا الى جهة (١٠) الروم وكتبنا اليكم بتسفيرهم في البحر فاشرتم عليهم بالسفر الى قبرس (١١) فاخذوا وقيدوا وضيق عليهم واتلف احدهم على ما ذكر (١٢) مع احساننا الى رسلكم (١٣) • وجرت عادة الرسل انها لا تؤذى وما زالت الحرب

-
- (١) هي " بدمشق " في المقرئى، السلوك ص ٤٨٥، بدل الى دمشق •
 - (٢) في المقرئى، السلوك، ص ٤٨٥ من عندنا بعد كلمة يمين •
 - (٣) متعلق، في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ •
 - (٤) في المقرئى، السلوك، ص ٤٨٥، هي " وكل بيت " •
 - (٥) بعدها " وما سيرنا الاسرى الوفاً بالمعهد واقامة الحجة عليكم " المقرئى السلوك ص ٤٨٥ •
 - (٦) منها عند المقرئى السلوك ص ٤٨٥ •
 - (٧) عند المقرئى السلوك ص ٤٨٥ " اخذت في " •
 - (٨) بعدها كلمة بيت عند المقرئى السلوك، ص ٤٨٥ •
 - (٩) او الاسرى في بيت الديوية في ابن عبد الظاهر ص ٦٨ •
 - (١٠) بلاد السلاجقة في المقرئى، السلوك ص ٤٨٥ •
 - (١١) فسافروا بكتابكم وامانكم، في المقرئى، السلوك ص ٤٨٥ •
 - (١٢) فان كان هذا يرضاكم فقبيح ان يعتمدوا هذا الاعتماد • هذا في المقرئى السلوك ص ٤٨٥ •
 - (١٣) وتجا ركم والوفاً احد اركان الملك " المقرئى السلوك، ص ٤٨٥ •

قائمة والرسول تتردد (١) • وان كان هذا بغير رضاكم فهذا (٢) نقص في حرمتكم (٣) • وهل كانت الملوك (٤) تنق (٥) النفوس (٦) والاموال الا بحفظ (٧) الحرمة وصاحب (٨) قبر من اكثر تعلقاته في عكا والساحل وله عندكم المراكب والتجار (٩) وها (١٠) هو منفرد بنفسه عنده (١١) الديوية وجميع البيوت والنواب مقيمون (١٢) • وعنده كند يافا (١٣) فلو كنتم لاتوثرون ذلك كنتم جميعكم عليه واحتطتم (١٤) على كلما يتعلق به (١٥) وكتبتم الى ملوك الفرنجية والى الباب (١٦) بما فعله • وكان الواجب على ••••• (١٧) احرامه •

-
- (١) وما القدرة على الرسول بشي • يسكن غيظا ، المقریزی ، السلوك ، ص ٤٨٥ •
 - (٢) فانه " في المقریزی ، السلوك ص ٤٨٥ •
 - (٣) واذا كان صاحب جزيرة قبرس من اهل ملتكم ، يخرق حرمتكم ولا يفى بعهديكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم ، فاي حرمة تبقى لكم واي ذمام يوثق به منكم ، واي شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية المقریزی السلوك ص ٤٨٥ ، اما ابن عبد الظاهر ص ٦٩ ، فلم يذكر " قبرس . بعد " جزيرة " ثم لم يذكر ما بعد " حرمتكم " •
 - (٤) بعدها الماضية في المقریزی السلوك ص ٤٨٥ •
 - (٥) " تقني " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ وهي هنا اصح •
 - (٦) بعدها " والرجال " في المقریزی السلوك ص ٤٨٥ •
 - (٧) " لحفظ " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ وهي هنا اصح •
 - (٨) " وما صاحب جزيرة قبرس ملك عظيم ولا صاحب حصن منيع ، ولا قائد جيش كثير ، ولا هو خارج عنكم بل " المقریزی ، السلوك ، ص ٤٨٥ — ٤٨٦ •
 - (٩) " والاموال والرسول " المقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ •
 - (١٠) " وما " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ " وليس " في المقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ •
 - (١١) " وعنده " المقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ •
 - (١٢) " مقيمون عنده " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ والمقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ •
 - (١٣) بعدها " وغيره " في المقریزی ، السلوك ، ص ٤٨٦ •
 - (١٤) " واحتطتم " في المقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ •
 - (١٥) بعدها " واصحابه واسترحتم من هذه الفضيحة " المقریزی ، السلوك ، ص ٤٨٦ •
 - (١٦) " البابا " في المقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ • راجع ابن عبد الظاهر ص ٦٩ ، ملحوظة ١ •
 - (١٧) كلمة غير واضحة ولكنها " الكا ط " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ • اما المقریزی ، السلوك ص ٤٨٦ فيقول : واذا قلت صاحب قبرس لا يسمع منكم ولا يطعنكم ، فاذا لم يسمع منكم صاحب قبرس وهو من اهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة الا الامر والنهي ؟ ولا سيما وانتم تقولون ان امورك دينية ، ومن ردها عصي المعبود ، ويغضب عليه المسيح • فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرس ، وقد رد امرك واغرى بكم وقبح قولكم ؟ وكنا لو اشتبهينا اخذنا حقنا منه ، وانما الحق عندكم نحن نطلب منكم وانتم تطلبون منه •••

وقال السلطان : انتم (١) في ايام (٢) الصالح اسماعيل اخذتم صفد والشقيف
على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد (١٨ و) الملك الصالح (٣) وخرجتم جميعكم
في خدمته ونجدته وجرى ما جرى من خذلانه وقتلكم واسركم واسر ملوككم ومقدمكم (٤) .
وكل احد يتحقق (٥) ما جرى عليكم من ذهاب الارواح والايوال . وانتقضت (٦) تلك الدولة
وانقضت (٧) ولم يؤخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد . واحسن اليكم فقابلتم
ذلك بأنكم (٨) رحتم الى الريد افرانس وساعدتموه واتينم صحبتته الى مصر حتى جرى
عليكم (٩) ما جرى من القتل والاسر . فأء مرة وفيتم فيها لمملكة مصر ام اى حركة افلنحتم
(١٠) ؟ وبالجملة فأنتم اخذتم هذه البلاد من الصالح (١١) اسماعيل لاعانة مملكة
الشام واطاعة (١٢) ملكها ونصرته (١٣) وقد صارت مملكة الشام (١٤) وغيرها السى
(١٥) وما انا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم (١٦) . فتردوا (١٧) ما

-
- (١) " وانتم " في المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٢) " الملك " بعدها، المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٣) بعدها " نجم الدين ايوب " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٤) " واسر مقدمكم " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٥) " نتحقق " في ابن عبد الظاهر ص ٦٩ .
 - (٦) قبلها " وقد " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٧) ليست في نص المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٨) " بأن " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (٩) ليست في نص المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٠) بعدها " فيها " في ابن عبد الظاهر ص ٧٠، والمقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١١) " الملك الصالح " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٢) " وطاعة " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٣) بعدها " والخروج في خدمته ، وانفاق الاموال في نجدته " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٤) بعدها " بحمد الله " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٥) " لى " ابن عبد الظاهر، ص ٧٠ المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٦) بعدها " ولم يبق لي عدوا خافه " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ .
 - (١٧) " فردوا " المقرئى، السلوك ص ٤٨٦ و " فتردون " ابن عبد الظاهر ص ٧٠ .

اخذتموه للاسلام (١) بهذا الطريق وتفكون (٢) اسرى المسلمين جميعهم . وغير ذلك
لا قبله (٣) .

فلما سمعوا هذه المقالة بهت الذين كفروا وقالوا : نحن لاننقصر الهدنة ونطلب
(٤) مراحم السلطان في استصحابها واستدامتها (٥) ونحن نزيل شكوى النواب جميعها
(٦) ونفك الاسرى " . فقال السلطان : كان هذا قبل خروجي (٧) في (٨)
هذا الشتاء وهذه الامطار ووصول العساكر (٩) وانفصلوا على هذه الصورة وامر
السلطان انهم لا يبيتون في الوطاق .

ذكر هدم كنيسة الناصرة ومسير تحريده الى عكا ورجوعهم

وما فعله الملك الظاهر في مقامه بالطور

لحق جري لرسل الفرنج مع السلطان الملك الظاهر ما قدمنا شرحه رسم بهدم
كنيسة الناصرة وهي اكبر مواطن العبادات التي لهم . ويقولون ان منها خرج دين
النصرانية . فوجه الامير علاء الدين طبرسر اليها وهدمها الى الارض . فلم يجسر
احد من ساير الفرنجية ان يخرج من باب عكا ولا يتكلم بكلمة (١٨ و) واحدة .

-
- (١) " اخذتم للاسلام " في ابن عبد الظاهر ص ٧٠ و " اخذتموه من البلاد " في المقرئ ،
السلوك ص ٤٨٦ وليس فيه ، بهذا الطريق .
(٢) وفكوله المقرئ ، السلوك ص ٤٨٦ .
(٣) فاني لا قبل غير ذلك ، المقرئ ، السلوك ص ٤٨٦ .
(٤) وانما نطلب ، المقرئ ، السلوك ص ٤٨٧ .
(٥) في استدامتها ، المقرئ ، السلوك ص ٤٨٧ .
(٦) ليس في المقرئ ، وبدلها : النواب ونخرج من جميع الدعاوى " السلوك ص ٤٨٧ .
(٧) بعدها ، من مصر ، المقرئ ، السلوك ص ٤٨٧ .
(٨) من ، في ابن عبد الظاهر ص ٧٠ .
(٩) بعدها الى هنا ، ابن عبد الظاهر ص ٧٠ ، المقرئ ، السلوك ص ٤٨٧ .

ثم جرد الامير بدر الدين الايدمرى وصحبته جماعة فتوجهوا الى جهة عكا وهجموا على ابوابها . ثم توجه الامير المذكور مرة اخرى فأغار على المواشي واستباح منها شيئا كثيرا وحضر بجميع ذلك الى المخيم المنصور .

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز وعلى الصفة التي عمرها هناك وكتب اسمه عليها . وهي مبنية بالحجر المنحوت لا يحتجب عن احد . ومن وقف له احضره واخذ قصته وانصفه . وهولا يشتغل بغير امر ونهي وعطاء وتدبير في امر الكرك وارسال خلع ومال واستجلاب اهلها .

ووصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا الصاحبين مقدمي الدعوة فأحسن السلطان اليهما وتوجهها .

ولم يخل السلطان وقتا من تأمير جماعة في الشام والساحل . ومن جملة من امر الامير علاء الدين ايدكين البندقدار اعطاء اقطاعا جيدا في مصر وطبلخاناه ، وكذلك الامير سيف الدين الكامل والامير شمس الدين سنقر الخزندار العمادى . امرهما بالشام واعطاهما الطبلخاناه . وكذلك الامير حسام الدين العنتابي امره في بلاد حلب واعطاه طبلخاناه . وكتب للامير جمال الدين ايدغدى العزيزى زيادة جماعة جنده . وخاضر في الشام وهي ثلاثون فارسا . ووجد اهل البلاد والاهوا قد عانوا وتسلطوا على الرعية ولزمهم دريات بذلك مجهولة المصروف وفيهم عيون الفرنج . ووجدهم فلاحى البلاد ولا يمكن اتلافهم فقرر عليهم جنايات يقومون بها لبيت المال عن ديات من قتل وليسرله وارث وعما نهبوا من مال جهل ماله فحملت جمل كثيرة من البلاد الساحلية والجهال النابلسية وانكسرت شوكتهم .

ثم جرد الامير بدر الدين الایدمری وصحبته جماعة فتوجهوا الي جهة عكا وهجموا غلى ابوابها • ثم توجه الامير المذكور مرة اخرى فأغار على المواشي واستباح منها شيئا كثيرا وحضر بجميع ذلك الى المخيم المنصور •

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز وعلى الصفة التي عمرها هناك وكتب اسمه عليها • وهي مبنية بالحجر المنحوت لا يحتجب عن احد • ومن وقف له احضره واخذ قصته وانصفه • وهولا يشتغل بغير امر ونهي وعطاء وتدبير في امر الكرك وارسال خلع ومال واستجلاب اهلها •

ووصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا الصاحبين مقدمي الدعوة فأحسن السلطان اليهما وتوجهها •

ولم يخل السلطان وقتا من تأمير جماعة في الشام والساحل • ومن جملة من امر الامير علاء الدين ايدكين البندقدار اعطاء اقطاعا جيدا في مصر وطبلخاناه • وكذلك الامير سيف الدين الكامل والامير شمس الدين سنقر الخزندار العمادى • امرهما بالشام واعطاهما الطبلخاناه • وكذلك الامير حسام الدين العنتابي امره في بلاد حلب واعطاه طبلخاناه • وكتب للامير جمال الدين ايدغلدى العزيزى زيادة جماعة جنده • وخاضر في الشام وهي ثلاثون فارسا • ووجد اهل البلاد والاهواء قد عانوا وتسلطوا على الرعية ولزمتهم دريات بذلك مجهولة المصروف وفيهم عيون الفرنج • ووجد هم فلاحى البلاد ولا يمكن اتلافهم فقررو عليهم جنايات يقومون بها لبئس المال عن ديات من قتل وليرله وارث وعما نهبوا من مال جهل مالكة فحملت جمل كثيرة من البلاد الساحلية والجبال النابلسية وانكسرت شوكتهم •

وركب السلطان مارا الى قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٩ و) وزاره وزار بي طرفه قبر ابي هريرة رضي الله عنهما في بينا والله اعلم .

ذكر مسير السلطان الملك الظاهر الى عكا وقتله للفرنج

واسرهم ورجوعه سالما .

لما كان ليلة السبت رابع جمادى الآخرة من هذه السنة ركب السلطان الملك الظاهر ركن الدين ببهرس الصالحى وجرد من كل عشرة فارسا واحدا صحبته واستتاب الامير شجاع الدين الشبلى امير مهندار في الدهليز . وساق من منزله الطور نصف الليل . فلما اصبح وقف قريب عكا في الوادى الذى يقاربها ومنه يشرف عليها . وامر الناس بلبس السلاح ورتب العسكر . ولم يزل سائقا الى ان اطاف بعكا من جهة البر . وسير جماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره وللوقت احدث فيه الثقب . وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة انما هو لكشفها . وكان الفرنج يقولون ان احدا لا يجسر ان يقرب منها ولم يزل كذلك الى قريب المغرب والفرنج ينظرون من ابواب المدينة وتل الفضول . ثم رجع الى الدهليز قريب البرج المذكور عند المساء . ولما اصبح ركب وركب الناس في خدمته وساق اليها . وكان الفرنج خذلهم الله قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاصر في الطريق . ووقف الفرنج صفوفًا على التل المذكور . ولما اخذت المعسكر اهبة القتال والسلطان نفسه يسوق ميمنة وميمرة ويرتب الناس حتى انه مما يذكر الله سبحانه وتعالى ويأمر الناس به عن التهليل والتكبير ويندب اليه من المصالح شوش من صوته . وللوقت ردمت الخنادق بحوافر الخيل وبأيدى الرجال من غلمان المعسكر والفقراء المجاهدين وطلع الناس الى تل الفضول وانهزم الفرنج الى المدينة (١٩ ق) وحرق الناس ما حول

عكا من الابراج والاسوار وقطعوا الاشجار وحرقوا الثمار . فلا يرى الناس الا دخانا
او عجاجا وسيوفا لامعة واسنة قاطعة ساطعة . وساق العسكر الى ابواب عكا يقتلون
ويأسرون . ففي ساعة واحدة قتل جماعة من كنودهم وفرسانهم وخيالتهم واسرت جماعة
خيولهم . وخرج اكابرهم وحف بهم البلاء وطمع فيهم الناس ورموهم الخنادق بخيولهم
وفيههم جماعة من الديوية والاستبار . وهرب من بقى من الفرنج الى الابواب من جهة
الاسوار وتدلوا لحفظ الابواب ويزعقون بصوت واحد . الباب الباب خوفا من الهجوم
عليهم والسلطان واقف على رأس التل مما يلي عكا ينعم ويعد . وحضر اليه رجل اسمه
جليس من اصحاب ابن اطلس خان بفارس طعنه ورماه . وقامت الضجة لاجل رميه من
الفرنج . فأمره فأعطاه السلطان منديله بأربعين فارسا . ونزب السلطان مشورة
من اى جهة يأخذها . وعرف احوالها وحمل الامراء واحد ثم واحد الى الابواب فخرج
في ذلك النهار من اعيان الامراء جمال الدين ايدندى العزيزى في ركبته جرحا خفيفا .
ثم حمل الناس حملة واحدة الى ان رموا الفرنج في الخنادق . وهلك جماعة منهم في
الابواب . فكان اول ما وقف السلطان ساق الامير على الشهرزورى عند اللقاء اصلح
رمحا من يد احد الخيالة اخذه وساق . وكان مما احضر تسعة حصن بركصطوانات
وثنى بعد ذلك عنان فرسه امهالا وسار عايذا الى عسكره المنصور . فجلس واحسن
الى من جاهد . وفرق كتب البشائر على من عمل صالحا في ذلك اليوم (٢٠ و) ولم يزل
منتصبا كذلك الى قريب العصر لابس عدته . وساق الى البرج الذى كان النقاؤون
علقوه . فوقف حتى رمى واخرج منه بأمانته اربعة خياله اخوه ونيف وثلاثون رجلا .
ولما خرج الامير جمال الدين ايدندى العزيزى ساق اليه السلطان وسلم
عليه وسير اليه تشريفا من ملابسه الخاص . ويات واصبح راجعا وعبر على بلادهم

وكشفها مكانا مكانا . وعبر على كنيسة الناصرة . وكان فيما قيل قد سير اليها الامير عز الدين الافرم امير جندار غلقها وخربها وهدمها الى الارض .

ولما رجع السلطان ونزل جلس على المصطبة التي امر ببنائها قبالة الطهور واحضر الشموع بالمنجنيقا ونصب عليها خيمة واحضر صاحب فخر الدين وزير الصحة وجماعة كتاب الدرج الشريف وهم سبعة : صاحب فخر الدين ابن لقمان ، والصدر بدر الدين حسن الموصلي ، والصدر كمال الدين احمد بن العجمي ، والصدر فتح الدين ابن القيسراني ، والصدر شهاب الدين احمد بن علي بن عبيد الله ، والصدر برهان الدين ، وكتاب الجيشر وهم صاحب فتح الدين ابن سنا الملك ، والشريف الطاهر شرف الاسلام المطري ، والقاضي جمال الدين الحنفي وبقية كتاب الجيشر والسديد مستوفي الصحة ، وجعل الامير سيف الدين الزيني امير علم جالسا عند ديوان الجيشر لكتابة المناشير وتجهيز الطبلخاناه والاثابت بين يدي السلطان . واستدعى من دسارانه خمسمائة فارس يرسم الطبلخاناه وخيول الامراء واحضرت الخلع الكثيرة بين يديه وامر سلاح داريه بان يستريحوا بالنوبة ويحضروا . ولم تنزل العائلات والمناشير تكتب وهو يعلم (٢٠ ق) واعطى تلك الليلة الحراس الهنود جملة . وكتب بين يديه تلك الليلة ستة وخمسون منشورا كبارا مخطب وطغر لامراء كبار . والصاحب فخر الدين يعلم وصاحب ديوان الحراس فتح الدين بن سنا الملك حاضر وهو صاحب ديوان الجيوش المنصورة يعلم . والامير بدر الدين الخزندار واقف يعلم والمستوفي ينزل حتى كملت بين يديه واصبح السلطان فخلا بنفسه وجهاز الطبلخاناه والسناجق والخيول والخلع الى الامراء وجعل الامير ناصر الدين القيمري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية .

ذكر رحيل الملك الظاهر من الطور الى بيت المقدس وذكر بعض اخبار

بيت المقدس الى ان دخلها الملك الظاهر في هذه السنة

وكذلك مدينة الخليل عليه السلام وهما من بلاد

جند فلسطين البرية الذي وعدنا بذكرها .

لما رجع السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من عكا وفعل ما قدمنا

شرحه . رحل من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة . ثم جرد جماعة صحبته

وجماعة الى الصالحية فوجه . صحبتهم الامير علاء الدين امير جندار .

قد قدمنا سبب بناء بيت المقدس ومن بناء . وكيف خرب ثم اعيد ويعرف فضايه

وسبب فتحه . في زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ونذكر هنا لمعه

من خبر من ملكه الى ان دخله الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في هذه السنة .

قال القاضي عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الحلبي في تأليفه

"كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة" ماصيفته : الصفة التي

عليها مدينة بيت (٢١ و) المقدس في عصرنا انها على جبل يصعد اليها من كل جانب

وهي طويلة في طرفها الغربي باب المحراب . وهذا الباب عليه قبة داود عليه السلام .

وفي طرفها الشرقي باب الرحمة وهو مغلق لا يفتح الا في عيد الزيتون . ولها من جهة

المحراب باب يسمى باب صهيون ومن الشمال باب يسمى باب الغرب . ومتى دخل

الداخل من باب المحراب يسير نحو المشرق في زقاق شارع الى الكنيسة العظمى المعروفة

بكنيسة القيامة والمسلمون يسمونها قمامه . وهي من عجائب الدنيا بناء .

وقال البلاذري : قدم ابو عبيده على عمرو بن العاصي وهو ظاهر ايليا

في سنة ست عشرة للهجرة فطلب اهلها من ابي عبيده الامان والصلح على مثل ما صولح

عليه اهل مدن الشام من اداء الجزية والخراج على ان يكون متولي العقد لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه . فكتب ابو عبيده الى عمر رضي الله عنهما بذلك فسار عمر رضي الله عنه حتى نزل الجابية من دمشق ثم صار الى ايليا فانفذ صلح اهلها وكتب لهم بذلك وذلك في سنة سبع عشرة للهجرة . وقد قدمنا ذلك مفصلا .

ولم تنزل بعد الفتح في الولاية على ما قررناه في غيرها من البلاد المضافة الى الاجناد . فلما صارت الى المستنصر العبيدي صاحب الديار المصرية خرج الامير اتسز بن لوق التركي فقصد ارض فلسطين فملك الرملة وبين المقدس من نوابه سنة ثلاث وستين واربعمائة . فخرج الامير بدر المستنصري في سنة خمس وستين واربعمائة فاستعاد الرملة والقدس وولى فيهما نايب من جهته ثم عاد الى مصر في سنة ست وستين واربعمائة فعاد اتسز الى القدس فملكه في بقية السنة . ولم يزل في يده الى ان قصد مصر بعسكره فكسر . في شهر (٣١ق) رجب سنة تسع وستين واربعمائة وعاد منهزمًا الى دمشق فجمع وخرج الى القدس . وكان من فيه وثبوا على من عندهم من الاتراك من اصحابه فقتلوا اكثرهم والتجاء (١) من بقي منهم الى محراب داود تحصنوا به واقاموا حتى وصل اتسز الى القدس فراسل اهله في الدخول في الطاعة . فابوا فنازلهم في شعبان . واقام يحاصرهم الى ان فتح له القيم محراب داود فدخل المدينة بالسيف وقتل عامة اهلها . واستمر القتل فيها ثلاثة ايام . ولم يبق منهم الا من استجار بالصخرة والمسجد الاقصى . وبقي بيت المقدس في يده الى ان خرج الامير نصير الدولة الجوشي فأسترجع القدس وما كان قد استولى عليه اتسز من بلاد فلسطين والاردن . ونزل على دمشق فحاصرها . فكتب الامير اتسز صاحب دمشق الى الامير

(١) في الأصل " والنجي " .

تاج الدولة صاحب حلب يستنجد به . فلما سار اليه رحل الامير نصير الدولة ورجع الى مصر . فلما قتل تاج الدولة اتسز سار الى القدس فملكه فيما ملكه وذلك في سنة احدى وسبعين واربعماية . ولم يزل القدس في ايدي نوابه الى ان اقطعه الامير ارتو بن اكست وبقي في يده ويد ولديه من بعده ايلغازي وسكمان الى ان قصدهما الافضل امير الحيوش شاهنشاه بن امير الجيوش بدر المستنصر من مصر في عسكر . فنزل عليها في شعبان سنة تسعين واربعماية وحاصرها وضايقها ونصب عليها المجانيق فهدم بها ثلثة من السور واشرف من فيها على الغلب . فبعث سكمان الى الافضل يطلب منه الامان له ولأخيه ايلغازي ولأصحابهما . فأجابهما وتسلم البلد وولى فيه من قبله وذلك في سنة احدى وتسعين واربعماية . وخرج سكمان وأخوه الى دمشق .

وبقي القدس في أيدي (٢٢ و) المصريين الى ان قصدها الفرنج في سنة اثنتين وتسعين واربعماية وحاصروها اشد حصار حتى ملكوه في اليوم الثاني من شعبان من السنة عتوة . بعد اعطائهم الامان لمن فيه . فأحرقوا المصاحف وأخربوا المساجد وكان ملكهم يومئذ كندفرى . واقام فيه الى ان مات وصار الى جهنم ويئس المصير . وولي أخوه اللعين بغدوين بعده ودام ملكه الى ان اصابه جرح على العرش فمات منه في التاسع من ذى الحجة سنة احدى عشرة وخمسماية . يتولاه بعده القمص بغدوين صاحب الرها بعهد من بغدوين الاول لعنهما الله . فسار اليه وملكه وسكنه وبقي في يده الى ان مات بالغالج بين نابلس والقدس ليلة الاثنين حادى عشر شهر رمضان سنة خمس وعشرين وخمسماية وملكه بعده بعهد منه زوج ابنته اللعين فلك ابن فلك وبقي في يده الى ان وقع عن فرسه وهو طارد ارنبا في ارض عكا . ففاصت رقبته في صدره وعجل الله بروحه الى النار وذلك في سنة ثمان وثلاثين وخمسماية .

وتولى بعده البلاد اكبر اولاده اللعين بغدوين وبقي حاكما على ما كان بيد ابيه من البلاد الى ان مات في سنة ثمان وخمسين وخمسماية وتولى بعده اخوه " بعدى " (١) وهلك في سنة ثمانين وخمسماية . وتولى بعده ولد صغير وفوف تدبير دولته للقومص بن مارذان صاحب طرابلس وكان ابن عمه .

وبقي في يده الى ان قصده السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي . فنصب عليه المجانيق وسلط على سوره النقوب مما يلي واداء جهنم الى ان تسلمه يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسماية كما قدمنا (٢٢ و) شرحه . ولم يزل القدس في يد السلطان صلاح الدين يوسف الى ان اقطع البلاد من اولاده فكان للافضل من دمشق الى العريش خلا الكرك والشوبك . فانهما كانا للملك العادل ابن بكر بن نجم الدين ايوب شادى بن مروان الايوبي . فاقطع الافضل القدس للامير عز الدين جردية النورى . ثم اخذها العزيز عثمان قطعها علم الدين قيصر سنة تسعين وخمسماية . ثم وقع الاتفاق على ان تبقى فلسطين للملك العزيز والاردن للملك الافضل . فاقطع العزيز القدس لابي الهيجا السمين فعصى عليه في سنة اثنيتين وتسعين وخمسماية .

وفيهما ملك الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين يوسف صاحب الديار المصرية دمشق وسلمها لعمه العادل ونزل له عن القدس فاسترجعه من ابي الهيجا واقطعه سنقر الكبير . ثم استعاده منه واقطعه ميمون القصرى في سنة اربع وتسعين وخمسماية ومات العزيز في سنة خمس وتسعين وخمسماية .

ولما مات الملك العادل ابي بكر بن ايوب البلاد اقطع دمشق والاردن وفلسطين لولده الملك المعظم عيسى فاستمرت في يده الى ان قصدت الفرنج دمياط واستولوا

(١) كذا في الاصل والمعروف ان لفلك ولدين احدهما بغدوين الثالث والاخر اما لريك الاول .

عليه فاستنجد به اخوه الملك الكامل صاحب الديار المصرية • فلما وصل اليه شكى له ما الفرنج عليه من القوة وسأله ان يعطيه القدس وكوكب والدور ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط فأسرهما في نفسه ووعد به فيها ما طأ به قلبه • ولما تخايق بالملك الكامل الامر في حصار دمياط بعد احاء الملك المعظم الى اخيه الملك الاشرف يستنجد به وهو حرا • فأحر - القدس في طريقه وكوكب حتى لا يسفح بهما الفرنج ولا يرغبون فيهما •

وبقي القدس في يده خراباً الى ان توفي في (٢٣) سنة اربع وعشرين وستمائة • فخرج الملك الكامل الى الشام في سوال سنة خمس وعشرين وستمائة فولى في بلاد فلسطين • وكان الانبرطور ملك الفرنج قد وصل الى نكا والملك الكامل بنابلس فكتب اليه الانبرطور اما ان تسلم الى القدس وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين او تلتفني • وترددت الرسل بينهما في ذلك • وكان للملك الكامل غرض في تملك دمشق فجمع الامراء واستشارهم فكل منهم اثار بالعود الى تل العجول حذا الامير سيف الدين ابن ابي زكري فانه قال : ابن دمشق علو ابن اخيت الملك الناصر داود واطلبه واطلب احاك الملك الاشرف وعسكر حلب وقاتل هذا العدو فأما لنا واما علينا • ولا يقال عن السلطان انه اعطى الفرنج القدس • فامتد لذلك وقبار عليه وسيره الى مصر فحبسه فيها • وعاد الى تل العجول واستدعى الملك الاشرف من دمشق • وكان قد وصل اليها • ولما غلب علو الملك الكامل رغبته في تملك دمشق اذ عن لتسليم القدس للانبرطور فتسلمه في حادي عشر شهر ربيع الاول سنة ست وعشرين وستمائة • واستمر القدس في ايدي الفرنج الى ان توفي الملك الكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة •

وملك الملك الجواد بعده دمشق فقاب الملك الصالح نجم الدين ايوب بين الملك الكامل عن دمشق بسنجان • فوصل الى دمشق ثم خرج منها الى نابلس في سنة

سبع وثلاثين وستماية قاصدا مصر وفيها اخوه الملك العادل فاستولى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب على دمشق وقهر الملك الناصر داود صاحب الكرك على الملك الصالح نجم الدين ايوب بنابلس وحبس في الكرك . وجمع عسكرا (٢٣ ق) عظيما ونزل به على القدس يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الاول من السنة وكان الفرنج قد عمروا به برجا يعرف ببيج داود وحصنوه . فنصب عليه المجانيق وضايقه الى ان تسلمه يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة وملك بيت المقدس وولى فيه من قبله وكتب كتابا بيده ومن انشأه الى الخليفة المستنصر بالله امير المؤمنين نسخته قدمنا ذكرها .

ولم يزل القدس في يد الناصر داود الى ان اتفق مع الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق والمنصور ابراهيم صاحب حمص على مصالحة الفرنج ليعينوهم على قتال الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية واعطوهم صفد والشقيف والقدس . فدخل الفرنج القدس ورفعوا الصليب على الصخرة واخرجوا من فيه من المجاورين الى مدينة الخليل عليه السلام .

واستمر القدس في ايدى الفرنج الى ان جاءت الخوارزميه الى الشام في سنة احدى واربعين وستماية باتفاق مع الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية وهجموا القدس وقتلوا من فيه من الفرنج وطمسوا الصخرة من اوساخهم وذلك في سنة اثنتين واربعين وستماية . ثم خرج اليهم من مصر عسكر مقدمه الامير ركن الدين الكنجي فقاتلوا الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص والفرنج على غزه فكسروهم وتبعوهم فانحازت الفرنج الى برج داود فحاصروهم فيه حتى اخذوهم وقتلوهم . وولى في القدس من قبل الملك الصالح نجم الدين ايوب واقطع بلاده الخوارزميه . وما برحوا في تلك البلاد يدينون

بالعبث والفساد الى ان كسرهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب على حصن القصب من اعمال حمص في (٢٤٤و) سنة اربع واربعين وستماية ، وبقيت منهم شرذمة رجعت الى القدس وتغلبوا عليه فخرج اليهم عسكر من مصر مقدمه الامير فخر الدين بن الشيخ فأتى على يديهم . واستعاد القدس . ثم نزل اليه الملك الناصر داود صاحب الكرك من الكرك واستولى عليه في بقيه سنة اربع واربعين وستماية . ثم استعاد الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر في سنة خمس واربعين وستماية وبقي في يده . وبعد ولده الملك المعظم تور انشاء من بعده . ثم ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب دمشق والاردن وفلسطين . فلم يزل القدس في يده الى ان صالح الملك المعزايك صاحب الديار المصرية ونزل له عنه في سنة احدى وخمسين وستماية . ولما قتل الفارص اقطاي في شعبان سنة اثنتين وخمسين وستماية وخرج من مصر ممالك الملك الصالح نجم الدين ايوب البحرية الى الملك الناصر صاحب دمشق يستنصرونه سير عسكر الى القدس فاستعاد . ولما استولى التتار على البلاد دخلوا القدس وقتلوا به (١) وبقي في ايديهم الى ان كسروا على عين جالوت وصارت البلاد للملك المظفر قطز فلما قتل قطز وصارت البلاد للملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالح وسار الى الطور ورحل منه كما قدمنا شرحه .

وفي يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وصل الملك الظاهر الى البيت المقدس وزار مواضع الزيارة وطلع على القبة التي على الصخرة من خارجها هو شيخ الحرم . وشاهد ما ذكرانه محتاج الى العمارة ورأى ذلك (٢) بنفسه . وطاف ورأى تلك البقاع

(١) كلمة غير واضحة .

(٢) مكررة في الاصل .

الشرiffe ثم صلى الجمعة وتصدق ونظر في الاوقاف وتحرير ريعها ومصرفها (٢٤) وكسب بحماية اوقافه وانه مهما طلب من الشام يرسم العمائر يسير سريعا . ورتب له في كل سنة خمسة الاف درهم يرسم مصالح الحرم . ورسم ان يبنى بخارج البلد خان للسبيل . ونقل اليه الباب الذي كان على دهليز القصر الذي يدخل منه الى البيمارستان بالقاهرة . وبنى فرنا وطاحونا ووقف عليه وقفا . وتم ذلك في سنة اثنتين وستين السنة الانية . وينادي الملك الظاهر في القدم بأن احدا لا ينزل في زرع بحيث ضرب الاتابك احد ممالكه على شيء يسير من حشيرة اطعمه لفرسه وسار السلطان الى جهة الكرك . ولما نزل راجعا في العود طارت جارج (١) اخذها الناصر باليد وتغافل السلطان الملك بامساكها وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى .

قد ذكرنا حال القدس الشريف فلنذكر حال مدينة الخليل عليه السلام . قال ابن حوقل النصيبي مدينة الخليل عليه السلام صغيره كالقرية تعرف بمسجد ابراهيم . وفي مسجد ها الذي يقام فيه الجمعة قبر ابراهيم الخليل واسحق ويعقوب بن اسحق بن ابراهيم على سيدنا ونبينا محمد رسول الله وعليهم افضل الصلاة والسلام صفا كل قبر منها بانجاء قبر امرأته والمدينة في وهدة بين جبال كثيفة الاشجار من الزيتون والتين والجميز .

قال القاضي عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الحلبي فسي تأليفه " كتاب الاعلاق الخطيرة " في ذكر امراء الشام والجزيرة " قرأت في كتاب ابي يعلي حمزه بن اسد النميري الذي وضعه ذيلًا لتاريخ دمشق . قال : وفي هذه

(١) في الاصل غير منقطعة .

السنة يعني سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ورد الخبر من بيت المقدس بظهور قبور الخليل وولديه اسحق يعقوب عليهم السلام وهم مجتمعون في (٢٥ و) مغارة بارضر بيت المقدس وكأنهم احياء لم تبل اجسادهم ولا رم لهم عظم . وحكى على بن ابي بكر الهروي السائح : حدثني جماعة من مجايه الخليل عليه السلام لما كان زمان بغدوين ملك الفرنج انخسف موضع في هذه المغارة فدخل جماعة من الفرنج اليها باذن الملك فوجدوا فيها ابراهيم واسحق ويعقوب وقد بليت اكفانهم . وهم مستندون الى حائط وروؤوسهم مكشوفة فجدد الملك اكفانهم ثم سد الموضع وذلك في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة . ولم يزل حكم هذه المدينة في الولايات حكم ما تقدم من بلاد هذا الجند الى ان اخذ الفرنج القدس في سنة اثنتين وتسعين واربعماية . فاستولوا عليها لانها ضمنا وتبعها للقدس . ولم تنزل في ايديهم الى ان فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب عند فتحه القدس الشريف .

ولما ملك السلطان صلاح الدين مدينة الخليل عليه السلام بني القبة والجامع ووقف عليه وقوفا برسم الواردين عليه وهي التي تسمى ضيافة الخليل . ولم تنزل في يد من يلي دمشق الى ان مات الملك المعظم صاحب دمشق وخرج الملك الكامل من مصر فولى فيه . ولما سلم دمشق للملك الاشرف اعطى الخليل للملك الناصر داود بن الملك المعظم الى ان استدعى الملك الصالح نجم الدين ايوب الخوارزميه الى الشام واستولوا على القدس بعث الى الخليل واليا من قبله . وجرى الامر فيه على ما جرى في نابلس في تنقلها بين الملك الناصر داود . وبين الملك الصالح نجم الدين ايوب . ثم استبد به الملك الصالح في سنة ثلاث واربعين وستماية . وبقي في يده ويد ولده من بعده الى ان قتل . ولما استولى الملك الناصر يوسف بن (٢٥ ق) الملك العزيز صاحب حلب على دمشق

اعطاه للملك المغيث صاحب الكرم، ثم استرجعه منه في سنة خمس وخمسين وستماية .
ثم تغلب عليه الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن
الملك الكامل صاحب الكرك في سنة سبع وخمسين وستماية واسترجعه الملك الناصر في
بقية السنة . ولما صار في ايدى التتار في سنة ثمان وخمسين سلموه للملك المغيث
فلم يزل في يده الى ان اجلاه (١) منه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس والله اعلم .

ذكر استيلاء الملك الظاهر على الكرك

قيد قدمنا احوال الكرك وما كانت عليه ومن وليها الى ان قبض الملك الظاهر
ركن الدين بيبرس الصالح على الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف
الدين ابن بكر بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل الكبير سيف
الدين ابي بكر بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي صاحب الكرك على
منزلة الطور في هذه السنة . ثم رحل الملك الظاهر من الطور الى بيت المقدس وزار
كما قدمنا شرحه . ثم رحل من القدس الى جهة الكرك فظل في يوم الخميس ثالث عشر
جمادى الاخرى من هذه السنة سنة احدى وستين وستماية وصحبته العساكر، واحضرت
السلالم الخشب من جهة الصلت وغيرها . وكان السلطان الملك الظاهر قد استصحب
من الدمار المصرية جماعة من الحجارين والبنائين والنجارين والصناع على انه يبنى
الطور . واحضر جماعة من دمشق وغيرها وسيروا الى عين جالوت . واشاع السلطان ان
ذلك لبناء جامع . وكان ذلك كله لاجل الكرك . وعزم على الطلوع اليها بنفسه فكتب
الى من فيه بتسليمه فخاف اهل (٢٦ و) الكرك فشرطوا عليه واقترحوا . وترددت

(١) في الاصل " اجلا " .

الرسول بينه وبينهم حتى وقع الاتفاق على ان يؤمر الملك العزيز عثمان ولد الملك المغيث
الاكبر على مائة فارس ونزل اولاد الملك المغيث وقاضي المدينة وخطيبها وجماعة من اهلها
ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة وطلبوا العرض فحلف لهم السلطان على ما طلبوه واعطاهم
حتى ارضاهم . وسير الامير عز الدين ايد مر استاد الدار والصاحب فخر الدين بن
الصاحب بها . الدين لتسلم الحصن فطلعا في ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة
الشهر المذكور وقت المغرب وتسلماه قطعة جديده ، وفي بكرة الجمعة وعي للسلطان
الملك الظاهر على اسوارها ونصبت صناجق على ابراجها واصبح السلطان مد الخوان وكتب
باحضار الرماة . وركب في الساعة الثالثة من نهار الجمعة المذكورة . وطلع الى الحصن
المحروس . ودخل اليها ورسم بأن لا يؤذى احد من اهلها . وعفى عما مضى من ذنوب
اهل الكرك واساءتهم اليه والى المماليك البحرية في الايام المغيثة . وجلس في القاعة
الناصرية وشكر الله على ما وهبه من هذه الموهبة السنية . وطلب ديوانها وكتاب
الانشاء ورتب امر جيشها . وسال عن رجالها فقبل لهم عدة شهور لم يعطوا شيئا . فأعطاهم
جامكه ثلاثة شهور من خزانته . واهتم ببلادها . وعين لها خاصا واطلق جامكيات
اهلها وما غير حاله . وزاد الاسفهلارية والقرا غلامية واعطى اولاد الملك المغيث جميع
ما حواه الحصن من مال وقماش واثاث . وكذلك سائر غلمانهم وكذلك جميع الامراء والمفارقة
والاجناد لم يتعرض لاحد منهم الى شيء ونزلوا جميع في ذلك النهار . وصلى السلطان
بها الجمعة وخطب الخطيب ودعي للسلطان . ورتب امر الكرك وبلادها ونزل وقت المغرب .
ولما اصبح يوم الاحد سير (٢٦ق) الى الملك العزيز بن الملك المغيث الخلع
والقمماش . وكذلك الطواشي بها . الدين صندل والامير شهاب الدين صعلوك اتايكه
احسن اليهما وكتب كتب البشائر . وكتب بحمل الغلاب والد خاير والاصناف اليها .

واصبح يوم الاثنين ركب وطلع اليها واحضر ديوان الانشا ود يوان الجيوش ود يوان الاستيفا ود يوان الكرك وكتب المناشير لعربانها ومن بها وكانت تزيد على ثلاثماية منشور وفي وقت واحد كتبت الاشله ونزلت وعلم السلطان عليها . وكتب المناشير وعلم عليها وسلمت لاصحابها بعد تحليفهم بين يدي السلطان . كل هذا في بعض يوم وكتبت تواقع لاجل مناصب دينية ود يوانية . واجرى ارزاق الناس على ماكانت عليه وجرد بها جماعة من البحرية والظاهرية . وحلف مقدمي المدينة وكذلك نصاراها حلفهم بالانجيل وقال لاهل الكرك : اعلموا انكم اسأتم الى في الايام الماضية وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم ماكانتموني ولا خايرتم علي صاحبكم وقد ازددتم بذلك محية الي فتناسوا الحقوق والضغائن ولا تقيموا فتنة فيما بينكم " .

واحضر الامير عبيه وغيره من بني مهدي وبني عتبه وقال : يا عبيه انا كنت بالامس احسن اليك واسامحك بما جرى منك ومن غيرك لاجل الكرك حتى حصلت الان والله ما يروح لاحد خيط الا آخذه منك وامسك رقبتك عليه . واهل هذه البلاد ما يشربوا الا من صهاريج من ماء المطر ومتى يشرب العربان منها وسقوا خيولهم فرغت سريعا فيعطش اهل القرية وتخرب . فرسم بأن احدا من العربان لا يشرب ولا يستقي خيله من صهريج . وضمنه خفر البلاد الى الحجاز . وطاف على القلعة والمدينة من خارجها (٢٧و) وباطنها ورسم بعمارة ما يحتاج الى العمارة وشيد الحصن وحصنه وزاد فيه وحفر خندقه واحاطه به ولم يكن قبل ذلك كذلك . وكتب تذكرة بالمهمات وحمل اليه الزرد خاناه التي كانت معه وخزائنه والاغنام والشعير وغيره من ساير الاصناف والقماش والدخير وسبعين الف دينار عينا ومائة وخمسين الف درهم

نقرة .

وان ذكرنا الكرك فلنذكر شيئا من احوال الشوك الى هذه السنة
ورجع السلطان الملك الظاهر الى القاهرة المحروسة سالما . قال القاضي
عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الحلبي في تأليفه "كتاب الاعلاق الخطيرة في
ذكر امراء الشام والجزيرة" ماصيفته . اني لم اعثر للشوك على ذكر
في كتاب من كتب التواريخ المصنفة في صدر الاسلام والظاهر ان الحال فيه
كالحال في الكرك في بناءه وتمليك الفرنج له الى ان فتح في الوقت الذي
فتح فيه الكرك بعد حصار سنتين . واقطع مع الكرك للملك العادل سيف الدين
ابي بكر بن نجم الدين ايوب بن شادي بن مروان الايوبي . ولم يزل في يده الى
ان اعطاه ولده الملك المعظم صاحب دمشق فحصنه وحسنه ونقل اليه
الاشجار من ساير الاقطار حتى صار يفاهي دمشق . ولم يزل في يده الى
ان توفي . وانتقلت الى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود صاحب دمشق .
ولم يزل في يده الى ان سأل اياه الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل
ابي بكر في مجلس شراب فخرج له عنه وبقي في يده الى ان توفي . فقصد الملك
الناصر داود صاحب الكرك واستعادته وبقي في يده الى ان قصد الملك الصالح
نجم الدين ايوب فاستولى عليه . وبقي في يده ويد ولده الى ان قتل (١) في المحرم
سنة ثمان واربعين وستماية . فاستولى الملك المغيـث عليه عند استيلائه على الكرك
ولم يزل في يده الى ان ملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (٢٧ق) الديار المصرية
فسـمـر اليه عسكرا وتسلـمـه من نائب الملك المغيـث

(١) مكتوبة في الهامش ايضا مكررة .

صاحب الكرك في شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسين وستماية كما قدمنا شرحه . فلما كان في هذه السنة واستولى الملك الظاهر على الكرك وفعل ما قدمنا شرحه استناب بالكرك الامير عز الدين ايدمر مملوكة واستاد داره وكتب له تقليد بذلك . وازاد اليه النظر على الشوك واعمالها واعطاه ثلاثين الف درهم وجعله من القماش . ونزل من الكرك الى المخيم . ثم اصبح وطلع اليها ثم رجع منها الى مصر ومعه اولاد الملك المغيث وحريمه فلما وصل الى مصر امر ولد الملك المغيث العزيز عثمان وانزله في دار القطية بين القصرين .

• قال صاحب " كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك " حاكيا عن جده القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيره الملك الظاهر ، قال : وفي يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الآخرة توجه الملك الظاهر من الكرك مسافرا الى القاهرة المحروسة فدخلها في سابع عشر شهر رجب الفرد من سنة احدى وستين هذه السنة . وزينت المدينة احسن زينته وشق السلطان المدينة وفرش له القماش الاطلس والعتابي والنسيج وخلع على الامراء والمفاردة والمقدمين وجميع حاشيته وغلماؤه والمملوك كاتب السيرة . وكانت هذه السفرة من اعظم السفرات المسفرات عن السعادة المضاعفة والنعمة المترافدة ولم يسمع ان ملكا ساق في هذه الجيوش العظيمة الى ابواب عكا وطعن في اسوارها وهدم وحرق واخذ مثل الكرك ودبر امورها وملك البلاد الساحلية واستخدم عليها الوفا من العساكر واستجد لهم جيشا عظيما للاسلام في مدة قريبة . وهي من يوم خروجه من مصر الى يوم دخوله اليها خمسة وتسعون يوما وكيف لا والسعد قرينه ولطف الله يعينه والله اعلم .

ذكر السبب في قبض الملك الظاهر على بعض امراءه

(٢٨ و) ولما قوض الله عز وجل الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين

ببهرس الصالح السلطنة كما قدمنا شرحه قوض امر المملكة للامير سيف الدين الرشيدى

في كل شيء وانفذ كلمته . واطلوه في جمعة خواتين من عنده يمدان له حتى ماء
الورد الى غير ذلك ورتب في كل شهر كلوتين زركشا كل كلوته بخمسين دينار عينا
وكلبندها بأربعين ديناراً . وكل هذه زيادة على الاقطاعات العظيمة والمربعات الكثيرة
وعلى الانعام حتى جامكيات البرد دارية والفهادين وعليو خيلهم . واشتغل الرشيدى
بالشرب وحمى حاشيته اشياء كثيرة من البلاد وصارت تصدر منه امور لاتسر السلطان
الملك الظاهر يكاسر عنها .

واما الامير عز الدين الدماطي فان الملك الظاهر اعطاه وزاده ومن جملة
ما كان بيده نصف مدينة غزه زيادة . ورأى انه رجل كبير لا يتقدم احد عليه . وكتب
له توقيعا انه اذا سافر في جميع المملكة لا يمنع شيئا يطلبه في الشام من غزه الى
الفرات .

واما الامير البرلي فقد قدمنا ما كان من امره بحلب وغيره وكيف احسن الملك
الظاهر اليه وعفاه عنه وامنه ووصل الى خدمته وما فعله معه . ولما سافر
السلطان الملك الظاهر الى جهة الطور في هذه السنة كما قدمنا شرحه احسن الى
هؤلاء الامراء احسانا كثيرا . وبلغ السلطان ان نية الرشيدى قد فسدت وتغيست
فجعل عليه عيونا تحفظ كلما يجرى منه . ولما جرى ما جرى من طلب السلطان الملك
المغيث صاحب الكرك كما قدمنا شرحه وصل رسوله الامير اسد الدين سادلوه استاذ
داره الى السلطان يقول ان كتابا من الرشيدى (٢٨ ق) مع قاصد حضر الى عندي
يقول لانه يحضر الى السلطان فانه يريد ان يقبض عليك . وقد قبضت القاصد . فكان
جواب السلطان ان كان الملك المغيث حلف للرشيدى فلا يحضر وان كان حلف لي
فيحضر . ولم يظهر السلطان للرشيدى شيئا من ذلك . وسرى السلطان الامير

بدر الدين بيسرى الى جهة الكرك فسير الامير بدر الدين المذكور الى السلطان يقول انني امسكت كتابا من الرشيدى الى الكرك يقول لانسلموا الكرك ويحسن لهم التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معهم على انه يحضر اليهم هو يتسلمها وحفظها لهم ويكون هو عونا لهم ويتفق معهم على افساد الحال كله . فكتب السلطان هذا كله وامر الامير بدر الدين بيسرى بالاحتراز التام والتحفظ .

ولما توجه السلطان الى الكرك كما قدمنا شرحه جعل على الرشيدى عيونا فبلغ السلطان انه لما نزل الكفرين ونمرين طلب انه يركب في معاليكه واصحابه ويسبق الى الكرك يدخلها هجما . فركب السلطان اليه ونزل عنده ولاطفه ومازحه وما اظهر له شيئا من ذلك وركب السلطان وركب الرشيدى فقات الرشيدى ما قصده وجرد السلطان الامير بدر الدين الايدمرى ومعه جماعة كبير توامرهم بالتقدم لحفظ الطرقات على الرشيدى لئلا يسبق الى الكرك وجهاز صحبة بدر الدين الايدمرى المذكور دهليزا مخلعا على البغال حتى يظهر للناس ما يخفي افعالهم ويقضي بسكون النفوس . وسار الامير بدر الدين وحفظ على الرشيدى الطرقات ونزل (٢٩ و) السلطان بركه زيزا فبلغه ان الرشيدى عازم على شىء من ذلك وانه ربما يركب ويسوق الى الكرك فعلم السلطان معه خديعة حسنة . وذلك انه سير اليه احد خواصه يشره بأن الكرك قد تسلمت . فلما سمع الرشيدى ذلك اظهر فرحا وخلع على المبشر ووقف عن فعله . وبطلت حركاته . وساق السلطان الى الكرك واتفق ما قدره الله تعالى من فتوحها كما قدمنا وترتيب قواعدها والسلطان لا يزيد الرشيدى الا الاحسان والتقريب . ولما وصلت الخيل من جهة العربان تقادم طلب منه فسير له خيلا من اجودها .

ونزل السلطان غزه راجعا فقام ليسبح الوضوء على عادته . وتفرقت الخاصكبه

للوضوء والتسبيح لصلاة الجماعة على العادة . وقام السلطان يركع قبل الاذان واذا
بالرشيدى قد اقبل في مقدار ثلاثماية فارس مستعدة من مماليكه والامير الدمياطي
والامير البرلي . فما احتفل السلطان بهم ولا قطع صلاته . وسلم ولبس سيفه .
ولم يجد احدا حاضرا الا الامير شمر الدين سنقر الرومي . فقال له السلطان :
ما الذى رأيت ؟ قال : جماعة ما جاءوا في خيبر . وبعد هذا حضر الامير
سيف الدين قلاوون الالفي بغير سيف الا في وسطه تركاشه لاجل الصيد فانكر السلطان
ذلك منه . ففهم وراح وشد سيفه وركب فرسا جيدا ووقف . وتراجعت الخاصكبه
والجماعة . وركب السلطان فأتى الرشيدى فوقف قريبا من السلطان في مكان ماجرت
عادته بالوقوف فيه . فحضر الامير عز الدين اوغان الركني ، فقال للرشيدى : اراك
في هذا المكان ، ما هذا مكان ياسيف الدين . واظهر انه في مزح . وما زال به
حتى ساق من ذلك المكان وساق (١) (٢٩ق) الدمياطي والبرلي وتفرقوا .
وكانت جرت من الدمياطي قضية اخرى وهي ان السلطان لما ملك الكرك ونزل اولاد
الملك المغيث اعطاهم السلطان خلعا واقمشة وانعاما كثيرة وانزلهم في المنطرة التي
في الوادى تحت الكرك قريبا من منزله السلطان . فسير لهم الدمياطي ضوا وجماعة
يميتون من حولهم بغير مرسوم الا ابتداء بنفسه . ثم حضر في الليل اليهم جماعة
من مماليكه بالسيوف ملثمين فكسروا الصناديق واخذوا القماش الذي كان السلطان
اعطاهم اعتقادا منهم ان تقوم فتنة في الليل وشوشه في العسكر ولا يعلم احد انهم
مماليك الدمياطي . واذا عوقب الدمياطي في ذلك قال انا سميت حتى يحفظوهم وسيرت

(١) مكسرة في الاصل في اول ص ٢٩ ق ايضا .

الضوء فكشف الله ذلك وظهر القماش عند مالهيكه الخواصر . فأطلع السلطان على القضية فتحدث معه الامير شجاع الدين المهندار فما سلمهم الدماطي ولا انصف منهم . وقال : انا اغرم عنهم ماعدم . واحضر بعض القماش وقرر ان يقوم بدراهم عن بقية ذلك . والسلطان ساكت لا يتكلم بكلمة الا يحتمل هذا ويحترز على نفسه الى ان وصل الى الديار المصرية ودخل قلعته سالما واستقر بها . واصبح وطلب الامير الرشيدى . فاعتقله وطلع الامراء الى الخدمة في اليوم التالي فقبض على الامير الدماطي والامير البرلي وحسم هذه المادة . واحسن الى مالهيكهم وخواصهم واقرهم على اخبارهم . ولم يخبر على احد منهم شيئا . ولا تعرض الى بيوت الامراء . وزاد الامراء الناصحين له على اقطاعانهم وامر من يستحق الامره والله اعلم .

ذكر وصول رسول الملك بركه

لما وصل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قريبا من غزه وهوراجع من الكرك ووصل اليه البريد من الامير عز الدين الحلبي نائب السلطنة بالديار المصرية يذكر وصول الكتب من الاسكندرية بوصول رسول الملك بركه . وهم الامير جلا الدين ابن القاضي ، والشيخ نور الدين ومعهما جماعة . ويخبر بوصول رسد الملك الاشكرى ووصول مقدم الجنوية ورسد السلطان عز الدين صاحب الروم . فكتب السلطان بالاحسان اليهم جميعهم ولما استقر السلطان في قلعته اجتمع بهم بحضور الامراء والناس وقرا كتبه التي (١) على يد الشيخ نور الدين ومضمونها السلام والشكر وطلب الاتحاد على هلاوون والاعلام بما هو عليه من مخالفة سنكر خسان

(١) " في الاصل " الذى " .

وشريعة اهله . وان كلما فعله من تلاف (١) النفوس بطريق العدوان منه . وانني قد قمت انا واخوتي الاربعة بحربه من سائر الجهات لاقامة منار الاسلام واعادة مواطن الهدى الى ماكانت عليه من العمارة وذكر الله والاذان والقرآن والصلاة واخذ منار الائمة والامة . ويلمس انفاذ جماعة من العسكر الى جهة الفرات لاساك الطريق على هلاوون . ويوصي على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته . وانفصل هذا . وحمل الى الرسل من الانعام ما لا يحصى يرسم بتجهيز الهدية الى الملك بركه من كل شيء على اختلافه يعمل لهم في اللوق دعوة واستمر تغددهما في كل يومي سبت وثلاثاء يوما لعب الكرة بأصناف الانعام (٣٠ ق) والاقمشة وكان ما سنذكره ان شاء الله تعالى .

ووصل ولد الملك المغنيت وهو الولد الاكبر واخوته وحرمه الى مصر . فأمر السلطان الملك الظاهر بماية فارس بمصر وخلع عليه واعطاه طبلخاناه واطلق لاختوته وحرم والده جميعهم كلما يحتاجون اليه ولغلمانهم ولمعارفهم . وعظمهم الصدقات الشريفة الكبير والصغير . وكذلك جميع المفارده الكركية عوضهم عن مغلهم الذي كان في الكرك واعطاهم الاقطاعات . وكان حضر اليه الامير صيف الدين الرزاري وسأله بسبب تسلم الكرك فرآه السلطان في بعض الايام فطلبه واعطاه الف دينار عينا طلب بها املاكا فكتب عليها مكاتبه شرعية .

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شعبان من هذه السنة خطب الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي بحضور رسل الملك بركه ودعى للسلطان الملك الظاهر وللملك بركه وصلى بالناس واجتمع بالسلطان وبالرسل في (٢) .

(١) " اتلاف " في ابن عبد الظاهر (ص ٨١) .

(٢) كلمات غير مقروءة .

وفي ليلة الاربعاء ثالث شهر رمضان من هذه السنة سأل الملك الظاهر ركن

الدين بيبرس الصالح الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي هل لبس الفتوة من احد
من اهل بيته الطاهرين او من اوليائهم المتقين فقال : لا ، والتمس من السلطان
ان يصل سببه بهذا المقصود ومنحه هذا الامر الذي من بيته بدا واليه يعود .
فلم يمكن السلطان الا طاعته المفترضة وان يمنحه ما كان ابن عمه رضي الله عنه افترضه
ان يحلي بالجواهر منضده ويقلد بالسيف مجرده ويعطي القوس لباريها ويسلم الصهوة
لراقيها ويكون في ذلك كمحجب الجلد للابسها ومفتوح الحذوة لقايسها . ولهم في
الليلة المذكورة بحضور من يعتبر حضوره في مثل ذلك . وباشر ذلك الاتابك
فارس الدين اقطاعي بطريق الوكالة المعتمده عن السلطان ٠٠٠ (١) الامام المستنصر
بالله امير المؤمنين ولد الامام الظاهر وابوه (٣١ و) لحدده الناصر رضوان الله عليهم
لعبد الجبار يعلي بن دغيم ٠٠٠ الله بن ٠٠٠٠ لعمر بن الرصاص لابي بكر بن
والحصر ٠٠٠ ابن السامار بن لقاب الطاح ، لتفسير العلوي لابي هاشم ابن ابي حبه
لعمر بن السر ، لابي علي الصوفي " لها " العلوي للقائد عيسى لامير وهران لروته
الفارسي للملك ابي كبحار لابي الحسن النجار لفضل الفرقاشي للقائد شبل بن الحكيم
لابي الفضل القرشي للامير حسان لحوش البزاري للامير هلال النهاني لابي مسلم
الخراساني لابي العز النقيب لعرف " العادي " الحافظ الكندي ، لابي علي " السوس " .
لسلمان الفارسي صاحب سيدنا ونبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي
قال له صلى الله عليه وسلم سليمان من اهل البيت للامام الظاهر النقي امير المؤمنين
علي بن ابي طالب رضي الله عنه .

وحمل اليه السلطان من الملابس الشريفة لاجل ذلك ما يليق بجلاله .
وفي الليلة الثانية حضر رسل الملك بركة الى القلعة والبسم الخليفة بتفويض
الوكالة للاتاك وحمل اليهم من الملابس ما يليق بمثلهم .

ذكر تجهيز رسل الملك بركة وسفرهم بهدية الملك الظاهر

قال صاحب كتاب " نظم السلوك في تواريخ الالفاء " والملوك " حاكما عن
جده القاضي محي الدين بن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر مامعناه :
لما رسم السلطان الملك الظاهر بتجهيز الهدية الى الملك بركة من كل شيء
على اختلافه كتب الملوك جواب الملك بركة في قطع النصف في سبعين ورقة بغدادية
فيه الايات من كتاب الله تعالى واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الترغيب في الجهاد وما ورد في مصر من الاحاديث والايات وفي قتال المشركين والافتداء
بالنبي صلى الله عليه وسلم (٣١ق) في الجهاد . وفيه ذكر مواطن العبادات
ومواضع الزيارة في سائر البلاد التي دعي له فيها شيء كثير . وجمع هذا الكتاب
من الترغيب والترهيب والاستمالة والاغراء والتعاضد عليه واظهار الميل اليه . ووصف
كثرة جنود الديار المصرية وما هي عليه وزيادة عساكرها عن المعتاد وانها كلها موافقة
له في نصره الاسلام . وقرأت الكتاب على السلطان بحضور جماعة الامراء وهو يزيد
فيه وكذلك الاتاك محلية ولما تكامل هذا الكتاب وتجهزت الهدية المباركة وهي ختمه
شريفة ذكر انها خط عثمان بن عفان رضي الله عنه بخلاف اطلع احمر مزركش من درج
أدم مبطن بعنابي وكسي لها عاج وابنوس مخرم بسقط فضة وقفل فضة خروزي بندق
كوامل عدة كثيرة . نمر لوقات للصلاة وسجادات الوانا متنوعة اكسيه لوانية (١) الوانا
عدة من الاديم الدسوت والاقطاع المسروقة وسفر للشمعدانات جملة كثيرة سيوف

تلقورية بأسقاط فضيه • طوارق مدهونة • فوانيس باغشية بندقي • منجنقات للشمع
 مدهونة باغشية • فوانيس فضة باغشية بندقي • صاروقات برسم الرماح للفوانيس
 الفضة كفايتها مشاعل جفتاه • وقواعد لها كفت جملة لجم كفت بروم محزوزه بشريط
 محلاة بفضه وكوابح فضه مطلاة وانفار محلاة والياب بسروج خوارزميه ونمازيئات برسمها •
 جرات برغالي محزوزة بشريط • واسقاط فضه في قسي حلق دمشقية اوتار حرير قسي
 بندق باوتارها • اجراء حرود (١) القروء البلق • شمعدانات مطعمه بفضه •
 رماح قنا • اسنة حديد عربية • نشاب يد بيع الصنعة في صناديق مجلدة • قد ويرام •
 قناديل كبار • مدهونة رنت (٣٢ و) سلاسل فضه مطلاة • خدام • جوارى طبائحات
 ٠٠٠٠ (٢) عدة خيل جياذ سبق عبي عربيه كفايتها هجن ٠٠٠ (٣) دواب
 فسه لاتلحق وحمير وحشية • نسانير معلمه الكوار للبحر كفايتها • مقاود بسلاسل •
 اجلال قصر للدواب وملالب خطاطي للنسانير • زراف جن كله قصر معمور (٤) مصور •
 وسهر من ذلك كله عدد كثير • وغير ذلك اشياء مستظرفة وتحف مستغربة ولطائف
 لا يوجد مثلها في خزانه ملك • وصحبتهما غلمان وما يقوم بهذه الحيوانات • وسلم
 جميع ذلك لرسول السلطان واهتم به اهتماما كثيرا وهذا المصلحة الاسلام • وجهـز
 الامير فارس الدين اقوش المسموئى والشرىف عماد الدين الهاشمي رسولين الى
 الملك بركه واصحبهما هذه الهدية • والبسرسله الفتوه من مولانا الخليفة سلام
 الله عليه • واحضرهما خطبته والصلاة خلفه والاجتماع به والحث على اقامة

-
- (١) " الجلود " في ابن عبد الظاهر (ص ٨٢)
 (٢) غير مرقوة في الاصل ولكنها بيناوات في ابن عبد الظاهر (ص ٨٣)
 (٣) = = = = نوبيه = = = (ص ٨٣)
 (٤) كذا في الاصل لكنها مخور في ابن عبد الظاهر (ص ٨٣)

فريضة الجهاد . وحملهما الوصايا للملك بركة والمشافهة والشكر لمساعي السلطان وما هو بصدده من اقامة الشريعة وسد الذريعة ورفع منار الدين وجهاد المشركين وملازمة العفاف ومعاملة الرعية بالعدل والانصاف وما جمعه من العساكر والجنود التي ليس لها اول ولا آخر ما يعيد انه على الملك بركة . وجهنز لهما طريدة عظيمة جمعت من اصناف الحيوانات المسيرة هدية وما فيها من الاشياء الفاخرة . وجهنز فيها عدة كثيرة من الرماة والزرافين والجرحية وحمل معهم مؤونة سنة . وتقدم بأن يزار بهم مواطن العبادات . وكتب السلطان بأن يدعى له بمكة شرفها الله تعالى والمدينة النبوية على ساكنها افضل الصلوة والسلام والبيت المقدس وان يدعى له بعده في الخطبه وسير الى (٣٢ ق) مكة شرفها الله عمرة شريفه كتبها يعتزله بها . وسافروا في سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين وقد شاهدوا من عظمة السلطان ما يهرعقولهم والله اعلم .

ذكر توجه الملك الظاهر الى الاسكندرية

في السادس شوال من هذه السنة سنة احدى وستين وستمائة توجه السلطان الملك الظاهر ركن الدين ببحر الصالح الى جهة بحر النيل المبارك وعدى الي الجيزة وصحبته خواص دولته الزاهرة واوليائه المتناصرة . ولما وصل الى تروجه اقام بها اياما . ثم دخل البرية يتصيد ويضرب حلقة صيد . فحصل له من ذلك شئ كثير . واهتم بأمر المياه والتساوي في ورودها فولى امرها احد حجابه الامر شجاع الدين الزاهدي واحضر من الاسكندرية الرجال لحفر الابار ونزحها من الاكدار .

ولما قضي وطره من الصيد ورجع وقد سفك من دماء الوحوش ما عادت يسهفه من دماء اعداء الدين عاد الى تروجه . وتوجه منها الى الاسكندرية .

وكان صاحب الوزير بهاء الدين قد سبر الى الاسكندرية فأحسن الى اهلها وحصل جملا كثيرة للخزانة العالية . ومن جملة ما حصل خمسة وتسعين لفة قماشاً . وحصل من الاموال ما لا يحصى كثرة ولم يضرب احد .

. ولما وصل السلطان الى الاسكندرية ضرب خيمته خارج المدينة ونادى بأن لا يقيم في الشجر جندى ولا ينزل احد في دار فحصل للناس بذلك رفق . واستقر الناس في اوطانهم . وفي يوم الخميس مستهل ذى القعدة من هذه السنة دخل السلطان الاسكندرية من باب رشيد وتلقاه اهل المدينة واستدعى الخازن (٣٢٠) والامعة . وشرع في تعبیه ما يعبیه للامراء على قدر مراتبهم . ورسم بمكتوب برد مال السهمين وصلته ارزاق الفقراء . وكان اهل الاسكندرية قد كثر همهم بسبب استخراج ربع دينار على كل قنطار يباع . نحطه عنهم وابطله عن الرعية ولعب النزه فخلع على الامراء واعطى الاتاك ثلاثة الاف دينار واعطى الامراء مثل ذلك واقل من هذه الحملة على طبقاتهم الى مائة دينار .

وركب السلطان لزيارة الشيخ الصالح القناوى وحضر شخص وقال ان الشيخ استوزن على حضور السلطان اليه والطلوع الى قصره فأذن لهم ثم حضر آخر وقال : لا سبيل الى الطلوع ولا الى كلامه الا من اسفل البستان .

واتى لزيارة الشيخ الصالح الشاطبي وعاد في البحر الى سرير سلطانه .
وكان قد حضر شخص يقال له ابن البورى وادعى ان بالشجر اموالا ضائعة واعطاه بها اوراقا . وكذلك رجل اخر يعرف بالمكرم ابن الزيات كتب اوراقا . فاستدعى السلطان في يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة الشهر المذكور الاتاك والصاحب والقاضي والفقهاء

وقرأت الاوراق . وصار السلطان كلما فتح له باب عظمه سده . ويعود على المذكورين بالانكار . ولقد قال السلطان : اعلموا اني تركت لله تعالى الف دينار من التصقيم والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقويم النحل وعوضني الله من الجهات الحلال اكثر منه . وطلبت جرايد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة . ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا وامر باشهار ابن الميسري .

وفي يوم الاربعاء سابع ذى القعدة الشهر المذكور وردت الكتب من جهة البيرة وحلب بأن جماعة مستأمنة واردة الى الباب العزيز فوق الالف وثلاثماية فارس (٣٣ ق) من المغل والبهادرية . فكتب السلطان بالاحسان المهم وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى .

وفي يوم الخميس ثامن ذى القعدة الشهر المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بدار العدل بالاسكندرية وبسط المعدله وامر بعد ذلك بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات .

وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذى القعدة الشهر المذكور توجه السلطان الملك الظاهر عايذا الى مستقر ملكه بالقاهرة المحروسة . ونزل تروجه وامر عربانها بالسباق بالخيول . فاجتمع من عربها لانغير الفا فارس واجتمع اليها حملة من خيل العسكر . وكان مداها من المرقب الى التل قريب تروجه . ووقف السلطان بالتل واوقف الرماح وعليها الثياب الاطلسي والعنابي ، وفيها المال . فلم يكن غير ساعة واذا بالخيول قد اقبلت كأنها العقبان فأخذ كل راكب حصل للسباق ولم تطمع عينه الى شيء من الخيل . ولما حل السلطان الملك الظاهر بر مصر زاد النيل واستمرت زيادته

لا عجب للنيل ان زاد من (١) بعد انتفاص كان فيه الحذار
فمقدم السلطان وافي به وانما السحب تمتد البحار

ولما وصل السلطان من الاسكندرية الى مصر مقر ملكه اعاد الفكرة في قضاء
الشجر المحروس وراى توليته لرجل غريب . فوقع الاختيار على الفقيه العالم برهان الدين
المالكي وهو رجل زاهد عابد ياور في مسجد بمصر . فقلده القضاء بالاسكندرية وتوجه
اليها . وفرض الناطبة للقاضي زين الدين ابن ابي الفرج الذي كان حاكما . وصلاح
الحال بهذا التدبير .

وفي آخر ذى القعدة الشهر المذكور نزل السلطان الملك الظاهر الى القاهرة
المحروسة فعاد الامير سيف الدين (٣٤ و) قلاون الالفى والامير علاء الدين الحاج
ابدغدى الركني والامير حسام الدين بن بركة خان . وعاد الى قلعته سالما .
وفي ليلة الاربعاء الخامس من ذى الحجة من هذه السنة توفي الامير حسام
الدين ابن بركة خان ونزل السلطان وحضر جنازته ومشى فيها والله اعلم .

ذكر وصول التتار المتأمنين الى القاهرة المحروسة

قد قدما ان الكتب وردت من جهة البيرو وحلب بأن جماعة من التتار مستأمنة
واردة الى الباب العزيز واهتم السلطان بوصولهم وتجهيز الاقامات لهم . وفي يوم الخميس
السادس من ذى الحجة الشهر المذكور وصلوا فركب السلطان الملك الظاهر لتلقيهم
والملايكة والملوك به محيطه والمله الاسلامية به محوطه . ولما قرب التتار شاهدوا
السلطان وهو كالبدري له كماله والاسد بين اشباله نزلوا وقبلوا الارض . قال صاحب
"نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" : الواجب الدعاء لملك نصر الاسلام

واعزه بعد الاهتضام . فانه فرق بين ملك تقبل ملوك التتار الارضيين يديه وهو راكب وبين ملك كانت التتار تطلب منه حضور الحرم في المشارب وبين ملك تهاده ملوك الاسلام والكفر وتطلب منه الرضى والغفران وملوك تهادى ملوك الكفر تطلب منهم الامن والامان . وبين ملك تسلم من الكفر البلاد والحصون وبين ملوك سلّموا الكفر من البلاد والقلاع والحرم والاولاد والاموال كل مصون . وكان قد عمرت لهم مساكن باللوف فانزلوها . وفي يوم السبت الثامن من ذى الحجة الشهر المذكور لبسوا الخلع . وانفق ان السلطان نزل في السحر الى تربة حسام الدين ابن بركه خان ووافوه عند باب الجامع الصالحى وشاهدوا (٣٤ق) على باب زويلة رأس كتيبة نوين مقدم عسكر التتار المقتول بعين حالوت وغيره من اكابر التتار المتعلقة على علو الباب . فنظم صاحب "كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك" (١)

يا مملوكا له الحسام المبيد	وكريما له العطاء المفيد
لك سيف به الغوي شقي	ونوال به الولي سعيد
شاهد الناس منك ياملك الارض	امورا لها يلين الحديد
شاهدوا منك اذ ركبت من	جامع الصالح نصرا يموت الحسود (٢)
فرووس على الشرايف قتلى	ورؤوس على التراب سجود
حيزوا في التتار في خلع منك	وكل صنایع وعبيد
وراوا منهم رؤوسا على السور	بحكم الرماح امست تميد
هذه قد عصت وهذى اطاعت	هكذا هكذا يكون السمود
دمت ترقى لك الحياة صعيدا	كل يوم لها اليه صعود

واقاموا في الاحسان يتقلبون وكل منهم يقول لما يشاهد من الخير ياليت قومي

يعلمون .

(١) في ابن الظاهر (ص ٨٧) ما يدل ان الشعر لابن عبد الظاهر نفسه .
 (٢) كذا في الاصل وقد اسقطت كلمة "جامع" في ابن عبد الظاهر (ص ٨٧) لاستقامة الوزن
 راجع ملحوظة ٢ ص ابن عبد الظاهر (ص ٨٧) .

قال صاحب " كتاب نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك " حاكيا عن جده
القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سير الملك الظاهر ماصيفته : ووصلت
الكتب بقوم جماعة اخرى كثيرة منهم . فاحتفل السلطان بهم وركب لتلقيهم ثم ورد جماعة
اخرى فاعتمد معهم الاعتماد . وكان الواصل الى الخدمة في هذه الثلاث مرار من
امرائهم الاكابر كرمون آغا الذي فتح بلاد الترك جميعها . وامناعا (١) ونوكا آغا وجبراك (٢)
آغا وقنان (٣) آغا . وطبشورونا سغيه ونيتو (٤) وصحتي وخوجلان واجقرقا (٥) وارققا (٦)
وصلاعية (٧) وميقدم (٨) . واجتمعوا بمن كان وصل قبلهم من امراء التتار . وهم صراغان
آغا ومن كان وصل معه . وصار كل منهم لوقته اميرا ثم ان السلطان عرض عليهم الاسلام
فأسلموا على يده الشريفة وطهروا جميعهم فنظم الملوك في ذلك (٣٥ و) :

يا مالك الدنيا الذي	اضحى صـ حـا للامم
يا من محـا بالعدل مـا	للظلم فينا من ظلم
يا من يساق له التتار	غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك انها	ستسوقهم نحو النقم
فأنوا لبابك كلهم	يأوون منه الى حرم
امنوا به مما يخاف	من البلاء والسقم
جعلوا جنابك جنة ونرى	خيولك مستسلم

-
- (١) في الاصل " وامناعا " . وكذا في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) .
(٢) = " وجرال " . لكنها جبرال في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) .
(٣) في الاصل وقبان لكنها " قنان " في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) .
(٤) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) وفي الاصل " وسو " .
(٥) " واحقرقا " في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) .
(٦) وارقق في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) (٧) كذا في الاصل وصلاغيه في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) .
(٨) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ٨٨) وفي الاصل ومقدم .

بسطوا يميننا للهداية	طالما خضبت بدم
اعطينهم مال المؤلف للقلوب	من القسم (١)
لازلت ياملك الزمان	لك الملوك من الخدم

وفي هذه السنة تقدم الامير بها الدين امير اخور احد قراني السلطان وخواصه بضرب مناديه سوف الخيل لامر جرى منه فيما يتعلق بالاسطبلات وما يشتري لها من الخيل . فضرب احدهم وحمل الى بيته فمات . فعز هذا الامر على الملك الظاهر . فهرب الامير بها الدين واستخفى واستتر عن الامير سيف الدين قلاون الالفى لتقع فيه شفاعته . فدخل على الاتاب فأخرج لاولاد المتوفي من ماله خمسة الاف درهم ومائة اردب غلة وكسوة . فأبراه مستحقوا الارث واقرؤا ان اباهم مات بقضاء الله وقدره . ودخل الاتاب الى السلطان وتحدث في امره . فغضب السلطان . فقال له الاتاب تغضب والشرع الشريف معنا . فان كان هذا قتل عمدا او خطأ هذا الابرا " وعند ذلك شفع الامراء الاكابر . فسكت السلطان سكوت من اسكته الحق . وهذا فعله في حق اقرب اوليائه اليه فكيف الابعاد .

وفي (٣٥ ق) هذه السنة امر الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي بعمل جامع خام بضرب على يمينه الخيمة السلطانية . فعمل وعمل له محاريب وعدة ابواب . وعملت فيه مقصورة برسم صلاة السلطان . وامر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل وتجديد بنايها .

وفي هذه السنة وصلت رسل صاحب اليمن بتقادمه . وذكر الرسل ان معهم هدايا لخواص الامراء تقربا لخاطر السلطان . فأمر بارسالها الى من عينت له . واذن للامراء في قبولها .

وفي هذه السنة عرض السلطان الملك الظاهر العساكر وجلس لذلك في كل خميس
واثنين ولم يجز عرض احد حتى حقق النظر . وای حندی اشتكى من مخدمه امر بانصافه
منه .

قال صاحب "نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك" ماصيغته : وفي هذه
السنة نظر السلطان في كثرة الناس وان القاهرة هي دار الملك وقد جمعت اهل
المذاهب من العلماء فأمر بنصب اربعة قضاة نوابا للقاضي تاج الدين فاستناب قاضيا
حنفيا وقاضيا مالكيًا . ولقله الحنابلة لم ينصب قاضي حنبلي بل جعل لهم عاقد .
فوجد الناس بذلك راحة " انتهى كلامه . وقد قدمنا انه استناب ثلاث نوابه
حنفي ومالكي وحنبلي والله اعلم اي ذلك كان .

وفي هذه السنة جهز الملك الظاهر عرب خفاجه . وسير الخلع الى كبراء العراق .
وكتب الى صاحب شيراز ونيره بالانغا بهلاون . وكانت وصلت جماعة من امراء خفاجه
فالبسهم السلطان الفتوة وجهز معهم الامير عز الدين الانارك رسولا الى شيراز
وغيرها صحبة امراء عرب العراق .

قال صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم بن الامير ناصر الدين محمد بن الامير
عز الدين ايدمر دقماق في تأليفه " نزهة الانام في تاريخ (٣٦ و) الاسلام " ماصيغته :
وفيها في العشر الاول من صفر جمع تكفور صاحب سيمس جموع كثيرة خيلا ورجلا وخرج
من سيمس وانغار الى بلد العمور وجبل ومعرة النعمان وسرمين والقوعة . وذلك بدلالة رجل
من اهل القوعة يعرف بأبن ماجد القوعي . فأخذ من القوعة ثلاثماية وثمانين
نفرا . وكبس سرمين وكان بها من الامراء المجردين بها الدين الخضر الحميدي
والذكي عيسى العروى وعلم الدين قيصر الظاهري فانحازوا الى دار الدعوة بسرمين .

واجتمع عليهم خلق كثير وحاصروهم . ثم ان الاميرزكي الدين عيسى ركب وركب الامراء
رفقته . وفتح باب للدعوة وخرج وحمل فيهم فصادف في حملته صاحب سبيل ولم يعرفه
فرماه عن جواده فتغللت لاجله عزائم اصحابه فولوا هاربين لا يملؤ احدًا منهم على
احد وخلص الماسوريين .

وفيها حدثت زلزلة عظيمة في شهر رمضان بالموصل اخرت اماكن عظيمة وهدمت
ادر كثيرة . ووعلت اخبارها الى البلاد الشامية وما حصل للناس منها من الضرر .

وفيها جهز السلطان الملك الظاهر من القاهرة المحروسة الى المدينة
النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام جماعة من ارباب العماير من بنائين ونجارين
ونشارين وغالين واخشاب والات . وحمل ذلك في البحر لاجل عمارة الحرم الشريف
النبوي . وعمل السلطان كسوة للكعبة المشرفة وحمل الكسوة على البغال وطيف بها
البلدين . وركب معها الخواص وارباب الدولة والقضاة والمدرسين والقراء والصوفية
والخطباء والائمة . وسافر من تسلمها بها الى مكة المشرفة في العشر الاوسط
من شوال وفوض امر العدة لزين الدين ابن البوري .

(٣٦ق) وفيها جاءت الاخبار الى الديار المصرية بأن الفرنسيين كان قد
جمع جمعا من الفرنج وقصد الديار المصرية لما في قلبه من الكسرة الاولى بدمياط
كما قدمنا شرحه . فأشار عليه بعض اصحابه بقصد تونس بالغرب اولا . فاذا ظفرت
بها تمكنت من قصد الديار المصرية برا وبحرا . فلما نازلها بتلك العساكر الكثيرة
التي جمعها وكان يستولي عليها اوقع الله تعالى في عسكره الوباء . فهلك الفرنسيين
وجماعة من الملوك وكثير من اهل العسكر وصاروا الى جهنم وبئس المصير . ورجع من
بقي منهم الى بلادهم بالخيفة .

وفيها اخذ قاع البحر خمسة اذرع وسبع اصابع وانتهت الزيادة الى سبع عشرة ذراعا وثلاث اصابع .

٦٦٢ هـ (١٢٦٣٢ - ٢٣ ت ١ ١٢٦٤)

٣٧) ذكر الحوادث في سنة اثنتين وستين وستماية .

قال صاحب " نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك " استفتح السلطان هذه السنة بالعدل والانصاف وحضر الى دار العدل . فوقف له ناصر الدين بن ابي نصر وشكى انه اخذ له بستان في الايام المعزية وهو بأيدى المقطعين . واخرج كتابا مشبوتا واخرج حال من ديوان الجيوش المنصوره بأن بستانه ماهو من حقوق الديوان . فأمر السلطان برده عليه . فرد اليه ما كان غصب من حقه . واطلع نجم الحق من افقه " .

قال " واحضرت ورقة مختومة فكشف عن من احضرها فوجد محضرها خادم اسود فقرئت فوجد فيها مرافعة في القاضي شمس الدين شيخ الحنابلة يذكر فيها انه يهين السلطان ويتمنى زوال دولته . وسبب ذلك ان السلطان ما جعل للحنابلة مكانا في المدرسة التي انشأها بين القصرين داخل القاهرة المحروسة بجوار قبة الملك الصالح نجم الدين ايوب . ولا جعل حنبليا قاضيا . وتحدث في اشياء قاذحة في الشيخ المذكور . فقرئت على الشيخ فحلف ان ذلك ما جرى منه شيء وقال : هذا الخادم كان بخدمتي وطردته . فقال السلطان ولو شتمتني انت في حل وامر بضرب الخادم فضرب مائة عصا " .

وامر بان ينادى في القاهرة ومصر بأن امرأة لاتنعم بعمامة ولا تنزى بزي الرجال . ومن فعل ذلك بعد ثلاثة ايام يسلب ما عليها من الكسوة .

وفي اول هذه السنة طلب السلطان الطواشي شجاع الدين مرشد الحموى فحضر

الى الابواب الشريفة . فتحدث السلطان معه في اشتغال صاحبهما بالملاذ .
وقال له قد كتبت اليه انبه من هذه الفعلة . وطلبت شرف الدين عبد العزيز
شيخ الشيوخ وسيرته اليه في هذا (٣٧ق) الامر فما افاد . وقال له : انا اعتمدت
عليك في مصلحة هذا البلد لما فيكم من دين وخير وشجاعة . وقرر معه انه يلتزم
بتكميل الاستخدام وان يلتزم الاجناد باقامة التبرك والعدة الكاملة . فالتزم بهذه
الامور وكتب له تقليد شريف وتوجه .

وفي المحرم من هذه السنة وصل الامير جمال الدين بشكر ولد الداوار .

وكان ابوه المجاهد داودار الخليفة ببغداد . وكانت له نعمة عظيمة ومماليك
وغيرها فأحسن اليه السلطان الملك الظاهر واعطاه طبلخاناه .

ذكر حضور اهل العلم بالمدرسة الظاهرية

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي امر بإنشاء مدرسة بخط

بين القصرين داخل القاهرة المحروسة بجوار من المدرسة الصالحية مدفن استاذ الملك
الصالح نجم الدين ايوب . فلما تكملت عمارتها فوض تدريس السادة الحنفية للصدر مجد
الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين ابن العديم ، وتدريس السادة الشافعية
للشيخ تقي الدين ابن عبد الله محمد بن الحسن ابن رزين والتصدر للاقرا الفقيه
كمال الدين المحلي . والتصدر لافادة الحديث النبوي الفقيه شرف الدين عبد المؤمن
بن الشيخ خلف بن ابي الحسن بن شرف الدين خضر بن موسى الدمياني . فلما
كان يوم الاحد الخامس من صفر من هذه السنة وقال صاحبنا الامير صرم الدين ابراهيم

بن دقماق : كان جلوسهم في يوم الاحد سابع عشر صفر او سادس عشره . اجتمع اهل العلم بالمدرسة الظاهرية وحضر القراء* وجمراهل الدروس كل طائفة في ايوان الشافعية بالاىوان القبلي والخنفية بالاىوان البحرى الذى تجاهه واهل العدد يثبالاىوان الشرقي ومن يقرأ بالروايات السبع بالاىوان الغربي . وفي هذا الاىوان جماعة يقرءون السبع بعد صلاة الصبح . وذكروا الدروس ومدت الاسمطه لهم . وانشد الشيخ جمال الدين ابو الحسين الجزار .

الا هكذا بيني المدارس من بنا	ومن يتغالى (١) في الثواب وفي الثناء
لقد ظهرت للظاهر الملك همة	بها اليوم في الدارين قد بلغ المنا
تجمع فيها كل حسن مفرق	فراقت قلوبا للانام واعيننا
ومذ جاوزت قبر الشهيد فنفسه	النفيسة منها في سرور وفي هنا (٣٨و)
وما هي الاجنة الذلد ازلفت	له في غد فاختر تعجيلها هنا

وانشد الشيخ سراج الدين الوراق قصيدة منها .

ملك له في العلم حب واهله	فله حب ليس فيه ملام
فشيدها للعلم مدرسة غدا	عراق اليها شيق وشام
ولا تذكرن يوما نظاميه لها	فليس يضاها ذا النظام نظام
ولا تذكرن ملكا ويبرر مالكا	فكل ملك في يديه غلام
ولما بناها زعزعت كل بيعة	مضى لاح صبح فاستقر ظلام
ومذ برزت كالروغ في الحسن انبات	بأن يديه في النوال غمام
الم تر محرابا كان ازاهرا	تفتح عنهن الغداة كمام

وانشد الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر فان محطتك الجوزاء
انت الذي امراءه بين الوري مثل الملوك وجنده امراء
ملك تزينت الممالك باسمه وتجلت بمدحه الفصحاء
وترفعت لعلاء خير مدارس حلت بها العلماء والفضلاء
تبقى كما يبقى الزمان وملكه باق له ولحاسديه فناء
كم للفرنج وللتتار ببابه رسل مناها العفو والاعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءه وطريقهم لبلاد عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلدا ما قبل الاصبح والامساء

فرسم لهؤلاء الشعراء بالتشريف . وكان يوما مشهودا . واوقف السلطان
بهذه المدرسة خزانه كتب حمل اليها امهات الكتب في سائر العلوم وبنى فيها
مكتبا لتعليم الايتام واجرى عليهم الخبز في كل يوم والكسوة في الفصلين .

وفي صفر الشهر المذكور وصل الحجاج مخبرين بأنه خطب للسلطان الملك
الظاهر بمكة المشرفة . وتسلم الصدر جمال الدين حسين ابن الموصلي كاتب
الانشاء الشريف المتوجه الى مكة المشرفة نائبا بها مفتاح للبيت المقدس المشرف
وقفله بالقفل المسير صحبه واباح البيت الشريف ثلاثة ايام بغير شيء . ولا يؤخذ
(٣٨ق) من احد درهم واحد . وكتب الله له في هذه الحسنة التي عامل الرعية
فيها بالاحسان والحسنى . وجعل البيت مثابة للناس وامنا .

وفي صفر الشهر المذكور قرئ كتاب وقف الخان يالقدس الشريف بحضور السلطان
الملك الظاهر وقاضي القضاة ناج الدين . وحررت شروطه بين يديه . وكتبت بذلك
عدة نسخ . وكذلك اوقف اصطبلين تحت القلعة يعرف احدهما بجوهر النوبي
واحدهما على وجوه البحر .

وفي صفر الشهر المذكور وردت كتب الامير عز الدين استناد الدار
نائب السلطنة بالكرك بانه رتب رواتب الخليل عليه وعلى سيدنا
ونبيها محمد رسول الله الصلوة والسلام . ورتب الاسمطة والضيافة
للوافدين . وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة . وعد ذلك من
حسنات دولة الظاهر .

وفي صفر الشهر المذكور خرج الملك الظاهر متصيدا الى جهة
اوسيم وتوجه منها الى الغربية . وشكى اهلها من واليها الامير
ابن الهمام وصار السلطان يركب للصيد ثم ينفرد وحده مخفيا
وسائل عن حال الامير ابن الهمام المذكور وحال نوابه وعلمائه وعن
المباشرين ولما تحقق سوء اعتقاده قبض عليه وادبه وعزله وولى
غيره .

واطلع على ان رجلا من نصارى القبط يعرف بابن حلوف يظلم
الناس ويؤذيهم فأمر بالقبض عليه وشنقه . قال القاضي محي
الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : كان
المذكور نقل عنه تعرض الى ذكر رسول الله صلى الله عليه
وسلم بما لا يليق بشرف النبوة فأسلم ثم ارتد .

وتوجه السلطان الى دمياط وزار البرزخ ثم عاد الى اشعوم الى منزلة ابن

حسن (٣٩ و) ونصيد بها ثم عاد من جهة الشرقه .

وفي صفر الشهر المذكور سأل الفرنج نواب السلطان الملك الظاهر بالشام

انهم يأذنون لهم في زراعة البلاد وتقويتها من اموالهم . وهي جملة كبيرة من

الغلات . فتقررت الهدنة معهم الى ايام الحصاد . وهي مصلحة ظاهرة لانهم

يخرجون من دوايرهم جملة من الغلات ويكون كما قال الله تعالى : " فسينفقونها

ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون " (١) وعند استوائها تحصد سيوف الاسلام

روءوسهم قبل حصادها وينفذ امر الله فيهم نفاذهم في انقادها .

• ذكر وفاة الملك الاشرف صاحب حمص واستيلاء الملك الظاهر على بلاده .

في يوم الجمعة حادى عشر صفر من هذه السنة توفي الملك الاشرف

مظفر الدين موسى بن الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد شيركوه بن الامير

ناصر الدين محمد بن اسد الدين شيركوه بن شادى بن مروان صاحب حمص . ولم

يكن له ولد ولا اخ ولا ولي عهد . فسير السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

الصالحى صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية الى نوابه بالشام يتسلم بلاده .

فوصل البريد في سابع عشرين صفر الشهر المذكور بأن الامير بدر الدين بلبك

العلائي احد الامراء قد تسلمها وحلف الناصر بها للسلطان الملك الظاهر وكنلك

الرحبة والدير . وكان المسير الى الرحبة خاصة عشرين الف دينار عينا .

وفي هذا التاريخ ورد كتاب الامير جمال الدين النجمي يذكر انه ولي

حوران للامير جمال الدين الجاكي . وليس الرقه لامير اخر .

وفي هذه السنة بلغ السلطان الملك الظاهر ان صاحب دهلك وصاحب سواكن يتعرضان (٣٩ق) الى اموال من يتوفى من التجار في تلك البحار . فسير اليهما بدر الدين ابن الدايه احد رجال الحلقة المنصوره رسولا بهذا السبب والانكار عليهما لتعرضهما لاموال من يتوفى من التجار .

قال صاحب كتاب نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك " وفي هذه السنة ثمن القوط الذي قضته الخيول السلطانية وجمال المناخات فكان ثمنه خمسين الف دينار " قلت : وكثرة الخيول قد ندب الله اليه و اشار في كتابه العزيز الى الاستكثار منها . قال الله تعالى " واعدوا لهن ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل (١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة . والخيول لثلاثة هي لرجل اجر وللاخر ستر ولاخر وزر . فاما التي هي له اجر فرجل ربطها في سبيل الله فما غيبت في بطونها فهي له اجر ولورعاها في مرج كان له لكل شيء غيبت في بطونها اجر . ولو استسقت شرفها او شرفين كان له بكل خطوة خطتها اجر . ولو عرس لها نهر فسقاها منه كان له بكل قطرة نيمتها في بطونها اجر حتى انه ليذكر الاجسر في اروائها وابوالها . واما التي هي له ستر فرجل يتخذها تعففا وتكرما وتجملا . ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسره ويسره . واما الذي هي عليه وزر فرجل يتخذها اسرا ويظروا لا يربطها في سبيل الله ليركب عليها المجاهدين .

ذكر جلوس الملك الظاهر بدار العدل عند غلو الاسعار وما فعله

من الرفق بالناس

في هذه السنة علت الاسعار ووصل الاردب العم الى قريب المايصة

درهم نقرة • فرسم الملك العاهر بالتسمير طابا للرفوفاشتد الحال وعدم الخبز
(٤٠ و) فأمر السلطان بالنداء باحتماق الفراء تحت القلعة • وقيل استند
الغدا بمصر واعمالها قبل الازدب القمع بمصر مائة درهم وخمسة دراهم والتعير
سبعين درهم والخبز كل ثلاثة ارطال بدرهم • واللحم كل رطل بدرهم وثلاث
وبيع القمح بالاسكندرية كل اردب بثلاثمائة درهم وعشرين درهما • ثم استند
الحار بالناس الى ان اكلوا من الفلف والكرنب وورق الكراب وخرجوا الى السير
• فأكلوا عروق الفول الاخضر •

فأحسن الملك العاهر السياسة • ونزل في يوم الخميس سابع شهر
ربيع الآخر من هذه السنة الى دار العدل • فأول ما تحدد فيه امر الغلة
وطال التسمير • وكتب الى الامراء ببيع خمسماية اردب كل يوم بما يقدره الله
تعالى من زيتتين فما دونها لثلاثين من الامراء بل يباع على النصف والارامل
ونزل حجابهم الى تحت القلعة وكتبوا اسما الفراء • ثم سير الى كل جهة حاجبا
لكتب الاسماء في القاهرة ومصر وحواسنها • وقار : والله لو كانت عند غلّة
تكفي هذا العالم لفرقتها • فلما عد العالم وحصروا اخذ السلطان الوفا واعطى
لنواب ولده الملك السعيد كذلك واحضر ديوان الحيور وكتب الاسماء واعطى لكل
امير جماعة على قدر عدته وفرو الفقراء على الامراء والاجناد ومفارقة الحلقية
والمقدمين والبحرية • ونزل التركمان ناحية • وكذلك الاكراد البلديين • ورسم
بأن يعطى لكل فقير كفاية مؤونته مدة ثلاثة شهور • وتسلم نواب الاسراء الفقراء
وكذلك الاكابر والتجار والشهود والناس على ايات احوالهم وفريق السلطان من
شونته القمح على ارباب الزوايا • ورسم ان يفرو في كل يوم للفقراء مائة اردب
مخبوزة لجامع احمد بن طولون • وكان في هذا الفعل (٤٠ في) ستر الوجوه

عن الكدية • وقال السلطان : هو "لا" المساكين جمعناهم اليوم وقد انقضى نصف النهار فليعط كل منهم نصف درهم يتقوت به خبزا • ومن غد يتقرر الحال • فأنفقت فيهم جملة كبيرة لهذا القدر خاصة • قال تعالى فيما ورد من الاخبار : والراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء •

قال صاحب " نظم السلوك في تراجم (١) الخلفاء والملوك " مامعناه : اخذ صاحب جماعة العميان واخذ الاتابك التركمان ولم يميز احد من الخواصر ولا من الحواشي ولا من الحجاب والولاة واصحاب المناصب وذوى المراتب والثروة حتى اخذ جماعة وذلك بحسن تلطف من السلطان • وقال للامير صارم الدين المسعودي والى القاهرة : اخذ مائة فقير اطعمهم لله • فقال : فعلت ذلك واخذتهم دائما • فقال السلطان : ذلك فعلته ابتداء من نفسك وهذه المائة افعلها لاجلي • فأخذ مائة فقير ثانية • وشرع الناس في فتح الاهراء والمخازن وتفرقة الصدقة •

ولقد وصل الاردب القمح في الغلاء الكائن في سنقبع وتسعين وخمسمائة في الايام العادلية بولاية عهد الملك الكامل الى ثمانين درهما نسقرة كل اردب • واكل الناس بعضهم بعضا وما دبر احد هذا التدبير الحسن • وكذلك الغلاء الكائن في زمان المستنصر العلوى عم الجوع والبلاء الناس حتى ان الوزير ركب الى دار الوزارة فاخذت بغلته واكلت للوقت • فأخذ آكلوها وشنقوا فأكلوا على الخشب • وزاد السعر في هذه السنة كما قدمنا شرحه • وما جرى الا الخير بنية السلطان • ونزل السعر عشرين درهما وقلت (٤١ و) الفقراء وكثر الخير •

(١) وردت " تاريخ " في جميع الامكنة الاخرى من هذا الجز •

وقال بصراخل التاريخ : فرب السلطان الصغاليه على الاغنيا والامرا
وان اخذ لنفسه حمامية وتولى الملك السعيد حمامية ولنايبه بيليك الحازندار
ثلاثماية دام الفلا ودام ما رتبته السلطان الى ان دخل شهر رمضان ودخلت الفلال
الجديدة • ومن اعجب ما يحكى ان السمرانح في يوم واحد اربعين درهم الارذب
ورقا • فسبحان المتصرف في خلقه كيف يشاء •

وفي اليوم الذي جلس فيه السلطان بدار العدل وشغل ما تقدمنا شرحه
قرأت قصة على السلطان من ثمان دار الحرب انبها فيها توقيت الدراهم وسألوا
ابحال الناصرية وذكروا ان ثمانهم مائتان الف وخمسون الدرهم • فقال :
يحط عنهم خمسون الف درهم ولا تؤذى الناس في اموالهم •

وفي العشرين من شهر ربيع الاخر الشهر المذكور جاءت زلزلة عظيمة
هدمت دورا كثيرة •

(وفي) ثالث وعشرين شهر ربيع الاخر الشهر المذكور رسم السلطان بمصامدة
بنات الامير حسام الدين الجوكندار العزيز بما وجب للديوان في تركة ابيهم
وجملته اربعمائة الدرهم نفرة خارجا عما له من الاملاك والغل والخيل •
وكتب بذلك الى السام • وهذه جملة ما سمع بمثلها لورثة امير • وقد كان هذا
الامير وصل من حلب الى دمشق وحاله ضعيف • وقد نهب القطار موجوده فأحسن
السلطان اليه وزاد في اقطاعاته واقتاداه حتى جمع هذه الجمل • ولما ربي البندو
وادعى للسلطان سير اليه حملة عظيمة • فذه الجمل المذكورة السلطان هو
الذي وهبها له في الاول وفي الاخر لبناته • وكان اقمهم بذله ان كل من يموت
في خدمته ويحفظ يمينه ينحرف في امر ورثته • ويبقى عليهم ما يخلفونه • وكان كما
قال الشاعر •

بأذا الذي سعدت به الأبناء في الدنيا وبعد مماتها الأولاد .

وكذلك الأمير شهاب الدين القيصرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية لما توفي إلى رحمة الله تعالى أمر بنقل اقطاعه وهو مائة طواشر لولده . وكذلك أحد الأمراء بالساحل وهو شجاع الدين والى (١٤٠ق) سمرمين الأمير ناصر الدين رسولاً إلى فرقة من الفرنج . فصادفه فرقة أخرى أسرته . فأبقى السلطان خبره عليه يستغله أخوته ونلمانه ولم يغير عليهم شيئاً . وكل هذه مكارم تستجلب القلوب والله اعلم .

ذكر قصد متملك الأرمن خذله الله حلب المحروسة ورجوعه خاسراً

كان اللعين هيثوم بن قسطنطين متملك الأرمن خذله الله تعالى رجع من عند هولاكو ملك التتار واستصحب صحبته قاضي بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين السلطان ركن الدين صاحب الروم فلما وصل إلى قريب بلاده لم يدخل إلى بلاده . وتوجه إلى بلاد الروم وأعطى قاضي هولاكو عطاءً كثيراً واستماله . وقال له : لا أقدر على الدخول إلى بلاد الروم حتى تحضر جماعة من التتار تخفروني . فكتب القاضي إلى التتار الذين في الروم فحضر منهم جماعة تقدروا بمائة فارس . وكان السلطان ركن الدين لما بلغه وصول متملك الأرمن إليه عزم على الإيقاع به على غره وأنه ينسب ذلك إلى التركمان . ففطن الطاغية لذلك واحتز وتوجه لما حضر إليه التتار الذين طلبهم قاضي هولاكو فالتقى صاحب الروم متملك الأرمن مترجلاً لاجل قاضي هولاكو واللعين الأرمني لم يترجل . وقد كل واحد منهما لصاحبه تقادماً سنيه . وكانت مقدمة صاحب الروم أربعة عشر فرساً وأربعين ألف درهم وجميع آتية المجلس من ذهب وفضة وبغال وغيرها . وقد له الأرمني أربعة حصن وجاءوا جميعهم إلى هرقله وتخالعوا واتفقا .

واهتم الزماني بجمع العساكر المخذولة في برده لقصد البلاد الاسلمية
بالشام وسار فلما وصل ٠٠٠ الى قلعة صرفند كار (١) (٤٢ و) نادى في عسكره
بان ياخذوا النامة لك ثلاثة ايام ٠ وكان في عسكره من بني كلاب الف فارس عريسا
وقصدوا عينتاب ٠

وكان السلطان الملك الناصر الدين بيبرس صاحب الديار المصرية
والبلاد النامية قد غرس منهم هذا الاتفاق لاهتمامه باستطلاع الاخبار ٠ فسير
الى عسكرين حماء وحسن بالتوجه الى حلب فتوجهوا وتوجه جماعة من العسكر المنصور
فأغاروا على عسكر الارمن واسروا اميرا من امرائه واخذ له مائة حمل من البحاتسي
فولوا منهم زمين وقتل منهم ثلاثون نفرا وجرح صاحب حمص قرابة مائة الارمن وهربوا
بارون بسرام جراحة جديدة ٠ وكتب العاغية من ملك الارمن الى التتار الذين
كانوا في الروم وهم سبعماية راكب فأحضرهم وكان قصده الام ٠ فلما وصلوا الى
حارم وقعت ثلوج شديدة ٠ وكان العاغية المذكور قد كتب الى انه اكيه يطلب
نجده فانجده منها بمائة وخمسين فارسا ولبس الجميع السراويلات تشبهها بالتتار
 واجتمعوا كلهم قريبا حارم ٠ وارسل الله الثلوج والامطار حتى كادوا يهلكون ٠
واما العسكر المنصور فانه خرج لقصدهم واتصل بهم الاخبار وانقطعت عنهم
الميرة فخافوا وتأخروا راجعين فمد من اصحابه مائة وعشرين فارسا وثلاثون تتربا
وستة نفر من خيالة انداكيا وجماعة من رجالهم ٠ ونصر الله الاسلام بنية سلاطينهم
الملك الناصر الذي نصرته الملوك والملايكة وامرته السماء تارة بشهبيها وتارة
بأماطارها وثلوجها المتدركة الى ان انتهز جميع الاعداء بحسن عزائمهم المباركة
رحمه الله تعالى ٠

(١) كذا في ابن عبد الناصر (ص ٩٧) وفي الاصل مطموسة طاهر منها " فندكار "

ذكر حفر خليج الاسكندرية

كان خليج الاسكندرية (١) وهو البحر الذى يقال (٤٢ ق) احضرا (٢) سريعا الى السلطان الملك الظاهر فسألها واعطاها الامير . فأعترفا ووجدت معهما قرامين للامير فارس الدين اقطاي الاتابك من هولاكوا وهو يرغبه ويستميله اعتقادا منه ان هذه الامور يفسدها نظام . او ان السلطان اذا وقع له ذلك لا يتثبت . او انه يتوهم في اكثر خواصه . او ان الاتابك يميل الى هذا الهذيان . فقطن السلطان الى هذه المكيدة . وطلب الاتابك في الساعة الراهنة وافهمه انها حيلة . واره الكتاب وقال له : اننى ما صدقت شيئا من هذا فيك . ودرسم بحريق ذلك وتمزيقه . واستدل السلطان بذلك على ضعف هولاكوا وانه يتثبت بكل شيء . وهذه همة عالية ما سمع ملكا اهتم بهذه الهمة ولا يهذل في اغراضه الجميلة هذه النعمة .

وفي هذه السنة تنجز الحج الذى كان الملك الظاهر رسم بعمله فسي قارا . وشرع في بناء حج اكبر منه لمصلحة الاسلام وحفظ الطرقات وصونا للرعية من عوادي الفرنج المجاورين خذلهم الله تعالى .

ذكر قصد متمك الارمن المسير الى بلاد الشام مرة اخرى وتخيب سعيه

في هذه السنة اهتم متمك الارمن للعين هيثوم بن قسطنطين وجمع العساكر المخدولة من كل جهة . وفصل الف قيا تترى والف سراقوج البسها

(١) الكلمات الثلاث مطبوسة بالحبر وقد قدرتها من سياق العبارة .

(٢) كان ورقه من الاصل ساقطه هنا راجع ابن عبد الظاهر (ص ٩٨) .

اصحابه ليرهب انهم نجده من التتار . فسير السلطان الملك الظاهر الى دمشق
جرد منها عسكرا الى حمص . وجرد جماعة من حماه . ورسم بأن عربان الشام لا يخرجون
البرية في تلك السنة . فتوجه الامير حسام الدين العنتابي فأغار على مروان وقتل
واسر وعاد سالما . وتوالت الغارات من جميع الجهات (٤٣ و) فلما احصى العدو
المخدول بهذه العزائم جر ذبول الهزائم وتفرقت نجداته وخمدت بجرماته وتقسي
خافا مترقبا . وعدلت العساكر المنصورة الى انطاكية فغنمت وقتلت واسرت .

وفي جمادى الآخرة من هذه السنة اغارت العساكر التي بالفتوحات
الساحلية صجة الامير ناصر الدين القيمري ووصلت الى ابواب عكا . واغار الامير
الشجاع على بلاد الفرنج من جهة الخسيط .

وفي جمادى المذكور شرع النواب بالشام في بناء شقيف تيرون . اعلم
ان حكم شقيف تيرون حكم شقيف ارنون . لم يزل في يد من ملك دمشق الى ان سلمه
الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق للفرنج سنة ثمان وثلاثين وستمائة . ولم يزل
في ايد يهم الى ان ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب
حلب دمشق في سنة ثمان واربعين وستمائة كما سبق ذكره فسير عسكرا مقدمه الامير
سعد الدين بن نزار متولي صيدا . فنزل عليه وانتزعه من الفرنج ولم يزل في
يد نواب الملك الناصر صاحب دمشق وحلب الى ان استولوا التتار على البلاد في
سنة ثمان وخمسين وستمائة كما سبق ذكره . فقصد شهاب الدين بن بختيار
قبل التتار ونزل عليه وضايقه بالرجال . فسلمه الوالي اليه فأخربه ولم يزل خرابا
الى ان ملك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس . فاستمر خرابا الى ان امر الملك
الظاهر بعمارة فعمره نواب الشام في هذه السنة وحمل اليه زرد خاناه ودخاير
والله اعلم .

وفي جمادى الشهر المذكور انعم السلطان الملك الظاهر على العسكر الساحلي الذي صاحبه الامير ناصر الدين القيصرى بمايتي الف درهم وفرقت عليهم .

وفي جمادى الشهر المذكور بلغ الملك الادران جماعة من عسكر تسميراز ومقدمهم الامير سيف الدين بككت ومنهم اختيار الخوارزمي جمدار السلطان جلال الدين خوارزم شاه وصحبتهم مسام الدين حسن بن ملاح امير العسراو وجماعة من امراء خفاجه وصلوا لطلب (٤٤٤ق) (١) صدقات السلطان . فتقدم بالاحسان اليهم .

وفي مستهل شهر رجب الفرد من هذه السنة حذر الملك الظاهر بدار العدل وانهي اليه بأمر على باب مسجد السيد الحسين رضي الله عنه مسجدا والى جانبه مكان من حقوق التصور ونبع . وحمل ثمنه للديوان وهو ستة آلاف درهم .

فسأل السلطان عن صورة المسجد وهذا الموضع وهل كل منهما بمفرده او عليهما حائط داير فقبل بينهما زرب قصب فأمر يرد المبلغ الى صاحب (٢) . وابقى الجميع مسجدا وامرا بعمارة المسجد . قال رسول الله صلى عليه وسلم من بنى مسجدا لله ولو كفح فحس قطاة بنى الله له بيتا في الجنة .

وفي هذا اليوم وقف رحل من الاجناد ومعه صغير يقيم . فقال : انا وصي هذا الصغير وشكى من قايه تتعلق به . فقال السلطان لقاضي القضاة : اعلم ان الاجناد يموت واحد منهم فيستولي خندانتيه على موجوده ويجعل اليتيم وشاقيه ويموت اليتيم فيستولي الوصي على الموجود . او يكبر اليتيم ولا يجد شيئا ولا تقوم له حجة على موجود . والوصي قد يموت فينغمس مال اليتيم في ماله . وانا اري ان احدا من الاوصياء لا ينفرد بوصية وليكن نظر الشرع شاملا واموال اليتامى مضبوطة وامنا الحكم يحاققون على المصروف . ودلب نواب الامراء . العساكر وامرهم بذلك وامر باستمرار الحال عليه .

وفي ثالث شهر رجب الشهر المذكور وصل الى الابواب الشريفة الجماعة اهل

شيراز ومقدمهم بلك ورفقته وهم سيف الدين اعتبار (١) جمدار جلال الدين خوارزم شاه والامراء الاتابكيه غلمان اتابك سعدوهم جماعة كبيرهم سنقرجاه وغيره من الاتابكيه ووصل (٤٥ و) في صحبتهم حسام الدين بن ملاح امير العراق وجماعة من امراء خفاجه . فأحسن السلطان الملك الظاهر الى الجميع وتلقاهم بنفسه وامر الامير سيف الدين بلك واعطاه طبليخاناه وكذلك امراء مظهر الدين وساج بن سهري . واطلق للامير حسام الدين حسين بن ملاح قرية في الشام وجهزهم الى بلادهم .

وفي شعبان من هذه السنة امر السلطان الملك الظاهر بتكملة عمارة بيمبر الليون غربي الاسكندرية وحفر مبانيها وانشاء فيها بستانا ، لانها منزلة من منازل عند توجهه الى الحمامات للصيد . فشرع فيها . ووقع الاهتمام بذلك قال صاحبنا الامير صارم الدين ابراهيم بن دقماق . هي بئر قديمه من عهد الروم رأيتها غير مرة لما سافرت مع السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون . وهي من عجائب المباني في وسط بستان تقديره ستة افدنه اوسعة . ولها منافذ من خارج البستان والبستان بين جبال محيطه به . وتلك الارض كثيرة (٢) .

وفي شعبان الشهر المذكور عدا السلطان الملك الظاهر الى الجيزية متنزها في الاهرام وركب ورمى نشابه فعدا الاهرام . وطولها اربعماية ذراع بذراع العمل وطلع اليها جماعة من خارجها حتى ان فراشا لمير سيف الدين قشتمر العجمي طلع بخركاه ونصبها على علوها واقامت اياما والله اعلم .

(١) راجع ص ٨٨ اعلاه .

(٢) سطران غير مقروئين .

وفي شعبان الشهر المذكور وصلت الاخبار الى الملك الظاهر بأن الامير علم الدين
قبصر الطاهري والى سرمين سير اليه الامير نور الدين نايب السلطنة بحلب يأمر بمصلحة
من المصالح . فقال كلاما فيه استنقاص وعدم مهلاء به . فعز ذلك على الامير
نور الدين ثم رضي عنه . فسير السلطان يريد يا الى نائب حلب يأمر فيه باحضار
قاضي القضاة بحلب واحضار والي سرمين بحضور الامراء بحلب وتأديبه الادب الزاجر .
وكتب محضربا جرى واخذ خط الجميع فيه ورسم بأن يقال اذا فرغ عن تأديبه نواب
السلطنة لا يفتري عليهم ولا يتجرى . وفي هذا ادب ذاك القول . وقد عزلناك من
ولايتك زيادة في الادب . ويقال للامير نور الدين : انتم اصلحتم ونحن ما نصطلع .
فأعتمد ذلك كله . وهذه نكتة فيها حسن سياسة .

وفي هذه المدة امر الملك الظاهر الامراء والاجناد بعمل العدد الكائنة
(٤٥ق) لهم ولعمايلهم . فلم يبق لاحد اهتمام الا في تفصيل البركصطوانات وعمل
الجواشن وصقل الزرد وكفت الخود وعمل وجوه الخيل . واذا عبر الانسان في سوق
السلاح لا يقدر على العبور من كثرة الخيل التي للاجناد الواقفين به . وارتفع سعر
الحديد واجر الحدادين والجواشنية والصباقل . ولم يبق لاحد همة في شيء الا
تكملة عدته النافعه . وفي كل دار معلم للعب الرمح . وتعلم جمع كثير من الممالك
الظاهرية لعب النار على الخيل وما بقي لاحد رغبة الا في الاشتغال بعدة الحرب .
والناس على دين الملك . ولو حلف حالف ان احدا من العسكر ما انفق شيئا من فعل
الا في ذلك لصدق . وقد كان من تقدم من الجند ينفقون مالهم فيما لا يرضي الله
تعالى من الامور المحيطة للاعمال . وهذا الملك شغله هذا لا ينهي عنه بلذة
ولا طرب ولا ينقضي وقته الا في حسنة قد سطر الله له اجرها .

وفي شعبان الشهر المذكور وصل كتاب امير المدينة النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام يذكر انه ركب بنفسه وسار الى مكة شرفها الله تعالى صحبة الكسوة وعلقت والله اعلم .

وفي شهر رمضان من هذه السنة تجزت كسوة الضريح الشريف النبوي شرفه الله تعالى وبعد سفرها صحبة الطواشي جمال الدين محسن الصالحي وشرع في تجهيز الشموع والبخور والزيت والطيب .

وفي شهر رمضان الشهر المذكور وصل كتاب الامير ناصر الدين القيمري يذكر له انه بلغه ان الفرنج المخدولين توجهوا الى جهة يافا . وكان الملك الظاهر قد اطلع على حركتهم فأمره بالغارة على قيسارية وعتليت فساو الى باب (٤٦) وعتليت ونهب وقتل واسر . ثم ساق الى قيسارية واعتمد فيها هذا الاعتماد وبلغ الذين اجتمعوا في يافا من الفرنج ذلك فسقط في ايديهم وانعكست القضية وخافوا ورجعوا ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا .

وفي شهر رمضان الشهر المذكور جرى الملك الظاهر على عادته في اجراء الصدقات بمطابخ في القاهره ومصر برسم الفقراء . انصرف فيها كل ليلة جملة من الطعام والخبز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قطر صايما فله اجر صائم . وكذلك جرى على عادته الحسنة في عتق ثلاثين نسمة على عادة الملوك الماضين . هذا غير من اعتق من مماليكه الامراء وخواصه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اعتق نسمة مؤمنة كان له بكل عضو منها عتق عضو من النار .

وبلغ السلطان ان الفرنج اخذوا اخيذة من بلاد الاسلام . فانكر ذلك وارسل الى النواب بالشام بالاجتهاد في ردها . فوصل كتاب الامير ناصر الدين القيمري يذكر ان الفرنج ردوا الاخيزة وهي عالم كبير من اهل البلاد وجملة من المواشي . فسمع في تلك الساعة من اختلاف الاصوات بدعاء الرجال والنساء وبكاء الاطفال ما تكاد ترقله الحجارة . وكسان السبب في رد هذه الاخيزة ان الامير ناصر الدين المذكور سير الى الفرنج يتهددهم ويقول لهم : نحن هادناكم كما سألتكم المدة التي طلبتموها . وهذه الاخيزة كانت في مئة الهدنة . فبعث الفرنج وزير قيسارية ليتحدث في ذلك فقبر عليه الامير ناصر الدين وما زان حتى احضر جميع ذلك وبعد ذلك سيب (١) الوزير .

وفي هذا التاريخ وصلت كتب نواب البصرة يذكرون ان صارم الدين بكتاش الزاهدي ركب في جماعة وانار (٤٦ ق) على باب قلعة الروم واغار مرارا .

وفي شهر رمضان الشهر المذكور وصل رسول من الملك شارل (٢) اخي الملك فرنسيس وهو صاحب مرشلية ووصلت صحبته عدة من السناقر الشهب والامتعة . ومضمون كتابه المحبة والمشايعة . ووصل كتاب استاد داره بان مخدومه امره ان يكون امر السلطان نافذا في بلاده وان اكون نايب السلطنة كما انا نايبه .

وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان قرئ مكتوب بجامع مصر بابطال ما قرر على ولاية مصر من الرسوم وهي مائة الف درهم واربعة الاف درهم نقرة وشملت المسامحة بذلك .

(١) في الاصل " سير راجع ابن عبد الظاهر (ص ١٠٤)

(٢) في الاصل " شارك " .

وفي شهر رمضان الشهر المذكور احضرت فلوس من جهة قوص وجدت مدفونة

فأخذ منها فلس فاذا على الوجه الواحد صورة ملك واقف في يده اليمين ميزان وفي يده الشمال سيف . ومن الوجه الاخر رأس مصور بأذن كبيرة . . . وعين مفتوحة ويداير الفلوس ساور فقرأها راهب يوناني فكان تاريخه الى وقت قراءته الفين وثلاثماية سنة . وفيه مكتوب انا غليات الملك ميزان العدل والكرم في يميني لمن اطاع والسيف في يساري لمن عصى وفي الوجه الاخر انا غليات الملك اذني مفتوحة لسماع المظلوم وعيني مفتوحة .
وفي هذا الشهر بلغ السلطان ان يرسله الذين كانوا توجهوا الى الملك بركه

عوقبهم الملك الاشكري . فطلب السلطان نسيه الايمان واخرج منها يمين الملك كرميخائيل الاشكري وهي بالرومية . واحضرت البطارقة والاساقفة وتحدث معهم فيمن يخالف بكذا وكذا من دينه وانه يكون محروما من دينه . فأخذ خطوطهم بذلك وهم لا يعلمون ما يراد منهم ثم اخرج لهم نسخ ايمان الاشكري وقال : قد نكت بامساك (٤٧ و) رسلي ومال الى جهة هولاء وكان ماسنذكره .

حكى صاحب عز الدين ابن شداد مؤلف سيرة الملك الظاهر في سبب تأخر

رسل الملك الظاهر عن الاشكري مامعناه : لما وصل رسل الملك الظاهر الى القسطنطينية وجدوا الباسلوس كرمخايل صاحبها غائبا عنها في حرب كانت بينه وبين الفرنج . فلما بلغه وصولهم طلبهم اليه فساروا اليه مسيرة عشرين يوما في عمارة متصلة فاجتمعوا به في قلعة اكسابا فأقبل عليهم واظهر لهم المسرة واكرمهم ووعدهم ان يساعدهم على التوجه . ووجدوا عنده رسل من جهة هولاء فاعنذر عن تأخير توجههم لخوفه من هولاء ان يطلع على ما وصلوا بسببه . ثم امرهم بالرجوع الى قسطنطينية وان يقيموا بها حتى يعود ويجهزهم . وكان ذلك خديعه منه .

ولم يزل يعد لهم مدة سنة وثلاث شهور . فلما طالبت المدة عليهم ارسلوا اليه يقولوا :
ان لم يمكن الملك المساعدة على ان يوجهنا فليأذن لنا في الرجوع الى بلادنا . فأذن
للشريف في الرجوع بمفرده . واعتذر بمنعهم عن التوجه لكون ان يردده بميدة عن
البلاد المحاذرة لمملكة السلطان ركن الدين وتربيته من البلاد المحاذرة لمملكة هولاء .
وانه متى سمع اني مكنت رسل صاحب مصر من التوجه الى بركة تودع انتقام الصليح
بيني وبينه . فربما تسارع الى نهب ما جاوره من بلادى وما انا تريب منها حتى اذبح
عنها . فعاد السيد الشريف وتأخر فارس الدين اقور مدة سنتين فهلك اكثر ما كان
معه من حيوان ورقيق . وتنازع القصاد الى غيره .

"وفي اثناء هذه المدة قصد عساكر بركة القسطنطينية واغاروا على اراضيها
فهرب الباسلوس الى القسطنطينية (٤٧ ز) وبعد بالامير فارس الدين اقور الى مقدم
عسكر بركة يعلمه ان البلاد في عهد الملك الظاهر وصلاحه . وان بركة في صلح من
صلاحه وتهدد من عاصده فطلب منه ان يكتب له خطه بذلك فكتب . وكتب ايضا
انه مقيم باختباره وان لم يمنع من التوجه . فتوجه العسكر .

"ثم ان الباسلوس جهز الامير فارس الدين الى بركة وبعث معه رسولا من جهته
برسالة غمها ان يقرر على نفسه ما يحمله كل سنة وهو ثلاثماية ثوب اطلر على ان يكون
معاهدا ومصالحا له ومدافعا عن بلاده . فتوجه الامير فارس الدين الى بركة . فلما
اجتمع به ساله عن تأخره حتى هلك اكثر ما كان معه من الحيوانات . فاعتذر ان
صاحب القسطنطينية منعه من الحركة . فأخرج له خطه بما كتب به لمقدم عسكره .
قال له : انا ما اواخذك لاجل الملك الظاهر وهو اولي منك واخذك على كذبت وافساد
ما ارسله معك " ولما انكر الملك بركة الامير فارس الدين كتب عز الدين الى الملك
الظاهر يعرفه بما صدر من فارس الدين من التقصير وكونه رحل عسكر بركة عن القسطنطينية

بما اوهمه من كون البلاد في عهد الملك الظاهر . وكان قادرا ان يأخذ منه في مقابل ترحيله عنه قيمة ما افسد من الهدية لاضطراره الى ذلك . فلما رجع فارس الدين الى مصر واجتمع بالسلطان نقم عليه لفعله وقبض عليه واخذ منه ما كان وصل معه من البضائع . وكانت قيمتها اربعون الف دينار . وكان وصوله في جمادى الآخرة سنة خمس وستين وستماية .

والاظهر ما حكاه القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر وغيره ان اجتماع الرسل بالملك الاشكري كان في مدينة أنيه . وان السلطان الملك الظاهر لما بلغه في (٤٨ و) هذه السنة ان الاشكري عوف رسله وطلب نسخ الايمان واخرج منها يمين الاشكري واحضر البطارقة وسألهم واجابوه كما قدمنا شرحه طلب الراهب الفيلسوف اليوناني الذي قرأ الفلاس الذي قدمنا ذكره وطلب اسقفا وقسيسا . و جهزهم الى الاشكري وصحبهم هذه المكاتيب المقدم ذكرها . وكتب الى الاشكري وهو يغلظه في القول . ثم قال : ان كان سبب امساك رسلي فساد حالك مع الملك برکه وكون عساكره وافسدت في بلادك فانا اصلح الحال بينك وبينه . وكتب السلطان كتابا الى الملك برکه بذلك وسيره الى الامير فارس الدين اقوش المعهود المتوجه بالهدية الى الملك برکه وامره بالتوسط في الصلح وتوجهت الجماعة المذكورون بذلك فلوقة اطلق الجميع وساروا الى الملك برکه في هذه السنة وعادوا كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر سلطنة الملك السعيد بن الملك الظاهر

في شوال المبارك من هذه السنة سنة اثنين وستين وردت اخبار بأن جماعة من التتار مستأمنه . وجلال الدين الدويدار واصل وصحبته جماعة كبيرة من الاتراك والبغادده قاصدوا باب السلطان بالحرم . فأعلم الملك الظاهر الامراء الاكابر بذلك وقال : ما جمعت هذه الاموال الا لهم يحصل للمسلمين وهو لا التتار

مانحمل امرهم على الحزم • ووصول هؤلاء على كثرتهم من جهات فيه استرابة • ونحن نخرج فان كان هؤلاء طامعين كان لهم مالا ولي الطاعة • والا فتكون سيوفنا لاعاقسه عن تجريد دها • ومن احتاج منكم ومن العساكر المنصوره اعطيته • ومن عدم واسيته • وانا في نصرة الاسلام كأحدكم ولا اوفر نفسي في امر وانا ينوبني فرس • وجميع ما عندى من خيل وجمال كله لكم ولمن يجاهد في سبيل الله • فتقرر خروجه فأشار عليه حينئذ بعض الامراء (٤٨ ق) بسلطنته ولده الملك السعيد ليكون بالديار المصرية • مقيما في غيبه السلطان •

وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال الشهر المذكور اركب السلطان ولده الملك السعيد بشعار السلطنة وخر بنفسه في ركابه وحمل الفاشية راجلا بين يديه واخذها الامراء وعليهم الخلع الفاخرة • ولم يبق احد من اولياء الخدمة الا وغمته الخلع • ورجع السلطان الى مقر ملكه • ولم يزل الملوك والامراء والعالم في خدمته الى باب النصر • ودخلوا من القاهرة رجالة يحملون الفاشية وقد زينت احسن زينة واهتم الامراء بنصب القباب • وشق المدينة الملك السعيد ٠٠٠ (١) واتابكه الامير عز الدين ايدمر الحلي راكب الى جانبه • ولم يزل الثياب الاطلس والعقابي وغيرهما تفرش له الى حيث عاد الى قلعته ولم يبق امير الا بسط من جهته ثياب • فحمل من ذلك احمال تفرقها الممالك السلطانية وارباب المنافع وانبسطت الايدي والالسنه له بالدعاء يسألون الله اعزازه واتمام هلاله وبقا بدره • وان يجمعه للاسلام (٢) الشمل وتتم نعمته عليه كما اتمها على ابويه من قبل •

(١) كلمة " المدينة " مكرره هنا في الاصل

(٢) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١٠٦) لكنها " للانسان " في الاصل •

وكتب القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر تقليد

الملك السعيد بتفويض عهد السلطنة له .

وفي يوم الاثنين سابع عشر الشهر المذكور اجتمع الامراء وقاضي القاه

والعلماء وقرئ التقليد وهو (١) : الحمد لله منور الذرور ومهيج النفوس
ومزين سماء المملكة بأحسن الالهة . والابواب البذور واسود السموس . الذين سدد
ازرار الاسلام بملوت يتماقبون منال الانام ويتناوبون تدبيرهم كتناوب البينين واليدين
في مهمات الاجساد واهل الاحسام . محمد عليه نعمة التي ايقنت حق السكر
المتغافي واوردت منهل الفيل النافي . وحولت الآلاء حتى تمسكت الامان من
بالوعد الوافي (٢) . واحذ بالوزن انوافي ونهيد (٣) وان لا الله الا الله
وحده لا شريك له . شهادة عبد كثر الله عدده وعدده واحمد اسمه ويومسه .
ويحمد ان شاء الله غده وتعالى علو سيدنا محمد الذي لا اله الا الله به نجوم
الهدى والبر المسكين به اردية الردى واوضح به مناهج الدبر وكان ذرائع
قددا على الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تنقضي ابدا ويعد غانسا لما
الهمنا الله من مصالح الامم وخواناه من المور على مهمات الساد التي قطاع
به شأنه الكفر وحسم (٤) ، واتر بنار السوء قد علم كل احد استمار ناره
فكان علما بنار مخرمه لا نارا على علم . وقدره من دفع الكفر من جميع الجوانب ومنعهم من
كل جهة حتى رميناهم بالحيف الواصل والمذاب الواصب . فأصبح السوء من
الابادة في سر الاسلام لا يات من قد ولا يحس من درك وثقور الاسم عالياه
المبثني ناميه المقتنى حانية ثمار الادغار من هنا ومن هنا تراحم بروجهم

(١) ابن عبد الظاهر (١٠٦ - ١٠٩) والتلقب سند ، ج ١٠ ص ١٦٣ - ١٦٦

(٢) ابن عبد الظاهر " الوفي " (ص ١٠٦)

(٣) " وختم " في ملاحق نشرها علو ابراهيم حسر في " تاريخ المعالي البدوية " ص ٣٧٢

في السماء البروج • وتشاهد الاعداء منها سما قد بنيت وزينت ومالها من فروع •
وعساكر املة المحمدية في كل ركن من اركان اعمال تدور • وفي كل واحد منهم
حرب يستمر بها غصروا وكنا تفعل ما تدور • قد دوجت البلاد خلت الاعداء تارة
بالامام وتارة بالاولاد • و... من... فرائهم يقطر بالسر ونما بالادام نور انما
... اذا الامر القذائف المستحجب وحسر ليدت بوجهه في كفا عليه عكوف
المستحيد ولبيناه تلبيه المستحجب • وما نفا فيه جميع الاولاد والحواش وتسمم
بمبارته ومؤامره سائر الزمن حتى اذا اكثر ترددنا في الشف من الاعمار • واستفنا
الاعمار في امداء الامور والدرع محكم الدلائل (١) التي كانت بارها
بور او... (٢) وتريد العرفان التي تدحرج بها الاحسان
وحرب فكامياه وا... (٣) وتفويج المسام التي عند قسيمها من الامانة
لنا ثاب واعذان السميرة التي من الاعداء ستمها ندما كما فرمت هي السر السر
غير ذلك من كل غارة سموا تسي للكفار الضلال وتخدم كل حال وتسير كالرياح •
ومنازلات كم استلبه من موجود وكما استنجزت من ندم وموعود • وكما مدينة احسن
لها مدينة ولكن الله الى اجس مدود • وكانت سحرتنا المدركة قد امتد
منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو • وتوسمنا منه حسن احنا المرصو •
ورأينا انه الذي اخذ في ترقى منازل السمود الى الابدان • وانسه سرنسا
الذي سادف مكان الاختيار له حسن الاختيار • اردنا ان ندينه في منجب احلنا
الله فسيب غرضه ونسرفه بما حولنا الله من طرفه • وان تكون يدنا ويده يفت فان

(١) في ابن الظاهر (ص ١٠٧) "وادرع محكم"

(٢) "فكالغدران" في ابن عبد الظاهر (ص ١٠٧)

(٣) "سرفه" في ابن عبد الباقى (ص ١٠٨) وكذا في مدحو علي ابراهيم حسن (ص ٢٧٢)

من ثمره وجيدنا وجيده يتحلين بجوهسه • وانا نكون للدانة السمع والبصر
وللمملكة المعظمة في التناوب بالاخاءة التهور والقمر • وان تصول الامة منا ومنه بدين •
وبطاشون من امرنا وامره بدين وان نريه على حسن سياسة تحمد الامة ان شاء الله
عاقبتهم عند الكبر وتكون الاحلاق الملوكية منتسبة معه ومنتسبه به من الصغر • ونجعل
سعي الامة يتمنى مثله حميدا ونهب لهم منه سلطانا نصيرا وملكاً سعيدا • وقد سوره
عضد الدين ويريريه (١) جناح المملكة وتنجع مدالب الامة باياله • وكيف لا ينجع
مدالب يكون فيه بركه • وحق امرنا لا يرح مستعدا ومسعفا ولا عدمت الامة منه خلفا
منبلا ونوعا (٢) محلفا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركه
خاقان محمد جعل الله مدالعه سعده بالاشراف محفوف • وارن الامة من ميامنه
ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصرفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد
وبعدا (٥٠ و) وغورها وشددا وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها
وولاياتها واقطارها (٣) ومدنها وامصارها وسبلها وجبلها ومعادنها ومعتمليها وما تحوى
اقداره الاقلام (٤) وما ينسب للدولة الناهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل
وشام بعد شام • وما يتداخل ذلك من قفار ومن بيد في سائر هذه الجهات •
وما يتخللها من نيل وملح وعذب وفرات ومن يسكنها من حقير وجليل • ومن يحتلها
من صاحب رغا وثغا وصليل وصهيل • وجعلنا يده في ذلك كله المبسوطه (٥)
وطاعته المشروطة ونواميه المضبوطة • ولا تدبير ملئ كلي الابنا وولدنا يعمل،

(١) ليست في ابن عبد الظاهر (١٠٨)

(٢) كذا في ابن عبد الظاهر (١٠٨) وليست واضحة في الاصل •

(٣) "في اقطارها" في الملاحق ص ٢٧٢

(٤) كذا "اقداره من الاقلام" في ابن عبد الظاهر (ص ١٠٨)، وفي القلقشندي، ج ١٠ ص ١٦٥
"من الاحلام"

(٥) مبسوطة ابن عبد الظاهر (ص ١٠٩)

ولا سيف ولا رزق الا بأمرنا . هذا يسأل ، وهذا يسأل . ولا دست سلطته الا بأحدنا
يتوضح (١) الاشراف ولا غصن قلم في روض امر ونهي الا ولدنا اولديه تعتمد له الاوراق
ولا منبر خطيب الا باسمينا يمين ، ولا وجه درهم ولا دينار الا بنا يشرق . ويكاد تبرجا
لا يبرجا يتطلع من خلال الكيس . فليتنقلد الولد ما قلدها من امور العباد وليشركنا
فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد وستعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ
معه نوأما ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك الهاما لاتعلما . وفي الولد بحمد
الله نقاء . الذهن وصحة التصور ماتشكل فيه الوصايا احسن التشكيل . وتظهر صورة
الابانه في صفائه الصقيل . فلذلك استغنيا عن شرحها هاهنا مسرودة . وفيه بحمد
الله من حسن الخليفة ما يحقوا انها بشرف الالهام موجودة والله لا يعدمنا منه اشفاقا
وبرا ويجعله ابدا للامة سندا وذخرا .

ثم وردت الاخبار بفتور عزائم العدو . وان سبب حركه جلال الدين ولد
الدوادران هلاون بلغه (٥٠ ق) ان بلاد العراق فيها جماعة من الاجناد والاتراك
قد استخفوا وتزوا بزى الفقرا والفقهاء وانقطعوا بالمدارس والربط وانهم في كل سنة
يتسللون الجماعة بعد الجماعة الى الديار المصرية . فأراد التحيل عليهم بحيلة
يجمعهم بها وتحقق ان المذكورين لا يركنون الى التتار فسير الى جلال الدين المذكور
يفهمه طلب نجده ويحسن له طلب جماعه من الاتراك والجند والانفاق فيهم واستخدامهم
نجده على بركه . فسارع جلال الدين الى ذلك وبذل الاموال واستخدم . فأجتمعت
له جماعة كبيرة . وفهم في اثنا هذه الحال القصد في هذا الامر انه هلاك
لجميعهم . فتجهز وخرج معرجا الى خدمة السلطان الملك الظاهر وتواصلت الاخبار
بذلك فابتهج السلطان بذلك . وقرر عزم الحركة وشرع السلطان في ختان ولده الملك
السعيد وامر الناس بالتأهب للعرض والاسلحة والجواشن وآلة الحروب خاصة . واما ولد

الدوادار فانه خرج واجتمع هو والعريان بنواخفاجه غلمان السلطان ووصلت جماعة من جهته فكتب السلطان باطابة قلبه وكتب الى سائر امراء خفاجه وعربه (١) وغيرهم بخدمتهم واغاثتهم . وامر امراء البغادده بالكتابة اليهم بما هم فيه من نعمة .

وفي اواخر شهر رمضان من هذه السنة ظهر كوكب بالشرق ذو ذؤابة بالافق نحو المغرب وصار يطلع في كل يوم قبيل الفجر خلف النجم المعروف بكوكب الصبح . ثم صار يتقدم في كل يوم قليل الى ان صار يبدو مرتفعا عن كوكب الصبح ويبقى ضوء ذنبه ظاهرا ولم يتغير موضعه من منزله وكان بعده منها الى جهة (٥١ و) المشرق نحو رمح طويل ويبقى ظاهرا ثم يرتفع بارتفاعها ويسير بسيرها . وبقي الى اوائل ذي القعدة من هذه السنة الى ان تغلب عليه ضوء النهار . وكان يظهر له قبل بروزه شعاع عظيم في جو السماء . وظهر ايضا من قبل المغرب بشمال بعد العشاء الاخره في ليال عدة من اواخر شهر رمضان واوائل شوال خطوط مضيه كهية الاصابع مرتفعة في جو السماء . واحمرت الشمس في اواخر الرابع من شوال من هذه السنة قبيل المغيب وذهب ضوء الشمس بحيث توهم كثير من الناس انها كسفت وغربت وهي كذلك . ولمسا كان بعد العشاء الاخره اصاب القمر مثل ذلك ليلة الخامس من شوال من هذه السنة .

وفي هذه السنة احضر الى الملك الظاهر طفل ميت من المقس بالقاهرة له راسان واربعه اعين واربعه ارجل واربعه ايدي ذكر انه وجد بمساحل المقسم .

(١) " غزوة " في ابن عبد الظاهر (ص ١١٠) والقلقسندی ج ٤ ص ٢١٥ وهي هنا مشكولة .

ذكر قتل الملك المغيث صاحب الكرك

قد قدمنا من اخبار الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل الايوبي وكيف ملك الكرك وكيف اخذت منه وكيف قبض عليه وارسل الى قلعة الجبل بظاهر القاهرة المحروسة وحسبها فأغنى عن الاعادة هاهنا . حكى الشيخ قطب الدين اليوناني (١) في تاريخه ان الامير عز الدين استدعى من يقتل الملك المغيث ممن يثق به واءطاه . البدينار . وكان استاد داره . وكان رجلا دينيا وفيه تقوى فأبى ان يفعل فأكد عليه . فقال له والله لو اعطيني ملء هذه الدار دنانير ما فعلت هذا ولو ضربت رقبتني . فانتهزه وحاوله بكل طريق فلم يجب . فأعرض عنه وطلب اخر من اصحابه فيه شره وعنده شهامة واقدام . فأمره بذلك فبادر اليه . ودخل على المغيث وقتله خنقا . واخذ الالف دينار وشرع يشرب في دار له على بركة الفيل واخرج من الذهب فسأله ندماؤه (٥١ و) في حال سكره : من اين لك هذا المال ؟ فذكر الواقعة . فشاع ذلك واتصل الخبر بالملك الظاهر . وكان حريصا على كتمه ويظهر الامر ان الملك المغيث حي يرزق وانه موسع عليه في النفقة . فأنكر على الامير عز الدين الحلبي وطلب الشخص القاتل منه فأحضره اليه . فأمر باستعادة الالف دينار منه وقتله .

وكان قتل الملك المغيث في اوائل هذه السنة . وقييل في او اخر سنة احدى وستين .

ذكر رجوع رسل الملك الظاهر وصحبتهم رسل الملك بركه .

كنا قدمنا ان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ارسل رسل الى الملك بركه بسبب استمالته الى قيد الاسلام واغرائه بهولاكوالايقاع به . ولما

وصل الرسل الى بلد الاشكرى مرض الفقيه مجد الدين فرجع صحبه رسد الملك بركة
الواصلين الى الابواب الشريفة وهم جلال الدين ابن القاضي والشيخ علي المدمشقي
وتوجه الامير سيف الدين (١) من المغل . قال القاضي
محي الدين ابن عبد الظاهر في كتابه "الفضل الباهر من اخبار الملك
الظاهر" : كان اجتماع الرسل بالاشكرى في آنيه . ثم رحلوا الى قسطنطينية
في عشرين يوما ومنها الى اصطنبول ومنها الى دفتسا وهي ساحل السودان من
جهة الاشكرى ثم ركبوا في البحر الى البر الاخر ومسيرته مابين العشرة ايام الى
اليومين هريج طيه ثم طلعا الى جبل يعرف بسوداق . فالتقاهم الوالي بتلك
الجهة واسمه طابوق فركبهم على خيل البريد الى القرم يسكنها عدة اجناس من
القفجاق والروس . ومن الساحل الى هذه القرية مسيرة يوم واحد . ثم ساروا
من القرم الى بره يوما واحدا فوجدوا بها مقدما اسمه طوبغا على عشرة الاف
فارس حاكما على تلك الجهات ثم ساروا عشرين يوما في صحرا عامرة بالخركاوات والاغنام
الى بحرايتل وهو بحر حلو سعتة سعة بحر النيل وفيه مراكب الروس . ومنزلة (٥٢ و)
الملك بركة الساحل منه . وحملت اليهم الاقامات والاغنام طول هذه الطرقات .
ولما قاربوا الارد التقاهم الوزير شرف الدين القزويني وهو يتحدث بالعربية والتركية
فأنزلهم في منزلة حسنة وحمل اليهم الضيافة من اللحم والسمك واللبن وغير ذلك .
" ثم حضروا عند الملك بركة والوزير شرف الدين في خدمتهم فخدموه على العادة .
وكانوا قد فهموا آدابه التي تعتمد معه وهي الدخول من جهة اليسار . فإذا اخذت
الكتب منهم ينتقلون الى جهة اليمين ويكون القعود على الركبتين . ولا يدخل احد
معه الى خراكة الملك سيف ولا سكين ولا عدة ولا دبوس . ولا يدوس برجله عتبة

الخرقاء ولا يقطع الانسان عدته الا على الجانب اليسار ولا يترك القوس في القربان
ولا يخليه موتورا ولا يحط في قربانه نشابا ولا يأكل الثلج ولا يغسل ثوبه الا في الارد .
" فلما دخلوا اليه وجدوه في خروكة كبيرة تسع مائة رجل . وقيل تسع قدر
خمسماية نفر مكسوة لبادا ابيض . ومستره من داخلها بصناعات وخطاي وجواهر ولولو
وهو جالس على تخت مرخي الرجلين وعلى الكرسي مخدة . فانه كان به وجع النقرس .
والى جانبه الخاتون الكبرى واسمها طغطفاي خاتون . وله امرأتان غيرهما وهما ججك
خاتون وكهار خاتون . وليس له ولد . وصفته خفيف اللحية كبير الوجه في لونه
اصفرار يلف شعره عند اذنيه وفي اذنه حلقه وسها جوهرة ثمينة وعليه قماء خطائي .
وعلى رأسه سراقج وفي وسطه حياصه من ذهب مجوهرة معلق بها صولق بلغاري
اخضر . وفي رجله خف كيمخت احمر . وليس في وسطه سيف . وحياصته قرون
سود معوجه مقعده بذهب وعنده خمسون اميرا او ستون على كرساي في الخركاء .
ولما دخلوا اليه وادوا الرسالة اعجبه ذلك واخذ منهم الكتاب وامر
وزيره بقراءة الكتاب ثم نقلهم عن يساره الى يمينه واسندهم الى جانب الخركاء خلف
الامراء الذين (٥٢ ق) بين يديه . واحضر لهم القمز . وبعده العسل المطبوخ .
ثم احضر لهم لحما وسمكا فلما اكلوا امر ان ينزلوا عند زوجته ججك خاتون . فلما
اصبحوا اضافتهم الخاتون في خروكاتها ثم انصرفوا آخر ذلك النهار الى المكان الذي
لهم وصار يطلبهم في اكثر اوقاته وسألهم . فسأل عن الفيل والزرافة ومصر .
وسألهم عن النيل وقال : سمعت ان عظما لابن آدم معتدا على النيل يعمرون
الناس عليه . فقالوا مارأينا هذا . "

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر

ما صيفته : نقلت من خط ابي زكريا بن اياس بن القاسم صاحب " تاريخ الموصل " قال : قال عبيد الله بن اسحق : بلغنا انه لم ينج من الغرق الا من كان في السفينة ورجل يقال له عوجا بن عنق زعموا ان الماء كان الى نصف ساقه . ثم اهلكه الله تعالى بعد ذلك فيما يزعمون في زمن موسى عليه السلام . ولم يكن له ولد . وقال محمد بن اسحاق انه كان يضرب بيده فيأخذ بها الحوت من البحر فيشويه في حر الشمس حتى ينضجه ثم يأكله . وكان عمره فيما يذكر ثلاثة الاف سنة وستماية سنة . وكانت امه من بنات آدم عليه السلام . فعاش حتى قتله موسى عليه وعلى نبينا محمد رسول الله افضل السلام .

وذكر في سلامته من الغرق^{ما} ذكره الطلحي . وكان ارتفاع الماء فيما يروى عن وهب بن سليمان عن شعيب الجناي قال : سبوا ما الارض ما السماء بأربعين يوما وعلا الماء فوق اطول جبل في الارض مسيرة خمسة اشهر صعدا وقيل ان الماء علا فوق كل شيء خمسة عشر ذراعا . وقد ذكر ان موسى عليه السلام كان طوله سبعة اذرع بذراعه . وقفز عن الارض سبعة اذرع فوصل الى كعبه وما صح ذلك . والدليل على ان اطوال (١) الناس مناسبة منذ قيام الدنيا والى هذا الوقت ان النواويس وهو القبر الموجود الان بالاهرام ولا خلاف انه قبر بانيها . وهو على طول الانسان . وكذلك بقيه النواويس الموجودة في مصر القديمة وغيرها . والاهرام بنيت فيما ورد قبل طوفان نوح (٥٣٠) عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلاة والسلام لان بانيها رأى في علمه ان آفة من الماء تهلك العالم . فبناها وقاية له والصحيح انها قبور .

(١) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١١٦) لكنها " اطول " في الاصل .

انتهى ما ذكره • وقد قدمنا في اول كتابنا هذا ما قاله العلماء في الاهرام وما قالوه في عوج بن عنق من الاختلاف والله اعلم بصحة ذلك على ما اتى •

تتمة خبر رسل الملك الظاهر وما اتفق لهم : وفسر قاضي القضاة الذى عند الملك بركة الكتاب وبعث (١) به نسخة الى القان • وقرأ كتاب السلطان بالتركي على من عنده وفرحوا به • واعادوا الرسل بجوابه وسير معهم رسله • فان لكل امير عنده مؤذن وامام • ولكل خاتون مؤذن وامام والصغار يتلقنون القرآن العزيز في المكاتب • وعادوا من جهة الاشكرى ووصلوا الى الابواب الشريفة وحضروا عرض العساكر المنصورة لابسة كما سنذكره ان شاء الله تعالى وذلك في عاشر ذى القعدة من هذه السنة • وما زال الرسل يحضرون الى خدمة السلطان ومشاهدون لعب الكرة وحضروا الطهور وانزلوا باللوق •

وقال صاحبنا صارم الدين ابراهيم بن دقماق : اقام رسل الملك الظاهر عند الملك بركة مدة ستة وعشرون يوما • واعطاهم من الذهب الذى يتعاملون به في بلاد الاشكرى • واخلفت عليهم زوجته ججك خاتون • واعطاهم الاجوبة • وارسل معهم الرسل • ورجعوا فأقاموا في بلاد الاشكرى الى سنة خمس وستين والله اعلم
١) ذلك كان • قال : وحكى صاحب عز الدين ابن شداد : ان الرسل دخلوا القسطنطينية ووجدوا الباسلوس كرمخايل صاحبها غائبا عنها في حرب كانت بينه وبين الفرنج • فلما بلغه وصولهم طلبهم اليه فسااروا اليه مسيرة عشرين يوما في عمارة متقدمة فاجتمعوا به ••••• (٢) •

ذكر عرض الملك الظاهر عساكر الديار المصرية

(١) الاصح " منه "

(٢) سطران غير مقروئين •

كنيا قد منا ذكر اهتمام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي بأمر

العدد الحربية والاستكثار منها والزام الامراء والمفادرة والجند بتكملة العدة . وهي
عدة الحرب وعدة النجارة وعدة الحجارة . وارسل بذلك الى جميع البلاد الشامية
والحلبية والى الملك المنصور صاحب حماه فاهتموا بذلك همه عظيمه ولم يبق لهم
شغل الا تحصيل العدد والاستكثار منها ومن الجواشن الليمخت المصفحة بالذهب
والفضة وبركصطوانات الخيل جواشن والخوذ الفرنجية فرأى عرض العساكر جميعها في
يوم واحد وتقدم قبل ذلك الى كل امير ان يعرض اصحابه ومضافيه .

وفي العشر الاول من ذى القعدة من هذه السنة جلس (٥٣ ق) السلطان

الملك الظاهر على الصفة التي بجانب دار العدل عند طلوع الشمس والعالم قد شرعوا
في اللبس من الليل . وامتلاء الدنيا عساكرا فلا تقع العين الا على خوذ لامعه وانوار
ساطعه وخيول تصهل وجنود تقبل واطلاب سايقه وعساكر متلاحقه . وساق كل امير
في طلبه لابسا لامة حربه وجروا من الجنايب خيولا كأنها الرياح في المطاردة والجبال
في المشاهده عليها من عدد الحروب ما تطمئن به من الممتطين لصولتها القلوب
وامر السلطان ان لا يلبس احد في هذا اليوم الا ما هو من شعار الحروب وان تكون
التشاهير والمراوات لوقت آخر .

وكان السلطان قد عفى عن سر حررد قسطلان يافا واطلقه فركب وشاهد

ما بهر عقله . وقال : رأيت عسكر الفرنج وعساكر هلاون وما رأيت مثل هذه العساكر
العظيمة . ولم يزل السلطان جالسا والعساكر سايقين لابسين ود يوان الجيوش
بين يدي السلطان يجيئون عما يسألون . مع ان السلطان لا يكاد يخفى عليه شيء
من عساكره بالاسماء والصفات . وعبرت العساكر خمسة خمسة . وطال الامر فعبروا
عشرة عشرة وكاد الناس يهلكون من الزحام وحمو الحديد . شمر :

ومضان يبرق او شعاع شمس

حي الحديد عليهم فكانه

فعبه الناس بلا حساب وطال الامر وقرب وقت المغرب والعالم لا يزدادون الا كثرة . وهلك
ذلك اليوم من الزحام جماعة منهم عز الدين ايبك مملوك الامير عز الدين الحلبي . وكان
قصد السلطان بركوب الناس في يوم واحد حتى لا يقال ان احدا استعار من احد شيئا .
وبقي كل احد يدخل من باب القرافه ويخرج من جهة الجبل الى باب النصر الى
الدھليز المضروب (٥٤٠ و) هناك . ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان بقباء
ابيض لا غير وساق في وسط العساكر اللابسه العدد في جماعة يسيره من سلاح درايتہ
وخواصه . ونزل الى الدھليز ورتب المنازل ورجع الى قلعتہ وقت المغرب ومهابتہ اعظم
في القلوب من وقع السلاح . وعظمتہ تخطف الابصار ولا يقدر احد على تلحظه ولا
التماح . ثم ان الناس اهتموا باللعب ولبسوا خيولهم التشاهير والبراشم البحرية
والمراوات والاهله والذهب والفضه والاطلس والخطاي وغير ذلك شيئا عظيما . ونزل
السلطان وجنايہ تجر بين يديه تبهر العيون بحسنها وحسن ما عليها من الالهة
والمراوات والبنود . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك
الظاهر قال لي القاضي فتح الدين ابن سناء الملك قبل هذا الوقت بمدة سنة ان الذي
دخل في المراوات من البنود الاطلس والاصفر قيمته عشرة الاف دينار وما تجدد بعد
ذلك لا يحصى . وساق السلطان الى ميدان العيد وقدامه جنايہ التي ماسمع
ان ملكا جمع مثلها ولا غالا في اثمانها كمغالاته . ولقد سیر طلب فرسا من هذه الخيول
من صاحب المدينة المشرفة النبوية على ساكنها سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل
الصلوة والسلام . فحضر ولد صاحب المدينة وصحبته عدة خيول من جملتها هذه
الفرس . وذكر انه سیر الى نجد ودخل على اصحابه دخول الزمام وبدل لهم جملة
من ابل وجواري وقماش حتى اخذه فأعطاه السلطان الف دينار مضافا الى الخلع
والافتقاد . واعطى ولده جملة كبيرة واكثر تحصيل هذه الخيول على هذه العفنة

وكانت كما قيل :

وخيل عليها الدارعون كأنها	رياح سرت (يحملن) (١) في السحب امواها
الفن القنا حتى لو ان تعالها	تميز عن آذانها ما عرفناها
يصرفها ماضي العزيمة جاعل	بمصر على اسم الله واليمن مرساه
ملك لو ان الارز في ظل عفوه	وستر سجايه الكرام لغطاها

وشرط السلطان لكل امير يحيب القبق فرسا من هذه الخيل بما عليه من التماهير
 وخلعة لكل مفردى او مملوك او حندى تلبس بمثله • وسار (٥٩) السلطان والامراء
 على طبقتهم ثم المفادرة والبحرية والنادرية والحلقة والاحناد • ودخل الناس بالرماح
 بكرة النهار ونزل السلطان وقت الصلوة للصلاة واطعم الطعام • ثم ركب السلطان ولبسوا
 وركب السلطان وشفع ذلك يومى النشاب والعطا والخلع •

وحضر رسل الملك بركه في هذا الوقت فشهدوا من كثرة العساكر وحسن
 زيهم وادتمام السلطان وحسن الرجال والخيول المسومة ما بهرهم واستمر وقوف السلطان
 وهم الى جانبه يشاهدون خلفه حركات هذه الجنود واصابه رميها • واقاموا كذلك
 اياما على هذه الصفة •

وفي تاسع من القعدة الشهر المذكور خلع السلطان على من خلع عليه من
 الملوك والامراء والبحرية والحدايق والحلقة وارباب المناصب والعمام والوزراء والقضاة
 وارباب البيوت • اعطاهم ذلك مرة ثانية • وحضر الناس لابسين الخلع ولعبوا بقيقه
 ذلك النهار • فقالت رسل بركه للسلطان : هذه عساكر مصر والنام • فقال : بسل
 عساكر المدينة خاصة غير الذين في الدخور مثل اسكندرية ودمياط ورشيد وقوس
 والمجردين والذين في اطاعهم • فعجبوا من ذلك • وذكر الرسول انه ما رأى خيلا

(١) كذا في ابن عبد الظاهر ص ١١٢ وهي في الاصل ساقطه •

ولا عدة في عسكر السلطان جلال الدين ولا غيرهم مثل هذا الموكب .

وفي عاشر ذي القعدة الشهر المذكور عمل السلطان السباط في القلعة المحروسة .

وحضر الملك السعيد بن الملك الظاهر . وحضر في خدمته اولاد الملوك واولاد الامراء
فظهر الملك السعيد . ثم ظهر ابن الامير عز الدين الحلبي اتابكه وابن الامير شمس
الدين سنقر الرومي وولد سيف الدين سكر وولد حسام الدين ابن بركة خان وولد الملك
المجاهدين صاحب الموصل ثم اولاد الملك المغيث صاحب الكرك الثلاثة وولد فخر الدين
الحمصي وجماعة من اولاد الامراء .

وكان قبل (٥٥٥ هـ) ذلك رسم السلطان بكسوة جماعة من الايتام وابناء الفقراء
بمصر والقاهرة فأحضروا الى القلعة وطهروا في هذا اليوم . وكان السلطان رسم ان
يختن مع ولده اولاد الملوك والامراء والمقدمين والاجناد والقضاة والفقهاء والعوام
والفقراء . ونادى بذلك مدينتي مصر والقاهرة . واحضر الناس اولادهم فبلغ عدد
الصفار الف وستماية وخمسة واربعين من اولاد الفقهاء والعامة خارجا عن اولاد الملوك
والامراء والمقدمين والجند فأمر لكل منهم بكسوة على قدره ومائة درهم ورأس غنم . وحمل
السلطان عن الامراء والخواص كلفه التقادم وسد هذا الباب شرف نفس منه وعدولا عما
كان يفعله غيره من الملوك في مثل هذا المهم العظيم من تكليف الناس . ما احسن
قول القائل .

ملك تفرد انه يهب البلاد مع الممالك
ويجود بالمدن العظام والحصون وما هنالك
حاشاء يسلك من قبول هدية تلك المسالك
او انه مع جوده وعطائه يرضى بذلك

ذكر توجه الملك الظاهر الى الصيد ومسيره الى ثغر الاسكندرية

ورجوعه الى قلعه سالما

لما فرغ السلطان الملك الظاهر من هذا المهم العظيم كما قد منا شرحه خرج

من قلعته متصيذا فعدى الى بر الجزيرة في ذى القعدة من هذه السنة . وسار
الى الطرانة الى وادى هبيب (١) ونزل بالدره التي هناك . ووصل بتروجه واخذ
منها الى جهة الحمامات وسار الى منزله الكبرشوقيل الكرش بالرا قرب العقبة الصغرى
التي غربي الحمامات . وركب من الكبرش الظهر وضرب حلقه في اليوم الثاني ووصلت
الميسرة الى فوق العقبة الصغرى . وعيد عيد الاضحى ونحر الاضاحي وصلى صلاة
العيد .

ويلفه ان بعض العربان قد عصوا في بعض البرارى فجرد اليهم جماعة وحضر جماعة
من عرب هواره وعرب سليم فكتب عليهم الحج بعمارة البلاد وان لا يقرؤا احدا من
العربان العصاة . وعاد السلطان الى الاسكندرية وجلي في الجامع الغربي . وعم
جميع الامراء والمفاردة وخواصه بما فرقه عليهم من الاموال والاقمشه عمل الدار الطراز
والاشكر لاط ولعب الكرة (٥٥ق) بميدان الاسكندرية وزار الشيخ الشاطبي . وسار
متوجها الى القاهرة المحروسة . ولما نزل بتروجه عند رجوعه رسم بتقديم سيف
الدين عطا الله بن عزاز على عرب برقه وتحدث معه في امر العربان وكونهم ينتفعون
من مصر باثمان الخيول المجلوبة والاغنام وغيرها . وانهم يستنتجون الاغنام ويزرعون
الزرايع ولا يقومون بحق الله تعالى من الزكاة والعشر . وابوبكر الصديق رضي الله
عنه يقول : ولو منعوني عقالا كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله وسلم لقابلتهم
على منعه . وقد قال الله تعالى : واقبوا الصلاة واتوا الزكاة (٢) فالتزم الامير
عطا الله بهذا الامر وانعم السلطان عليه سنjq ونقارات فتوجه ملتزما حفظ
البلاد واستخراج الزكاة من العربان والله اعلم .

(١) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١١٦) وفي الاصل بدون نقط .

(٢) سورة النساء ٤ آية ٧٦ .

ولما وصل السلطان الاسكندرية الى قلعته سالما وصل الى الابواب الشريفة
شحنه تكريت ومعه جماعة • فأحسن السلطان اليهم وعمل فيهم كما قال الله تعالى :
اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (١) •

وفي هذه السنة وصل للسلطان الملك الظاهر عشرة عقبان فأطلقها •
فعمل في ذلك الامير جمال الدين ابن الامام الحاجب :

جاءت ملوك الطير في يد أسر قهرا الى ملك الانام الظاهر
اضحى سليمان الزمان فملكه يسمويه لقياصر واكابر
ملك الزمان ستاتينك مثلهم (٢) في اسر خادمت الزمان الجائر

ذكر توجه عسكر جهزه السلطان الى خير لاصلاح من بها •

ابت همة السلطان الملك الظاهر الا افتتاح البلاد القريبة والبعيدة واحتمال
المشاق (٥٦ و) في المهمات العتيدة • ورأى ان بلاد الحجاز طريق البلاد اليمنية
وظهر البلاد الكركية والشوكية • ونظر الى جهة خير فوصلته كتب اصحابها
عبيد الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه يذلون الطاعة والخدمة ويستجدون
اسباب النعمة • فسير نجابين استصبح الاخبار • وانتدب الامير امين الدين
موسى بن التركماني • وجهز الرماة والمقاتلة وانفق فيهم الاموال وجهز الخلع
للمقدمين والمشايخ وكتب الى نايب الكرك بتجهيز امراء العربان وجماعة من البحرية
المجردين بالكرك صحبتهم وجهز الغلال والذخاير لهذه القلعة فتوجه الامير
امين الدين وافتتحها •

(١) سورة قريش ١٠٦ آية ٤

(٢) كذا في ابن عبد الظاهر (ص ١١٧) وغير واضحة في الاصل •

وفي هذه السنة ظهر قتلى في الخليج وفقد جماعة من الناصراتهم بهم
معارفهم والتبر الامر فيهم . ودام هذا الحال مدة شهر حتى ظهر ان امرأة حسنة
تسمى غازية كانت تخر في زينة فاخرة . وتطمع من يراها من الاحداث ومعها امرأة
عجوز فاذا رأت احدا مال اليها بالنظر وتبعها تعرضت اليه وخاطبته في امرها
وقالت له لا يمكنها تجتمع بأحد الا في منزلها خوفا على نفسها . فمنهم من يحمله
الغرض على موافقتها فينطلق معها فاذا حصل عندها خرج اليه رجلان فيقتلانه
ويأخذان لباسه وما معه . وكانوا على ذلك يتنقلون من مكان الى مكان خوف الشعور
بهم . الى ان سكنوا خارج باب الشعرية على الخليج . فاتفق انه كان بالقاهرة
ماشطه مشهورة فحادثها العجوز وقالت لها : عندنا امرأة قد زوجناها ونريد منك
تدبير امرها وتزيينها بأحسن زينة . ونحن نعطيها مهما احببتي وواعدتها على
المسير اليها فحملت المشاة (٥٦ق) ما تيسر عندها من الحلوى والثياب مع جارية
لها وخرجت اليهم فدخلت عندهم وانصرفت الجارية . فلما انصرفت الجارية قتلوها
وابطى خبرها على الجارية . فجاءت الى الدار فطلبتهما فأنكروها . فوشت بهم
الى الوالي بالقاهرة . فركب الى الدار وهجمها فوجد فيها الصبية والعجوز
فأخذهما وتوعدهما فاقرأ على نفسيهما وعلى رجلين آخرين . فحبر النساء فسمع
بهما احد الرجلين فأتى يتفقداهما فقبض عليهما وعوقب حتى اقر فدل على رفيقهما
رجلا في جوارهم له اقمته يحرق فيها الطوب . فكان يلقي فيها من يقتلوه .
فيحترق ولا يعرف به احدا . واظهروا من الدار حفاير ملوثة قتل فطالعوها
السلطان بأمرهم . فامر بتسميرهم تحت القلعة فسمروا في يوم واحد وشفع عند
السلطان في المرأة بعد تسميرها بيومين فأمر باطلاقها ففكت مساميرها واطلقت .
فأقامت اياما وماتت . ولما سمروا عمد بعضهم عوام البلد الى بيتهم فعمروا مسجدا
والله اعلم .

قال بعض اهل التاريخ وفيها امر السلطان الملك الظاهر بانشاء خان بالقدس .

الشريف وفوض امر بنائه للامير جمال الدين محمد بن نهار . ونقل اليه من القاهرة بابا من بعض دهاлиз قصور الخلفاء بمصر واقف اوقافا حسنة منها قيراط ونصف من قرية الطره من اعمال دمشق . وثلاث وربع قرية المشيرفه من عمل بلد السواد ونصف قرية لينا من عمل القدس يصرف ذلك في ثمن خبز واصلاح نعال من يرد اليه من المسافرين المشاة . وفلوس وبنى بالخان طاحونا وفرا . وجعل النظر فيه للامير جمال الدين محمد بن نهار .

وفيها اتفقت واقعة بالمغرب بين السلطان ابي يوسف (٥٧٧ و) يعقوب المريني وبين الفرنج . وكان المقدم على الفرنج قائدا يسمى بدر قزمان . وكان الملتقى على مكان يقال له بيرة فهزمه المريني وقتل جماعة ممن كان معه واثر في تلك البلاد آثارا حسنة .
(٥٨ ق) (١) ذكر وفاة من توفي من الاعيان في هذا العام وبعض اخبارهم .

ابراهيم بن مكي بن عمر بن نوح بن عبد الواحد المخزومي الدمايني يلقب ضياء الدين الكاتب . سمع من ابي الحسين علي بن قصر بن الحسين الخلال وحدث بالقاهرة فسمع منه الشريف عز الدين احمد بن محمد وغيره وتقلب في الجند الديوانية بديار مصر . ولد في رابع عشر المحرم سنة ارب وثمانين وخمسمائة بدمايين وتوفي في حادى عشر ذى الحجة سنة اثنيتين وستين هذه السنة ببلبيس رحمه الله تعالى .

(١) لا وجود لصفحة رقم ٥٧ ق ولا لصفحة ٥٨ و مع العلم ان صفحة ٥٧ و لم يكتب فيها الا ثلاثة اسطر وبعض السطر .

أحمد بن أبي عبد الله محمد بن مندر المالقي المصري يكنى أبا جعفر ويعرف
بالضياء الحافظ . كان عارفا بالأدب وله نظم حسن ومعرفة بعلوم عدة . توفي في هذه
السنة .

أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن رافع الحلي
الاسدي يكنى أبا العباس ويلقب كمال الدين ويعرف بأبن الاستاذ . سمع الكثير
وحدث وولي قضاء القضاء بحلب وأعمالها في سنة ثمان وثلاثين وستماية . وكان في عنفوان
شبابه . فحمدت سيرته وشكرت طريقته . وكان سديد الأحكام وله المكانة العظيمة
من الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي صاحب حلب ومن سائر أرباب الدولة .
ولم يزل متوليا إلى أن ملك التتار حلب . توفي في نصف شوال من هذه السنة .

إسماعيل بن علي (١) بن الجباب المصري يلقب لشمس الدين ٠٠٠٠٠٠ (٢)
بعض الإخوان قال : زرت القرافة الصغرى وشاهدت (٣) الجبد المقطم تحت العارض
بجوار مراكم موسى في تربة قديمة بآيوان كثير معقود قمورا عديدة على لوح رخام عند
رأس قبر منها مآثاله بعد (٥٩ و) البسملة الشريفة : أولم يروا أنا تأتي الأرض
تنقصها من أطرافها (٤) . هَذَا قَبْرِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى شَمْسِ الدِّينِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ
عَلِيِّ بْنِ الْجَبَابِ تَوَفَّى فِي الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَسِتِّمَائَةَ .

سليمان بن عامر العقرباي الدمشقي يكنى أبا المؤيد ويلقب زين الدين ،
ويعرف بالزين الحافظي . لهذا الزين الحافظي أمور قبيحة وقعت منه في حق المسلمين

(١) في الأصل "ع . . . لي" .

(٢) في الأصل "أحمد" لي " ولعلها " أخبرني " .

(٣) في الأصل " وشاهدت " .

(٤) سورة الرعد ١٣ آية ٤٠ .

حين حضر التتار الى الشام وقد قدما بهض ما وقع منه فنسأل الله حسن الخاتمة بمنه
وكرمه انه على كل شيء قدير . ذكر صاحب ابن شداد في سيرة الملك الظاهر
ركن الدين بيبرس الصالحي ان من جملة الاسباب المؤكدة لقتله ان الملك الظاهر
استدعى اخاه عماد الدين احمد المعروف بالاشتر من دمشق وعوقه اياما ثم افرج
عنه وانعم عليه في الشهر بخمسمائة درهم ورتب له خبزا ولحما وغير ذلك مما يحتاج
اليه . وامره ان يكتب الى اخيه الزين المذكور كتابا يعرفه فيه نية السلطان وان
ماله ذنب وهو هوى ما نسب اليه من افعاله القبيحة وانضمامه في سلك هولاء كوك
التتار . فكتب اليه بجميع ما اراد الملك الظاهر فلما وصلت الكتب الى الزين الحافظي
حملها الى هولاء وعرضها عليه . وقال له ان صاحب مصر انما يكتب لي بمثل هذا
ليقع في يدك فيكون سببا لقتلي . وقد عزمت ان اكتب من عنده من الامراء القائمين
بدولته والاعيان بمثل ما كاتبني لأكيده كما كادني . فأذن له فكتب كتابا لجماعة
فوقعت في يد السلطان الملك الظاهر فعلم انها مكيدة منه . فكتب اليه يشكره
على عرض الكتب على هولاء واستصوب رأيه في ذلك كونه عرضها لتزول التهمة (٥٩ق)
عنه . وبعث الكتب مع قصاد وقرر معهم انهم اذا وصلوا الى وسط جزيرة ابن عمر
يتجردوا من ثيابهم على انهم يسبحوا ويحتالوا في اخفاء انفسهم ليظن انهم قد
غرقوا وتكون الكتب في ثيابهم . ففعلوا ذلك فرأى نواب التتار الثياب فأخذوها وفتشوها
فوجدوا فيها الكتب فحملوها الى هولاء فوقف عليه وكنم امرها واسرها في نفسه مضرا
لقتله . ثم احضره وقال له : انت قد ثبت عندى خيانتك وتلاعبك بالدول فانك
خدمت صاحب بعليك طبييا فخننه ، واتفقت مع غلمانك على قتله . فلما قتل انتقلت
الى خدمة الملك الحافظ الذي عرفته به ونسبت اليه فلم تلبث ان خفته وباطنت عليه

الملك الناصر صاحب حلب واخرجت قلعة جعبر من يده . ثم انتقلت الى خدمة الملك الناصر ففعل معك ما لم تسم اطعاعك اليه ولا الى بعضه . فخنثه معي حتى جرى له ما جرى . ثم انتقلت الى فأحسنت اليك احسانا لم يخطر ببالك فجعلت تكافيني عليه بالافعال الرديسة وتعاملني عليه بما كنت تعامل به الملك الناصر وشرعت في مكاتبسة صاحب مصر فأنت معي في الظاهر خارجا عني في الباطن . فأنت شبيهك شبه القرة على وجه الماء كيفما ضربها الهوى سارت وعدد له ذنوبا عديدة في خيانتة في الاموال التي كان سيره في جبايتها واستخراجها . ثم امر بقتله وقتل اخوته واولاده ومن يلوذ به . فكان مجموعهم نحو الخمسين فضربت رقابهم صبورا . لم ينج منهم سوى ولد له يسمى مجير الدين محمد وولد اخيه شهاب الدين . قتل الزين الحافظي في اواخر هذه السنة .

صالح بن ابي بكر بن سلامة المقدسي الحمصي يكنى ابا البقا الفقيه الشافعي . ولي القضاء بمدينة حمص . كان حسن الظاهر سديد الطريقة محمود السيرة توفي بحمص في هذه السنة .

(٦٠) عبد الملك بن نصر بن عبد الملك المصري النجوى يعرف بابن اللغوى ولد في رابع صفر سنة تسع وتسعين وخمماية بالاسكندرية . وتوفي بمصر في رابع عشر شهر ربيع الاول من هذه السنة ودفن من يومه بسفح الجبل المقطم .

عبد الكريم بن قاضي القضاء جمال الدين عبد الصمد بن محمد الانصارى الخزرجي الدمشقي يكنى ابا الفضائل ويلقب عماد الدين ويعرف بأبن الحرستاني . روى عن الخشوعي وعن ابيه وغيرهما . كان ديننا ناب في القضاء بدمشق عن والده في الايام العادلة وعن قاضي القضاة الخوي عند توجهه الى الحجاز الشريف وولي

قضاء القضاة بدمشق في الايام الاشرفيه . وولي الخطابة والامامة . بجامع دمشق وتدرّس الزاوية الغزالية سنة ثلاث واربعين وستماية . ثم ولي مشيخة دار الحديث الاشرفية . واستقر ذلك من الايام الصالحة النجميه ومن قبلها الى ان تعصب عليه نائب السلطنة الامير جمال الدين اقوش النجمي وكان السلطان في حق ولده محي الدين فجاءه المرسوم بتولية ولده الخطابه مع التاوية الغزالية وان يولي دار الحديث للشيخ شهاب الدين ابو شامه . وليد الخطيب عماد الدين بدمشق في سابع عشر شهر رجب سنة تسع وتسعين وخمسماية . وتوفي ببيت الخطابه بالجامع الاموي بعد صلاة الصبح من يوم الاحد تاسع عشر جمادى الاولى من هذه السنة وصلى عليه بالجامع قاضي القضاة شمر الدين احمد بن خلكان . ومسوق الخيل الشيخ شهاب الدين ابو شامه وكان له مشهد عظيم حضر جنازته غالب من في دمشق وحواضرها . وانتشر الخلق فكان اولهم الصالحة وآخرهم سوق الخيل . ودفن بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق قريبا من ابيه .

محمد بن محمد بن ابراهيم بن الحسن بن سراقه الانصاري (٦٠ق) الشاطبي يكنى ابا بكر ويلقب محي الدين ويعرف بابن سراقه الحافظ . ولي مشيخة الحديث بالمدرسة الكاملية بالقاهرة المحروسة . وليد بشاطبه من بلاد الاندلس في شهر رجب سنة اثنين وتسعين وخمسماية . وتوفي بالقاهرة بعد الظهر من يوم الثلاثاء العشرين من شعبان من هذه السنة ودفن من الغد بسفح المقطم .

محمد بن عيسى وقيل ابن منصور السكندري يكنى ابا القاسم ويعرف بالقباري الشيخ الصالح الزاهد . كان احد المشايخ المشهورين بكثرة الورع والتحرى في المأكل والملبس والانقطاع والتخلي وترك الاجتماع بابناء الدنيا والاقبال على ما يعنيه . وكان يزوره الملوك والامراء فلا يكاد يجتمع بأحد منهم .

ولما توجه الملك الظاهر الى الاسكندرية قصد زيارته فركب الى بستانه فلم يفتح له الباب . ويحكى عنه انه كان اذا رأى ثمره ساقطه في ارض البستان تورع عن اكلها خشية ان تكون الثمرة من شجرة غيره . قد حملها طائر فسقطت من الطائر الى غيطه . ويحكى عنه انه اباع دابة بخمسين درهم . تأحضرت الدراهم فجعلها في قادوس . وان المشتري لها اتاه بعد يومين فقال له ان الدابة لم تأكل علفها منذ يومين . فقال له : ما صنعتك قال : رقاص . فدخل واخرج القادوس وفيه الدراهم وضعها وقال : افتح يدك فان دابتنا ماتت اكل الحرام . وان ذلك الرجل اباع كل درهم منها بثلاثة دراهم لاجل البركة . وله مناقب كثيرة توفي ببستانه بجبل الصقل ظاهر ثغر الاسكندرية في هذه السنة ودفن بوصية منه وذكر قاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلكان عن الشيخ مجد الدين ابن الخليلي ان موته كان في سادس شعبان وان الاثاث المخلفه عنه كان قيمته خمسين درهم فبيع بنحو عشرين الف درهم وان الناس تزايدوا فيه رجاء البركة حتى في الابريق الذي كان يتوض به .

(١٦٥) محمد بن ابي بكر بن سيف التنوخي الموصلي يلقب شمس الدين الوتار المعري .

خطب بجامع المزة . وكان له حاصل من الادب وله شعر فمنه قوله :

وكننت واياها مذ اختط عارضي	كروحين في جسم وما نقضت عهدا
فلما اتاني الشيب يقطع بيننا	توهمت سيفا فالبسته غمدا

ومن شعره في صاحب صفى الدين ابن مرزوق لما عزل من الوزارة في دولة الملك

الاشرف بن الملك العادل الايوبي :

ما ابصر الناس ولا يبصروا	في عصرهم مثل ابن مرزوق
من جهله يحكم في عزله	كهارب يضرب باليسوق

ولد في سنة تسع وسبعين وخمماية بالموصل . توفي في هذه السنة ووجد على

قبره مكتوب هذين البيتين :

قد كان صاحب هذا القبر لؤلؤة وكان قد صاغها الرحمن من صلف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

موسى بن الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم بن الملك المجاهد اسد الدين

شركوه الايوبي الحمصي . يكنى ابا عمران ويلقب مظفر الدين وينعت بالملك الاشرف

صاحب حمص . كان شابا عفيفا عما يقع فيه غيره . وكان كريما له صلات لمن يقصده .

يحب اهل العلم وله في كسرة التتار في المرة الثانية الاثر الجميل والفعل الحميد .

توفي بحمص في يوم الجمعة حادي عشر صفر من هذه السنة قبل الصلاة . ودفن ليلا

على جده الملك المجاهد بالمدرسة التي انشأها بباطن حمص ومات وله خمس وثلاثون

سنة ولم يكن له ولد ولا اخ ولا ولي عهد .

لاجين بن عبد الله العزيزي يلقب حسام الدين الجوكندار كان من ممالك الملك

العزيز غياث الدين صاحب حلب . وكان شجاعا جوادا كريما كيمنا لطيفا متواضعا محبا

للفقراء (١٦٦ق) نحسن الاعتقاد بالصالحين وله المواقف المشهورة . ذكره الشيخ

قطب الدين اليوناني (١) في تاريخه واثني عليه وقال : كان له في الفقراء والصالحين

عقيدة حسنة ويكثر الاحسان اليهم وكان يعمل السماعات ويحضر فيها من المآكل والمشارب

والروائح الطيبة ما يبهر العقل ويتجاوز الحد ويمد السماط ثلاث مرات بشرط انه لا يرفع

منه شيئا بل يوكل منه ما امكن ويتفرق من حضر ما بقي . وجميع ما يشرب في تلك الليلة

من اولها الى آخرها من المياه مصنوعة بالثلج والسكر المكرر وما الجلاب والسود .

(١) كذا في الاصل ولعلها اليوناني .

فاذا كان في وقت السحر اخذ الحمام المجاورة لداره ودخل اليها معه معظم الجمع فيخدم الفقراء بنفسه وغلماؤه فاذا خرجوا يعقد من عليه قميص خلع او دلق واحضر اليهم قمصانا جدد ودلوفا في غاية الحسن ثم يستدعيهم الى داره ويسقيهم من الاشربة ما يناسب الحمام ويلائمه . وبعد لهم السماط من النطماج والحلوى السخنة ويخلع على المغاني . وكانت الاشياء بدمشق غالية في ذلك الوقت جدا . وقيل كان تقدير ما يصرفه على كل سماع ثمانية الاف درهم . توفي لاجين المذكور في رابع عشر المحرم من هذه السنة بدمشق ودفن بسفح قاسيون وقد ناهز الخمسين سنة . وقيل انه سم من مملوكه جمال الدين ايدعى بمواطاة عليه .

يحيى بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج القرشي الاموي يكنى ابا الحسين ويلقب رشيد الدين النابلسي الاصل المصري المولد والدار المالكي العطار الحافظ . سمع الكثير من خلق كثير وحدث بالكثير وانتهت اليه رئاسة الحديث بعد الحافظ ركن الدين المنرى . ولد في شعبان سنة اربع وثمانين وخمماية وتوفي بمصر بعد الظهر من يوم الاثنين ثالث جمادى الاول من هذه السنة . ودفن بسفح المقطم قريبا من (١) ابي بكر الخزرجي رضي الله عنهما .

٦٦٣ هـ (٢٤٤ تا ١٢٦٤ - ١٣ تا ١٢٦٥)
(٦٢) ذكر الحوادث في سنة ثلاث وستين وستماية

توجه السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في اوائل هذه السنة الى الصيد فأقام باوسيم وعرج الى جهة العباسية . ورمى البندق واصرع جماعة وادعوا للسلطان ومن جملتهم الامير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك وصرع السلطان الملك الظاهر نموا في ثالث شهر ربيع الاول قريب (٢) رأس الماء .

(١) بعدها نصف سطر بياض قيل " ابي " .
(٢) كيدو كأنها كانت " قريبا " ثم كتبت كما هي في المتن .

ذكر نزول التتار على البيرة ومحاصرتهن لها وتجريد العساكر المصرية اليها

وخروج الملك الظاهر الى الشام

كان السلطان الملك الظاهر خرج متصيذا بجهة العباسية واعراس . فبلغه ان التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة المحروسة فوثب وثبة الاسد المفترس واندفع انتفاع السيل المحتبس واخذته الحمية للاسلام ومنع جنبه ان يضطجع وعينه ان تنام . وامر الامير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السابقة . وانه ساعة وصوله يجرد اربعة آلاف فارس من العسكر الخفيف وساقوا وساق السلطان من اعراس الى قلعته . فأقام ليلة واحدة وكانت العساكر متفرقة في البلاد والخيول على الربيع وكانت الفرنج قد افهمت التتار ذلك وان عسكر الديار المصرية لا يمكنها وقت الربيع الحركة . وما علموا ان للاسلام ملكا يحمل النعصر على المشاق . واذا ساق الى جهة تخيل ان ركب على البرق وساق . فلما استقر بقلعته رسم للامير عز الدين ايغان الملقب بسم الموت بتقدمة العساكر ولعن هو مسافر معه بالتوجه جرايد . ومنهم الامير فخر الحضي والامير بدر الدين بيليك الایدري والامير علاء الدين كشتغدي الشمسي وجماعة (٦٢ق) من الامراء والحلقه وتوجهت هذه العساكر في رابع شهر ربيع الاول من هذه السنة .

وامر الامير جمال الدين المحدث وجمال الدين ايدغدي الحاجبي بالتجهيز في قريب اربعة الاف اخرى . فخرجت هذه العساكر ثاني يوم خروج الامير عز الدين ايغان وسافروا بعد سفر العسكر الاول بأربعة ايام .

ولما توجهوا شرع السلطان في التجهيز وسير السلاح داريته لاحضار الدواب من الربيع واحضار الجند . وخرج السلطان الملك الظاهر بنفسه في خامس شهر ربيع الاخر من هذه السنة . ورحل في سابع الشهر المذكور . وسار والنصر تقدمه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يضمن الله لمن خرج في سبيل الله لا يخرج
الا جهاد في سبيلي والا ايمان بي وتصديق لرسلي ان ادخله الجنة او ارجعه
الى مسكنه الذي خرج منه نايلا مانال من اجر او غنيمة . وكانت العساكر تملأ
الارض وما نقصت في العين بسبب من جرد . وصارت الجمال تتفانا بلا سبب . وقيت
اموال الناس مطروحة على الطرقات . ولمهابة السلطان لم يتأخر احد . ولما
عرفوا السلطان محال الناس وموت الجمال . قال : ما انا في قيد الجمال انا في
قيد نصرة الاسلام .

ونزل السلطان غزه في العشرين من شهر ربيع الاخر . فوصلت كتب النواب
بأن العدو نصب على البيرة سبعة عشر من جنيقا . فكتم السلطان هذا الامر عن
امراءه ولم يطلع عليه الا الامير شمس الدين سنقر الرومي وسيف الدين قلاوون الالفى .
وصار يكتب الى الامير عز الدين ايغان ويقول : متى لم تدركوا هذه القلعة والا سقت
اليها بنفسي جريدة . فساق العسكر وحث السير .

ولما نزل السلطان في (٦٣و) قريتا (١) ركب للصيد فتقنطر عن فرسه
وانهشم وجهه وانسلت جلده فأظهر تجلدا ورحل فنزل بينا (٢) . وحضر في الخدمة
قسطلان ياقا واحضر جملة من التقادم .

ذكر وصول العساكر الاسلامية لحماية البيرة وهزيمة التتار
وورود البشائر الى الملك الظاهر بذلك

كنا قد منا ان التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة المحروسة . وان السلطان

(١) في الاصل بدون نقط اما في ابن عبد الظاهر (ص ١٢) فهي قريبا من صيدا وهي
"قريشا" عند المقرئى ، السلوى ، (ص ٥٢٤)
(٢) في الاصل بدون نقط .

الملك الظاهر لما بلغه ذلك جرد العساكر اولا اولا . ثم خرج بنفسه وتوجه الى جهة الشام . فلما وصلت العساكر الاسلامية المجردين من الديار المصرية الى البيرة وشاهدوهم التناحر وراوا عزائمهم الماضية في قتالهم هربوا ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم وانهزموا لايلى احد على احد ولا يقف والد لولد . فلما كان سادس عشر من شهر ربيع الاخر الشهر المذكور ورد البريد الى يبنى من جهة الامير جمال الدين النجيبى نايب السلطنة بالشام . وكان السلطان قد دخل الى الحمام في دهليزه المنصور فسمع انه قد وصل خبر طيب فقام لوقته عريانا وقرئت عليه الكتب فوجد في كتاب الامير جمال الدين النجيبى نائب دمشق بطاقة من الملك المنصور صاحب حماه مضمونها انه وصل الى البيرة بالعساكر المنصورة صحبة الامير عز الدين ايفان وجماعة الامراء يوم الاثنين . وان التناحر عندما شاهدوهم وراوا عزائمهم الماضية هربوا ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم وانهزموا لايلى احد على احد ولا يقف والد لولد . وكان كتابتها من البيرة الى حين وصولها الى يبنى اربعة ايام . فان البطاقة وصلت الى حماه الى دمشق على الجناح . ومن دمشق حضر البريد بها الى يبنى وهذا الاحتفال السلطان بامر الاسلام وترتيب (٦٣ق) المصالح العامة ، وای همة اعظم من همة تبلغه الاخبار من البيرة وهو في اول بلد الساحل في اربعة ايام ويكون في الحمام فلا يصبر الى ان يلبس قماشه بل يخرج على الصفة التي ذكرناها عجا خشية من مصلحة نفوت .

وللوقت سير البطاقة صحبة الامير حسام الدين لاجين الدوادار فأوقف عليها الامير شمس الدين سنقر الرومي والامير سيف الدين قلاون الالفي . ثم حضر اربعة ممالك من جهة الامير عز الدين ايفان والامير فخر الدين الحمصي والامير بدر الدين الايدمرى والامير بدر الدين العلاني مقدم عسكر الشام باليشارة . فطلب

السلطان امرا دولته وقرأوا الكتب واستبشروا بهذا النصر وكفى الله المؤمنين القتال . وكتب كتب البشائر الى الديار المصرية وغيرها .

واصبح ينظر في امور دولته لانه كان اذا لم يركب يصلي الصبح ويخرج الى باب دهليزه ويجلس على كرسي امير جانداره ظاهرا للناس كافة . ويقرب منه الفقير والمرأة والضعيف ويقضي حوائج الناس ويسمع قصص الرعايا ويوقع عليها بين يديه الى ان يرى امراؤه حضروا من ركوب الخيل يقوم ويجلس في مرتبه السلطنة ويحضر الامراء ويمد لهم الخوان ويجلس لقضاء حوائج الناس وللعلامة على الكتب . وانما ذكرنا ذلك ليعلم ان هذا السلطان اوقاته مستغرقة في مصالح المسلمين ولذته في الاهتمام بأمر الدين .

ثم احضر البريدية من البيرو سكك حديد كان العدو صنعها للصعود فسي الاسوار . وورد كتاب الامير جمال الدين اقوش المغيبي النايب بالبيرة يذكر صفته الحال وما اشتغلت عليه من قوة العزائم وشدة الشكايم . وانه لما كثر العدو على القلعة وطم الخندق حفر اهل البيرو حفيرا قدر قامة (٦٤ و) وعملوا فيه سردابا نافذا الى الاحطاب التي كان العدو وردمها في الخندق . ورموا فيها النار فاحترقت جميعها في الخندق وما قدر العدو على طغيها . ثم سد المسلمون السرب المحفور . وذكر مصابرة اهل الثغرو ان نساءهم فعلن من حسن البلاء في قتال الاعداء مالا يفعلنه الرجال . ومن جملة ما وصف ان برجاً واحداً كان عليه خمسة عشر من جنيقا وثبت شهرين . وكان العدو قد ضربوا اربعين سكة كل سكة ثلاثة ارطال بالحلي وخمسين سكة كبيرة . وجعلوا فيها الحبال ليجروا بها السلام ويرفعوا المقاتلة . فأخذ اهل الثغر الجميع واخذ من العدو مراكب كبارا وصغارا .

فكتب السلطان بأطابة قلوبهم وعينت امثله بأقطاعات لمن جاهد من البحرية

وغيرهم بالبيرو . واستشهد الامير صارم الدين بكتاش الزاهدي احد الامراء

المجردين بها بحجر منجنيق • وترك موجودا كبيرا • وبننا واحدة تستحق نصف ميراثه • فرسم ان يكون جميع ميراث ابيها لها لانشارك فيه لما فعله ابوها في الخدمة • واهتم بعمارتها وحمل الاقوات اليها • وكتب الى جميع القلاع والولايات بمساعدة هذا الثغر وكتب تذاكرا بما يحمل اليها من مصر والشام من اصناف واسلحة وعدد مجانيذ وغيرها • وكلما احتاجه هذه القلعه ومن فيها عشر سنين • وكتب الى الامراء انهم لا يتحسروا من مكانهم حتى ينظفوا جميع الخندق وينقلوا الحجارة التي ردمت فيسه وكتب بذلك الى الملك المنصور صاحب حماه • والى جميع الناس • وامر بنقل ذلك على اكتافهم وخلهم • فاقاموا كذلك مدة •

ووردت الى السلطان كتب الامراء بها وهم يصفون ما يعندونه من حمل التراب بنفوسهم ونقل الحجارة • فصادف ذلك ان السلطان واقف على سور قيسارية وهو (٦٤ق) يهدم بنفسه • وفي يده القطاعة وقد تجرحت يده • فكتب في الجواب : انا بحد الله تعالى ما تخصصنا عنكم براحة ولا انتم في ضيق ونحن في سعة • ما هنا الا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الحجار ومرايط الكفار • وقد تساونا في هذه الامور • وما ثم ما تضيق به الصدر " •

ووردت كتب الامراء يخبرون بأن النوبة كانت على الامير عز الدين ايفان والامير فخر الدين الحمصي • والامير بدر الدين الايدمرى وجماعة من البحرية • وكانت خيلهم في الجانب الشامي ترتعي وهم رجاله يعلمون • فأحاطت بهم فرقة من التتر المفضل ملبسين • فاجتمعوا ورموهم بالنشاب وانكوهم بالجراحات فولوا منهزمين وسار العسكر خلفهم فوجد منهم جماعة قد هلكوا من تلك الجراح في الطريق • وفي حران وغيرها وجماعة من كبارهم قتلوا في ذلك الميوس •

وسير السلطان استدعى من الديار المصرية مائتي ألف درهم ومايتي تسريف
وجهاز معها من دمشق مائة تسريف ودرهم • وسير الجميع الى البيرة • وكتب الى
عز الدين ايفان بأن يحضر اهل القلعة وجميع من يسا من امير ومأمور وجندى وعاملي
ويخلع عليهم وينفق فيهم المال حتى الحراس وارباب الذؤ (١) يلبسون الخلع
ويخدمون "بيات" (١) القلعة • وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا قال :
يا رسول الله انى الاعمال افضل ؟ قال : مؤمن يجاهد بنفسه وما له في سبيل •
ثم رحل في شعب من السحاب يعبد الله • وقال الله تعالى :
مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة
مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء (٢) •

ووصل كتاب الامير عز الدين ايفان بانه اعتمد هذا الامر • وسار خبره في
البلاد (٦٥ و) وتحقق الناس ان السلطان لا يضيع له به عمل عامل وانه ليرعى
غلمان به غافل • ودأبت قلوب اهل القلاع بذلك • وقالوا : السلطان يطوى لنجدتنا
المراحل وتسبق عساكره الاخبار الى المنازل • ولما وصل الامير جمال الدين
المحمدي رسم السلطان بأن يكون مقدما على العساكر المصرية والسامية لكبر سنه •
والامير عز الدين ايفان يتحدث في المهمات وادارة الاموال وترتيب امور البلاد
فوردت كتبهم بأن الخنادق قد تنظفت ولم يبق لهم عائق •

فرسم السلطان ان يحملوا الى القلعة حجارة زلخ • وقرر على صاحب حماه
لنفسه خاصة الف زلخه وعلى كل امير من امرائه مائة حجر وكل جندى خمسين زلخه •
وكذلك قرر على جميع الامراء والجنود • وقرر عليهم حمل النساب والاخشاب للمجانيق
وجرد للعمارة الامير علم الدين والامير سيف الدين بلهان الحبشي وكن الدين الصروي

(١) بدون نقط في الاصل

(٢) سورة البقرة (٢) آية ٢٦٠ •

وتجرد من كل امير صحبتهم ثلاثة نفر يقيمون لنجار العمارة • واذا اتموا ذلك يتوجهون الى تل باشر للاغارة على بلاد سيرفوردت كتبهم باعتماد ذلك جميعه • واستمر حمل الغلال الى البيرة فلا ترى الا قوافل حاملة وركايب موسقه راحلة • وكتب السلطان الى الامير جمال الدين النجيبى بالحث على ذلك والتويخ (١) فعزم عزمة الرجال وحمل مامله الارض من الغلال وحملت اليها المجانيق من شيزر وعوضت عنها من دمشق • ورحل عنها العسكر وقد نصره الله وافظه وشيد بنية السلطان الثغر وعمره •

ذكر تبطيل المزور واخراجه من اقطاعات الجند وتعويضهم غيرها •

لما فرغ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من امر البيرة كما قدمنا شرحه (٧٥ق) رأى ان يتبع الحسنه حسنة وان يزيل منكرا تغدوا آثاره بينه وكتب الى الديار المصرية بتبطيل المزور وان تعفى آثاره وتخرب بيوته وتكسر مواعينه ويسقط ارتفاعه من الديوان • وكتب الى الامير عز الدين الحلبي : اشتهي لاجلي تزيل هذا المنكر فان بعض الصالحين تحدث معي في ذلك وقال القبح الذي جعله الله تعالى قوت العالم يداس بالارجل وقد تقررت الى الله تعالى بابطاله • ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ومن كانت له على هذه الجهة شئ يعوضه من مال الله الحلال • فوردت الكتب واعتماد ذلك وعوض المقطمون وكتبت هذه الحسنه في سبيل هذه الدولة والله اعلم •

ذكر تجهيز الملك الظاهر لغزو الفرنج وفتح بلادهم •

لما وصلت الاخبار الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وهو

بالساحل بنصرة العساكر الاسلامية على التتار وانهزامهم شر هزيمة وامر بعمارة ثغر
البيرة كما قدمنا شرحه ثني عينه الى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ويكون لهم كما
كانوا . وما اعلم احدا مغزاه ولا فهم اين مرامه ومرماه . وركب من العوجا بعد
رحيل الاطلاب للتصيد في غابة ارسوف . ورسوم للامراء بان من اراد الصيد فليحضر .
فأن الغابة كثيرة السباع وكان قد احضر الى باب دهليزه سبع مقتول احضره احد
الاجناد فأنعم على قاتله . وتشوف الى تنظيف الغابة من الوحوش الكاسرة وساق
فمر على قنطرة نهر العوجا فوجد جماعة من الرعية والسوق عابرين على القنطرة
في ليلة شاتيه فوقف وامر ان (٦٦و) لا يعبر احد حتى تعبر الضعفاء . ووقف لرجل
دابه فما زال واقفا حتى نزل خواصه وحملوا الدابة ونقلوا القماش . قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . وساق
السلطان من ذلك المكان فرتب الحلقة ميمنه وميسرة ودخل الغابة وقضى بغيته من صيده
وجرب سيوفه في تلك الوحوش على انها لم تنزل مجرمة وترتب الخوف على الاعداء وان
كانت عليهم مترتبة . وسار الى ارسوف وقيسارية وشا هدهما وعاد الى دهليزه فوجد
اخشابا للمهمات قد احضرت صحبة زرد خاناه كان الامير علم الدين نائب امير جاندار
قد احضرها فطلب الامير عز الدين امير جاندار وامره بنصب عدة مجانيق مغربية
وفرنجية من الاخشاب المذكورة . وفي وقت السحر من اليوم الثاني خرج السلطان
بنفسه وجلس عند الصناعات ليدلوا الاجتهاد فعمل في ذلك اليوم اربع منجنيقات كبار
خارجا عن الصفار . وكتب السلطان الى قلاعه بطلب المنجنيقات والصناعات والحجارين
ورسم للمسكر بعمل سلال . وعين لكل امير حمل عدة منها ورجل الى قريب عيون
الاساور فأمر بعد عشاء الاخره بلبس العدد وركب قريب الصبح وساق الى جهة
قيسارية وكان ما سنده ان شاء الله تعالى .

ذكر بعض اخبار قيسارية وفتحها

اعلم ارسدنا الله واياك ان قيسارية من البلاد الساحلية في جند فلسطين •

وكانت مدينة على سيف البحر حصينة منيعة لها ربح كبير •

قال البلاذري : ولي امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يزيد بن ابي سفيان رضي الله عنهما فسطين مع ما ولاء من اجناد الشام وكتب اليه
بأمره بغزو قيسارية • وقد كانت حوسرة قبل ذلك فتمهدها (٦٦ ر) اليها في سبعة
عشر الف مقاتل ادلها • فمر بعاد الى دمشق • واستخلف عليها اياه معاوية بن

ابي سفيان رضي الله عنهم وذلك في سنة ثمان عشرة • ولما توفي يزيد كتب امير
المؤمنين عمر بن الخطاب الى معاوية رضي الله عنهم توليته على ما كان يتولاه يزيد

فتمكر ابو سفيان ذلك لمرضي الله عنهما وال : وملت رحم ، فحاربنا معاوية

رضي الله عنه حتى فتمها في سوال سنة تسع عشرة للهجرة قسرا • وبعث بفتحها

تميم بن ورقاء عريف حشم الى عمر رضي الله عنه فقام عمر رضي الله عنه على المنبر

ونادى في الناس الا ان قيسارية قد فتحت • ولما فتح وجد بها من المرتزقة

سبعماية الفا ومن السامرة ثلاثون الفا ومن اليهود مائتا الف • ووجد فيها ثلاثماية

سور قائمة كلها • وان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة الف • وسورت سبع سنين

الا شهرا واحدا • وقال ايضا عن من حدثه ان الروم خرجت في ايام عبد الله بن

الزبير رضي الله عنهما الى قيسارية فسعثتها ودممت مسجدها الجامع فلما استقام (١)

لهب الملك بن مروان الاموي الامر بمسحها وبنى مسجدا وسمي بالرجال •

انتهى كلامه •

ولم يزل يلي قيسارية من يلي جند فلسطين الى ان اخذتها الفرنج في سنة اربع وتسعين واربعماية بالسيف وقتلوا من فيها . ولم تنزل بأيديهم الى ان فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي على يد الامير بدر الدين دلدوم الباروقي وغرز الدين قليج في سنة ثلاث وثمانين وخمسماية .

ثم خرجت عنه في الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين وخمسماية . واستمرت في ايديهم (٦٧٠) الى ان كسرتسكرريدا فرنس الفرنجي على دمياط في سنة سبع واربعين وستماية . واسرثم اطلق . فنزل الساحل وعمر قيسارية وشيدها وحصنها . ولم تنزل بأيديهم الى ان نزل عليها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في هذه السنة على حين غفلة من اهلها في يوم الخميس تاسى جمادى الاول ولوقته طاف بها وهاجمها الناس والقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد الذى للخيل والسبع والمقاود فعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ونصبت عليها السناجق وحرقت ابوابها وهتك حجابها فهرب اهلها الى قلععتها . وسير السلطان كتب البشائر الى البلاد والى الاتابك فارس الدين .

ونصب السلطان المنجنيقات على القلعة وهي من احصن القلاع واحسنها وتعرف بالخضراء وكان الريد فرنس حمل اليها العمد الصوان واتقنها . وما رثي في الساحل احسن منها عمارة ولا امتع ولا ارفع لان البحر الملح خاف بها وحابر في خنادقها والثقوب لاتعمل فيها للعمد الصوان المصلبة في بنائها حتى اذا علقت لا تقع . واستمر الزحف عليها ورمي المنجنيقات والسلطان تارة يرمي النشاب من علو كنيسة قبالة القلعة وتارة يركب ويخوض عباب البحر ويقاتل (١) . وعملت دبابات وزحافات واطلق النشاب

(١) في الاصل بدون نقط .

للعساكر من قلعه عجلون لكل صاحب مائة فارص اربعة الاف سهم . وكذلك الحلقة والجند
ورسم بنقل الاحطاب وحجارة المجانيق وخلع على الامير عز الدين الافرم امير جاندار
لاجتهاده في المنجنيقات وعلى المنجنيقيه .

وجرد الامير شهاب الدين القيمري بجماعة من عسكر الساحل لجهة بيسان فسير
جماعة من التركمان والعربان الى ابواب عكا فأسروا جماعة من الفرنج ودوابا وغيرها .
(٦٧ق) واستمر السلطان على المصابره والمثاغرة . واقام بالكنيسة لا يخرج الى
دهليزه يرابي هو وجماعة الافجيه يمنعون الفرنج من الصعود الى علو القلعه .
ونارة يركب في بعض الدبابات ذوات العجل ويجر من تحته حتى يص الى الاسوار
ويرى الثقب بنفسه واخذ في بعض الايام في يده ترسا وقاتل وما رجع الا وفي ترسه
عدة سهام .

وفي ليلة الخميس منتصف جمادى الاول الشهر المذكور حصرت الفرنج واسلموا
القلعه بما فيها وتسلق المسلمون اليها من الاسوار وخرقوا الابواب ودخلوها من
اعلاها واسفلها واذن بالصبح عليها . وطلع السلطان الى القلعه وقسم المدينة
على كمائه وخواصه ومماليكه وحلقته وشرع في الهدم . ونزل واخذ بيده قطاعة
واخذ يهدم بنفسه وراءه المسلمون فتشبهوا به وعملوا بنفوسهم وصار يياشر ذلك
بنفسه ويده . وقد اكتسى من الغبار اثوابا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لا يلج النار رجل بكى من خشيه الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد
غبار في سبيل الله ودخان جهنم ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما اغبرت قدما عبد
في سبيل الله فتسمه النار .

قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر ماصيفته :
وهذه قيسارية من المداين قد يماضحت في صدر الاسلام وذلك في سنة تسع عشرة من
الهجرة النبوية . وسبب فتوحها ان الكفار المنتزحين بين يدي المسلمين التجأوا اليها
وتحصنوا . فلما فرغ المسلمون من غزاة اجنادين ومن فتوح دمشق ومن قلعة فحل ومن
قلعة اليرموك التي يدد الله فيها جموع الروم كتب امير المؤمنين عمر بن الخطاب
رضي الله عنه الى يزيد بن ابي سفيان رضي الله عنهما : اما بعد فقد وليتنيك
(٦٨و) اجناد الشام كله وكتبت اليهم ان يسمعوا ويطيعوا ولا يخالفوا لك امرا فاخرج
فعدسك بالمسلمين ثم سر بهم الى قيسارية ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك فانه
لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من ارض الشام مع مقام اهل قيسارية فيها وهم عدوكم والى
جانبيكم . وانه لا يزال قبصر طامعا في الشام ما بقي فيها احد من اهل طاعته ولو
قد فتحتموها قطع الله رجاء من جميع الشام والله عز وجل فاعل ذلك وصانع للمسلمين
ان شاء الله تعالى . فسار اليها يزيد رضي الله عنه وقاتلها قتالا شديدا فلم
ينالوا منها شيئا . فقام عبادة بن الصامت رضي الله عنه ثم قال في جملة ما وعظهم
به اني خائف عليكم ان تكونوا قد غللتهم يعني سرقتم المكاسب ولم تقسموها . فان عمر
رضي الله عنه قال للمسلمين في نوبة اليرموك : سبحان الله او قد دافعوههم يعني
المشركين . ما اظن المسلمين الا قد غلوا . وقال : لو لم يغلوا ما وافقوهم ولظفروا
بهم بغير مونه اى بغير تعب . فصدقهم المسلمون القتال . فلما كان بعض الايام خرج
اهل قيسارية والمسلمون غافلون فاجتمعوا عليهم من كل جهة ونصر الله عليهم فقتل
في المعركة خمسة الاف رجل . ولما شاهد يزيد نلاف حالهم استخلف عليهم معاوية
بن ابي سفيان رضي الله عنهم ورجل عنها ففتحها الله على يديه في التاريخ المذكور .
ولم يبق في الشام حينئذ عدو للمسلمين في اقصاه ولا ادناه . وصار الشام كله
للمسلمين . انتهى كلامه .

وفي جمادى الأولى الشهر المذكور وردت الى السلطات الملك الظاهر كتب الامراء

المجردين للغاره بأنهم وصلوا الى ابواب عكا وغنموا وعالوا سالمين .

وفي هذه الايام ورد خبر من جهة يافا بأن الامير علم الدين سنجر الصيرفي عمل

حيله على بعض اصحابه وسيره الى يافا ليقضي له شغلا . وكان قد اتفق مع قسطلان

(٦٨ق) يافا على القبض عليه فقبض عليه واعتقل في الجب فأنكر السلطان الملك الظاهر

ذلك فأحضر اليه من يافا كتاب استأذه اليهم بحبسه . فجمع السلطان الامراء وفي

جملتهم الامير علم الدين الصيرفي وانكر عليه هذا الامر غاية الانكار وخلص المذكور

من الامير . قال الله تعالى : وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين

من الرجال والنساء والولدان (١) . قالت العلماء : انقاذ اسرا المسلمين

من ابدى الكفار من افضل القربات والمثوبات . وقد قال بعض العلماء : اذا

اسروا مسلما واحدا وجب على الاسلام ان يواظبوا على قتالهم حتى يخلصوه ويبيدوا

الكفار والله اعلم .

ذكر ارسال الملك الظاهر تجريده الى حصن الملوحة وتوجه السلطان

الى جهة عثليمست وارسال تجريده الى حصن حيفا وتسليمهم له

ورجوع السلطان الى دهليزه سالما

لما قارب السلطان الملك الظاهر الفراغ من هدم قيسارية سير الامير شمس الدين

سنقر الالفى الظاهري والامير سيف الدين المستعزى وجماعة فهدموا قلعة للفرنج عند

الملوحة . وكانت عاتيه عاصيه . ودكوها الى الارض .

وفي سادس وعشرين جمادى الاول الشهر المذكور توجه السلطان الى جهة عثليت جريده وسير شمس الدين سنقر السلاح دار الظاهري والامير عز الدين الحموي والامير شمس الدين سنقر الالفي الظاهري الى حيفا فصاروا اليها ودخلوا قلعتها فنجا الفرنج بأنفسهم الى المراكب بعد ان قتل منهم واسر واحضرت الاسارى والقروس واخربوا المدينة وقلعتها واحرقوا ابوابها وجعلوها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وكان اخذها وما اعتمد فيها من قتل واسر واخرب واحرق في يوم واحد وعاد الامراء سالمين . واما (٦٩و) السلطان فانه وصل الى عثليت وامره بشعثها وقطع اشجارها . فقطعت جميعها وخربت ابنيتهما في ذلك النهار . وعاد السلطان واذاق الكفار حسرة وای حسرة . ولا بد ان يعيد الحيف عليهم كما بدا اول مرة . وثنى العنان عنها وهو اليها يمتد . وحول الساعه وهو الى موماتها يشتد واخرها الى اجل سعى . ورأى انه تقدم على امرها الذي ليس بهم وتترك اهلها في حبس منها وقطع قلوبهم قبل قطع المسيرة عنها . وعاد الى دهليزه بقيسارية وكمل هدمها . حتى لم يدع لها اثرا . ووصل والسلطان على قيسارية الامير سيف الدين الزيني وصحبته المنجنوقات المحضرة من جهة الفرنج ومن جعلتهم احد ابنا الملوك فأعطاهم السلطان الاقطاعات واحسن اليهم . ومرض ايضا جماعة من الامراء فركب السلطان اليهم وعادهم . وهم الامير شمس الدين سنقر الرومي والامير عز الدين امير جاندار والامير سيف الدين الزيني امير علم .

ذكر بعض خبر ارسوف وفتحها

قال القاضي الامام الرئيس الاوحد العالم عز الدين محمد بن علي بن شداد الحلبي في تأليفه " الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة " ما صيغته :
أرسوف ليس لها في الفتوح العمري ذكر ولا فيما وقفت عليه من الكتب المؤلفة فسي صدر الاسلام . قال : واول ما احاط به علي من امرها ان الفرنج تسلموها في سنة

اربع وتسعين واربعماية ثم فتحها الناصر صلاح الدين في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .
ثم دخلت في بلاد المهادنة بينه وبين الفرنج . ولما اطلق ريد فرانس ونزل الساحل
عمر قيسارية وارسوف وبقيت في ايدي الفرنج الى ان فتحها الملك الظاهر بيبرس سنة
ثلاث وستين وستماية واخرها " . انتهى كلامه .

قلت في تاسع وعشرين من جمادى الاول من هذه السنة سنة ثلاث وستين
(٦٩٩ق) رحل السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من قيسارية ولم
يعلم احد الى اين توجهه . وسار الى ارسوف فنزل بها مستهل جمادى الآخرة من
هذه السنة . وامر بنقل الاحطاب فصار حولها كالجبال الشاهقة والذلال السامقة .
وما ان اطل الاعداء له يشاهدون قالت لهم الاقدار حصب جهنم انتم لها واردون
فعملت منها المتايير وامر بحفر سرا بين^{من} خندق المدينة الى خندق القلعة وسقفت
بالاخشاب . ولما فرغ من السرا بين سلم احدهما للامير شمس الدين سنقر الرومي
والامير بدر الدين بيسرى والامير بدر الدين الخزندار الظاهري والامير شمس الدين
الذكر الكركي وجماعة الامراء السنجقية وغيرهم . وسلم السرب الآخر للامير سيف الدين
قلاون الالفي والامير علم الدين الحلبي الكبير والامير سيف الدين كرمون وجماعة من
الامراء . وعمل طريق من الخنادق الى القلعة فخرج الفرنج لاحتراق الاحطاب
فطلبهم الامير سيف الدين قلاون وغيره وقلب عليها المياه بنفسه وجماعة الامراء
وطففت تلك النار .

ولما تكامل ردم الاحطاب بالخندق تحيل الفرنج بأن نقبوا من داخل القلعة
الى ان وصلوا الى تحت الردم فحرقوا الارض الى الاحطاب وعملوا بتاتى ملائته ادهانا
وسحونا واوقدوا النيران وعملوا في النقب والمنافذ ولم يعلم العسكر بهذه الحيلة الا
بعد تمكن النيران . وكان ذلك في الليل فحضر السلطان بنفسه في الليل ورمى

الناس نفوسهم في النار لاطفائها وسكبت المياه بالزوايا فما افادت شيئا . واشتعل جميع ما بالخندق من الاحطاب وصارت هباء منثورا . وتمت الحيلة للفرنج خذلهم الله تعالى .
ولكن احدث الله بعد هذا النصر امورا وهو بأن السلطان تقدم (٧٠) الى الامير شمس الدين سنقر الرومي ومن معه وهم نصف امراء السنجقية وميمنه الامراء البحرية وميمنه الحلقة وميمنه الامراء الحاضرين غير من هو مجرد في البيرة وغيرها بأنه يأخذ هو والجماعة المذكورون من مكانه في باب السرب من حافات الخندق من جهة سور حفرا الى البحر الملح . وتقدم الى الامير سيف الدين قلاوون الذي بأن يأخذ هو ونصف السنجقية من جهة الميسرة ويمسرة الحلقة ويمسرة البحرية بأنهم يحفرون الى آخر الخندق من الجهة الاخرى . وان يحفروا من كل ناحية من هذه النواحي سريرا يكون حايط خندق العدو سائرا له . ويحفر في هذا الحائط ابواب يرمي التراب منها وينزل في هذا السرب حتى يساوى ارضها بأرض الخندق . وطلب عز الدين ابيك الفخرى احد اصحاب الاتابك واحضر المهندسين وعد في هذا الامر به . فاستمر العمل في هذه الخنادق والملك الظاهر طائف بنفسه وملازم الخندق يعمل فيه بيده . ويساوى الناس في جر المنجنقات ورمي التراب ونقل الحجارة .

قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : فتعست ام الجبان . فلقد رأيت السلطان يذل من نفسه كل مصون ويهون منها ما لا يهون . وهو بمفرده ماشر في يده نرس وهو تارة في السرب وتارة في الابواب التي تفتح وتارة على حافة البحر يرامي مراكب الفرنج ويجر في المجانيق ويطلع فوق الستائر يرمي من فوقها ويرى كل احد حقه من المباشرة والامر بالجهاد وشكر من يجب شكره والخلع على كل من يفعل فعلا حسنا من ساير الناس . ومع هذا رحم الله الامه بسلامته ومن عليهم بوقايته . قال القاضي محي الدين : حكى لي الامير جمال الدين ابن بهار .

قال : رأيت (٧٠ و) السلطان في هذا النهار رمى ثلاثماية سهم نسابا • وقد قال
صلو الله عليه وسلم : الا ان القوة الرمي • وقال صلوا الله عليه وسلم : من رمى
بسهم في سبيل الله كان كعتق رقبه • وقال صلوا الله عليه وسلم : اذا •••••
••• (١) فارموهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يخشوكم واتفق ان السلطان حضر الى
السرب ويعد في رأسه حلف واقعة يرمي فيها فحررت جماعة من الفرنج الفرسان ومعهم
الرماح بالخطايف فلم ينصرفوا وهم على باب السرب • فقام وقا تلهم يدا بيد • وكان
معه الامير شمس الدين سنقر الرومي والامير بدر الدين بيسر السمسري والامير بدر
الدين الخزندار وغيره • وصار سنقر الرومي يناوله الحجارة فقتل بها فارسين • وقطع
الامير حسام الدين الدوادار احد الخطايف بسيفه وجرح في عنقه • ورجع الفرنج
على اسوأ حال • وكان السلطان يطوف بين عساكره في الحصار بمفرده • ولا يجسر
احد ينظر اليه ولا يسير بأسيبه وحضر اليباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هـــــ
الغزاة المباركة التي ملأت الارزبالعساكر واصناف العالم • ولم ينب بها خمر ولا شيء
من الفواحش بل النساء الصالحات تسقين الماء في وسط القتال ويحرون في المجانيق •
وادلوا السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب مثل الشيخ على المكنون والشيخ
الباس من الاغنام والحوائج • وادلوا للشيخ على البكا حملة من المال وما سمع ان احدا
من خواصه اشتغل عن الجهاد في توبته بنفله ولا سير امير غلمانه في توبته •
واستراح هو الا الناس "سوا" في هذه الامور •

ولازم السلطان تفقد المجانيق بنفسه في كل وقت وعمل كرمون آغا منجنيقا بسبب
سهم "سرا" حسنا • واحضر من دمشق مجانيق وكانت المفارقة في العتاب تحملها
(٧١ و) على الرقاب • واجتهد الامير عز الدين الافرم في امر الحصار الاجتهاد القائم •
ولم يزل ملازم البيت عند المنجنيقات وهو المتصرف فيها • ولما امرت المنجنيقات فني
هدم الاسوار وفر من السرايات التي الى جانب الخندق من الجهتين وفتحت فيها

ابواب متسعة • حصل الزحف على ارسوف في نهار الاثنين ثامن شهر رجب الفرد من هذه السنة وفتحت في ذلك النهار • قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت النار على عين بكت من خشية الله وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : غدوة في سبيل الله اوروحة خير من الدنيا وما فيها • ورباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها • وَقَالَ صلى الله عليه وسلم • طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله • اشعث رأسه مغبرة قدماء • فان كان في الحراسة وان كان في الساقه كان في الساقه • •

وزار السلطان قبر الشيخ الصالح علي بن عليم المدفون الى جانب ارسوف • وهذا الشيخ علي بن عليم من الصالحين المشهورين بالبركات والكرامات • من جملة بركاته انه مدفون على باب ارسوف ولا يدخل الى تربته خنزير • ويساق فيخرج من الباب وعائدا بن البان صاحب ارسوف في امره وشرب عند تربته فيمست يده واقام ثلاثة ايام ومات • فعظمته الفرنج من ذلك الوقت • ويحكي عنه رحمه الله تعالى ان خادمه دخل عليه يوما وهو في خلوته فسمعه يقول : والله لا ارضى فخرج ودخل مرة اخرى فسمعه يقول والله ما ارضى • ثم سمعه يقول رضيت • فبقي في قلب الخادم من ذلك شيء • فلما حضرت الشيخ الوفاة قال للخادم في خاطرك شيء • لا بد ان ازيله • وهو ذلك الذي سمعته اذكره • قال : نعم • قال : شفني الحق سبحانه وتعالى في الفرج من زارني فلم ارض • ثم شفني في الفين فلم ارض • ولم ارض الا (٧١ق) في جميع من زارني ان لا يعذبه الله بالنار فعند ذلك رضيت • وعبرت مركب وفيها رجل مسلم اسير مع الفرنج فسأل عنه فقال له هذا قبر رجل صالح • فقال اللهم ان كان لعبدك هذا حرمة وهو من عبادك الصالحين فخلصني • ورفع صوته فضربه الفرنج فوقفت المركب ثلاثة ايام حتى اطلقوه فنزل الى قبره • وهذا الشيخ مشهور مذكور في الكتب والله اعلم •

وكان للشيخ الصالح علي المجنون كرامات معروفة . فجزت منه نكته غريبه في هذه الغزاة وهي انا كنا قدما ان الشيخ علي المجنون وجماعة من الصالحين حضروا هذه الغزاة . فلما كان في يوم الفتح قبل ان يعلم احد حديث الفتح ركب الشيخ علي وحصل له حال فساق الى ان وقف على حافة الخندق . وازيد وغاب ذهنه وصار يرفع صوته ويشير الى القلعه . وستره الناس بالطوارق . ولم يزل على هذه الحالة حتى سير الامير شجاع الدين الشبلي وعرف السلطان ان الباشورة انشقت . فلما ثني الشيخ علي رأس فرسه ورجع الى باب السرب وقع سور الباشورة وشاهد الناس هذه الحالة والكرامة . ومن كرامات هذا الشيخ علي ما حكى عن ابن صبره قال : كنت اخدم صاحب ماردین فحضر هذا الشيخ علي المجنون اليه وشفع في تركمان حبسهم المذكور فلم يقبل شفاعته فيهم . فأعاد السؤال فأكر عليه صاحب ماردین دخوله في هذه القضية . فحصل للشيخ حال وقال والده لارمين حجارة هذه القلعه على رأسه . فأرسل الله تعالى سحابة . وكان الوقت صيفا واستلت على القلعه واسودت حتى اظلم الوقت وامطرت حجارة فتطارح صاحب ماردین على رجله حتى رضى واقلعت (٧٢و) السحابة . ولما قدر الله وقوع الباشورة في الساعة الرابعة من نهار الخميس طلوع المسلمون اليها تمليقا . وما احسن الفرنج بالمسلمين الا وقد خالطوهم من كاب باب . ورفعت الاعلام الاسلامية على الباشورة . وحفت بها المقاتله . وطرحت النيران في ابوابها واعطى السلطان سنجقه الامير شمس الدين سنقر الرومي . وامره ان يؤمن الفرنج به من القتل عندما طلبوا الامان . فلما اراد الفرنج بطلوا القتال وسلم السنجق للامير علم الدين سنجر المسروري الحاجب المعروف بالخياط ودليت له الحبال من قلعه ارسوف فربطها في وسطه والسنجق معه . ونشله الفرنج الى القلعه . فأخذ سيوفهم واحضروا في الحبال والامراء صفوف والاسارى يؤتى بهم السوف .

وكان فتح قيسارية يوم الخميس • وفتح قلعتها يوم الخميس • وفتح ارسوف يوم الخميس • وهذا دليل على توفيق الله سبحانه وتعالى لانه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ما كان يخرج في سفر الا يوم الخميس • وقال العلماء ينبغي للمجاهد ان لا يخرج الا في يوم الخميس اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في اسفاره لان الاعمال تعرض على الله سبحانه وتعالى يوم الخميس • ولما لم يبق بأرسوف احد من الفرنج اباح السلطان القلعة للمسلمين بما فيها من غلال وذخاير ومال • وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض منها الا لما اشتراه بماله • وكان في اسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا تلك الساعة واخذت قيودهم قيد بها الفرنج • ونقل الاسر من المسلمين الى الكافرين وبقي به صدور قوم مؤمنين فسبحان الفعال لما يريد • وجرد السلطان جماعة من المقدمين يتوجهون مع الاسارى • وسير لكل امير جماعة من اسارى الفرنج ولكل مقدم جماعة •

وكتب السلطان (٧٢ق) الى قسطلان يافا بأن يكتب الى صاحبه بأننا لانتحمل الهزيمة • واذا اخذ احد مزرعة اخذنا عوضها قلعة مرتفعة • واذا اسر لنا سلاح اسرنا الفا من مقاتله لابس السلاح • واذا هدموا جدارا هدمنا اسوارا • والسيف في يد الضارب والجواب عنانه في قبضة الراكب • ولنا يد تقطع الاعناق ويد تصل الى الارزاق ومن تحرش فعن تجربة ومن اراد شيئا من الاشياء فهذه الامور له مرتبه •

وشرع السلطان في تقسيم ابراج ارسوف على الامراء وجعل هدمها دستورهم

(١) ورسم بأحضار الاسارى لآخوابها فكانوا كما قال الله تعالى : يخرّبون بيوتهم

بأيديهم وأيدى المؤمنين (١) . فنظم القاضي محي (٢) ابن عبد الظاهر جامع

سيرة الملك الظاهر في وصف الفتح المذكور أبياتا منها :

وقد غلبت على الدنيا فدونها	كما تسرك والدنيا لمن غلبا
واكتب الى الارض بالبشرى فربك في	السبع السموات بالبشرى لها كتبها
وثبت بالدين لما ثبت (٣) مقتدرا	ياخير من ثاب او غاخير من وثبا
طلبت ثار الهدى والدين اذ تعدت	عنه الملوك وما اسطاعوا لها (٤) طلبا
نصبت للشرك اشراكا فصدتهم	لم يقدروا رهبا ان يقدروا هربا
قلعتهم بقلع ظلت تهدمها	انت الذي تبغي (٥) المسلوب لا السلبا
ان اسرعوا نقلة عنها فانهم	حلوا لها كل برج ظل منقلبها
ان الفتوحات لما رث ملبسها	تبتز من يز قيسارية القشبا
في كل ارض جيوش قد بعثت بها	حتى لقد اصبحت اياتها عجبها
ففي الحجاز لها نفع وفي حلب	نفع وكم تركت من خلفها حلبا
لها السيوف التي كم اقضت بلدا	لما غدوت ومنها تعطر العسريا
اكرم بها عصابة مثل النجوم سنا	وكالرجوم اذا لها (٦) اضرموا اللهبها
اجلت من الكفر اقطارا وكم عمرت	من الجيوش لهم ما كان قد خربها
كم قد قدفت شياطين العدو بها	حتى لقد ابصروا من شهبها شهبها
يشني اعنتها ملك عزائمها	قد اصبحت في الوغى راحاتها التعبا (٧٣و)
ملك سعادته قالت لتسمع ما	من الثغور نأى عنها وما قربها
لا يحسب الناس قيسارية ضعفت	او اسلمت نفسها من خيفة رهبا
لكنها بذول النصر قد علق	وقد انتبه لعكا تطلب الحسبا
كذاك ارسوف لما جاز غايتها	ماجا محتبها بل جا محتبها

(١) سورة الحشر ٥٩ اية ٢ (٢) كذا في نسخة اخرى من نسخة المحي الدين .
 (٣) بدون تنقيط في الاصل . (٤) كذا في الاصل ولعلها " له " (٥) كذا في الاصل
 والوزن يقتضى ان تكون " تبتغي " (٦) كذا في الاصل والوزن غير مستقيم ولو كانت
 (ما) لاستقام الوزن وما اختل المعنى .

لئن غدا آخذ الدنيا ومعطيها فأنه احسن التقسيم محتسبا
فثلل الحديد رقاب منهم اسمرت وللخيول من البلدان ما وهبا
وللسيوف دماء منهم سفكت وللنسر من الاشلاء ما انتهبا
وللصايف اجرزان صفحتها وللشايخ ذكر طرز الكتبا
الملك جد وجد يستضاه به وليس زهوا ولا لهوا ولا لعبا
لازال في نعمة يدعو الانام له وذاك حق على الاسلام قدوجبا

لما فتح الله تعالى على السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قيسارية كما قدمنا شرحه امر الامير سيف الدين الرومي الدوادار بكشف بلادها وتحقيق متحصلها . وعملت اوراق بذلك . ولما فتح الله ارسوف كما قدمنا شرحه طلب قاضي دمشق والعدول ووكيل بيت المال بها وتقدم بأن يملك الامراء المجاهدون من البلاد التي فتحها الله عليه ما يأتي ذكره . وكتب التواقيع لكل منهم ولم يطلعوا عليها . ولما اثبتت التواقيع فرقت على اربابها وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك ونسخته (١) :

اما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة المعقود وتمكينه التي رفلت الملة الاسلامية في اصفى البرود وفتح الذي شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت لامر ما يسود من يسود . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاهد الكفار وجاهد هم بالسيف البثار واعلمهم لمن عقبى الدار وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشي والابكار (٧٣ق) فان خير النعمة نعمه وردت بعد اليأس واقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس . فأكرم بها نعمة وصلت للملة المحمدية اسبابا . وفتحت للفتوحات ابوابا وهزمت من التتار والفرنج العدوين ورابطت من الملح الاجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين . وجعلت عساكر الاسلام تذلل الفرنج بغزوهم في عقر الدار وتجوس من حضرتهم المانعة خلال الديار والامصار وتقود من فضل عن شيع السيف الساغب الى حلقات الاسار . ففرقه منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا وفرقة تبني ما هدم التتار

بالمشرق وتعليه تحصينا . وفرقه تتسلم بالحجار قلاعاً شاهقة وتتسمن هضاباً سامقة .
فهى بحمد الله البانية الهادئة والقاسية الراحمة كل ذلك لمن اقامه الله وجرده
 سيفاً ففره . وحملت رياح النصره ركابه تسخيراً فسار الى موطن الظفر وسرى وكونته
 السعادة ملكاً اذا راته في دستها قالت : تعظيماً له ما هذا بشراً وهو السلطان
 الملك الظاهر ركن الدين والدنيا ابو الفتح بيبرس جعل الله سيوفه مفاتيح للبلاد
 واعلامه اعلاماً من الاسنة على رأسها نار بهداية العباد فانه آخذ البلاد ومعطيها
 وزاهاها بما فيها . واذا عامله الله بلطفه شكر واذا قدر على واصلح . فوافقه القدر
 واذا اهدت اليه النصره فتوحات قسمها في حاضرها لديه متكسراً وقال الهدية
 لمن حضر . واذا خوله الله تخويلاً وفتح على يديه قلاعاً جعل الهدم للأسوار
 والدمار للسيف البتار والرقاب للأسار والبلاد المزدرة للأولياء والانصار . ولم يجعل
 لنفسه الا ما تساراه الملائكة في الصحايف لصفحة من الاجور . وتطوى عليه طويسات
 السير التي غدت بما فتحها الله من الشغور باسمه باسمه الشغور :

فأعطى المدن واحتقر الضياعاً	ففى جعل البلاد من العطايا	
عياناً ضعيفاً فافعلوا سماعاً (٧٤و)	سمعنا بالكرام وقد اراننا	
جبيلاً كان ما فعل ابتداء	اذا فعل الكرام على قياس	

ولما كان بهذه المشابة وقد فتح الفتوحات التي اجزل الله بها اجره وضاعف
 ثوابه . وله اولياء كالنجوم ضياء وكالاقدار مضاء وكالعقود تناسقا وكالويل تلاحقاً
 الى الطاعة وتسابقاً رأياً لا ينفرد عنهم بنعمه ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحه غدت
 بسبيوفهم تستنفذ وبعزائمهم تستخلص وان يؤثرهم على نفسه . ويقسم عليهم الاشعه
 من انوار شمس مويقتى للولد منهم وولد الولد ما يدوم الى آخر الدهر ويبقى على
 الابد . وتعيش الابناء في نعمته كما عاش الاباء وخير الاحسان ما شمل واحسنه

ما خلد . فخرج الامر المالي لا زال يشمل الاعقاب والذرائع وينير اشارة الانجم
الداري ان يمد امراءه وخواصه الذين يذكرون وفي هذا المكتوب يسدرون ما يتبين من
البلاد والضياح على ما يسر ويبين من الاوضاع وهو الاتاب فارس الدين اتاب الصالحي
عتيـل بكـمالها . الامير جمال الدين ابدغدي العزيز النصف من
زيتا . الامير بدر الدين بيبرس السمي الصالحي نصف طوركرم (١) الامير
سمر الدين الدكر الكركي (٢) ربع زيتا . الامير سيف الدين قليج البغدادي
ربع زيتا . الامير ركن الدين بيبرس حاصر ترك الكبير الصالحي افراسين بكـمالها . الامير
علاء الدين ايدكس البندقدار الصالحي تامه (٣) الشريفة بكـمالها الامير عز الدين
ايدمر الحلبي الصالحي نصف قلنسوة (٤) . الامير سيف الدين قلاوون الافى الصالحي
نصف طيبة الاسم . الامير عز الدين افغان سم الموت نصف طيبة الاسم . الامير
جمال الدين النجيبى نايب سلطنة السام ام الفحم بكـمالها من قيسارية . الامير
(٧٤ و) علم الدين سنجر الحلبي الصالحي بتمان (٥) بكـمالها الامير جمال
الدين اتور المحمدي الصالحي نصف بويرين . الامير فخر الدين الطنبا الحمصي
نصف بويرين . الامير جمال الدين ابدغدي الحاجبي (٦) ^{نصف} التاسر ^{نصف} بويرين (٧)
الامير بدر الدين بيليب ايدمر الصالحي نصف بويرين . الامير فخر الدين عثمان
بن العلق المغيث ثلث حله (٨) . الامير صارم الدين صراغان ثلث حله (٩)

-
- (١) ويعدده في ابن ابي الفضائل (ص ١٢٩) "والامير بدر الدين بيليب الخزندار نصف طوركرم"
 - (٢) الركني في ابن ابي الفضائل (ص ١٣٩)
 - (٣) "باقة" في ابن ابي الفضائل (ص ١٤٠) (٤) ويعدده "الامير سمر الدين" في الرومي
نصف قلنسوة "ابن ابي الفضائل (ص ١٤٠)
 - (٥) في الاصل بدون نقط . راجع ابن ابي الفضائل (ص ١٤٠)
 - (٦) الخاصي في ابن ابي الفضائل (ص ١٤٠)
 - (٧) بويرين ابن ابي الفضائل (ص ١٤١)
 - (٨) "حله" في ابن ابي الفضائل (ص ١٤١)
 - (٩) ساقط هنا "الامير سمر الدين سلاو البغدادي ثلث حله" ابن ابي الفضائل (ص ١٤١)

الامير ناصر الدين القيمري نصف البرج الاحمر . الامير سيف الدين بلبان الزينبي
 الصالحي نصف البرج الاحمر . الامير سيف الدين ايتامش (١) السعدي نصف تما (٢)
 الامير شمس الدين اقسنقر السلحدار نصف تما (٣) الملك المجاهد سيف الدين اسحاق
 صاحب الجزيرة نصف دنابه . الملك المظفر صاحب سنجار نصف دنابه . الامير بدر
 الدين محمد بن ولد الامير حسام الدين برکه خان دير العصفور (٤) بکمالها .
 الامير عز الدين ابيك الافرم امير جاندار نصف الشويکه . الامير سيف الدين كرمون آغا
 التتوي نصف الشويکه . الامير بدر الدين الوزيري نصف طرس (٥) الامير رکن الدين
 منكدرس الدويداري نصف طرس . الامير سيف الدين قشتمر العجبي عرار بکمالها .
 الامير علاء الدين اخو الدويدار نصف عرعر . الامير سيف الدين بيحوق (٦) البغدادي
 نصف عرعر . الامير سيف الدين ذکحل (٧) البغدادي نصف فرعون . الامير علم الدين
 سنجر الازکشي نصف فرعون . الامير علم الدين طردج (٨) الامدي سبايا (٩) بکمالها .
 الامير حسام الدين ايتامش ابن اطلس خان سيدا بکمالها . الامير علاء الدين کندغدي
 الظاهري امير مجلس الصير الفوقا (١٠) الامير عز الدين ابيك الحموي الظاهري نصف
 ارتاج . الامير شمس الدين سنقر الالفی نصف ارتاج . الامير علاء الدين طيبرس الظاهري
 نصف يافه (١١) الغربية (٧٥) الامير عز الدين الاتابک الفخري القصير بکمالها .

-
- (١) انتمش في ابن ابي الفضائل ص ١٤١
 - (٢) يما في ابن ابي الفضائل ص ١٤١
 - (٣) کذا في الاصل وفي ابن ابي الفضائل (ص ١٤١) يما .
 - (٤) دير الغصون في ابن ابي الفضائل ص ١٤١
 - (٥) طبرس في ابن ابي الفضائل ص ١٤٢ (٦) قفجق في ابن ابي الفضائل ص ١٤٢ .
 - (٧) ذکحل في ابن ابي الفضائل ص ١٤٢ (٨) طردج في ابن ابي الفضائل ص ١٤٢ .
 - (٩) اقتابه في ابن ابي الفضائل ص ١٤٢ (١٠) الصغرا بکمالها في ابن ابي الفضائل ص ١٤٢
 - (١١) باقة في ابن ابي الفضائل ص ١٤٣ .

الامير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهرى احتسب ريكالمها . الامير ركن الدين بيبرس الميزى نصف قفيص . الامير شجاع الدين دغريل السبلي امير ميمندار نصف كغوراعي . الامير علاء الدين كندغدن الجبشي (١) مقدم الامراء البحرية نصف كغوراعي . الامير شرف الدين بن ابي القسم نصف كستا . الامير بهاء الدين يعقوب الد - رزور نصف كستا . الامير جمال الدين موسى بن يعمور استاد الدار العالية نصف برويكه (٢) . الامير علم الدين سنجر الحللى الغزاوى (٣) نصف برويكه . الامير علم الدين سنجر نايب امير حاندار نصف حانوتا من ارسوف . الامير سيف الدين بيدغان الركني افراد نسيقا (٤) بكمالها من قيسارية . الامير عز الدين ايدمرن الظاهرى نايب الكرب ثلث حبله من ارسوف . الامير جمال الدين اتور السلحدار الرومي ثلث حبله . الامير سمر الدين سنقرجاه الظاهرى ثلث حبله من ارسوف الامير بدر الدين بكتار الفزرى امير سلاح ثلث جلجوليه . الامير علاء الدين كستغدى النمسي ثلث جلجوليه . الامير بدر الدين بكتوت بجكا (٥) الرومي ثلث جلجوليه (٦).

وكتب من كتاب التمليك السري الجامع نسخ وقرئت لكل امير نسخة بمكانه . وخلص على قاغي القضاة ونوجه الى دمشق . وكتب الله تعالى هذه الحسنة للسلطان الملك الظاهر في صميفته قبل كتابتها في سيرته . وتسلم كل من الامراء ما حصه من ذلك . ونقلت المنجنوقات الى القلاع القريبة الكرد وعجلون وغيرها .

ورحل السلطان من ارسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب الفرد سنة ثلاث وستين وستمائة هذه السنة . والفرنج قد انقضت دهورهم واحتلت امورهم وخابت مساعيهم . واتم بالعويل ناعيمهم . وكلمة الاسلام قد رفعت واسباب (٧٥) الكفر من الحياة قد قطعت وحمونهم الحصينة ما نقت .

(١) الجبشي في السلوك ص ٥٣٢ (٢) "برنيكه" في ابن ابى الفنايل ص ١٤٢

(٣) العزازى في ابن ابى الفنايل ص ١٤٢ (٤) فرديسيا في ابن ابى الفنايل ص ١٤٢

(٥) كجكا في ابن ابى الفنايل ص ١٤٤ (٦) لائحة هذه الاسماء في السلوك للمقريزى ص ٥٣٢ - ٥٣٤ ويقول E. Blochet (ج ١ ص ٤٨١) انها في النورى ايضا لكن هناك بعض الاختلاف

وسار السلطان الى غزة وعاد منها الى مقر مملكته بالديار المصرية • وحج الملك
السعيد بن الملك الناصر واتابكه عز الدين الحلي نايب السلطنة بالديار المصرية للقيام
من بركة الحاج • ودخل السلطان وشق مدينه القاهرة وهي مزينة في يوم الخميس
حادي عشرين من هذه السنة والاسر بين يديه ودخل قلعته • وعرض ما حصله
الامير عز الدين الحلي والناظر بيها الدين من الخزائن ولم يترك احدا من امير ولا وزير
ولا مقدم ولا مفرد ولا حواصم ولا برد داريته ولا جميع حاسيته الا اعطهم بالمال والاحسان واحسن
الى رسل الملك بركة وكتب الى اليمن والاندلس والبصرة والنجف حملة من الصدقات غلبة
ودراهم وكساوى فرقت في الفقراء بجامع الازهر وغيره •

ذكر ما وقع بالقاهرة ومصر من الحريق وما قبله

الملك الظاهر عند قدومه الى قلعته •

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الداعي بلغه ان الحريق بمصر
والقاهرة قد كثر في كل مكان • وسام الخبر بان النصارى يفعلون ذلك لاجل اتلاف
دينهم واحراق كنائسهم • وصار الناس من ذلك في شدة عزيمة • ووجد النفط والكبريت
في بعض الجهات • فلما حضر السلطان الى قلعته واستقر في مقر مملكته طلب النصارى
واليهود وانكر عليهم هذه الامور التي تفصح عندهم وارم بريق جميعهم • فجمع منهم
عالم كثير في القلعة واحترق الاحطاب والحلفاء • فلما راوا العذاب وتقذعت بهم
الاسباب سألوا الرحمة ومننوا بسابق الخدمة • فنفع فيهم الامير فارس الدين اقطان
اتابك الحساكر على ان يلتزموا بالاموال التي احترقت وان يهلوا الى بيت المال خمسين
الف دينار • فأقر عنهم • وقال صاحب "نظم السلوك في تاريخ الالفاء والملوك"
قرر عليهم حمل خمسمائة الف دينار (٧٦ و) الى بيت مال المسلمين • والتم بتوزيعها
واستخراجها بطرك النصارى • والتزموا انهم لا يعودون الى شيء مما كانوا يعتمدون عليه

من المنكرات ولا يخرجون عما هو مرتب على اهل الذمة وانفصل الحال على ذلك وحمل
المال اولا اولا . والله اعلم .

ذكر هروب زامل بن علي والقبض عليه

لم يزل السلطان محسنا الى الامير نور الدين زامل بن علي وهو لا يزيد الا علوا
واستكبارا والفتنة لاتسكن بينه وبين الامير عيسى بن مهنا . ولما طلعت العساكر الى
الشام صحبة الامير علاء الدين طبرسر واجتمعت بالبلاد الحلبية قبضوا على زامل بن علي
لتستويج الخواطر من تلك الفتنة واحضروه الى قلعة عجلون . ولما بلغ السلطان الملك
الظاهر ذلك احضره واعتقله ثم افتر عنه وطيب قلبه وصار يلعب مع السلطان الكرة .
وطلب السلطان الامير شرف الدين عيسى بن مهنا واجمل بن حجي والامير هرون واصلح
بينه وبينهم واعادوا الى الامير زامل اقطاعه وامرته . وتوجهوا فلم يصبر زامل الى ان
يصل الى البلاد بل سار من اول الرمل الى البلاد . وذكر ان عيسى هجم بيوته
فأخرب زامل وافسد وقبض على قصاد السلطان ومملوك الاتابك المتوجه الى شيراز واخذ
الكتب وتقرّب بها الى هلاون وتوجه اليه بنفسه واطعمه في المسلمين . فأعطاه هلاون
اقطاعا في العراق وتوجه الى الحجاز لمشتاء فنهب وقتل وانتهب حرمة الاشراف وحضر
الى اوائل الشام . وكان الملك الظاهر قد اعطى اقطاع زامل وامرته لاختيه ابي بكر
فضاقت على زامل الارض بما رحبت . وراسل السلطان في طلب المعفو فقرر معه الحضور
وعينت له مدة وكتب اليه انه ان تأخر عن هذه المدة ليعر له عهد ولا ايمان فتأخر
عن المدة المعينة (٧٦ق) فلما وصل سير السلطان الى القلعة ورسم بحبسه وسكنت
الفتنة ووقعه الله في البئر التي حفرها واره عاقبه بطر النعمة التي كفرها . وهذا
جزاه من كفر الاحسان و خان الله وخان السلطان . جعل الله كل باع عليه في
قبضته اسيرا وخوله في الدنيا ملكا عظيما وفي الاخرة نعيما كبيرا .

ذكر قتل الامير علم الدين سنجر بن صون

كان الامير علم الدين سنجر بن صون من رجال الحلقة فتحرب في ايام الملك المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية بحركات دميمة . ولما انتقلت السلطة من الملك المظفر الى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي احسن اليه واراد استصلاحه فرجع الى ماكان يعتمد به في الدولة المظفوية . فاعتقله السلطان الملك الظاهر مدة ثم ذكر له خدمه سابقة فاطلقه وامره فشرع في الاسر التي كان عليها . فطلبه السلطان في الموكب وقال له اني اسمع عن موافقة للمفسدين فارجع عما انت عليه . وسير له خلعه وذهب فأخذ ذل وهرب الى العرب وسير في افساد جماعة من العسكر . فأرسل له السلطان امانات مرارا فردها وتواتر فساد فسير اليه السلطان من قطع رأسه واحضر بعد ذل اخوه فأحسن السلطان اليه والله اعلم .

في خامس عشر شعبان من هذه السنة، جلس السلطان الملك الظاهر بدار العدل وطلب تاج الدين ابن القرطبي . فلما حضر قال له : اضرتني مما تقول عندي مصانع لبيت مال المسلمين فتحدث الان ما عندك . فتحدث في حو قاضي القضاة وفي حق صاحب سواكن والامراء الذين يتوفون وانهم اخذوا اكثر من حقوقهم فأحضر (٧٧٠) السلطان زيارا واره للناس وقال : من صبر على هذا الزيار يستكثر له اقطاع او يستكثر لورثته موجود لخلفه لهم وانكر عليه وامر بحبسه .

وتحدث السلطان في امر الجند وانهم في البكار وفي مواطن الحصار لا يصل اليهم شاهد فيشهد احدهم اصحابه فاذا حضروا لاتقبل شهادتهم وتضيع اموال الناس لهذا السبب . وقال انا ارى ان كل امير يعين من جماعته من فيه خير وديانة يسمع قوله . وكذلك كل مقدم وكل جماعة من الجند ممن فيهم الخير والصلاح تسمع اقوالهم لتحفظ اموال الناس .

ففرح الامراء بهذه القضية •

وشرع قاضي القضاة في اختيار الناس الجياد لذلك وجلس ايضا بدار العدل في
تاسع وعشرين شعبان الشهر المذكور فوقف له شخص في امر خلوا الاملاك الديوانية • فأنكر
كون الديوان لا يخلي عن الناس وامر بالاخلاء عند الاجارة •

وفي هذا الشهر وصلت رسل من جهة الانبرور ووصلت رسل الملك الاشكري واحضر
رسول الاشكري جملة من الهدايا من الاطلس والوبر والطيور وغيرها •

وفي هذا السنة توجه الامير بدر الدين بيليت الفايزي ومعه جماعة كشافه وساق
حتى سقي خيله من دجله •

وفي سابع شهر رمضان من هذه السنة وصلت العساكر التي كانت بالبيرة صحبة
الامير جمال الدين المحدث والامير عز الدين ايفان • وفي شهر رمضان وصلت هدية
من جهة ملك الكرج الى الابواب الشريفة (١) وسبب ذلك ان السلطان كان سير
القصاد الى ملوك الطوائف ومن جعلتهم ملك الكرج داود بن سودان ملك ابهر (٢)
ووصل من جهته كتاب عرب وهو (٧٧ق) الشكر قدام الله • ولخوف العدو وفي الطرقات
ما ذكرت اسم السلطان ولا اسمي • وقد فرحت فرحا عظيما كونك فتشت على محبة اهل
بيتي لاهل بيتك والان فقد خلعت لك على الانجيل اني عدو عدوك وصديق صديقك
والناس مترددون من عندي الى عند الملك بركة فان كان لك شغل سير الى عندي
رسولا حتى اوصله الى عنده الى غير ذلك والله اعلم •

(١) في الاصل الشريف

(٢) كذا في الاصل •

ذكر بعض خبر قرقيسيا وفتحها

كانت قرقيسيا هذه من اقدم المدن وكانت تعرف بالزباء ملكة من ملوك الجاهلية وفيها يقول ابن دريد :

فاستنزل الزباء قسرا وهي من عقاب لوح الجواعلى منتما .

وكان السلطان قد ارسل اهلها وسير اليها الامير كمال الدين الطورى وملكها واقام بها مدة . فقصدها التتار . وكانت حمص والرحبة في يد الملك الاشرف صاحب حمص وهذه الجهة لا يتأتى فيها امر الا بالرحبة فعاد كمال الدين الطورى الى خدمة السلطان الملك الظاهر وتركها .

وفي شهر رمضان من هذه السنة ارسل مقدموها الى عز الدين السكندرى النايب بالرحبة وسألوه عفو السلطان وسيروا رهاينهم فسارت اليها جماعة من الخيالة والاقبية وساقوا من اول الليل الى نصفه وياتوا على ماكسين . فلما اصبح الصبح احاط بها المسلمون وعسكر السلطان وتسلموها وقتلوا من كان بها من عسكر التتار والكرج واسروا من المرتدة نيفا وثمانين نفرا . وتسلموا الجسر ومراكبه والسلسلة . وكان تسلمها في نصف شهر رمضان من هذه السنة .

وفي هذه السنة بلغ الملك الظاهر ان بحر اشموم الذى كان الامير سيف الدين الرشيدى توجه لعمله (٧٨٠هـ) ان عمله ما افاد . فرسم بتحصيل المراكب لاجل التفريق وحصلت الالات . وتوجه السلطان اليه بنفسه في ثاني شوال من هذه السنة وقسم عمله على الامراء وعمل بنفسه . وشاهد على كتفه قفه ملوثة ترابا فلم يبق احد من امير ولا وزير ولا كبير الا وبادروا العمل بنفوسهم . وحصل الاجتهاد من كل جهة وصار السلطان مستمر العمل في كل يوم يركب في مركب ويشاهد تفريق

المراكب ويحسن الى من نهض في العمل • فتنجز الشغل في ثمانية ايام وتكامل الحفر •
وكذلك الجهة التي من جهة جوجر • وتوجه السلطان الى منزلة ابن حسون وعاد الى
قلعته في حادى وعشرين شوال الشهر المذكور • ورسم السلطان بابطال حراسة
النهار بالقاهرة ومصر • وكانت جملة مستكثرة وكتب التواقيع بابطالها طلبا لثواب الله
تعالى •

وفي يوم الجمعة قرئ مكتوب بأشعوم بمسامحة الاعمال الدقهليه والمناحيصة
بأربعة وعشرين الف درهم عن رسوم الولاية والمال المستخرج برسم النقيدى •

وفي شوال المذكور توجه شجاع الدين ابن الداية الحاجب الى الملك بركه
رسولا من السلطان في كف غارات الملك بركه عن بلاد الاشكرى حسب سؤال
الاشكرى في ذلك • فسيره في ذلك وفي مهمات اخر • وسير معه ثلاث عمر اعتمر
بها بمكة شرفها الله تعالى للملك بركه لم يعمل مثلها لما اشتملت عليه من الايات
والاحاديث النبوية والازهاب • وسير معه قمقمان من ماء زمزم ودهن بلسان وغير
ذلك • وتوجه معه احد اصحاب الملك بركه وهو جمال الدين محمود •

وفي آخر شوال الشهر المذكور تشوش مزاج السلطان الملك الظاهر فتداوى
بالصدقه (٧٨ق) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : داووا مرضاكم بالصدقه
وافرج عن المعتقلين •

وفي ذى القعدة من هذه السنة وصل الى الابواب الشريفة الراهب كريانوس المسير
الى الملك الاشكرى بكتاب الاشكرى بالحلف للسلطان على حفظ اليهود •

وفي ذى القعدة الشهر المذكور وصل الامير جمال الدين النجيبى الى الباب
الشريف فتحدث معه في مهمات الامور وكتب على يده تذكرة بمصالح الرعية وعاد في

ذى الحجة •

ذكر من ولي القضاء بمصر المحروسة من زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنه الى ان جعلهم الملك الظاهر ركن الدين ببيروت في هذه السنة اربع
قضاة من كل مذهب من المذاهب الاربعة اهل السنة والجماعة قاضي شافعي وقاضي
حنفي وقاضي مالكي وقاضي حنبلي •

اعلم ارشدنا الله واياك ان اول من ولي القضاء بمصر المحروسة في زمن
عمر بن الخطاب امير المؤمنين رضي الله عنه بعد ان فتحها عمرو بن العاص رضي
الله عنه قيس بن ابي العاص السهمي رضي الله عنه فأقام الى سنة اربع وعشرين
للهجرة وتوفي رحمه الله تعالى •

وولي امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعده عثمان بن قيس بن ابي
العاص فلم يزل قاضيا بمصر الى ان عزله امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان الاموي
رضي الله عنهما في سنة اثنتين واربعين للهجرة •

وولي بعده سلمان (١) بن عترة (٢) النجيب • وولي بعده (٣)
عاصم بن سعيد المرادي (٤) وكان اميا فلم يزل الى ان توفي في زمن الامير عبد العزيز
بن امير المؤمنين مروان بن الحكم الاموي امير مصر نيابته اخيه امير المؤمنين (٧٩و)
عبد الملك بن امير المؤمنين مروان بن الحكم الاموي في سنة ثمان وستين للهجرة •

-
- (١) "سليم" في كتاب القضاة ص ٥ وابن حجر، رفع الاصر (ص ٤)
(٢) "عترة" في مقدمة كتاب القضاة (ص ٨)
(٣) بياض في الاصل •
(٤) كذا في الاصل وهي المردي في كتاب القضاة (ص ١١) والمرادي في رفع الاصر (ص ٤)

وولي بعده بشير (١) بن النضر المزني .

وولي بعده عبد الرحمن بن حجير (٢) الاكبر فلم يزل الى ان توفي في سنة
ثلاث وثمانين للهجرة . وقيل في هذه السنة كانت اول ولايته وان وفاته كان في سنة
خمس وثمانين للهجرة والله اعلم اي ذلك كان .

وولي بعده يونس بن عطية الخضرى فلم يزل الى ان توفي في سنة ست وثمانين
للهجرة .

وولي بعده عبد الرحمن بن معاوية بن خديج الكندي (٣) .

وولي بعده عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل ابن حسنة (٤) . ولم يزل الى ان
توفي في سنة تسع وثمانين للهجرة .

وولي بعده عبد الاعلى بن خالد بن ثابت العبسي (٥) .

وولي بعده عبد الله بن عبد الرحمن بن حجير الخولاني ولم يزل الى ان عزل
في سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

وولي بعده عياض بن عبيد الله الازدي بن السلامي ولم يزل الى ان عزل في
سنة مائة للهجرة .

وولي بعده عبد الله بن خدام (٦) ولم يزل الى ان عزل في سنة اثنتين ومائة .

وولي بعده يحيى بن ميمون الحضرمي ولم يزل الى ان عزل في سنة اربع عشرة ومائة .

(١) بشر في رفع الاصر ص ٤ ملحوظة ٤ و هو بشير في كتاب القضاء ص ١٣
(٢) في الاصل بدون تنقيط .
(٣) في الاصل شرح في رفع الاصر ص ٤ ملحوظة ١٢
(٤) في كتاب القضاء ص ٢٣ "الحسيني"
(٥) عبد الاعلى بن خالد الفهمي ، رفع الاصر ص ٤ ملحوظة ١١
(٦) حذاقر في كتاب القضاء ص ٣٢

وولي بعده يزيد بن عبد الله بن خندام (١)

وولي بعده الجعمان بن خالد المدلجي (٢) • ولم يزل الى ان توفي في سنة خمس عشرة ومائة للهجرة •

وولي بعده ابو محمد حجن توبه (٣) بن نمر بن جبريل بن ثعلب بن ربيعة بن نمر

الحضرمي • وهو اول من ديون الاحباش وجعل لها ديوانا واستعفى عن القضاء فقيل له فمن ترى يكون فأشار لخير (٤) بن نعيم وكان استعفاؤه من الحكم على ما ذكره الفراء في تاريخه في سنة (٧٩ق) احدى وعشرين ومائة للهجرة •

وولي بعده ابو اسماعيل خير بن نعيم بن مرة بن كعب بن عمر بن خزيمة بن اوس

الحضرمي • ولم يزل الى ان عزل في سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة •

وولي بعده اوس الحضرمي وعزل في سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة •

وولي بعده عبد الرحمن بن سلام (٥) بن ابي سالم الجيثاني • ولم يزل الى

ان انقرضت الدولة الاموية وعزل لما دخلت عساكر بني العباس مصر في سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة •

واعيد بعده خير بن نعيم للقضاء ولم يزل الى ان حبس جنديا على دين فأخرجه

امير مصر فعظم ذلك على خير فعزل نفسه عن القضاء في سنة خمس وثلاثين ومائة للهجرة •

فقالوا له من تولي بعدك فقال كاتبه ولم يعد بعد ذلك الى القضاء • وتوفي في سنة

سنتين ومائة وقبره عند قبر القاضي بكرا بن قتيبه وهو يزار •

(١) حذامير في كتاب القضاء ص ٣٢ .

(٢) الخيار بن خالد المدلجي في رفع الاصر ص ٤ ملحوظة ١٩

(٣) بدون تنقيط — راجع كتاب القضاء ص ٣٦

(٤) بدون تنقيط في الاصل راجع كتاب القضاء ص ٤١

(٥) ابن سالم في كتاب القضاء ص ٤٦

وولي بعده غوث بن سلمان الحضرمي (١) وهو كاتب خير بن نعيم القاضي قبله
فبقي الى ان خرج مع الامير صالح بن علي العباسي امير مصر للصفية في سنة اربع
واربعين ومائة للهجرة .

وولي ابو خزيمه ابراهيم بن يزيد البائي والبات بالباء الموحدة والثاء المشنة
من فوق بعد الالف بطن من حمير فبقي الى ان استعفى فأعفي وجعل مكانه يقضي
عبد الله بن بلال الحضرمي .

وولي من بعده عوف بن سليمان (٢) سنة اربع واربعين ومائة للهجرة
وشخص عوف الى العراق ورتب مكانه ابو خزيمه ابراهيم بن يزيد فبقي الى ان توفي
في سنة اربع وخمسين ومائة للهجرة .

فولي ابو جعفر المنصور امير المؤمنين العباسي ابا عبد الرحمن عبد الله بن
لهيعة بن عقبه واجرى له في الشهر وهو اول قاضي اتاه الحكم من قبل الامام العباسي
(٨٠ و) وهو اول قاضي ركب للهِلال مع الشهود . وبقي الى ان عزل في سنة اربع وستين
ومائة للهجرة .

وولي بعده اسماعيل بن اليسع الكوفي الحنفي . كان يذهب الى قول الامام
ابي حنيفة رضي الله عنه . فكتب الليث بن سعد الى الخليفة ببغداد ان اصرفه عنا
فصرفه .

وعاد الى القضاء غوث بن سلمان كاتب خير بن نعيم فلم يزل الى ان توفي
في سنة ثمان وستين ومائة . وقيل انه هو اول قاضي ركب للهِلال وقيل ابن لهيعة
على ما قدمنا شرحه . فولي بعده المفضل بن فضالة بن عبيد العسائي (٣)

(١) غوث بن سليمان الحضرمي — رفع الاصر ص ٥ ملحوظة ٥

(٢) بياض في الاصل .

(٣) بدون تنقيط وهي العتباتي في كتاب القضاء ص ٦٥ .

وهو اول قاضي اطلال الكتب • وكان من فضلاء الناس وخيارهم • وقبره رحمه الله
احد المزارات • وهو وولده في قبر واحد • وعزل في سنة تسع وستين ومائة للهجرة •

وولي بعده ابو طاهر (١) عبد الملك بن محمد بن ابي بكر بن حزم الاعرج

الانصارى • ولم يزل الى ان استعفى فأعفي في سنة اربع وسبعين ومائة للهجرة ،

ثم اعيد المفضل بن فضالة وعزل في صفر سنة سبع وسبعين ومائة للهجرة •

وولي محمد بن مسروق الكوفي • ولم يكن محمودا في ولايته • وبقي الى ان خرج

للعراق في سنة اربع وثمانين ومائة للهجرة • واستخلف عنه اسحق بن الفرات التجيبي

بعد التاء المثناة من فوقها جيم فبقي الى صفر سنة خمس وثمانين ومائة للهجرة وعزل •

وولي بعده عبد الرحمن بن عبد الله بن المحرر (٢) بن عبد الملك بمن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو اول من دون اسماء الشهود • وعزل في خلا سنة

اربع وتسعين ومائة •

وولي بعده هشام (٣) بن ابي بكر البكري ^{من} اولاد ابي بكر الصديق رضي الله

عنه وكان حنفي المذهب • وتوفي في غرة المحرم سنة ست وتسعين ومائة للهجرة وهو

على الحكم •

فولي مكانه (٨٠ق) ابراهيم بن البكا (٤) ولاه الامير جابر بن الاشعث امير

مصر وصرف جابر وعزل ابراهيم بعده في سنة ست وتسعين ومائة للهجرة •

وتولى مكانه لهيعة بن عيسى • فلم يزل على القضاء الى ان قدم المطلب بن عبد

الله اول سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة فعزله •

(١) ابو الظاهر • رفع الاصر ص ٥ ملحوظة ١٢

(٢) لعلمها المحير وهو عبد الرحمن بن عبد الله العمري - كتاب القضاء ص ٧٨ ورفع الاصر

ص ٥ ملحوظة ١٥ (٣) هاشم في كتاب القضاء ص ٩٣

(٤) كذا في الاصل وهو ابن البكا في كتاب القضاء ص ٩٧ وهي بدون همزة في رفع الاصر

ص ٥ ملحوظة ١٧ •

وولي بعده الفضل بن غانم ثم عزله واعاد لهيعة بن عيسى . فلم يزل على القضاء حتى توفي في ذي القعدة سنة اربع ومايتين للهجرة .

فتولى بعده السري بن الحكم وامير مصر يومئذ ابراهيم بن اسحق العاربي حليف بني زهرة فاستعفى فأعفى .

وولي مكانه ابراهيم بن الجراح . وكان يذهب الى قول الامام ابي حنيفة رضي الله عنه . فلم يزل قاضيا الى ان قدم الامير عبد الله بن طاهر مصر اميرا في سنة احدى عشرة ومايتين للهجرة فعزله .

وولي مكانه عيسى بن المنكدر (١) بن محمد بن المنكر . واجرى له عبد الله بن طاهر في الشهر اربعة الاف درهم . وهو اول قاضي اجري عليه ذلك فلم يزل الى ان قدم الامير المعتصم بن هرون الرشيد العباسي مصر اميرا زم اخيه امير المؤمنين المأمون في سنة اربع عشرة ومايتين وكلم فيه احمد بن ابي داؤاد قاضي العراق فاشخصه الى العراق وتوفي هناك .

وبقيت مصر بغير قاضي . وقدم امير المؤمنين المأمون الخليفة الى مصر في خامس المحرم سنة سبع عشرة ومايتين للهجرة ولم يقدم احد من خلفاء بني العباس مصر في خلافته الا المأمون هذا .

وولي القضاء بمصر يحيى بن اكنم فحكم ثلاثة ايام بها وخرج امير المؤمنين المأمون الى سخاو واصلح احوالها وتوجه الى الاسكندرية (٨١ و) وعاد الى مصر وخرج عنها في الخامس من صفر من هذه السنة . وجعل القضاء بمصر الى هرون بن عبد الله الزهري قلده ذلك وهو بالشام . فقدم الى مصر بعد ليال بقين من شهر رمضان

(١) كذا في الاصل وفي كتاب القضاة ص ١١١ لكنها المتكدر في رفع الاصر ص ٥ ملحوظه ٢٢

سنة سبع عشرة ومايتين للهجرة • فلم يزل قاضيا الى سنة ست وعشرين ومايتين للهجرة
فصرف عن القضاء •

وولي مكانه محمد بن ابي الليث الاصم الى شهر ربيع الاول من سنة خمس وثلاثين
ومايتين للهجرة • فعزل وجلس ويقت مصر بغير قاضي حتى وليها الحارث بن مسكين
في جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين ومايتين • جاءته الولاية وهو بالاسكندرية فلم
يزل قاضيا الى ان صرف عنها يوم الجمعة لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس
واربعين ومايتين للهجرة •

وولي بعده عبد الرحمن بن ابراهيم بن المر (١) الدمشقي • جاءته الولاية
وهو في الرملة من اعمال فلسطين • فتوفي قبل ان يصل الى مصر في سنة خمس واربعين
ومايتين للهجرة •

تولي بعده القاضي بكار بن قتيبة ابن اسد بن ابي بردعه بن عبيد الله بن
بشير بن ابي بكره الحارثي مولاي رسول الله صلى الله عليه وسلم البصري، من اهل البصرة •
ودخل الى مصر لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ست واربعين ومايتين للهجرة •
وبقي الى سنة سبع وستين ومايتين للهجرة وهي السنة التي اعتقل فيها القاضي بكار
المذكور • وكان السبب في ذلك على ما حكاه المؤرخون في كتبهم ان الخليفة
المعتمد على الله ابا العباس احمد بن المتوكل على الله جعفر بن هرون الرشيد
العباسي كان مشتغلا ببلذاته • فخرج عليه صاحب المزج وقام بالحرب الموفق اخو
المعتمد وطال موافقته لصاحب المزج فقصد الموفق القدوم الى مصر وسها الامير احمد
بن (٨١ق) طولون • فبلغ ذلك اخاه المعتمد فسير اليه واعاده عن هذا الرأي
استبقا • لابن طولون • وكان جرى بين الامير احمد بن طولون وبين الامير الموفق

(١) في رفع الاصر ص ٦ ملحوظة ٣ هو ابن ابراهيم الدمشقي •

مكاثبات مقتضاها تسيير الجند والعمال اعانه له على صاحب الزنج فقصر عنه احمد بن طولون . فندب اليه الموفق وعسكرا . فقاتله احمد بن طولون فكسره . وجرت احوال فلما بلغ ابن طولون ذلك سير الى فقها مصر وكان بالشام فتوجهوا اليه الى دمشق في سنة سبع وسبعين ومايتين للهجرة . وكان في جملة الفقهاء قاضي مصر القاضي بكار بن قتيبة فقال لهم احمد بن طولون ان الموفق خلع طاعة اخيه المعتمد . وكان الموفق ولي عهد اخيه فأفتوا (٨١و) فقها مصر بخلع الموفق من ولاية العهد . فتوقف بكار بن قتيبة عن خلعه . فقال له الامير احمد بن طولون : لم لانوافق الفقهاء ؟ فقال له : انت اوردت علي كتاب الخليفة المعتمد بولاية اخيه الموفق فأورده علي بخلعه . قال هو الآن مذلوم مقهور في يديه وانا ايضا احبست حتى يرد كتابه باطلاقك . فقبده وسيره الى مصر وحجسه . وكان بن طولون كل سنة يمله بالف دينار فعاد طالبه بها فسيرها اليه بختمها . وكان عدتها سنة عشر كiswa . وبقي القاضي بكار محبوبا الي اخر ايام احمد بن طولون .

ورنيب في الحكم عوضا عنه وهو كالخليفة عنه محمد بن شادان الجوهري . وبقي القاضي بكار معتقلا الى ان توفي الامير احمد بن طولون في ليلة الاحد لعشر بقين من ذي القعدة سنة سبعين ومايتين للهجرة . وتوفي القاضي بكار بعده في يوم الخميس لست بقين من ذي الحجة من هذه السنة . ومولده في (٨٢و) سنة اثنتين وثمانين ومائة ومدة ولايته القضاء اربعا وعشرين سنة وستة اشهر وستة عشر يوما وكان عالما زاهدا . حدث بالكثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وله اخبار مشهورة . وقد تقدم ذكره . وقبره احد المزارات بالقرنة بسفح الجبل المقطم .

ولي بعده ابو عبد الله محمد ابن عبدة بن حرب البصري . ثم استتر بسبب فتنه بني طولون فأقام مستترا عشر سنين وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومايتين للهجرة . وبقيت مصر بغير قاضي الى ان ولي ابو زرعة محمد

بن عثمان الدمشقي وعزل في صفر سنة اثنتين وتسعين ومايتين للهجرة • وتوفي ابو زرعة بالشام في سنة اثنتين وثلاثماية •

واعبيد ابو عبد الله محمد بن عبده بن حرب في شهر ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين ومايتين للهجرة • وعزل عن الحكم في مستهل شهر رجب من هذه السنة لان الامير استنصحه معه الى الشام وولاه قضاء حلب • وولي ابا ملك بن ابي الحسن الصغير ثم ولي ابا عبيد على بن الحسن بن حرب بن عيسى بالشام • وكان قدومه مصر لليلتين خلنا من شعبان سنة ثلاث وتسعين ومايتين للهجرة • وبقى الى ان عزل في سنة احدى عشره وثلاثماية •

وولي مكانه ابو الذكر محمد بن يحيى بن مهدي بن هرون بن عبد الله بن هرون بن ابراهيم الاسواني خليفة لابي يحيى عبد الله بن ابراهيم بن مكرم الى ان عزل ثاني عشر صفر سنة اثنتي عشره وثلاثماية •

وولي مكانه ابو محمد ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن عبد العظيم بن عبد الله بن عبد الاعلى ٠٠٠ (١) في شهر ربيع الاول سنة ثلاث عشره وثلاثماية •

وولي مكانه ابو علي عبد الرحمن بن اسحق بن محمد بن معمر بن (٨٢ ق) حبيب بن المنهال السدوسي وصرف سابع شهر ربيع الاخر سنة اربع عشرة وثلاثماية • ولي ابو عثمان احمد بن ابراهيم بن حماد بن اسحق بن اسماعيل بن حماد في الثامن من شهر ربيع الاخر سنة اربع عشرة وثلاثماية • وعزل عن القضاء في ذي الحجة من سنة ست عشرة وثلاثماية •

وولي مكانه ابو محمد عبد الله بن احمد بن ربيع بن سلمان بن خالد بن عبد الرحمن الربيعي من اهل دمشق • وعزل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وثلاثمائة • وعاد اليها ابو عثمان احمد بن ابراهيم بن حماد • وعزل عنها في سابع شهر ربيع الآخر سنة عشرين وثلاثمائة للهجرة واعيد اليها ابو محمد عبد الله الربيعي وعزل عنها في عاشر صفر سنة احدى وعشرين وثلاثمائة •

وولي مكانه هاشم اسماعيل بن عبد الواحد بن محمد الربيعي المقدسي الشافعي وعزل في عاشر شهر ربيع الآخر من هذه السنة •

وولي مكانه ابو جعفر احمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم البغدادى في شهر جمادى الآخرة • ثم عزل في سابع شهر رمضان المعظم سنة اثنيتين وعشرين وثلاثمائة •

وولي ابو عبد الله محمد بن موسى بن اسحق السرخسي • وتوفي الى سنة اربع وعشرين وثلاثمائة •

وولي ابو بكر محمد بن احمد بن محمد بن جعفر بن الحداد الكتاني الفقيه وعزل في شهر ربيع الاول سنة اربع وعشرين وثلاثمائة •

وولي بعده ابو بكر محمد بن بدر مولي ابن حكيم خلافة لمحمد ابن الحسن بن ابي الشوارب • وتكرر حاله بها الى ان توفي وهو في ولايته على القضاء سنة ثلاثين وثلاثمائة للهجرة •

وولي ابو محمد عبد الله بن احمد بن شعيب بن الفضل بن ملك ابن دينار يعرف بأبن اخت وليد وعزل • واعيد اليها ابو بكر بن (٨٣و) الحداد • وعزل في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة للهجرة • واعيد ابو محمد عبد الله ابن اخت وليد وعزل ايضا في سنة ثلاث وثلاثين السنة المذكورة •

وولي عبد العزيز بن الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله العباسي الهاشمي
وكان خليفه لاخته ثم عزل عنها في نصف ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة •

وولي ابوبكر عبد الله ابن محمد بن الخطيب بن الصقر بن حبيب الاصمهاني
المعروف بالخصي تولى في سنة ١٠٠٠ (١) وتوفي في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة للهجرة •

وولي بعده ولده ابوعبد الله محمد بن عبد الله • اقام خمسا وأربعين يوما
ومات • فولي كافور الاخشيدى مكانه ابا الطاهر محمد بن احمد بن عبد الله بن نصر
بن مخبر بن صالح بن اسامه الدهلي في نصف شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين
وثلاثمائة فبقي الى آخر الدولة الاخشيدية •

وجاءت الدولة العبيدية فأبقاء الامير جوهر الرومي الذي ارسله المعز العبيدي
صاحب الغرب من الغرب الى مصر • واستولى عليها ونى القاهرة المحروسة على القضاء •
وورد المعز لدين الله اول العبيديين بالديار المصرية ديار مصر واستقر بالقصر بالقاهرة
المحروسة التي بناها له مولاه جوهر المقدم ذكره • واقتر المعز هذا القاضي على ولايته
فلم يزل الى ان توفي المعز وقام بالامر من بعده ولده العزيز • فأقر القاضي المذكور
على ولايته ثم عزله في صفر من سنة ست وستين وثلاثمائة للهجرة • وهو من القضاء
المشهورين بالحدیث والعلم وطول المدة •

وولي العزيز بالله بن المعز العبيدي مكانه ابا الحسن على بن النعمان بن
محمد بن منصور بن احمد بن حيون المغربي • وكان قدم مع المعز من الغرب • وولاه
العزيز مضافا للقضاء الخطابة والامامة والديار في الذهب والنظر في الحكم بمصر
والقاهرة واعمالها (٨٣ق) والمغرب والحرمين الشريفين مكة والمدينة • وهو اول
قاضي نعمت بقاضي القضاء بالديار المصرية واول من نعمت بهذا النعت في الاسلام

القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الامام الاعظم ابي حنيفة رضي الله عنهما نعته بقاضي القضاء امير المؤمنين هرون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي ببغداد . وكان لا يدعى بقاضي القضاة الا قاضي بغداد . وكان ساير القضاة بجميع البلاد التي تحت حكم الخليفة قاضي بغداد هو الذي يوليهم .

فايدة تذكر زيدتها في هذا المكان وهي اول ملك نعت بالملك في ملوك الاسلام عضد الدولة بن بويه الديلمي ملك بغداد مع الخليفة . واول من نعت بالسلطان في ملوك الاسلام محمود بن سبكتكين سلطان العجم .

نرجس لذكر القاضي ابن النعمان . لم يزل على ولايته الى ان توفي في السادس من شهر رجب من سنة اربع وسبعين وثلاثماية للهجرة واورد المسبحي في تاريخه شعرا ودفن بترغفه عن مسجد الاقدام .

وتولي مكانه اخوه ابو عبدالله محمد بن النعمان فبقي الى ان توفي في رابع صفر سنة تسع وثمانين وثلاثماية للهجرة . ودفن عند ابيه . وكان اديبا شاعرا ذكر له المسبحي ابيات . قال المسبحي : ورأى القاضي محمد بن النعمان رؤيا فأحضر ابن قديده المفسر فقال له : رأيت كأن الباري عز وجل نزل من السماء . فلما بلغ اري مات فقال له ابن قديده : ان الله هو الحق وموته ابطاله . وان الحق لا يزال حيا حتى يصير اليك فيموت . فأطرق القاضي ومات بعد مدة يسيرة .

وتولي الحكم بعد ابن النعمان ابن اخيه الحسين بن علي بن النعمان ابو عبدالله فبقي الى ان عزل .

وولي بعده ابو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ابن عمه وعزل في يوم الجمعة (٨٤٠هـ) سادس عشر شهر رجب سنة ثمان وتسعين وثلاثماية .

وولي مكانه مالك بن سعيد بن مالك الفارقي وكان قاضي اطرابلس واختص به فلم يزل الى ان صرفه وقتله الحاكم بن العزيز بن المعز العبدي في يوم السبت لاربع ليال بقيت من شهر ربيع الاخر سنة خمس واربعمائة .

وولي مكانه ابو العباس احمد بن محمد بن عبدالله بن ابي العوام يوم الاحد حادى عشر جمادى الاخرة سنة خمس واربعمائة . فلم يزل الى ان توفي لعشر بقين من شهر ربيع الاول من سنة ثمان عشرة واربعمائة .

فولي مكانه قاسم بن عبدالله بن النعمان في رابع جمادى الاول من سنة ثمان عشرة . وعزل عنها لخمس بقين من شهر رجب من سنة تسع عشرة واربعمائة .

وولي مكانه ابو الفتح عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في التاريخ المذكور ثم عزل في سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين واربعمائة للهجرة واعيد اليها قاسم بن عبد العزيز بن النعمان واستدلك عنه القاضي القضاعي مصنف الشهاب ثم صرف عنها .

وولي ابو احمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم ثم صرف عنها واعيد اليها قاسم بن عبد العزيز بن النعمان وصرف عنها في ثاني المحرم سنة احدى واربعين واربعمائة . وتولي ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازوري (١) ثم بعد ذلك اضيف اليه الوزارة وهو اول قاضي جمع له بين القضا والوزارة . فلم يزل عليها الى ان صرف في مستهل شهر الله المحرم سنة خمسين واربعمائة للهجرة .

تولي بعده ابو علي احمد بن عبد الحاكم بن سعيد ثم صرف عنها في ذى القعدة من هذه السنة وتكرر في القضا والوزارة غير مدة . ووليها ابو القاسم عبد الحاكم بن وهيب وصرف عنها في سنة اثنتين وخمسين واربعمائة للهجرة وتكرر في القضا (٨٤ ق) غير دفعه .

ووليها ابو عبد الله احمد بن محمد بن ابي زكريا في حادى عشر شهر رجب
الفرد سنة اثنتين وخمسين واربعماية . فلم يزل الى ان توفي في صفر سنة ثلاث وخمسين
واربعماية للهجرة . فأعيد اليها ابو علي احمد بن قاضي القضاء عبد الحاكم بن
سعيد الفارقي رابع عشر صفر . وصرف عنها خامس شهر رجب من سنة ثلاث وخمسين
السنة المذكورة . واعيد اليها ابو القاسم عبد الحاكم بن وهيب (١) ثم صرف عنها
في سنة خمس وخمسين واربعماية ثم ولي الوزارة والقضاء ابو محمد الحسن بن مجلي بن
اسد بن ابي كدينه (٢) في رابع عشر شعبان وقبر عليه في ذى الحجة وتكرر في
القضاء والوزارة دفعات تزيد على اثنتي عشر كسرة .

وتولى ابو الحسين علي بن عبد الحاكم ثامن عشرى شهر ربيع الاخر سنة ست
 وخمسين واربعماية . وصرف عنها في خامس جمادى الاخره متها ثم رتب في الحكم
عند دخول الامير بدر الجمالي امير الجيوش ابو يعلي حفزة بن الحسين بن احمد
العرقي (٣) فلم يزل في الحكم الى ان توفي .

فولى ابو الفضل طاهر بن علي القاضي لعله ولي في سنة ثلاث وسبعين
واربعماية . ثم ولى بعده جلال الدولة ابو القاسم على بن عمار ثم صرف . وولى
بعده ابو الفضل هبة الله بن الحسن بن عبد الرحمن بن نباته لعل ولايته كانت
في رابع شعبان سنة خمس وسبعين واربعماية . ثم ولى من بعده ابو الفضل بن
عتيق . ثم ولى من بعده ابو الحسن على بن يوسف بن الكحال النابلسي . ثم
ولى من بعده فخر الاحكام ابو الفضل محمد بن عبد الحاكم الملبجي . كانت

(١) "ابن وهب" رفع الاصر ص ٨ ملحوظة ٦

(٢) بدون تنقيط في الاصل . راجع رفع الاصر ص ٨ ملحوظة ١٤ .

(٣) بدون تنقيط في الاصل . راجع رفع الاصر ص ٩ ملحوظة ١٠ .

ولايته في سنة سبع وثمانين واربعمائة • ثم ولي (٨٥و) من بعده ابو الطاهر محمد بن رجا* فلم يزل الى ان توفي في سنة ثلاث وتسعين واربعمائة • وولي مكانه ابو الفرج محمد بن جوهر بن دكي النابلسي • فلم يزل الى شهر ربيع الاول سنة خمس وتسعين واربعمائة فصرف •

وتولي ابو الفضل نعمه بن بشير الجليس النابلسي ثم استعفى في سنة اربع وخمسمائة فأعفى • وولي مكانه الرشيد عماد الاحكام ابو عبد الله محمد • وقيل احمد بن قاسم الصقلي (١) ولم يزل الى ان توفي فأعيد القضا الى ابن الجليس النابلسي ثم صرف •

وولي مكانه فقه الملك عمدة الاحكام ابو الفتح مسلم بن علي الرسعني ذكر في الحكم في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة للهجرة • ولم يزل قاضيا الى ان وزر المأمون بن البطاحي • فاتفق ان المأمون عمل عزاء للامير محمود بن ظفر والى قوص • فلما كان وقت صلاة الصبح قدمه المأمون للصلاة • فلما احرم ادركه هلع فلحن وارتج عليه في قراءة "والشمس وضحاها" فوقف عند قوله "ناقة الله وسقياها" فردها المأمون عليه فزاد استبهاما • فكرر المأمون الرد على القاضي فلم يهتدي • وصحف قوله "ناقة الله وسقياها" فقال "وسقناها" • فقرأ المأمون بقية السورة عنه وسجد وسجد الناس لسجوده • ثم قام في الركعة الثانية وقد دهش • فلم يفتح عليه بشي* وكمل المأمون الصلاة وفرغ فلما انقصر الناس من المجلس وكل المأمون على القاضي حتى يحفظ من القرآن ما يصلي به وصرفه • واستخدم عوضا منه ابا الحجاج يوسف بن ايوب المغربي وكان قاضي الغربيه • فلم يزل الى ان توفي في سنة احدى وعشرين وخمسمائة • فولي القاضي سنا* الملك ابو عبد الله محمد بن هبة الله

(١) هو احمد بن قاسم بن زيد الصقلي الملقب بالقاضي الرشيد رفع الاصر ص ١٠ ملحوظة ٥ •

بن ميسر القيسراني (١) (٨٥ق) في أيام الامر العبيدي . وولاه الوكالة والنظر في المقياس وغيره . ولم يزل الى ان تولى الخلافة بالديار المصرية الحافظ العبيدي فعزله في سنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة .

نكتته : اول من رتب اربع حكام على اربع مذاهب ابن امير الجيوش في الدولة العبيدية ، حكى القاضي جمال الدين ابن تنكرانه وجد في تعاليق خاله العماد بن اخي العلم انه في سنة خمس وعشرين وخمسمائة عند قيام الامير ابي على بن الافضل امير الجيوش بأمر الملكة رتبه ان يكون في الحكم اربع قضاة على اربع مذاهب . وهم الفقيه سلطان بن رشأ الفقيه الشافعي قاضي الشافعية وابو محمد عبد المولى بن الليثي الفقيه المالكي قاضي المالكية وابو الفضل بن الازرق الاسماعيلي قاضي الاسماعيلية . وابن ابي كامل الفقيه الامامي قاضي الامامية . وان المذكورين استمروا الى آخر السنة . فرق بين هؤلاء القضاة والقضاة الذين ولاهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس لان في هؤلاء من مذهبه غير مذهب اهل السنة . ومن ولاهم الملك الظاهر جميعهم اهل السنة والجماعة .

وذكر بعضهم ان القاضي سناء الملك بن ميسر القيسراني رسم له ان لا يحكم الا ويكون عنده اربع فقهاء من جملتهم الفقيه سلطان بن رشا المذكور . حتى قيل ان الفقيه سلطان غاب يوما عن المجلس فأوجب توقف امر الحكم لغيبته . فقال بعض الحاضرين : فانفذوا لا تنفذوا الا سلطان الآية (٢) .

ولما عزل الحافظ العبيدي القاضي سناء الملك بن ميسر في سنة ست وعشرين وخمسمائة ولي ابو الفخر (٨٦و) صالح بن عبد الله بن رجا في مستهل شهر ربيع الاول من سنة ست وعشرين وخمسمائة . ثم قبض عليه وقتله . وولي مكانه سراج

(١) القيسرواني في رفع الامر ص ٩ ملحوظة ٢ و ص ١٠ ملحوظة ١١
(٢) سورة الرحمن ٥٥ آية رقم ٣٣ .

الدين ابو الثريا نجم بن جعفر . ولم يزل الى ان قتل في يوم الخميس ثامن شوال سنة ثمان وعشرين وخمسماية . واعيد الحكم لابي عبد الله محمد بن هبة الله بن مبشر (١) القيسراني . فلم يزل الى ان عزل عن الحكم في يوم الاحد لسبع خلون من المحرم سنة احدى وثلاثين وخمسماية . وارسل الى (٢) ٠٠٠٠٠٠ و قتل بها عشية يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الاول من هذه السنة سنة احدى وثلاثين وخمسماية .

وكان السبب في ذلك ان الامير حسين بن امير الجيوش لما اعتقل الحافظ العبيدي انشد على بن (٣) ٠٠٠٠ الاسكندري الشاعر قصيدة مدح بها الامير حسين بن امير الجيوش و ذم الحافظ و اهل بيته اقبح ذم واولها تبسم الدهر لكن بعد تعبهم و مر في قوله :

هذا سليمانكم قد رد خاتمته واستفرغ الملك من صخر ابن ابلير .
فلما سمع القاضي ابن مبشر المذكور هذا البيت قام والقي عريضة طربا . ثم ان القاضي بعد ذلك لما اسقط ابن الزعفراني شاع عنه ما انسى الدهر ذكره فقتل بها والله اعلم .

وولي القضاء بعد ابن مبشر الاعز ابو المكارم احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي عقيل . ولم يزل الى ان توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية . واقام الوقت بغير قاض الى ان ولي فخر الامنا ابو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن بحر الانصاري (٨٦ق) الاوسي المعروف بأبن الازرق لاحدى عشرة ليلة . خلت من ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية . وعزل في ثالث عشر جمادى الاخرة سنة اربع وثلاثين وخمسماية . وولي القاضي الموفو في الدين

(١) وردت سابقا بدون تنقيط .

(٢) بماخر في الاصل مقدار كلمه .

(٣) كلمة مطبوسة .

ابو الطاهر اسماعيل بن سلامه الانصارى • فأقام الى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين
وخمسمائة • واشيع بانه يعزل • ثم استقل وبقي الى ان صرف لسبع خلون من صفر
سنة ثلاث واربعين وخمسمائة للهجرة • وتولى مكانه ابو الفضائل يونس بن محمد
بن الحسن المقدسي المعروف حوامرد (١) القرشي • فبقي الى ان صرفه العادل
بن السلال في سنة سبع واربعين وخمسمائة وكان صالحا دينيا •

وتولى مكانه الفقيه ابو المعالي مجلي بن جميع بن نجا المخزومي مصنف الذخاير
فاقام الى ان صرفه الصالح بن رزيك الذي بني جامع الصالح خارج بابي زويلة بالقاهرة
المحروسة • واعاد ابا الفضائل يونس ثم صرفه واعاد ابا المعالي وقبيل ان يونس المذكور
وتولى دفعة اخرى في سنة ثمان وخمسين كما سنذكره ان شاء الله تعالى •

وتولى بعده مجلي القاضي جلال الدين ابو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل
بن عبد الكريم الصوري في ناسع شعبان سنة سبع واربعين وخمسمائة • وصرف في العشر
الاخير من محرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة • واعيد الحكم للقاضي يونس ولده شاور الوزير
ثم صرف واعيد القاضي جلال (٢) الدين بن كامل في العشر الاول من ذى الحجة من هذه
السنة • ثم صرف في شهر ربيع الاول سنة تسع وخمسين وخمسمائة للهجرة •

وتولى القاضي الاعز (٨٧و) ابو محمد الحسن بن علي بن سلامه المعروف بالعمريسي •
ثم صرف وتولى ابو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوي ثم صرف • واعيد القاضي
جلال الدين ابن كامل للقضا في ذى الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة • ثم صرف
في السادس عشر جمادى الاول سنة ست وستين وخمسمائة •

(١) كذا في الاصل •

(٢) في الاصل بدون اللام الاخيرة •

وتولى القاضي صدر الدين بن الملك بن عيسى بن درباس بن سـ (١) بن عبدوس الماراي (٢) • وكان قاضي الغربية • وتولى في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسماية للهجرة • وبقي الى ان عزل بعد وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الذى كان زوال الدولة العبيدية من الديار المصرية على يديه • واعاد اليها الدولة العباسية •

وتولى مكان القاضي صدر الدين القاضي زين الدين علي ابن يوسف الدمشقي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الاول في سنة تسعين وخمسماية • ولم يزل الى ان صرف في يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الاول سنة احدى وتسعين وخمسماية • وتولى في بقية النهار القاضي محي الدين ابو حامد محمد بن عبد الله بن هبة الله بن ابي عصرون • ولم يزل الى ان عزل في يوم الاحد سادس عشر محرم سنة اثنتين وتسعين وخمسماية • واعيد القاضي زين الدين علي بن يوسف الدمشقي • وعزل في يوم السبت ثالث المحرم سنة اربع وتسعين وخمسماية للهجرة • واعيد القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس ثم عزل في العاشر من جمادى الاول سنة خمس وتسعين وخمسماية • واعيد القاضي زين الدين علي بن يوسف الدمشقي ثم (٨٧ ق) عزل عنها في يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسماية • واعيد اليها القاضي صدر الدين عبد الملك واضيف اليه دار الضرب والحسبة والخطابة والاحباس • ولم يزل الى ان توفي يوم الاربعاء خامس شهر رجب الفرد من سنة خمس وستماية للهجرة • وبقي الامر بحكم النواب الى يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان من هذه السنة • فتولى القاضي عماد الدين ابو

(١) كذا في الاصل

(٢) على الهامش بخط آخر "جهم بن" •

القاسم عبد الرحمن بن عبد الأعلى بن السكري . ولم يزل قاضيا الى الثاني عشر من المحرم سنة ثلاث عشرة وستمائة . فصرف وبقي الامر يحكم فيه النواب الى مستهل صفر من هذه السنة فرتب القاضي شرف الدين ابو المكارم محمد بن عين الدولة في القاهرة والوجه البحرى .

ورنسب بمصر والوجه القبلي القاضي تاج الدين ابو محمد عبد السلام بن علي بن الخراط . فلم يزل الامر على ذلك الى ان جرت حالة اوجبت عزل القاضي تاج الدين عبد السلام بن الخراط في العشر الاخير من شعبان سنة سبع عشرة وستمائة . وفوض الامر للقاضي شرف الدين ابن عين الدولة فاستمر قاضي القضاء بجميع احوال الديار المصرية خلا ثغر الاسكندرية مدة زمن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر نجم الدين ايوب بن شادى بن مروان الايوبي ابن اخي السلطان صلاح الدين يوسف لما كان يرى فيه من الديانة والصيانة والتعفف . وكان رجلا صالحا عالما ورعا عارفا بالاحكام . وكان الملك الكامل يعظمه ويكرمه بسبب ذلك وله معه حكايات . منها ما حكى انه رآه يوما بالطريق (٨٨٠هـ) فسلم عليه ورد له لشغله فوصف ما هو عليه من دين وعفة ومعرفة وعلم فقال : ومع هذا فما القاضي الا كبير السن و اشار لبعض خواصه ان يرد اليه ويستعلم منه كم مضى من عمره . فلما حضر الى القاضي واعلمه ما قال الملك الكامل اخذ ورقة وكتب فيها : .

ياسائلي عن قوى نفسي وما صنعت	فيه السنون خذ التحقيق تبينا
ثاء الثلاثين ادركت القبور بهـ	فكيف حالى في ثاء الثمانينا
يارب فالطف بشيخ مدنف هم	اسير ضعف اعنه رب آمينا

ودفعها اليه فجا بها الى الملك الكامل . فلما وقف عليها زاد حباله ولفظه وحسن ادبه . ولما توفي الملك الكامل وتولى بعده ولده الملك العادل اقر القاضي شرف الدين على امره .

فلما جاءت الدولة الصالحة واستقر الامر بعد خلع الملك العادل لاخته الملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الملك الكامل في يوم الجمعة ثالث عشر شوال من سنة سبع وثلاثين وستماية . اقر القاضي شرف الدين على امره . فلما كان يوم الخميس عاشر شهر ربيع الاخر من سنة تسع وثلاثين وستماية . رتب القاضي شرف الدين في قضا القاهرة والوجه البحرى . ورتب في قضا مصر والوجه القبلي القاضي بدر الدين السنجارى . فلم يزل الى ان توفي القاضي شرف الدين بن عين الدولة في تاسع عشر ذى القعدة من هذه السنة سنة تسع وثلاثين وستماية .

وتولى بعده القاضي بدر الدين السنجارى قضا القاهرة والوجه البحرى . وتولى قضا مصر والوجه القبلي القاضي عز الدين بن عبد العزيز عبد السلام فلم يزل الى ان صرف (٨٨ ق) عن الحكم في سنة ٠٠٠٠ (١) وستماية واضيفت اليه خطابة مصر .

وتولى مكانه في قضا مصر والوجه القبلي القاضي افضل الدين الخونجى (٢) فلم يزل الى ان توفي في شهر رمضان من سنة ست واربعين وستماية . وكان يخلفه في الاحكام الحال ٠٠٠٠ (٣) فلم يزل الى ان تولى القاضي عماد الدين الحموى . فبقى الى ان عزل في الثامن من جمادى الاول سنة ثمان واربعين وستماية .

(١) بباص في الاصل
 (٢) افضل الدين محمد بن تامار الخونجى . رفع الامر ص ١٢ ملحوظة ٧ .
 (٣) بباص في الاصل

وتولى القاهرة والوجه البحرى وصف عنها القاضي بدر الدين السنجارى •

ورتب قاضيا بمصر والوجه القبلي القاضي صدر الدين موهوب بن عمر الجزرى • وكان نائبا عن القاضي عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام • ثم عزل واعيد القاضي عماد الدين الحموى بمصر والوجه القبلي واعيد القاضي بدر الدين السنجارى الى قضاء القاهرة والوجه البحرى وذلك فى التاسع والعشرين من شهر رجب الفرد من سنة ثمان واربعين وستماية • ثم بعد ذلك بأيام يسيرة اضيف للقاضي بدر الدين السنجارى مصر والقاهرة واعمالها وذلك فى العشر الاول من شوال من هذه السنة • ثم عزل القاضي بدر الدين السنجارى عن القضاء بمصر وكان يخلفه فيه اخوه برهان الدين وكان عزله فى هذه المرة عن مصر فى يوم الاحد الحادى عشر من شهر رمضان سنة اربع وخمسين وستماية •

ورتب فيها القاضي تاج الدين عبد الوهاب الشافعى الشهير بابن بنت الاعز • ثم عزل القاضي بدر الدين السنجارى عن القاهرة والوجه البحرى واضيف ذلك للقاضي تاج الدين ابن بنت الاعز • فبقى كذلك الى ان توفي الملك (٨٩٠هـ) المعزايىك اول الملوك التركية بالديار المصرية فى ليلة الاربعاء خامس عشر شهر ربيع الاول من

سنة خمس وخمسين وستماية • وقبل انه تولى الوزارة للملك العز • والاضهر انه لم يلها في ايامه • ولم يزل في القضاء الى ان عزل في مستهل شهر ربيع الاخر من هذه السنة سنة خمس وخمسون من القاهرة والوجه البحرى •

وتولى القاضي بدر الدين السنجارى قضاء القاهرة والوجه البحرى • ثم ولى القاضي بدر الدين السنجارى المذكور الوزارة مضافا لقضاء القاهرة والوجه القبلى • وولى في الوجه القبلى قضاء من جهته • وبقي مع القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز مصر خاصة الى ان استدعى القاضي تاج الدين المذكور وخطب في الوزارة فأجاب الى ذلك واستخيم فيها في السادس من شهر رجب من سنة خمس وخمسين وستماية وصرف عن الحكم بمصر •

وتولى القاضي بدر الدين السنجارى قضاء القضاة بجميع الديار المصرية • وسار الى مصر وحكم بها يوم الاحد نصف شهر رجب الشهر المذكور • وبقي الى ايام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى فصرف في التاسع من جمادى الاول من سنة تسع وخمسين وستماية •

وتولى القاضي تاج الدين ابو محمد عبد الوهاب بن بنت الاعز قضاء القضاة بالديار المصرية • ولم يزل الى سلخ شوال من هذه السنة فصرف عن قضاء مصر والوجه القبلى •

وتولى القاضي برهان الدين السنجارى قضاء مصر والوجه القبلى • فلم يزل الى الثالث من شهر رمضان من سنة تسعين وستماية فعزل • واعيدت مصر والوجه القبلى مضافا للقاهرة للقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت (٨٩ق) الاعز •

وكان القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز المذكور متشددا في الاوامر الضرورية السلطانية .
واوجب الامر السلطاني اليه ان يستنيب عنه في الاحكام مدرسي المدرسة الصالحية
النجمية على المذاهب الاربعة اهل السنة والجماعة . ففعل ذلك . وجلس القاضي
صدر الدين سليمان الحنفي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس
الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي . كما قدمنا شرحه . واستمر الامر على ذلك الى هذه
السنة وهي سنة ثلاث وستين وستماية فجرى للقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت
الاعز بحضور السلطان الملك الظاهر بيبرس المذكور امور اوجبت انه امر باستقلال النواب
المذكورين في القضاء . من كل مذهب قاضي فاستقلوا به مضافا للقاضي تاج الدين
ابن بنت الاعز كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

قال بعض اهل التاريخ : كان الامير جمال الدين ايدغدي العزيزي يكره
القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز ويحط عليه ويحط من قدره عند السلطان الملك
الظاهر بسبب ثبته وتوقفه في القضايا التي لاخير فيها ولا توافق مذهبه . فاتفق
ان السلطان الملك الظاهر جلس يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة
بدار العدل وقدمت قصة من بنات الملك الناصر مضمونها ان المالك اشترى دار قاضي
القضاة بدر الدين السنجاري في حال حياته وان ورثته بعد موته ذكروا انها وثقا
او حبسا . فلما قرئت اخذ الامير جمال الدين ايدغدي المذكور يحط على المتعممين
وينقصهم . فقال السلطان للقاضي (٩٠و) تاج الدين : يا قاضي هكذا تكون القضاء .
فقال : يا مولانا كل شاة معلقة بعرقوبها . قال : فكيف الصورة في هذا ؟ اذا ثبت
الحبس يعاد الثمن من الورثة . قال السلطان . فاذا لم يكن مع الورثة شيء . قال :
يرجع الوقف الى اصله ولا يستعاد الثمن . فامتعض السلطان من ذلك ولم يتم الكلام
في ذلك حتى تقدم رسول صاحب المدينة المعظم النبوية على ساكنها سيدنا ونبينا

محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام وقال : يا مولانا السلطان سالت هذا القاضي ان يسلم الى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده لينفقه صاحب المدينة في فقرا اهلها فلم يفعل . فسأل السلطان القاضي عن صدق ما قاله . فقال نعم . فقال انا امرته بذلك فكيف رددت امرى ؟ فقال : يا مولانا هذا المال انا مستلمه وهذا الرجل لا اعرفه ولا يمكنني ان اسلمه لمن لا اعرفه . ولا يمكن ان يتسلمه مني الا من اعرف انه موثوق بدينه وامانته . فان كان السلطان يتسلمه مني احضرته اليه . فقال السلطان : تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي . قال نعم . قال لا تدفعه الا لمن تختاره . ثم تقدم الى السلطان بعض الامراء وشكى القاضي وقال : ششهدت عنده فلم يسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته . فسأله السلطان فقال : ماشهد احد عندي حتى اثبتته . فقال الامير : اذا لم تسمع قولي فمن تريد ؟ فقال السلطان له : لم لاسمعت قوله ؟ فقال : لا حاجة في ذكر ذلك . فقال الامير جمال الدين ايدغدى يا قاضي نترك مذهب الشافعي لك (٩٠ ق) وتولى من كل مذهب قاضي . فنصت السلطان الملك الظاهر لذلك . فلما كان تاسع عشر ذى الحجة الشهر المذكور من هذه السنة ولي السلطان الملك الظاهر القاضي صدر الدين سليمان الحنفي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلبي قضاة القضاة بالديار المصرية . وفوض اليهم ان يولوا في ساير الاعمال بالديار المصرية مضافا لقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعسر . وابقي على قاضي القضاة تاج الدين النظر في مال الايتام والمحاكمات المختصة ببيت المال وكتب لهم التقاليد واخلع عليهم الخلع وصار يحكم في ذلك هؤلاء الا ريع حكام المذكورين على الاربع مذاهب المذكورة وصاروا يلبسوا الطرحات في ايام الخدمة السلطانية . وقال صاحب "نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك" ما صيفته : وفي ذى

محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام وقال : يامولانا السلطان سالت هذا القاضي ان يسلم الى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده لينفقه صاحب المدينة في فقرا اهلها فلم يفعل . فسأل السلطان القاضي عن صدق ما قاله . فقال نعم . فقال انا امرته بذلك فكيف رددت امرى ؟ فقال : يامولانا هذا المال انا مستلمه وهذا الرجل لا اعرفه ولا يمكنني ان اسلمه لمن لا اعرفه . ولا يمكن ان يتسلمه مني الا من اعرف انه موثوق بدينه وامانتة . فان كان السلطان يتسلمه مني احضرته اليه . فقال السلطان : تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي . قال نعم . قال لاتدفعه الا لمن تختاره . ثم تقدم الى السلطان بعض الامراء وشكى القاضي وقال : شهدت عنده فلم يسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته . فسأله السلطان فقال : ماشهد احد عندي حتى اثبتته . فقال الامير : اذا لم تسمع قلبي فمن تريد ؟ فقال السلطان له : لم لاسمعت قوله ؟ فقال : لاجابة في ذكر ذلك . فقال الامير جمال الدين ايدغدى ياقاضي نترك لمذهب الشافعي لك (٩٠ ق) وتولى من كل مذهب قاضي . فنصت السلطان الملك الظاهر لذلك . فلما كان تاسع عشر ذى الحجة الشهر المذكور من هذه السنة ولي السلطان الملك الظاهر القاضي صدر الدين سليمان الحنفي والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي والقاضي شعير الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي قضاة القضاة بالديار المصرية . وفوض اليهم ان يولوا في ساير الاعمال بالديار المصرية مضافا لقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعسر . وابقي على قاضي القضاة تاج الدين النظر في مال الايتام والمحاكمات المختصة ببيت المال وكتب لهم التقاليد واخلع عليهم الخلع وصار يحكم في ذلك هؤلاء الا ريع حكام المذكورين على الاربع مذاهب المذكورة وصاروا يلبسوا الطرحات في ايام الخدمة السلطانية . وقال صاحب " نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك " ماصيفته : وفي ذى

القعدة تحدث السلطان في كثرة المتحاكمين ورتب أربعة قضاة للمذاهب الأربعة . وكتبت لهم التقاليد السلطانية . وفي ذى الحجة رسم لمجد الدين ابن العديم بخطابة القاهرة والله اعلم .

ذكر القبض على الأمير شمس الدين الرومي وبعض خبره

كان الأمير شمس الدين سنقر الرومي جمدار الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الأيوبي . وكان مواخي الملك الظاهر ركن الدين بيبرس لما كان في خدمة الملك الصالح أيضا وبينهما صداقة . ولما (١٩١٠) قتل الفارس أقطاي كما قدمنا شرحه خرجا جميعا إلى الشام وركن الدين بيبرس يتفقد به بالمال والقماش . وكذلك لما انتقلا إلى الكرك كانا على هذه الصفة . فاتفق أنهما كانا صحبة صاحب الكرك في الصيد . وطلب سنقر من بيبرس شيئا ولم يكن معه شيء حاضر فساق إلى مصر وحضر الملك الظاهر إلى الديار المصرية بعد ذلك وهو أمير فلم يعتقد الملك الظاهر بشيء على عادة الخشداشيه مع أنه كان من جملة أتباعه . ولما جرى للملك المظفر قطز ما جرى وقتل على يد الملك الظاهر كما قدمنا شرحه ما كان سنقر المذكور حاضرا . فلما استقرت السلطنة للملك الظاهر كما قدمنا شرحه أحسن إلى سنقر المذكور وإعطاء الأقطاعات العظيمة فصار في هذه المدة لا يأخذ عطايا السلطان الملك الظاهر بقبول . وهل يخلوا لجماعة بعد جماعة ويفرق عليهم المال . وتحقق السلطان ذلك فسير إليه يحذره مع خشداشيته ومع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي . فما أفاد فيه ذلك . فلما قتل شخصين مسلمين بغير ذنب ما أمكن السكوت عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول ما يحكم الله في الدماء . وكان أحد المقتولين مملوك سنقر المذكور جرت له زلة لطيفة لا يجب فيها شيء فاستشفع بالسلطان فشفع فيه

فلم يقبل تناخته وخربه وكواه بالحديد فمات • فعز هذا على السلطان ودليه من وقته وتبرع عليه في رابع وعشرين من ذى الحجة من هذه السنة واعتقله • فقال : انتهى اعرف ذنبي • فسير السلطان اليه من عدد عليه ذنوبه • فتحسر وقال لم آه لو كنت حاضرًا (٩١ و) قتل الملك المظفر حتى اعاند السلطان في الذي جرى • وكان سنقر قد ذكر هذا الحديب للسلطان مرتين في حال تصرفه واحسان السلطان اليه • وقال له السلطان : انت اخي وتتحسر لكونك ما قدرت تعين على والله اعلم •

وفي هذه السنة تولى الامير نور الدين ابن محلي نيابة حلب •

وفيهما حجب الليفة الحاكم بأمر الله من الاجتماع بالناس •

ذكر هلاك اللعين هولاكو ملك التتار وتملك ولده اباغا •

في هذه السنة هلك اللعين هولاكو ابن دُولوخان بن حنكر خان ملك التتار المذكور فعمل ما قدمنا سرحه من الافعال القبيحة من خراب البلاد وقتل العباد وتوفي في تاسع عشر شهر ربيع الاول من هذه السنة بالقرب من كورة مراغة • وتبيل انهم حملوه السوي تلعة تلا فدفنوه بها ومارت روحه الى جهنم ويثر المصير • وكانت مدة سلطنته عشر سنين • وخلف من الاولاد خمس عشرة ذكرا وهم جماغان واباغا وبصمت وبيشين وتكشي وتكدار وهو احمد واحاي والاجر وسيوجي وسودار وفنكو تمر وقنغر طاي ودراغاي وطغاي وتمر وهو اصغرهم • ولما مات اللعين هولاكو جلس بعده في السلطنة ولده اباغا مكانه • فجهز جيشا لحرب الملك بركه خان • فلما بلغ الملك بركة سمر العسكر جهز جيشا وتقدم عليهم بيشونوغا ابن ططر بن معلي بن دوسي خان بن حنكر خان • فسار ثم اردفه بركه بمقدم آخر واسمه بسنتاي في خمسين الف (٩٢ و) فسبى بيشونوغا وتقدم الى عسكر اباغا فتكرد سوا للهمزيمة • فبصر بسم بسنتاي وقد تعلقوا فظنهم احاطوا بالمقدم على العسكر القادم ومن معه فانهمز راجعا وقدم بيشونوغا ومن معه فتبع عسكر اباغا

- وساق عليهم والتقي معهم فكسرهم وقتل منهم جماعة وظفر بهم وعاد الى الملك بركه .
- واما بسنتاي فعظم ذنبه عند الملك بركه .

(٩٣ق) (١) ذكر وفاة من توفي من الاعيان في هذه السنة وبعض اخبارهم

ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الوهاب الانصاري الجناني يكنى ابا اسحق
من اهل جنان قرأ ببلده على الشيخ ابن يربوع . واخذ بالمرية عن ابي عبد الله بن
هشام بن السوامس . وكان حسن السميت كثير الوقار وخطب بالجنان بالجامع الجوفي
المعروف بالرابطة الى ان انفصل عن البلد قبل خروج اهل البلد بمدة ثم خطب
بغرناطه وولي قضاء المرية ثم احكام القضاء بغرناطه . توفي بغرناطه في سنة ثلاث
وستين هذه السنة .

حمزة بن محمد بن حمزه البهواني الحموي يكنى ابا يعلى الفقيه الشافعي
قاضي حماه . توفي في هذه السنة .

خالد بن يوسف بن الحسن بن مفرج بن بكار النابلسي الدمشقي يكنى ابا البقاء
الشيخ المحدث توفي في هذه السنة

محمد بن ابي احمد بن يوسف بن موسى بن مسدى المهلبى الاندلسي
يكنى ابا بكر الحافظ . كان فاضلا حسن المعرفة برواية الحديث . توفي بمكة المشرفة
في هذه السنة .

موسى بن يغمور بن جيلديك بن بلمان بن عبد الله المضرى . يكنى ابا
الفتح ويلقب جمال الدين . كان من الامراء الصالحين وتولي نيابة دمشق في الدولة
التركية . توفي بالقصير من الاعمال الفاقوسية بين الغرابي والصالحية وحمل السى
قرافه مصر ودفن بترية والده بسفح المقطم في هذه السنة .

هبة الله بن ابي محمد بن حفاظ الانصارى الازدى يكنى ابا البركات الشيخ الصالى .
توفي في هذه السنة بالاسكندرية .

(٩٤و) يوسف بن الحسن بن علي السنجارى المصرى . يكنى ابا المحاسن ويلقب
بدر الدين وينعت بدي الرياستين . كان بداية امره المامه بالسلطان الملك الصالح نجم
الدين ايوب بالبلاد المشرقيه . ثم حضر الى الديار المصرية وولى قضاء القضاة بالقاهرة
ومصر والديار المصرية مدة . ودرس بالمدرسة الصالحية للطائفة الشافعية وناب عنه
القاضي شمس الدين احمد بن خلكان . وولى الوزارة مدة . وكان موصوفا بالكرم والإحيه
توفى بالقاهرة في هذه السنة .

محمد بن الحسن بن علي الدمشقى يكنى ابا عبد الله ويعرف بابن امرأة الشيخ علي
القرينى (١) . كان شيخا صالحا حسن الشكل حلوا المحادثة سليم الصدر عليه اثار
الخير والصلاح . وله زاوية بسفح قاسيون على نهر يزيد احسن الزوايا واقدمها . وفي
جانبيها قبه فيها ضريح الشيخ علي القرينى (١) حضر السلطان الملك الناصر صلاح الدين
يوسف الى زيارته . توفي في سنة ثلاث وستين هذه السنة وخلف اولادا .

(١) المرتضى في الاصل . را

(٩٥ ر) (١) ذكر الحوادث في سنة اربع وستين وستماية ٤ / ١٢ هـ ١٢٦٦
٢ هـ ١٢٦٦

في شهر الله المحرم من هذه السنة عقد الامير سيف الدين قلاوون الالفى

بالكبر على ابنة الامير سيف الدين كرمونا القترى الوافد وهي والدة ولده الملك الناصر
علاء الدين علي . وكان يوما مسودا . وحضر السلطان الملك ركن الدين بيبرس الصالحي
بنفسه . ونصب الدهليز بسور الجبل لما عمل عرسه وعمل كلما يتخلو بالاسمطة ممن
البيوتات وحضر السلطان بالخوان وارسل السلطان لـامير قلاوون "ممالى" قمار وخيل
وعشر مماليك . فقبل التقدمة واستعفى من قبول الممالى . وقال هؤلاء خداسيتي في
خدمة السلطان . وتقدم له كل امير من الامراء ثلاثة ارؤس خيل . . . (٢) قمار .

وفي هذه السنة سير الملك الناصر الى دمشق ثلاث تقاليد لثلاث حكام حنفي
ومالكي وحنبلي مضافا لقاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلكان النافعي صاحب وفيات
الاعيان في التاريخ وغيره . كما تقرر الحال بمصر . ومار بدمشق اربع قضاة وهم شمس
الدين عبد الله بن عطا الحنفي وشمس الدين عبد السلام الروارى المالكي وشمس الدين
. . . (٣) بن الشيخ ابي عمرو الحنبلي وشمس الدين احمد بن خلكان . ومن العجايب
اجتماع اربعة قضاة (٤) في بلد واحدة في سنة يلقب كل منهم شمس الدين . واستناب
قاضي القضاة ابن خلكان نائبا لقبه شمس الدين . وعمل الشراء في ذلك اسطارا
حفظها الناس . واستمر بالقاهرة اربع قضاة من كل مذهب قاضي . وكذلك استمر بدمشق
اربع قضاة من كل مذهب قاضي . ولم يزل الامر على ذلك الى يومنا هذا والله اعلم .

وفي هذه السنة ايضا وصل الى الابواب الشريفة رسل الانبرور ورسول ملوك

-
- (١) لا وجود للورقة ٩٥ ، وكان المؤلف ترك صفحة خالية لاجل اضافة تواريخ وفيات اخرين .
(٢) كلمات غير مقرأة .
(٣) بياض في الاصل .
(٤) مكررة في الاصل .

الفرنج ورسل الفئس ورسل اليمن بمراكب موسقه هدايا الى صاحب قلاع الاسماعيلية صحبة
 رسلهم متوجهين الى ناد بهم ومتقربين الى مرضيهم ومبايعي ايد بهم بها على الحياة •
 وما علموا ان يد الله فوق (٩٦ و) ايد بهم • ولما حضروا بهذه الاموال رسم السلطان
 الملك الظاهر باظهار قدره يستمدل بها على فعل القدر واعتماد مصلحة تفسير نواحيهم
 الفاسدة ومقابلة الفاسد بالفاسد من وجوه النظر • وهو انه رسم بأخذ الحقوق من هذه
 الهدايا تعجيزا لمن استكفى شرهم بالعطايا وافهاما للملوك الذين ملا خوفهم قبولهم
 رعا ان وراءهم ملكا يأخذ كل سفينة على هذه الصفة غضبا وانذارا بما كان في عزمه
 من اهتضامهم • فاستخرجت منهم الحقوق وكانت كتب السلطان الملك الظاهر تتوجه
 اليهم بالانكار • وتوعدهم بخراب الديار • ويرد منهم كتاب يتضرعون الى السلطان
 انه اذا عقد مع الفرنج صلحا ان يذكرهم فيه ليفهموا انهم من غلمانه وان له بهم عناية •
 قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : واين هذه الذلة
 من كتابة مقدمهم راشد الدين سنان بن سليمان البصري لما كتب الى صاحب حلب :

يا ذا الذي بقراع السيف هددني	لاقام مصرع جفني حين تصرعه
جا (١) الحمام الى البازي يهدده	واستاسدت بخلو الخيس اصبعه
لاتفرحن لسحت حين تنهبه	فان نفسك بعد الموت تتبعه
وقد مددناك حبالا للحياة مددا	فسوف تعلم يوما حين تقطعه
ومن يسد فم الافعى باصبعه	يكفيه ماستلاقي منه اصبعه

واعجبا من ذبابة تطن على اذن فيل ويعوضة تعد من التماثيل • ولقد قالها
 من قبلك قوم آخرون فد مرنا عليهم ومالهم من ناصرين وقد علمت كنهه وكيفيه رجالنا وما
 يقومون به من ورود حياض الموت وينتظرون من حال وقوع الفوت وانهم يرون الحياة مغرما
 ويعدون الموت مغنما فهي للبلاء اسبابا (٩٦ ق) وتذرع للرزايا جلبابا •

ويقول في كتابه الآخر نحن كالرمح العاصف تمر بهشيم الأرض فلا تؤذي به احتقارا
وتعثر بالجمال الراسيه فتنسفها قوة واقتدارا • وما بغى علينا باغ فقتعنا عليه منه بالنصر
ولا ظلمنا حبة خردل الا كان عوضها بلدا او مصر • ولا خرق لنا سجايا الا رقعناه بعمر
الخارق • ولا مرق من ادب الدعوة احد الا ومرق بهم الفنا في ذلك المارق :

لله في عالمه خانم	تجرى المقادير على نقشه
والبحر زخار له فرشه	فاحذر على نفسك من قرشه
والبغي صراع له صوله	تنكس الجبار عن عرشه
لاتنبش الشر فتبلى به	فقل من مسلم من نبشه
اذا طغى الكبر بشحم الكلى	ادخل رأس الكبر في كرشه •

قال القاضي محي الدين مؤلف سيرة الملك الظاهر : هذا قول سنان وهو
منزق بين حصونه صعدة قد احتلها اعتقد انه يطاعن الافك ومتوق من بأسه
وتأسه بكل ذى نجده يهول بهم على الممالك والاملاك • وذلك عندما رأى ملوك الاسلام
تهولهم الاوهام ويرتاعون يقظه وتستل عليهم سيوفه الاحلام ويعتقدون ان كل يد تمتد
انها اليهم ويحسبون كل صيحة عليهم ضنة بالنفوس ورغبة عن لباس البؤس وسوء ظن
بأقدار الله التي لا محيد عنها واشتغالا بالنكرة في الامور التي فرغ ربك منها • والا
لو شاهد سنان هذا الملك الذى تسبق اعنة خيوله الرياح وتملا جيوشه البطاح وتسمع
اولياؤه بالنفوس مستريحه رضوان الله برضاه والسماح رياح وتقصد القنا طعنا به •
فكم اقتنت من سنان وكم حطمت من رماح لقرع السنندما ولشغل بكلامه عن ان يحير
كلما • ولراعه كما "يريدون" رجا الحرب الزبون ويتداوون مع صحة اذ هانهم في الحروب
من الجنون (٩٧و) بالجنون • ويمتنعون بالوطي الحصين اذا اقتنع غيرهم بعلي الحصون •

ولا جرت تلك الرياح لسانه فلا يقول ولقطع بأن سكاكين قومه الذين يقولون يصل بها
 انها لسهام هذا السلطان تصل ولتيقن ان تلك الدعوة في مملكة من ممالك الدولة ثم
 "مجب" وتلك الرغبة ٠٠٠٠٠ (١) ولوقف موقف الاعتذار ولسال الامان لرجاله الذين
 اكثر بهم الفخار ٠ ولطلب من السيوف الظاهرية الطوال بأيدي اربابها العفوع—
 سكاكين تلك الباطنية القنصار ٠ ولقال عند سماع غوغا الحروب هذه اسود تزأر بالغيل
 لاذبائه تطن بأذن فيل ٠ وملوك تأتي من الملائكة في قبيل لابعوضة تعد من التماثيل ٠
 ولما وصف نفسه واصحابه بأنهم كالريح العاصف التي لاتؤذى الهشيم احتقارا ٠ وتعثر
 بالجمال الراسية فتسففها اقتدارا ٠ ولعلموا انهم ان كانوا ريحا فقد لا قوا اعصارا ٠
 وان من الجبال الراسية مانعثر الرياح بها كما قال اذا عثرت لانقيل لها عثارا ٠ وقد
 انكبهم الرياح العواصف فكيف لاتتألم الحشاشه الحشيشيه من عواصف الرياح ٠ وظنوا
 ان كل جبل كجبالهم المنصوفة ٠ وما علموا ان توقد صواهل الجياد خير من صهوات
 الجبال وخير من التوفي بالصحايف التوفي بالصفاح ٠ فالحمد لله على ان ذخره هذه
 الموهبه لهذه المملكة حتي جرى ماجرى من الخضوع والذلة واحج الى رحمة هذا
 السلطان من كان لا يرحم الملوك قبله ٠

ذكر قصد ملك الفرنج بطرابلس حمص وكسرهم من المسلمين ٠

— قيل ان البرنس بيمند بن بيمند ملك الفرنج بطرابلس جمع واستنصر بالداوية
 والاسنتسار وقصد جهة حمص ٠ وكسان نايب السلطنة بها الامير علم الدين سنجر
 (٩٧ق) الباشقردى قد فهم حركته فاحترز وجعل الطلائع على المخايض فقصد البرنس
 وخاضه بلاله ٠ فسبته الامير علم الدين فيمن عنده من العسكر فملك المخاضة فأتي
 الكافر بخيله ورجلهم فوجد المخاضة قد ملكت فعدل الى غيرها فقويت نفوس المسلمين
 وعدوا الماء اليه وتبعوه ٠ فانهزم وما زالوا خلفه يقتلون وينهبون الى ان توغل

في بلاده ورد طريدا شريدا قد قنع من الغنيمة بالاياب . وكان له امل فخاب .
ورجع المسلمون الى البلد ولم يعدم منهم احد . وكانت هذه الواقعة في ثامن
صفر من هذه السنة .

وفي هذه المدة سير الملك الظاهر الى دمشق بأن تعمل مراكب فعملت
وحملت الى البصرة .

وفيها توجه السلطان الملك الظاهر الى خليج الاسكندرونة لرويته وتقدم
بما يجب من حفره وتصيد في جهة الحمامات ورجع . وقيل في هذه السنة اهتم السلطان
الملك الظاهر بحفر خليج الاسكندرية وسير الامير علم الدين السروري لذلك فتوجه ثم
توجه السلطان بنفسه وتعرض جسم السلطان في الطريق . ولما صلح مزاجه باشر الحفر
بنفسه وعمل الامراء وجميع الناس وازيلت الرملة التي على الساحل بين النقيدي وفم الخليج
ثم عدا (١) ٠٠٠ الى سربايار وغرق مراكب هناك وثنى عليها بالحجارة . ثم رجع الى
القاهرة المحروسة . وجهاز المحمل المبارك وخلع على المتوجه الى الحجاز بذلك وهو
الامير جمال الدين نايب دار العدل وسير عشرة الآف درهم برسم عمارة حرم المدينة
النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام . وسير القمح لجرايات الصناع .

وفي جمادى الاولى من هذه السنة وصل فخر الدين ابن جلبان من البلاد
(٩٨ و) الفرنجية بعد ان خلا جماعة من الاسر بمال الوقف المسير من جهة الامير جمال
الدين النجيب وفرجت به كربات كثيرة لنساء واطفال . وسير الجميع الى دمشق وسلموا
للقاضي لمزوج من توثر منهم التزوج .

وفي هذا الشهر المذكور رسم الملك الظاهر ببناء جسر كبير على الشريعة

وجهاز الأمير جمال الدين ابن بهار الصالح المهندار لبنائه وجهزت له الاصناف من دمشق ورسم السلطان ان يكون الجسر خمس قناطر . وكان ماءؤها قويا تبارها فاقتضت سعادته ان جاء سيل كثير فحدر صخورا كبارا فوقفت جرى الماء وبني الجسر .

وفي هذا الشهر تكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر المطل على سوق الخيل الذي بالابواب وعمل بها دعوة للامراء فعمل القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر صاحب سيرة الملك الظاهر :

ياملك الدنيا الذي اضحى	بعمون الله غالب
يامن به الكفار قد	نهبوا بأنساب النوايب
ياذا الذي لولاه قد	كان البقاء من العجايب
لولا سيوفك لم يكن	بالثأر للاسلام طالب
كم جنه لك ان "لفت"	بعظيم كتبك والكتائب
فتلهفت شوقا واضحت	بالحلول لها تطالب
ورائك قد اعطاك	ربك طول اعمار الكواكب
فاستعجلت واتت بما	تبقي سمودا من مطالب
دار يرف بها النعيم	وتلنقي فيها المسارب
قد صورت فيها الجنود	على الخيول لها العواصب
لتكون في الخلوات ليس ترى	بغير السيف ضارب
في السلم حولك مثلما	في الحرب دونك في المراكب
لامثلما قد صور الاملاك	قبلك من غرائب
كل يصور نفسه	بين الاغاني والمشارب
فبقيت ياملك الزمان	لك العطايا والمواهب (٩٨ق)
ابدا تمتع بالنعيم وما	لملكك من محارب

ذكر تجهيز الملك الظاهر لغزو الفرنج وخروجه الى الشام
وزيارته الخليل عليه السلام والقدس الشريف .

في شهر رجب من هذه السنة اهتم السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيمبرس البندقدار المالحى بأمر الغزاة . وسير الى اعمال الديار المصرية لاجتثاث الجند من اقطاعاتهم . فانفذ تأخر بعض الحند فسير السلطان سلحدارته الى جميع الولايات بالديار المصرية فعلقوا ولاية البلاد بأيديهم ثلاثة ايام تأديبا لكونهم مارسوا الى اجساد الاجناد . وكان في الولاية امراء اسفهم لارية فحضر الجند .

وخرج السلطان في مستهل شعبان من هذه السنة ورحل في ثلثه . ولما وصل نزه جرد الامير جمال الدين ايدقندى العزيزى والامير سيف الدين قلاوون وجماعة من العسكر المنصور فتوجهوا الى العوجا . وتوجه السلطان لزيارة الخليل ابراهيم عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام والقدس الشريف . فوصل الى بلد الخليل فزار الشيخ علي البكاثم دخل الى مقام الخليل ابراهيم عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله وسائر الانبياء والمرسلين افضل الصلاة والسلام . وزار وكشف المظالم وقرئت القصص بين يديه ووقع عليها . ومد السماط الذى للخليل عليه السلام واكل منه واكل الناس والفقراء وفرق جملة من المال على الائمة والقراء والمؤذنين والقوام وغيرهم . وبلغه ان اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى يؤخذ منهم حقوق عن زيارة الخليل عليه السلام والنزول الى المغارة بنجسهم فانكر ذلك وكتب (٩٩٠هـ) مرسوما يمنع النصارى واليهود من دخول المقام الشريف . واستمر الامر على ذلك فجزاه الله خيرا . ثم توجه السلطان الى القدس الشريف فزاره ونصدق بجملة كثيرة ثم اتى الحرم الشريف مستخفيا في نفرين او ثلاثة صلى الجمعة بالقدس . ورحل الى عين جالوت .

هذا ماكان من السلطان • واما ماكان من العساكر المجردة فتوجهوا الى حمص ولم يكن عندهم علم بالحركة الى اى جهة • وكان ماسنذكره ان شاء الله تعالى •

ذكر اغارة العساكر المجردة على طرابلس واعمالها واستيلائهم على قلعتي

حلبا وعرقا وهدمهم •

لما وصلت العساكر المجردة الى حمص كما قدما شرحه ورد الى الامراء كتاب

السلطان الملك الظاهر بالتوجه الى طرابلس وبلادها • فركبوا على غرة من الفرنج خذلهم الله تعالى • فجاسوا خلال الديار وانصبوا في الاودية كالبحار واصبحوا على حصن الاكراد واغاروا الى ساحل البحر من جهة طرابلس ونزلوا على حصن يعرف " بحسد " من عمل حصن الاكراد • فأقاموا عليه يوما واحدا فأخذوه واسروا به جماعة وكان بقلعة حلبا جماعة فهربوا واخلوها ودخل العسكر اليها واستولوا عليها وكسبوا منها شيئا كثيرا من نحاس وصناديق وسكر وغيره • وهذه القلعة تشبه قلعة عجلون حسنة • ولما هرب اهلها ادرك العسكر او اخرهم فقتلوهم واخذوا نساءهم •

ولما شاهد اهل قلعة عرقا ما جرى في حلبا نجوا بأنفسهم وهذه قلعة عرقا تشبه قلعة حمص • ولها من الغلات شئ كثير فتحصل بلدها في السنة من الهلالي والاقصاب والمزروعات شئ كثير • وما زالت العساكر حتى اخرت (٩٩ق) القلعين المذكورين ونزلوا على حصن يعرف بالقليعات وهو حصن عظيم وتسلموه في رابع شهر رمضان بالامان • وهدمت القلعة ايضا وفي عود العساكر نزل الامير سيف الدين قلاون الالفى قريب القليعات وسير في الليل بعض المقدمين ليترقب من يخرج من الفرنج فوجد خمسين نفرا متوجهين من صافيتا الى حصن الاكراد افجيه وجرحه • فأخذ الجميع وقتلوا • واحضرت رؤوسهم وخرج جماعة من الداوية للغارة

على الذين يحشون لذييل العساكر . وكان الأمير سيف الدين قدون قد احتجز ورتب مع الغلمان جماعة من احناد العسكر . فلما خرج الديوية على الغلمان خرج عليهم العسكر وقتل بعضهم واسروا البقية الاخر . وسير صاحب صافيتا حاسوسا فقبر عليه وشنق ووصلت به اقة الامراء المحردين الى السلطان الملك الاهر بانهم وجدوا حيلة ورحلا من الفرنج متوحشين من صافيتا نجده الى حصر الاكراد وانهم قتلوا منهم مقدار خمسين فراه . ويذكرون وصول الفي فارر من العربار وانهم جاهدوا اثم حاد . وخرج الأمير سرت الدين عيسر ابر مننا حرجين . فرسم السلطان انه من عدم له رأس من الحيل يعور عنه رأسين من البقر ورس بتحريد جماعة لحمس وحنة العساكر المحردة الى حدمته والله اعلم .

ذكر تجريد العساكر الى بلاد الفرنج واغارتهم على صور وغيرها

لما وصل السلطان الملك الاهر ركن الدين بيبرس الخالجي به د زيارة القدس الشريف الى جهة عكا حرد الأمير عك الدين البندقدار والأمير عز الدين اوغان الركسي بجماعة من العسكر الى جهة صور فدخلوا الجبال في الليل واتسوا شدة لمعية الاوغار واغاروا (١٠٠) على صور وغنموا كثير من الجمال والبقر والغنم . واسر كمندور مله سيمر ومعه نفران كانوا انحازوا الى بر فأخذوا بالامان واخذ وزير صور وجماعة من الفرنج .

وتوجه الأمير سيف الدين اتامر الى جهة صيدا ورسم لسم السلطان بالحدود الى جهة صفد . وتوجه السلطان الى عكا . وجرد السلطان الأمير بدر الدين الايدمرى والأمير بدر الدين بيسر الى جهة القرر . وتحرد الأمير بدر الدين الحمصي السو جبل عامله فأغارت العساكر من كل جهة وحاصر الامراء القرن واخذت قلعة قريب عكسا وتوالت المكاسب حتى لم يوجد الابقار والجواميس من بشرتها . وعمت الغارة بلاد الفرنج من حدود درابلس الى تريبارسوف . العسكر المتوجه الى درابلس في تلك الجهة والعسكر المتوجه الى صور في جهة والسلطان في جهة عكا والأمير ناصر الدين القيسرى

في عثليث . ووصل كتاب من مقدم الاستاربعكا الى الاتابك بانه يسعى في الصلح وفيه تعرض بما يصل اليهم من عمائر طرابلس وبلد الارمن فكتب اليهم في الجواب بما يجب من تهديدهم وتخويفهم . ثم ان السلطان اهتم بأمر صفد وقصدها كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر بعض خبر صفد ومسير العساكر والسلطان الملك الظاهر

اليها ومحاصرتها .

كانت صفد اولا تلا . وكان على التل قرية عامرة تحت برج البيتيم . وما زالت في ايدي المسلمين الى ان استولوا عليها الفرنج فيما استولوا عليه من البلاد الشاميه فبنوها الفرنج الداوية في سنة خمس وتسعين واربعماية ولم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام (١٠٠ق) وهي قلعة حصينة على جبل تحف به جبال واودية فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شادي بن مروان بعد حصار شديد بالامان في رابع عشر شوال سنة اربع وثمانين وخسمماية . واقطعها وطبرية للامير سعد الدين مبارك بن عميرك . ولم يزل في يده الى ان توفي في سنة ثمان وستماية فانقلت الى ولده فتح الدين احمد فانضم الى خدمة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فقاىضه بصفد وطبرية . ثم ان الملك المعظم اعطى احمد المذكور صفد خاصة خارجا عن طبرية فبقيت في يده الى سنة ست عشرة وستماية . ثم اخذها منه وخربها واخرب القدس الشريف خوفا عليهما من الفرنج وذلك في سنة سبع عشرة وستماية . وبقيت صفد خرابا وبلادها في يد من يملك دمشق لايهتم ببنائها ملك الى ان اعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل المتغلب على دمشق للفرنج فيما اعطاهم من البلاد ليعينوه على محاربة الملك الصالح نجم الدين ايوب صاحب الديار المصرية .

فلما ملكوها الفرنج استدعوا اسرى من المسلمين الذين كانوا في بلاد الفرنج ليعبروا

صفد . وكانوا ألف نفس والفرنج دون المائتين فاجتمع الاسرى وعزموا واتفقوا على اللوثوب بالفرنج ثم انهم فكروا ان لابد لهم من ملجأ يلجأون (١) اليه ويعتمدون في الذب عنهم عليه فكتبوا الى الامير سيف الدين علي بن قليج النورى وهو اذ ذاك في قلعة عجلون من قبل الملك الناصر داود صاحب الكرك ليكتب اليه في ان يأمرهم بالوثوب على الفرنج ويبعث اليهم من يتسلم الحصن . فبعث الامير سيف الدين الى الملك الناصر داود الكتاب . فلما وقف عليه سيره الى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق (١٠١٠هـ) فأرسله الى الفرنج الداوية . فلما اطلعوا عليه اخذوا الاسرى ودخلوا بهم عكا فذبحوهم عن آخرهم فلا جزاء الله خيرا ولا اعظم له اجرا على ما فعله من هذه السيئة العظيمة التي لم يرقم في الصحايف مثلها وعليه وزرها ثم عمروا الفرنج صفد بمساعدة الصالح المذكور لهم . ولم تنزل في ايديهم وهي غصة في حلق الشام والشجا في صدر الاسلام الى ان اهتم السلطان الملك الظاهر بقصدها في هذا العام .

وكان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس رحمه الله تعالى قبل حضوره الى عكا قد رسم للامير علاء الدين ايدكين الشهابي احد امراء الشام ولجماعة من العسكر المنصور بأن يتوجهوا الى بلاد الفرنج ولم يعلمهم الى اين . ثم سير كتابا وامره ان لا يقرأه الا اذا ركب هو والعساكر متوجهين . وكان مضمونه انه يتوجه الى صفد ويتوجه الامير فخر الدين الفايزي الى الشقيف . فسار كل منهما الى جهته واحاط الامير علاء الدين بصفد احاطة حافظ لا مقاتل . ثم جرد السلطان الامير بدر الدين البندقدار فصار والامير عز الدين اوغان فنزلوا عليها واشتدت مضايقتها . واقام السلطان على عكا حتى حضرت العساكر المغيرة على صور وغيرها المقدم ذكرهم . وعمل عدة مجانبق وفرقها على الامراء لمحطوها ثم رحل السلطان والعساكر لابسة وساق الى قريب من باب عكا

ووقف على تل الفضول ثم رحل الى عين جالوت . وكان الامير سيف الدين الزنكي قد توجه لاحضار المجانيق من دمشق فاجتهد في احضارها واهتم بها الامير جمال الدين (١٠١ق) النجيب . وحملت على الرقاب . وسار السلطان الى ان نزل على صفد يوم الاثنين ثامن شهر رمضان المعظم من هذه السنة المذكورة وحاصرها . وفي اثناء حصار صفد حضر رسول مملك صور الى خدمة السلطان فأنكر السلطان عليه لانه كان سيرا اليه يقول له ان اردت امانى فأخرج عنك اعدائي من الفرنج فان اليمين تتضمنه ان تكون عدو وعدوى . وبسبب اعانتهم الفرنج على الاغارة على بانياس وقتل شخص من الرعية . وان هذه الاسباب موجهة نقض العهد . وان رسولكم كان حضر الى عندي في تقرير قواعد الجنوية . وانهم يحضرون في البطش الكبار يقاتلون عكا في البحر وانا وعساكرى في البر وان مملك صور يكون هو والجنوية في البحر على اهل عكا . فحضرت وما حضر احد منهم . فعرف صاحبك ان نقض العهد كان من جهته . وانفصل الرسول على ذلك .

ووصل ايضا رسل العداوية (١) فقال لهم السلطان : بلغني انه لما اغارت العساكر الاسلامية على بلاد طرابلس حميم مواشي الفرنج واستودعتم اموالهم . وكتبكم كانت ترد الي بالشكوى من مجاورة الفرنج وتقولون ما نعطيهم القسطيعة الا لان عساكر السلطان بعيدة والا لو قربت العساكر منا رويننا سكاكيننا من دمائهم . فلما وصلت عساكرى الى بلادكم لدفع الضيم عنكم خسفت وجوهكم معهم باستياداع مواشيهم وليس لهم عسكر تنجد الاسلام . وطلب منهم ارسال نجدة او مال يستخدم به عسكرا او حمل القطيعة التي كانوا يحملونها الى الفرنج . ولعبد مؤمن خير من مشرك .

(١٠٢) ولما توجه رسولهم بهذا الجواب حضر احدهم وهو صاحب جمال الدين . وما سمع قط انه حضر بنفسه فأكرم وشاهد احوال المعسكر . واحضر هدية لطيفة فانكر عليه بسببها . فسأل الاتاك في استعطاف السلطان وزاد الهدايا شيئا كثيرا والتزم بحمل جملة من المال وتوجه لاحضاره .

ورد رسول صاحب بيروت بتقادم فقال له السلطان ان صاحبكم الذي كان متفقا معنا قد هلك وانكر عليهم تعرض كرساليتهم في البحر لمركب الاتاك وغدروا بأهله واخذوه . وانفصل على هذه والحالة ولم يحصل الرضى عن ملكه .

ورد رسل يافا فانكر السلطان عليهم كونهم نصبوا المجانيق على قلعة يافا مع انهم صلح .

ووصل رسل صهيون فانكر السلطان عليهم كون صاحبهم ما حضر بنفسه واحضر نجدة .

واتفق السلطان في المعسكر المنصورة .

وكان السلطان يباشر (١) الحصار والزيارات تتعداه (٢) . واتفق ان الناس تناوشوا القتال . فساق الامير عز الدين خاص ترك الظاهري فوصل الطعن فتقدم الحجارون واخذوا في الثقب ورمى الزقاقون قوارير النفط في الباب فأحترق . وانعم السلطان على خاص ترك الظاهري بعشرة الاف درهم وفرس قيمته نفيسه وجوشن وخلعه .

(١) في الاصل بغير نقط

(٢) في الاصل بغير نقط .

وفى حادى وعشرين شهر رمضان الشهر المذكور وصلت المجانيق واهتم بها السلطان وسير الامير عز الدين امير جندار للقائها وعجزت عنها الجمال . فجهز السلطان الامراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب وهو مرحلة من صفد . وخرج السلطان بنفسه وخواصه وجرا خشاب المجانيق من البقر . قال (١٠٢ ق) القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سير الملك الظاهر : حكى لي الملك المجاهد صاحب الجزيرة قال : جررت مع السلطان حتى نعبت ورحلت استرحت ثم حضرت وجررت زمانا ثم رحت مرارا والسلطان على حاله ما استراح . واستمر عمله في نقل الاخشاب بنفسه وحاشيته وغلما ان البيوت والاسطبلات قرمت في سادس عشرين شهر رمضان . وكان لمقدم الفرنج بيت داخل صفد واعطي السلطان اميره فطلع بنفسه الى اعلى المنجنيق المعرى حتى شاهده وامر المنجنيقه برميهِ فرمى ولازم الركوب والوقوف تحت المجانيق . وصار يخلع ويعطى ويحضر اليه بالاسرى الفرنج من جهة عكا وصور فينعم على من يحضرهم .

ووصلت العساكر المصرية والشامية التي كانت في بلاد طرابلس . ولما تكامل عمورهم نزل كل امير في منزله . وحضر الامراء فقبلوا الارض والسلطان لازم قوسه ومكانه لم يتغير منه . وخرج الامير بدر الدين الايدمرى ليرى هلال شوال فوقع في رأسه حجر . فرسم السلطان بأن لا يجتمع احد لسلام العيد ولا يتزحزح من مكانه خشيه من انتهاز العدو غره من العسكر . ورمى المنجنيق المعرى فسي هذا اليوم فآثر اثارا حسنة ونودى في العسكر من جلب خمر او شر بها شفق .

وفي ثاني شوال من هذه السنة حصل الاهتمام بالزحف . وقرر السلطان ذلك مع الملك المنصور صاحب حماه والامراء الاكابر فتحالل الناس واجتهدوا . وكان قد عمل من التفظ اشياء من السهام المطيه والرمح ففرق ذلك على الزرايين

ووعده الحجارون انه من اخذ اول حجر كان له مائة دينار وكذلك الثاني والثالث الى العشرة (١٠٣ و) وامر حاشيته بان يلزموا مواضع قتالهم ولا يشتغلوا بخدمته وشرع الناس في امر الزحف من العشاء . وكان وصل جماعة من الصلحاء للغزاة ووصل الشيخ الصالح قاضي قضاة الحنابلة بدمشق فحركت الطبلخاناه السلطانية نصف الليل . وركب السلطان وهجم خندق الباشورة فقاتل الفرنج قتالا شديدا وابتلى المؤمنون بلا شديدا واستشهد جماعة من المجاهدين وصار الانسان يرى رفيقه يقتل فيجره ويقف مكانه . وتكاثرت الثقوب ودخل النقبون اليها . واعطاهم السلطان ثلاثماية دينار وصار كل من عمل شيئا جزاء عنه لوقته بخلع تفرق واموال تبدل وهو يشارك الناس فيما هم فيه من قتال ودخول ثقب وزحف ونصب خيمة قريب صناعته . وجعل فيها حكما وجراحيه واحضر اليها المجرحين من الغرباء والحجارين واطلق الاشربة والمأكول للجنود .

وفي ثامن شوال الشهر المذكور خاسفت الفرنج المسلمين في الثقب فوق خسفهم فوق خسف الامير سيف الدين قلاون الالفى فقاتلوهم بالايدي وعمل بعد ذلك جسر على باب القلعة يتوصل منه اليها .

وفي حادى عشر شوال المذكور ركب السلطان ووقف عند المجانيق ثم ساق بمفرده ونزل عن فرسه واخذ ترسا ودخل الى النقب وشاهدها .

وفي ليلة رابع عشره زحف المسلمون اشد زحفا وساء السلطان الى قريب الباب فارتفعت اصوات المسلمين يسألونه ان لا يغرب بنفسه . فرأى النقب وعاد . ولم تنزل الحرب قائمة والسلطان في وسط هذه الامور . وفي وقت القايله رأى الناس قد تعبوا من القتال وتفرق بعضهم فأمر خواصه بالسوق الى الصاوين واقامة (١٠٣ ق) الامراء والجنود فيها بالدبابيس وقال : المسلمون على هذه الصورة وانتم تستريحون فأقيموا

جميعهم ورسم بقبض الامراء وكانوا نيفا واربعين اميرا فقبض عليهم وقيدوا • واحضروا الى
الزرد خاناه ثم بعد ذلك وقعت الشافعة فيهم وامرهم بملازمة مواضعهم • ووسعت
النقوب وشرطت الاسوار فجبن الفرنج وحرقوا الستائر التي كانت على الباشورة ليحموها
من التسليم • فما افادهم ذلك • ولما شاهد السلطان ذلك امر بضرب الطبلخاناه
وهي خمسة وعشرون حملا فقام كل واحد الى جهته فضرب المسلمون سكك الخييل
في سفح الباشورة فما اصبح الصبح الا والسناجق على اسوار الباشورة من كل جهة
واندفع الفرنج الى القلعه وسلموا الباشورة • هذا في يوم الثلاثاء نصف شوال الشهر
المذكور • وفي هذا اليوم اخذت الثقوب في برج اليتيم وغيره من ابراج القلعه وفي
هذه الايام استشهد الشيخ الصالح نبهان وهو يحدد الوضوء في خيمة الامير
بدر الدين الخزندار • وكان ما سذكروه ان شاء الله تعالى •

ذكر تسليم الفرنج صفد وخروجهم بغير امان وقتلهم

لما انقطعت الاسباب بالفرنج بصفد سيروا الى السلطان الملك الظاهر
رسلهم في طلب الامان • فاشتروا عليهم ان لا يستصحبون سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من
الفضيات ولا يردون شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم • فتوجهوا وصار السلطان يعمل
الحيلة ويعطي بعضهم الامانات من المراي ويسير المناديل ويقرر مع جماعة منهم انهم
يفتحون الابواب • فتسامع الفرنج وحصل منهم الخلف (١٠٤و) وحضر خمسة عشر نفرا
من القلعة مقفزين في وقت واحد • فخلع السلطان عليهم • وقالوا الاصحابهم ما حصل
لهم من الخير • وعودى في المعسكر بأن لا يرموا احدا من الفرنج النصارى والمستعريه
غير الديوية • فامسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال وردوا الامان وقالوا ما ندخل
في شرط • ورمى الرسل الخلع والمال المنعم به عليهم من الاسوار • ثم انهم لما

ايقنوا بالهلاك سيروا رسلهم ثاني مرة في يوم الجمعة ثامن عشر شوال الشهر المذكور يطلبون ماكانوا طلبوه اولا . فامنع السلطان عليهم . فأخذ الاتابك مند يل مقدم الجمداريه وهو الامير جمال الدين اقوش القلجي واعطاء لهم على انهم لا يخرجون شيئا مما ذكرناه . فتوجه الرسل . وبعد صلاة الجمعة صاح اهل القلعة . يا مسلمين الامان . وكان في ذلك الوقت قد خطب خطيب دمشق ودعى عقيب خطبه الجمعة للمجاهدين ودعى الناس وكشفت الرؤوس وخشعت الاصوات فاستجاب الله تعالى منهم . وكان صباح الفرنج يطلب الامان في تلك الساعة وما بقي احد يقاتل .

فلما كان وقت العصر فتحت الابواب وطلعت السناجق . وكانت ساعة مشهودة . ووقف السلطان راكبا على باب صفد . ونزل الفرنج اولا فأولا وصاروا جميعهم بين يديه واخرجوا معهم الاسلحة والفضيات واخفوها في قماشهم . وتحديثوا على جماعة من اسرا المسلمين واخذوهم على انهم نصارى . وكذلك صغار المسلمين المأسورين عندهم . فما اخفى الله عز وجل ذلك بل اظهره بأن السلطان رسم بتفتيشهم . فوجد معهم مما ذكرناه مما ينقض الامان لو كان حقيقه (١٠٤ ق) فكيف وما كان اعطاهم السلطان امانا معتبرا فأخذت منهم العدد وانزلوا عن خيولهم لكونهم ماوقوا بالشرط وجعلوا في خيمة محوطين وتسلم المسلمون صفد .

وولي السلطان في القلعة الامير مجد الدين الطوري وجعل فيها نايب

الامير عز الدين العلائي ومقدم العسكر الامير علاء الدين ايدغدي السلاح دار . واصبح السلطان جالسا . وحضر الى خدمته الامراء والمقدمون من عسكر مصر والشام . فشكر اجتهادهم وذكر رضاه عنهم وقال : ربما عتبت على احد منكم وجري مني انكارا وتأديب . وما قصدت بذلك الا حثكم على هذا الفتح العظيم . ومن هذا الوقت

نتحالف . ثم ان السلطان اخبر الامراء ان اسرى صفد خرجوا بغير امان معتبر . وما كان استقر من خروجهم بغير عدة ونقضهم لذلك . وانهم ماكلفوا السلطان يمينا وامرهم بضرب رقابهم . فركبوا واحضرت خيالة الديوية والاستنار وجميع من اخرج من صفد من الفرنج فضربت رقابهم على تل قريب صفد في مكان كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين . ولم يسلم منهم غير نفرين احدهما الرسول بحكم ان السلطان كان شرب قمزا في النقب وخرج اليه هذا الرسول فسقاه منه فعفى السلطان عنه وخيره في التوجه الى قومه . فاختر المقام في خدمة السلطان واسلم على يده واحسن اليه واعطاه اقطاعا وقربه منه واستمر في الخدمة . واما النفر الاخر فأن الاتابك شفع فيه ليخبر الفرنج بما جرى وهو من بيت الاستنار . وكان خرج رسولا فعفى السلطان عنه وفي ذلك مكيدة . فأن هذا الاستناري لما وصل الى عكا استخفى (١٠٥ او) عند الاستنار فطلبه الديوية الذين كانوا اصحاب صفد وقالوا هذا لما خرج رسولا هو وافريرليون ما حلفوا السلطان وعملوا على الفرنج وكادت تقوم بينهم فتنة بسببه . واراد الله عز وجل ان هذا الاستناري جرح في غارة بعد ذلك فقتل بيد العساكر الاسلاميه وابى الله ان يجعل له الى الحياة سبيلا او انه يفر من السيوف الاسلاميه . وانما متعه متاعا قليلا . وكان الاتابك قد سير مع هذا الاستناري كتابا فيه توبيخ لمقدم بيت الاستنار ومن جملته : انا اقول لك هذا السلطان سعيد وانت تغالط وكتبت الى نويه ارسوف ماتبالي بالعسكر . وكذلك قلت عن صفد وقد ظهر لك صدق حديثي هذا ما كان (١) من هؤلاء .

واما ما كان من الملك الظاهر فانه لما قتل الفرنج كما قدمنا شرحه دخل

قلعة صفد وفرق على الامراء من العدد الفرنجي والجواري والممالك ونقلت اليها

الزرد خاناه التي كانت صحبته وصار يحمل فردة حمل الشاب على كتفه الى داخل القلعه فتشبه الناس به فنقلت الزرد خاناه والمنجنيقات اليها في اسرع وقت وطلب لها الرجال من دمشق وتقررت نفقه رجالها في الشهر ثمانين الف درهم واستخدم على جميع بلادها الامراء وعمل بها جامع في القلعه وجامع في الرضخ . ووقف على الشيخ على المجنون نصف ربيع الحباب (١) والربع منها على الشيخ اياس ووقف على قبر خالد بن الوليد قرية منها وركب لعيادة الامير جمال الدين ايدغدي العزيزي وغيره .

وفي سابع عشرين شوال المذكور رحل السلطان من صفد متوجها الى دمشق فثزل بالجسوره وامر بأن العساكر لا تدخل دمشق بل تبقى على حالها لتتوجه الى سيس (١٠٥ق) ودخل دمشق جريده ورسم فتوجه الملك المنصور صاحب حماه مقدما على العساكر الى سيس ووصاه بما يعتمد به وجهزه .

وفي ثالث ذى القعدة من هذه السنة توفي كرمون آغا وفي ثامنه انعم السلطان على امراء دمشق وقضاتها وارباب المناصب بالتشريف . ولما استقر السلطان بدمشق نظر في امر جامعها ومنع من مبيت الفقراء به . وازال صناديقهم التي كانت ضيقت الجامع ووسعه للمصلين . قال الله تعالى في بيوت اذن الله ان يرفع ويذكر فيها اسمه . قال العلماء تغلق فلا تفتح الا اوقات الصلوات .

وفي عاشر ذى القعدة الشهر المذكور جلس الاتابك مع الامير جمال الدين لكشف ظلمات الناس والتوقيع على القصص بدار السعاده . وتوجه السلطان الى عدرا وضمير متصيذا وما احضر احد صيدا الا اخلع عليه السلطان حتى الغلمان والسوقيه وفرغت الخلع فأطلق السلطان لهم دراهم .

وفي ذى القعدة الشهر المذكور جمع السلطان اهل البلاد وطلع الجبل الذي غند جرود وصحبته الامراء وكان يوما شديدا الحرا واشتد العطش فكاد الناس يهلكون فدلهم شخص من الجبل على عين ماء جارية لكنها يسيرة النبع فوق السلطان عندها وصار يسقي الناس بيده . وهذه كرامة وما احقه بقول الشاعر :

والله لولا الخوف منه مهابة امر يزار .

ثم ضرب السلطان حلقات صيد فعمل القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر :

يا ايها الملك الذى	فيه العقول غدت تحار
يا من اليه يفعل ما	يرضى الاله غدا يسار
بالله قل لي هل دم	يجريه سيفك ام يحار (١٠٦)
وهل الخيول لها مسير	تحت سرجك ام مطار
ان السيوف تركتها	لا يستقر لها قرار
عودتها شفق الدماء	فما لها عنها اضطبار
لم يبق في الدنيا فرنج	لا ولا بقيت تنار
فالوحش عن مهج العدى	لما تغانت يستنار
واظنها بك سوف تقفر	من سوانحها القنار
ان الدماء من العدى	والوحش افناها العرار
فاسلم ودم في نعمه	وعز بالك يستجار

وفي شهر رمضان من هذه السنة وصل الى دمشق رجل ادعى انه ولد

الامام المستعصم بالله المسمى المبارك الذي كان عند هلاون ملك التتار وصحبته جماعة من امراء العربان فرسم الامير جمال الدين النجيبى نايب الشام بانزاله في اعز مكان . ولما وصل السلطان الملك الظاهر الى دمشق سير اليه جلال الدين ابن الدوادار والطواشي مختار فمعرفة وظهر انه بخلاف ما اظهر فسيروا الى مصر محتفظا به .

وفي ذى القعدة من هذه السنة وصل شخص آخر اسود ادعى انه من اولاد

الخلافة فسير الى مصر والله اعلم .

ذكر خبر هونين وتبنين من ابتدائهما الى ان استولى

عليهما الملك الظاهر .

هما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمماية من الهجرة . وهما بين
حصن عوف وبين بانياس وصور . فتحهما الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم
الدين ايوب بن شادي بن مروان وانعم بهما على مجد الدين احمد اخي (١٠٦ و)
فخر الدين جرکس ثم استعاديهما منه وانعم بهما على الامير فخر الدين اياس جرکس .
فولى عليهما مملوكا له يقال له صارم الدين قايمار الى ان تسلمهما الملك المعظم عيسى
صاحب دمشق في سنة سبع عشرة وستماية واخر بهما واقطع بهما لآخيه الملك المغيث
محمود واستمرت في يده الى ان توفي وملكهما ولده الى ان توفي في ايام الملك
الاشرف صاحب دمشق فصار اليه وبقي في يده الى ان توفي . فصارا الى الملك
الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق فاعطاهما للفرنج مع ما اعطاهم من الحصون
ولم يزالا بأيديهم الى ان تسلمهما الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في شوال
المبارك سنة اربع وستين هذه السنة ولم يبق لقلعهما اثر غير البلاد .

ذكر بعض خبر الرملة من ابتدائها الى ان استولى عليها الملك الظاهر .

اصل فلسطين فلسطين بعد الفاء واللام سين مهمة ثم تا مشاة من فوقها ثم
يا مشاة من تحتها ثم نون وهي مشتقة من اسما ملوكها الفلسطينيين في زمن اسحق بن
ابراهيم الخليل عليهما وعلى سيدنا وتبيننا محمد رسول الله افضل الصلوة والسلام .
ذكر ذلك المسيحي وقال هشام بن محمد الكلبي : سميت فلسطين بفلسطين بطا مهمة
بدل التا بن كلسوح من بني يافث بن نوح (١٠٠٠) فلسطين بن صدقيا بن عيقا

ابن حام بن نوح عليه وعلى سيدنا ونبينا محمد رسول الله افضل الصلاة والسلام .
وكانت قصبته اولاً لد ولم يزل على هذا الشأن الى ان ولي امير المؤمنين الوليد بن
عبد الملك بن مروان الاموي اخاه سليمان جند فلسطين فنزل لد ثم اخذت مدينة
الرملة ومصرها واختط مسجدها (١٠٧ و) وكاكي في موضعها رمله قبيسي على
المدينة اسمها وصارت القصبه وخربت لد ولم تزل الرملة بل مصرت عامرة الاسواق دارة
الارزاق . ينتابها السفار ويحط بها التجار الى ان جاءها زلزلة في العاشر من جمادى
الاول سنة ستين واربعماية هدمت دورها وشقت سورها وعفت الاثار واطلعت الماء من
الابار واشتقت منها صخرة بيت المقدس والتأمت . فانتقل اكثر اهل الرملة بعد الى
ايليا فعمروها ومروها . ولم تزل الرملة تنتقل في ايدي الولاة ينتقل الجند منذ فتحت
الى ان صارت في ايدي العبيديين ولم تزل في ايديهم الى ان خرج مفرج بن الجراح
على العزيز العبيدي وخلع طاعته في سنة احدى وسبعين وثلاثماية للهجرة وتغلب على
فلسطين وبلادها وقيت في يده الى ان خرج اليه من مصر بلتكين (١) التركي فأخرجه
من الرملة . ولم تزل بعد في ايدي العبيديين الى ان ملكها اتسر التركي في سنة ثلاث
وستين واربعماية فخرج اليه نصير الدولة بعسكر من مصر فاستعادها وقصد دمشق
محاصراً لها فحاصره فيها فاستنجد اتسر بتاج الدولة صاحب حلب حينئذ فسار اليه .
فلما بلغ نصير الدولة مسيره رحل عن دمشق وذلك في سنة احدى وسبعين واربعماية ثم
ان تاج الدولة قتل اتسر ملك دمشق والرملة فخرج عسكر من مصر فاستعاد الرملة فسي
سنة اثنتين وثمانين واربعماية ثم اخذوها الفرنج في سنة احدى وتسعين واربعماية
وقيت في ايديهم ثم ملكها وملك معها لد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
نجم الدين ايوب بن شادي بن مروان في سنة ثلاث وثمانين وخمسماية للهجرة (١٠٧ ق)
ولم تزل في يده الى ان وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين وخمسماية .

(١) في الاصل بدون نقط . وتجاوز ايضاً بلتكين . زامباور . الترجمة العربية ج ١ ص ٤٤٠

فنزل لهم عن بلاد وجعل لد والرمله بينه وبينهم مناصفة ولم تنزل على ذلك ايام العزيز والافضل والعاقل والكامل الى ان ولي ولده الملك العادل فنقضوا هذه المناصفة وتغلبوا عليهما ومقتنا في ايديهم الى ان فتحهما الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي في سنة اربع وستين وستمائة هذه السنة فعمر الرمله وصير لها عملا وولى فيها والله اعلم .

ذكر ماجرى للامير احمد بن حجي وولده مع خصومهما بأمر السلطان

مما يدل على عدله .

بلغ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ان الامير احمد بن حجي وهو اكبر عربان ال مرة . قال القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر مؤلف سيرة الملك الظاهر : وسمعتة يقول انه من نسل البرامكة من اخت الرشيد . وادعى انها كانت زوجة يحيى بكتاب . وانه رزق منها اولادا . فلما جرى هربتهم الى البادية فأخذهم جده وهذا فيه نظر " والذي ذكره بعض اهل التاريخ ان جعفر بن يحيى هو الذي تزوج اخت الرشيد والله اعلم اي ذلك

اعتمد (١) امورا لاترض منها انه خصى بعض التجار وانه نزل على عرادة البلوى فقتله وقتل ولده سليمان ولد اخيه . وطولع السلطان بذلك فأجاب بان هؤلاء في الحجاز يفتصلون وقصد بذلك تطمين الامير احمد بن حجي فأطمأن وكتب السلطان وهو في حصار صفد الى النجيبى نائب السلطنة بدمشق يأمره بالقبر على الامير سليمان بن الامير احمد بن حجي فقبر عليه ووقعت الحوطة على اقطاع الامير احمد . فحضر الى الباب الشريف فأمر بتسليمه لغريمه الذى خصاه فراضاه على ثمانية الاف درهم . وكان السلطان في حصار صفد كما قدمنا شرحه . ولما حضر السلطان الى دمشق وصل وكيل ولد عراده ووكيل ولد عمه فأعتقل الامير احمد وسلم (١٠٨ و) للوكيل ليقتص منه

(١) لعل المقصود ان الامير احمد . هو الذى اعتمد امورا لاترض .

بمقتضى الشرع ونصبت له خشبه على باب دمشق فذكر بسالف خدمة ويكى الاتابك والناس
فاشتراه السلطان بالف دينار من مال السلطان . ثم ادعى على ولد احمد بقتل ولد اخي
عراده فقضى نفسه بالف دينار وتسلم الوكيل المال وهذه معدلقميله وبعد ذلك
احسن السلطان الى الامير احمد والى ولده وافرخ عن اقطاعه .

وفي هذه الايام ابطال الملك الظاهر ضمان الحشيشه ابتغاء ثواب الله تعالى .
وامر بتأديب اكلها . وامر ببناء مكان بجبل المزه للشيخ خضرتوجه الى الشيخ
خضرتواره وشاهد المقاسم التي عمرت في دولته وهي احسن مما عمر في زمن الروم .
وحضر الى الباب الشريف رسول الاسبتار وسال استقرار الصلح على بلادهم
من جهة حمص وبلاد الدعوة فقال السلطان : ما اجيكم الى هذا الا بشرط ابطال
مالك من القطايع على مملكه حماه وهي اربعة الاف دينار ومالك من القطيعه على بلاد
بوقبيس وهي ثمان مائة دينار ، وقطيعتكم على بلاد الدعوة وهي الف ومائتا دينار ومائة
مدى حنطه وشعير نصفين . فأجابوا الى ابطال ذلك جميعه وكتب الهدنة وشرط
فيها الفسخ للسلطان متى اراد ويعلمهم قبل بمدة .

وكان السلطان قد احسن الى الجبلية مدة اقامته بالساحل بالخلع والمناشير
فصاروا يأخذون الفرنج من كل جهة في مدة اقامة السلطان بالساحل .

وفي نصف شهر رمضان ورد كتاب الامير جمال الدين النجيبى نايب الشام الى
السلطان متضمنا ورود كتاب الجاكي والي بعليك بأن مقدمي بلد جبيل جمعوا
وجاسوا بلاد جبيل ووصلوا الى حصن على نهر ابراهيم .